…زء

…ير
…الكريم

١-٥

297.
H23
v.1-5

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

297.207:H23tA V.1 - 5

حمزه ، محمود محمد .

تفسير القرآن الكريم .

297.207
H23tA
V. 1-5

JUL 68

JAFET LIB.
AUG 1976

Lib.
21 NOV 1983

JAFET LIB.
23 JUL 1980

1 Oct 68

J. LIB.
2 MAR 1981

J. LIB.
18 MAR 1981

297.207
H23tA
v.1-5
c.1

تفسير القرآن الكريم

الجزء الأول

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
مراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

هذا القرآن هو السجلّ الخالدُ لدين المسلمين ، وكتابُ الله الذى يحكم بينهم بالحقّ فى كلّ عهد ، وكلّ زمان ، فيهديهم إلى الطريق المستقيم ، ويأتيهم بالبينة إذا ما وقع بينهم حدَثٌ ، أو أشكل عليهمُ أمر ، أو ألمتْ نازلةٌ ، فيخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويُميزُ الخبيثَ من الطيب ، وينصر الحقّ على الباطل « إنّ هذا القرآنَ يهدى للتى هى أقوَمُ ، ويُبشرُ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً » .

هذا القرآنُ مُعجزٌ لأنه من عند الله ، وليس فى مقدور مخلوق أن يحاكيه أو يدانيه ، مُعجزٌ بأحكامه وحكمه ، وأسلوبه ونظمه ، معجز لأنه يُفحمُ المعاندين ، ويقنع المؤمنين ، وينبهُ الغافلين ، ويَهدى الضّالّين ، ضمّتْ دفتاه ما اندثر فى ضمير الزمن من أنباء الأمم وآثارهم ، فى قصص طوال ، أو جمل قصار ، فيها ذكريات وعبرةٌ ، ودراسةٌ وخبرةٌ « ألمْ ترَ كيفَ فعلَ ربكَ بعاد ، إرَمَ ذات العماد ، التى لم يخلقْ مثلها فى البلاد ، وثمودَ الذينَ جابوا الصّخرَ بالواد ، وفرْعونَ ذى الأوتاد ، الذينَ طغوْا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفسادَ ، فصَبّ عليهم ربكَ سوْطَ عذاب ، إنّ ربّكَ لبالمرْصَاد » .

قصص أربع ، فى سطور أربع ، حوت أخباراً وآثاراً ، ومثلتْ ظلماً وطغياناً ، ونبأتْ بغضب الله على المفسدين الظالمين ، وانصباب عذابه على الطغاة الجبارينَ .

وهذا القرآن له على نفس كلّ مسلم إشراق ، وله فى قلب كل مؤمن هدى ونور ، ولكل إنسان فيه بيانٌ وحجةٌ ، وموعظةٌ حسنةٌ ، سواءٌ فى ذلك الأمىّ والقارئ ، والجاهل والمتعلم .

أما الأمىّ فيقشعرّ منه بدنهُ خوفاً وخشيةً ، ويطمئن به قلبه يقيناً وإيماناً ،

ويدرك وهو يسمعه — على قلة حظه من الإدراك والمعرفة — مَا رُسم َ فيه من آداب وشرائعَ وأحكام .

ويتلوه القارئ — ومجرّدُ القراءة هو كلّ ما أوتى من ثقافة — فيقف دون مشقة أو جهد على أنباء السابقين ، وحدود الدين ، ويعرف ما رسم من نظم اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ومدنية ، وعمرانية وكونية .

ويدرسه المتعلمُ العالمُ ، والمتأملُ المتعمقُ ، والباحث المستبحر ، فيعثر كلما أمعن فى الدراسة والتأمل ، والبحث والتعمق ، على جديد من العلوم ، وبديع من النظم ، وينكشف له عن سرّ من أسرار الكون ، يُوقنُ عنده أن هذا القرآنَ — لا ريب — تنزيلُ العزيز الحكيم ، وهذا الكونُ — لا شك — صنعُ العلى العظيم .

هذا القرآنُ يُحسّ من يتلوه باللسان ، أو يسمعه بالأذن ، أو يُعملُ فيه العقلَ والفكرَ ، أو يفرغ إليه الفؤاد والقلب ، أن اللسانَ يذوق منه عذوبةً وحلاوةً ، والأذنَ تتلقّى منه نغماً بديعاً غريباً ، والعقل يمضى فيه من حجة إلى حجة ، وينتقلُ من بيّنة إلى بيّنة ، وكل ما يعرضُ له من حجة وبيّنة معقولٌ ومقبولٌ ، لكنه لا ينتهى إلى نهاية ، ولا يقف عند غاية ، فكل يوم يكشف العقلُ منه عجيباً ، ويعرف منه جديداً . هذا القرآن ليس كمثله كلام البشر ، مهما كان كلام البشر عذوبةً فى اللسان ، ووقعاً فى الآذان ، وحِكمهُ يقصر العقلُ عن أن يستوعبَ كنهها ، أو يحدّ محيطها .

هذا كله شىء من عظمة القرآن ، وسر من أسرار إعجازه . « لاَ يأتيه الباطلُ من بَين يَديه وَلا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد » .

من أجل هذا عزّ على الدارسين أن يستوعبوا القرآن درساً وبحثاً ، وأن يبلغوا منه غايةً أو نهايةً ، لأنّ الدرس والبحث من أدوات الناس ، وهما فى عجز — لا شك — عن الإحاطة كلّ الإحاطة بكلام الله ، والعلم كلّ العلم بكتاب الله .

ومن أجل هذا يتقادم الزمن ، ويتجدد القرآن ، ويضلّ الرأى ، ويهدى القرآن ؛ ويكشف العلم ، ويؤيد القرآن ؛ ويضع الناس الشرائع والقوانين لتنظيم الحياة ، وضمان الحقوق ، فلا يلبث أن يتكشف لهم اضطراب الحياة ، وضياع الحقوق ، فى ظل ما وضعوا من شرائع ، وما سنوا من قوانين ، فيغيرون ويبدلون ، إلا أن يكونَ من وَحى القرآن .

وكتاب الله شرع للناس دينا لو أخذوا به ما ضلوا ، بل ما خسروا الدنيا والآخرة ، دين صالح لكل زمان ومكان — سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإن ما بيّنّاه فى شأن كتاب الله هو ما كان يعتلج فى نفوسنا ، وما جرّ إليه حديثنا ، حينما عقد المجلس بين ثلاثتنا ، فاتفق الرأىُ على أن الحياة مسرعة ، حتى أوفت بنا على الشيخوخة أو كادت ، دون أن نحدثَ فى الحياة ذكراً ، أو نقدم للناس خيراً ، أو ندخر عند الله أجراً . ولو كنا من ذوى المال لأنفقنا منه فى سبيل الله ، وقدّمنا منه عند الله خيراً لأنفسنا ؛ ولو كنا من ذوى الجاه والسلطان لجعلنا هذا الجاه ، وذاك السلطان ، لله وفى سبيل الله . ولكن ما الحيلة ؟ ! لا مال ولا سلطان ندّخر منهما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى . فليكن زادُ الدارين ، وذخر الحياتين ، تفسير القرآن .

ولقد رأينا ونحن نحدد المَنهج المرغوب ، ونقيم معالم الطريق السوىّ للتفسير — أن نرجع — أولا إلى المفسرين السابقين والمعاصرين ، فنقف على ما قالوا ، وما فهموا ، وما رأوا ؛ ونعودَ إلى خاصّة قولنا ، وفهمنا ، ورأينا ؛ ثم نُحكّمَ بيننا وبينهما ما استجد فى العلم ، وما تكشف من أسرار الكون ، وما تقضى به العادة والعرف وسنن الحياة ، فتؤيد ما نثبت من قول ، وفهم ، ورأى .

ولقد رأينا أن نعرض المقصود أولا من معانى الكلمات والعبارات والجمل عرضاً مجملا ، لنخفف على من يبتغى مجرد التلاوة مئونةَ الاطلاع على المعانى المبسوطة ، والأحكام المفصلة ، والحكم المبينة ؛ ثم نشرح الآيات شرحاً بين القصد والتفصيل ، والإيجاز والتطويل ، حتى لا يستغلق ولا يُمل ، متجنبين

التعمق الذى يكد الذهن ، مراعين الوضوح الذى يلم بكل الدقائق والإشارات ، والمرامى والغايات .

وقد كان من دأبنا الأخذ بسنة التيسير فى التعبير ، وفى بيان الحدود والفرائض والأحكام ؛ وتلك سنة العزيز الحكيم « يُريدُ اللهُ بكم اليسر ولا يُريدُ بكم العسرَ — وَما جَعلَ عليكمْ فى الدّين منْ حرَجٍ » .

وتلك السنة أيضاً هى وصية نبيّنا لنا ، فإنه هو الذى يقول : « يسرُوا وَلا تُعسرُوا » .

وقد اجتمع الرأىُ على أن نحرصَ على بيان أسباب النزول فى أسلوب من القصة ، وعرض للأحداث والملابسات التى سبقت نزول الآيات ، فإن ذلك يعين كثيراً على فهم القرآن ، والتمكن من إدراك معانيه ، ومعرفة أحكامه ؛ ويربط بين التاريخ والتشريع ، ويميط اللثام عن عادات الناس وأحوالهم ، وأخلاقهم وطباعهم ؛ ولقد صح فى اعتقادنا أن معرفة أسباب النزول هى من أهم ما يعين على فهم القرآن فهماً صحيحاً .

ومن غايتنا فى هذا التفسير أن نشير إلى الأحداث والنظم والأخلاق والعادات التى جرتْ وتجرى بين الناس فى هذا الزمان ، والتى ينطق كتاب الله بأسبابها ، وغاياتها ، وخيرها ، وشرها ؛ حتى يرجع المسلمون إلى كتابهم كلما ألمّ حدثٌ ، أو أشكل أمر ، فيهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .

ولسنا نزعم أننا حققنا ما أردنا ، ولكن ما بيّناه كان غايتنا ، فإن وُفقنا فلله الحمد ، ودعاؤنا إليه — جلّ وعلا — أن يهب التوفيقَ لكل من يعزّ دينه ، ويخدُمُ كتابه ؛ هذه سبيلى أدْعو إلى الله على بَصيرة أنا ومن اتبعنى ، والحمد لله ربّ العالمين .

غرة ذى الحجة ١٣٧٢ هـ
١١ من أغسطس ١٩٥٣ م

المؤلفون

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الضَّالِّينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الحمدُ لله	الشكرُ له والثناءُ عليه .
رب العالمَين	السيد المربّى ، القائم بشئون جميع المخلوقات .
الرحمن الرحيم	المتصف بالرأفة والعطف ، المنعم بجميع النعم : صغيرها وكبيرها .
مالك يوم الدين	المنفرد وحده بالتصرف فى شئون الخلق يوم القيامة ، ليجازى كل إنسان على عمله ، والدين : الجزاء والحساب .
إياك نعبد	نخصك بالعبادة .
وإياك نستعين	لا نلجأ فى حاجاتنا إلا إليك .
اهدنا الصراطَ المستقيم	عرّفنا الطريقَ المعتدلَ ، وهو دينُ الإسلام .
أنعمتَ عليهم	منحتهم من نعمكَ ما عرّفوا به الدينَ الحق .

الألفاظ	شرحها
غير المغضوب عليهم	غير الذين خرَجوا عن الحق بعد علمهم به ، فاستحقوا غضبك .
الضالين	الذين يضلونَ عن سبيل الله ، ويحاولون أن يغيِّروا دينه أو يبدلوه ، أو يحرفوه عما وضع له .

بسم الله الرحمن الرحيم

تُفتتَح جميعُ سوَرِ القرآن الكريم بالبسملة — ما عدا سورة التوبة — كما سيأتي — تيمُّناً باسم الله مَصدر الإنعام والبركة ، وتنبيهاً للناس أن هذه السورةَ أنزلها اللهُ برحمته وفضله لهداية خلقه ، كذلك تُذكر طاعةً لأمره جل شأنه ، فقد أمرَنا بذكر اسمه فى مُناسبات كثيرة ، كقوله : واذكر اسمَ ربكَ بُكرَةً وأصيلاً ، وقوْله : ولا تَأكلوا مما لمْ يُذْكر اسْمُ الله عليه ، وقوله : واذكرْ ربكَ إذا نسيتَ ؛ ويكونُ المرادُ : أبتدىء وأتيمن فى قراءتى أو عملى باسم الله الرحمن الرحيم ، مُستمداً العوْنَ والقوّةَ منه وَحدَه .

مُجْمَلُ المعْنَى

١ — الثناءُ والشكر لله وحده ، الذى يدبرُ أمر المخلوقات ، ويربّى عالمَ الإنسان والحيوان والنبات فى الدنيا ، بالحياة والغذاء والتناسل ، فيمنحها من نعمه ما يحفظ بقاءَها ، إحساناً منه ورحمة ، وهو وَحده صاحبُ السلطان والقوّة والتدبير يومَ القيامة ، يومَ لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمرُ يومئذ لله ، يومَ يحاسبُ كلَّ إنسانٍ على عمله ، إنْ خيراً فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌ .

٢ ـ أنتَ يا ربنا المستحقّ لأنْ نخصَّك بالعبادة، فنطيعك ونخضعَ لك، باتباع ما أمرتنا به، وتجنُّب ما نُهيتنا عنه، لأننا عبيدك الخاضعون لمشيئتك، كما أنك المستحقّ وحدك لأنْ نستعينك على جلب الخير لنا، ودفع الضرّ عنا، فلا نلجأ إلا إليكَ، ولا نطلب المعونةَ إلا منكَ، ولا نتوسلُ إليك بشفعاء فى تيسير أمورنا، وشفاء مرضَانا، وقضاء حاجاتنا، لأنك أقربُ إلينا من حبل الوريد.

٣ ـ فدُلَّنا أيها الألهُ القادرُ على طريق الخير دلالةً تحفظنا من الضَّلال والخطأ، ووفقنا إلى السير فيه، وهو الطريقُ المعتدلُ الذى لا ينحرفُ عن الجادَّة، ولا يميل عن الغاية، الطريقُ الموصّل إلى الحق والهدى، طريقُ أهل الإيمان والصّلاح من عبادك الذين أنعمتَ عليهم من النبيِّين والصِّدّيقين والشهداء والصالحين، وأبعدنا عن طريق من غضبتَ عليهم من الكفار، ممن حادوا عن سبيل الحقّ بعد علمهم به، أبعدنا عن طريق من ضَلوا عن سبيلك، وانحرفوا عن شرائعك، سواءٌ أكان ذلك عَمداً وعناداً، أم غَواية وضلالا، محاولين أن يغيّرُوا دينك الحقّ أو يبدلوه، أو يحرّفوه عما وُضعَ لهُ.

سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

الٓمٓ . ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ،
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ
لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ،
وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الٓمٓ	ثلاثة أحرف من أحرف الهجاء سيأتى بيانها .
الكتابُ	القرآن .
لا ريب	لا شك .

الألفاظ	شرحها
فيه هدى للمتقين	فيه هداية لمن يجعلون أعمالهم الصالحة، وقاية لهم من غضب الله .
يؤمنون بالغيب	يصدقون بما لم يدركه حسهم مما أخبر به الرسول
ويقيمونَ الصلاة	ويؤدون الصلاة حق الأداء .
ومما رزقناهم يُنفقون	ومما أعطيناهم من الرزق يبذلون .
بما أنزلَ إليك	أوحيَ إليك ، كالقرآن الذى أنزله اللهُ عليك .
وما أنزل من قبلك	وبالكتب المنزلة على مَنْ قبلكَ من الأنبياء ، كالتوراة والإنجيل .
وبالآخرة	وبالدار الآخرة يومَ القيامة .
يُوقنون	يعتقدون اعتقاداً جازماً .
المفلحون	الناجون يومَ القيامة .
سواءٌ عليهم	الأمران مستويان بالنسبة إليهم .
أأنذرتهم	أخوفتهم عذابَ الله يومَ القيامة .
خَتمَ اللهُ على قلوبهم وعلى سمْعهم	منعها أن تتفتح لتدرك الحق ، لما جبلت عليه من العناد والمكابرة .
وعلى أبصارهم غشاوةٌ	وعلى أبصارهم غطاء كالعصابة .
عذابٌ عظيم	عذاب شديد جدا ، يعظم إيلامه .

مجمل المعنى

١ — بدأ الله سورةَ البقرة — وهى السورةُ التى تلى فاتحةَ الكتاب — بثلاثة أحرف من حروف الهجاء ، تحدياً للعرب بالقرآن الكريم ، فهى تشير إلى أنّ كلامَ الله لا يعدو أن يكونَ مؤلفاً من حروف الهجاء التى

يتكلمُ بها العرب ، ومنظوماً مما ينظمونَ به أقوالهم فى شعرهم ونثرهم ، مثل الألف واللام والميم ؛ والمعاندون قادرون على أن يؤلفوا كلاماً مركباً من حروف الهجاء ، ولكنهم عاجزون عن صَوغه فى أسلوب مثل أسلوب القرآن ، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا — مع فصاحتهم وشدة عارضتهم — عن الإتيان بمثله أو بما يدانيه ، وليكونَ هذا التحدى أولَ ما يقرعُ الأسماع ، ومستقلا بنوع من الإعجاز ؛ وقد دلَّ الإحصاء على أن الحروف التى وقعتْ فى فواتح السوَر من هذا الطراز أربعة عشر حرفاً ، هى نصف حروف الهجاء ، ليقاسَ ما عداها عليها ، كأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول : الحروف التى تألف منها هذا الكتابُ من جنس ما تؤلفونَ فى كلامكم أيها المعاندون ، وأنتم أولو اللسن وأئمةُ الفصاحة ، فأتوا بمثل ما أتيتُ به فى هذا الكتاب فى قوةّ فصاحته ، وعلوّ بلاغته ، ولذلك عقَّبَ قوله : « الم » بقوله : « ذلك الكتابُ » ، أى أن ذلك الكتابَ تألف من هذه الأحرف ونحوها ، والعجيبُ أننا نلاحظ أن الألفاظَ التى تألفتْ من هذه الحروف الأربعةَ عشر فى فواتح السور ، نهجت منهج ما نطق به العرب فى كلامهم ، فإن الكلمات المجردة من الزوائد لا تتجاوزُ خمسةَ أحرف مثل سفرجل ، وكذلك هذه الألفاظ مثل كهيعص .

٢ — وما دمتم أيها المكابرون قد ثبتَ عجزكم ، وظهر إخفاقكم ، فاعلموا أن أن هذا القرآن الذى بلغ أقصى درجات الفصاحة ، ومراتب البلاغة ، هو كتابٌ أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بلا شكّ ، فيه هدايةٌ لمن اتقوا اللهَ ، وهمُ الذين يجعلون أعمالهم الصالحة ، بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، وقاية لهم من عذابه يوم القيامة .

٣ — هؤلاء المتقونَ هم الذينَ يصدقون تصديقاً جازماً بما أخبرهم به اللهُ ، ولم يدركه حسّهم من السمعيات ، كالبعث والحساب ، والجنة والنار ،

وقلوبهم مطمئنةٌ بما آمنوا به ، ويؤدون الصلاةَ وسننها حقَّ الأداء بلا فتور ولا توان ، معَ المواظبة عليها ، وينفقون عنْ طواعية واختيار ، طاعةً لله مما أعطاهم من العلم والجاه والرزق الحلال ، على الأهل وذوى القربى والمحتاجين ، ابتغاء وجه الله ، لا ابتغاءَ شُهرة ، وهوًى مستتر ، وهم الذين يصدقون بما أنزلَ عليك من القرآن ، وبما أنزل على الأنبياء من قبلك ، كالتوراة التى أنزلت على موسى ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى ، ويوقنون إيقاناً لا يلحقه شكٌ ، ولا يعتريه رَيبٌ ، بيوم القيامة ، حيثُ الجزاءُ والحساب على الأعمال ، وليس المراد بالإنزال النقلَ من مكان عال إلى ما دونه ، وإنما المراد الإنزالُ المعنوى من المقام الإلهى الأسمى ، إلى أحد عباده المصطفينَ من الأنبياء ؛ وأكدَ اللهُ الإيقانَ بالآخرة بقوله : هم ، لبيان أن الإيمانَ بيوم الآخرة هو خاصّة من خواصّ من آمنوا بالكتب المنزلة ، لا يشاركهم فيها سواهم .

٤ — هؤلاء الموصُوفون بما سبق ذكره ، هم المتمكنونَ من الهداية تمكنَ المستقرّ على شىء يعتليه ، وهمُ الفائزون بالجنة يومَ القيامة ، المستمتعون بنعيمها الدائم .

٥ — وبعد أن ذكر اللهُ خاصّة عباده ، وخلاصة أوليائه ، وَوَصفهم بالصّفات التى جعلتهم أهلاً للهدى والفلاح ، عقبهم بأضدادهم العتاة الكفار المتمردين ، الذين لا ينفع فيهم تبشير ولا إنذار ، لانهماكهم فى الضّلال ، وتماديهم فى العصْيان ، كأبى جهل وأبى لهب والوليد بن المغيرة ، فبيّن أن هؤلاء قد طبعوا على الكفر ، ورسختْ فيه أقدامهم ، فسواءٌ عليهم إنذار النبىّ إياهم بما ينالهم من العذاب يومَ القيامة ، وعدمُ إنذاره ، لأنهم جاحدون مكابرون ، يعرفون الحقّ وينكرونه عناداً واستكباراً ، لفساد طبعهم ، وخبث طويتهم ، وكيف ينشرح صدرهم للإسلام وقد تمكن

الكفرُ من قلوبهم ، فأصبحت غيرَ مستعدة لقبول الحقّ ، كأنها قد أغلقتْ ، ووضعَ عليها خاتمٌ ، فلا ينفذُ الحقّ إليها ؟ وكيف يستمعون إلى الدعوة إلى الهدى ، وقد أصموا آذانهم عن سماعها ، وأعرضوا عن الإصْغاء إليها ؟ وكيف يرَوْنَ آثارَ قدرة الله وقد نأوْا بأبصارهم عنها ، كأن عليها غطاءً يحولُ دون التطلعّ إليها ؟ وليس المرادُ بهذا أن المولى جلّ شأنه صدّهمْ عن الإيمان قهراً ، وإنما هو تمثيلٌ لهؤلاء الكفار ، فى أن الكفرَ قد استحوذَ عليهم ، فسدّ على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم منافذَ الحق ، فلا ختمَ ولا تغشية ، بل الغرضُ أن يحدثَ فى نفوسهم ما يحببُ الكفرَ والمعاصى إليهم ، ويبغض الإيمان والطاعات إليهم ، لغيهم وعنادهم ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ، فتكون قلوبهم وأسماعهم كالكتاب الذى أغلقَ وختمَ عليه بخاتمَ ، ولا تجتلى أبصارُهم آثارَ قدرة الله كما يجتليها المبصرون ، وهؤلاء الكفارُ لهم عذابٌ يومَ القيامة بالغٌ فى العظم .

(٢)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ، وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ، وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ

حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

شَرْحُ الْأَلْفَاظ

الألفاظ	شرحها
يخادعون الله	يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء ، ويقدرون فى أنفسهم أنهم يخدعون الله .
وما يَخدعونَ إلا أنفسهم	لا تحل عاقبة الخداع إلا بهم .
وما يَشعرُون	ولا يحسون أن وَبال خداعهم راجعٌ عليهم .
فى قُلوبهم مَرَضٌ	فى قلوبهم شَكٌ ونفاقٌ ، وَجحد وتكذيب ، يمنعها من التوفيق إلى الإيمان .
فزادَهم اللهُ مَرَضاً	زادهم غَمّاً وحزنا ، جزاءٌ لهم على كفرهم .
عَذابٌ أليم	عذابٌ مؤلم موجعٌ فى الدنيا .
بما كانوا يَكذبون	بتكذيبهم آيات الله ورُسله .
لا تُفسدوا فى الأرض	لا تثيروا الفتن بخداع المؤمنين ومُمالأة الكفار .
إنما نحن مصلحون	إنما نحن بعيدون عن شوائب الفساد .
كما آمنَ الناس	كما آمن غيركم من أصحاب الرسول .
السفهاءُ	الجهلاء الضعفاء الرأى .

الألفاظ	شرحها
خلوْا إلى شياطينهم	انفردوا برؤسائهم ، ومَنْ يماثلونهم فى النفاق .
إنا معكم	إنا باقون على ديننا وعقيدتنا معكم .
نحن مستهزئون	نحن نسخر بالمؤمنين بإظهار الإيمان .
اللهُ يستهزئُ بهم	اللهُ يجازيهم على استهزائهم يومَ القيامة .
يمدُّهمْ فى طُغيانهم	يمهلهم فى تجاوزهم الحد فى الكفر .
يعمهون	يتحيرون فى أمورهم ، ويتمادوْنَ فى كفرهم ، ليزدادوا إثماً .
اشتروُا الضلالة بالهدى	اختاروا الضلالةَ واستحبوها على الهدى .
فما ربحتْ تجارتهم	فقد باءتْ تجارتهم بالبوار والخسران .
وما كانوا مُهتدين	ما عرفوا كيفَ يهتدون إلى التجارة الرابحة باتباع الهدى .
مثلهم	نظيرهم وشبيههم .
استوْقدَ ناراً	أوْقدَ ناراً .
أضاءتْ ما حوْلهُ	أنارتْ ما حوله ، فأبصرَ واستدفأ وأمنَ .
ذهبَ الله بنورهم	أطفأ اللهُ نورهم .
صمٌّ	لما سدوا آذانهم عن سماع الحق صاروا كالصمّ
بُكمٌ	لما أبوْا أن يعترفوا بصحة دعوة الرسول صارُوا كالخرْس .
عُميٌ	لما أعرضُوا عن رؤية آثار قدرة الله صاروا كالعمى
لا يرْجعون	لا يرْجعون عن ضلالهم .
أو كصيِّب	وكمثل ذوى صيِّب وهو المطر . وأوْ بمعنى الواو .
يجعلون	يجعلُ ذوو الصيِّب .

الألفاظ	شرحها
حذرَ الموت	خوْفَ الموْت .
مُحيطٌ بالكافرين	محيط علمه بالكافرين .
يَخطفُ أبصارهم	يسلبُ منهم أبصارهم بسرعة .
مشوا فيه	ساروا فى ضوئه .
قامُوا	وَقفوا .

انتقل القرآن الكريم إلى طائفة أخرى أشدّ خطراً على المؤمنين من طائفة الكفار، همُ المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلامَ ، لأن عداوةَ الكفار عداوةٌ سافرةٌ، يمكنُ اتخاذُ الأهبة لها ، ودفعُ عدوانها ، أما العداوة الخفية فهى موطنُ الخطر، ومصْدرُ الدسائس والسعايات، إذْ أن أهلها يختلطون بالمؤمنين، ويتظاهرون لهم بالصّداقة والولاء ، فإذا فارقوهم كانوا لهم أعداءً، وأعلنوا ما تنطوى عليه نفوسهم الخبيثة من الحقد والبغضاء .

مُجْمَلُ المعنى

١ — بعد أن افتتح اللهُ هذه السورةَ بوصْف المؤمنين ، وعقّب بشرح حال الكفار الجاحدين، بيّن حالةَ طائفة أخرى هى طائفةُ المنافقين، فأخبر رسوله المصطفى أن من الناس طائفةً آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، كعبد الله بن أبىّ وأصحابه ، فهم مذبذبون بين الطائفتين ، وهم أخبث الكفار وأبغضهُم إلى الله ، ولذلك أنزلهم فى النار شر منزل ، فقال : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ، هؤلاء المنافقون يظهرون للمؤمنين أنهم مصَدقون بالله وبيوم القيامة ، كما يصدق المؤمنون ، للتضليل والتمويه ، ولكنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ، فهم ماكرون

خادعون لفرط جهلهم، وقلة عقولهم ، يقدّرون فى أنفسهم أنهم يستطيعون خداعَ الله ورسوله بمظاهرهم ،وأن خداعهم سيبقى مستتراً، ولكنهم فى الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم، من غير أن يحسوا ذلك لحمقهم وغفلتهم ، لأن المكر السيئ لا يحيقُ إلا بأهله ، فهم يفتضحون فى الدنيا بإبلاغ الله رسوله أمرَهم ، ثم يعاقبون فى الآخرة على سوء فعلهم .

٢ — هؤلاء المنافقونَ همْ فى الحقيقة مرضى بما أصابهم من الأعراض النفسانية ، وبما اعتراهم من اختلال أمزجتهم ، لما فقدوه من رياسة كانتْ لهم فى المدينة ، ولما خامر عقولهم من نفاق وجهل ، وارتياب وشكّ ، وحقد وحسد ، على ما يرَوْنَ من انتشار دعوة الرسول وعلوّ شأنه يوماً فيوماً ، فاشتغلوا بتثبيط الدعوة عن أن يتذوقوا حلاوةَ الإيمان ،وقد زادهمُ اللهُ غمّاً إلى غمّ ، وحزناً إلى حزن ، بما زاد فى نشر دينه ، وذيوع أمره ، وتوالى نصر رسوله ، ثم أعد لهم يوم القيامة عذاباً وجيعاً ، جزاء لهم على كيدهم ، وفساد عقيدتهم .

٣ — وإذا قيل لهؤلاء المنافقين على سبيل النصْح : لا تفسدوا فى الأرض بإثارَة الفتن ، وممالأة الكفار على المسلمين ، والتعويق عن الإيمان ، قالوا : إننا لا نبغى إلا الإصلاح ، وإننا بعيدون عن شوائب الفساد ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكنهم لحماقتهم لا يحسون أن وَبال الإفساد عائد إليهم ، بافتضاح أمرهم فى الدنيا ، وعذابهم فى الآخرة ، وإذا قيل لهم : آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً ، كإيمان غيركم ، ممن كانوا من أماثل إخوانكم ، كعبد الله بن سلَام وأصحابه ، على أن يكون هذا الإيمانُ مقروناً بالإخلاص ، خالصاً من شوائب النفاق ، قالوا : أنفعلُ كما يفعلُ الجهال ، الضعيفو الرأى ، ممن دفعهم طيشهم ، وخفةُ عقولهم إلى الإيمان ، ألا إنهم وحدهم هم الجديرون أن يوصَموا بوصْمة السفه والطيش ، ولكنهم لا يعلمون أن السفه محصورٌ فيهم ، مقصورٌ عليهم ، لأنهم لا يخضَعون للحق ، ويزعمون أنهم على صواب .

مثل من خداع المنافقين

٤ — وقد حدث أن عبدَالله بنَ أبيّ بنِ سلول رأسَ المنافقين التقى بجماعة من المسلمين، فأسرّ إلى منْ معه: أن انظروا كيف أردّ هؤلاء السفهاءَ عنكم، فأخذ بيد أبى بكر، وقال: مرحباً بالصدّيق سيد بنى تَيْم، وشيخ الإسلام، وثانى رسول الله فى الغار، ثم أخذَ بيد عُمرَ وقال: مرحباً بسيد بنى عَدِىّ الفاروق، القوىّ فى دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم أخذَ بيد علىّ وقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله وصهره، وسيد بنى هاشم، خلا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال له علىّ: يا عبدَ الله، اتق الله ولا تنافق، فإن المنافقين شرّ خلق الله، فقال ابن أُبىّ: والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم، ثم افترقوا، فقال عبد الله بنُ أبىّ لأصحابه: كيف رأيتمونى فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيراً، وقالوا له: ما نزالُ بخير ما عشت، فرجع المسلمون إلى رسول الله وأخبروه بما حصَل، فنزل قوله تعالى: وإذا لقوا الذين آمنوا . . .؛ فالمنافقون إذا صادفوا المسلمين ادعوا أنهم مؤمنون، وإذا انفردوا بكبار المنافقين، ودعاة الفتنة، وأنصار الباطل، الذين يماثلون الشياطين فى تمردهم وعصيانهم، قالوا: إنا ما زلنا معكم فى الدين والعقيدة، إنما نسخرُ من المؤمنين بالتظاهر بالإيمان لهم؛ وغاب عنهم أن اللهَ مجازيهم على هذه السخرية، حين يدخلهم جهنم يصلونَ نارها، وحينئذ يدركون وَبال سخريتهم، ويؤيد هذا قوله تعالى: (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون)، فاستهزاء الكفار بالمؤمنين لا يؤبه له، بجانب ما سيفعل الله بهم، وهو جل شأنه يمهلهم، ولا يعجل بعقوبتهم، ليبقوا فى ضلالهم، وتجاوزهم الحد، حيارَى لا يهتدون سبيلا، ليزدادوا

إثماً على آثامهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، لأنهم استبدلوا بالهدى ضلالا مبيناً ، واستحبوا العمى على الهدى، واعتاضوا عن النور ظلاماً ، فباءوا بالخيبة والخسران فى الدنيا ، ولم يهتدوا إلى الحق ، لأنهم لم يستعملوا عقولهم فى فهم أسرار الدين الإسلامى، واقتباس أنواره .

٥ — وقد ضرَبَ اللهُ لهؤلاء المنافقين مثلين محسوسين، يصوّران حالهم فى صورة واضحة ، لتكون أشدّ تأثيراً فى النفس ، والقرآن الكريم يضرب الأمثال للناس لتقرع أسماعهم :

الأول : أن مثلَ الذين تظاهروا بالإيمان من المنافقين ، فأمنوا على حياتهم وأموالهم، فصاروا فى دعة واطمئنان فى الدنيا ، ثم انطفأ نور حياتهم ، وعذبوا يومَ القيامة على ما اقترفوا من آثام فى نار جهنم يصلوْن سعيرها ، يومَ لاتنفعهم معذرتهم على ما اجترحوا من سيئات ، يومَ يقولون للمؤمنين وهم فى غرف الجنان ، : انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقال لهم : استهزاء بهم، ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، فيرجعون ، فإذا سور له باب، باطنه من جهة المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهره من جهة المنافقين فيه العذاب ، فيظلون فى حلكة دائمة ؛ مثلُ هؤلاء كمثل رجل أوقد نارا فى ليلة حالكة السواد، فأنارت ما حوله ، فأبصر واستدفأ وأمنَ مما يخافه ، ثم أطفأ الله هذه النار بمطر نزل عليها، أو ريح عاصفة أتت عليها ، فإذا بمن كان يفيد من هذه النار نوراً ودفئاً وأمناً ، لا يبصر شيئاً مما حوله ، فذهب أمنه ودفؤه واطمئنانه ، واشتد رعبه من هوْل ما رأى، فهم صمٌ لا يصل الحقّ إلى قلوبهم عن طريق آذانهم، بكمٌ قد أخرس الحقّ ألسنتهم، وأدحضت الحجةُ باطلهم ، عميٌ لا يبصرون للحقّ نوراً ، ولا للهدى سبيلا ، وهم لا يرجعون بعد تماديهم فى الغيّ ، وانهماكهم فى الضلال .

الثانى : أن مثل المنافقين فى إظهارهم بألسنتهم الإيمان خداعاً ونفاقاً ، وعدم إصاختهم إلى دعوة الرسول — فكلما ظهر لهم قبس من ضوء الهدى ، واستبانت لهم محجةُ الطريق ، لمع بصيصٌ من نور الهداية أمامهم ، ثم لا يلبث أن ينطفئ ، فصموا آذانهم عن الاستجابة إلى سماع دعوته ، لما فى الدعوة من أداء التكاليف الشاقة عليهم : كالصلاة والصوم والجهاد ، والانقياد للرسول ، مع شدة استنكافهم أن ينقادوا له ، فهم يرغبون عن الإيمان الصادق بسبب هذه الأمور المقارنة له — مثلهم كمثل قوم يسيرون ليلاً فى فلاة فى أرض موحشة ، تكاثف فى سمائها سحاب معتم ، فاجتمعت عليهم ظلمة الليل مع ظلمة السحاب ، ثم نزل عليهم مطر اقترن برعد قاصف ، وبرق خاطف ، فكانوا إذا قصفَ الرعدُ وخفق البرق ، لجئوا إلى أناملهم فسدوا بها منافذ السمع ، حتى لا يكونَ للصوت منفذ إلى أسماعهم ، لحذرهم ما يمكن أن يتعرضوا له من الحمام ، والموت الزؤام بسبب الصواعق ، وكان البرقُ يلمع لمعاناً شديداً مفاجئاً ، يكاد سناه يذهب بأبصارهم ، ولكنهم مع هذا يستفيدون من لمعانه ، فيرون معالم الطريق ، فيمشون خطوات ، ثم يشتد الظلام ، ويستولى عليهم الخوف ، فيقفون فى مكانهم ، فهم فى حيرة دائمة ، لا يستقرون على حال .

فالصيِّب : الإيمان ، والظلمات والرعدُ والبرقُ : التكاليف الشاقة فى نظرهم ، وجعلُ الأصابع فى الآذان : كنايةٌ عن عدم الإصغاء إلى دعوة الرسول ، والموتُ : الرياسةُ التى يخشون أن يفقدوها ، فهم حين دعاهم الرسول إلى الدين ، وتلا عليهم الآيات البينات ، وأقام لهم الحجج القاطعات على صحة دعوته ، وعلموا أن الدين يكلفهم أداء أنواع من العبادات ، تنكبوا

الطريقَ السويّ ، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه ، وتنطلق أفكارهم إلى شعاع نوره ، ويتجهون إليه بعضَ خطوات ، ثم لا يلبثون أن يعود إليهم الشكّ والحيرة ، فتقيد فكرهم ، وتعودُ بهم القهقرى ؛ والله ُ محيط بالكافرين ، يحصى عليهم أعمالهم ، ويجازيهم على ما اقترفوا من السيئات .

(٣)

يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا — وَلَنْ تَفْعَلُوا — فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لعلكم تتقون	رجاء أن تنتظموا فى سلك المتقين .
فراشاً	كالبساط المفروش ، يسهل السير عليه .

الألفاظ	شرحها
بناء	كالبناء فى تماسك كواكبها .
رزقاً لكم	لتكون الثمراتُ بعض ما يرزقكم الله به .
أندادا	أمثالا وأكفاء ، تشركونها فى عبادته .
وادْعُوا شُهداءكم من دون الله	وادْعوا آلهتكمُ التى تعبدونها من غير الله .
فاتقوا النار	فاجعلوا إيمانكم وقاية لكم من النار .
وَقودها	ما توقد به .
الناسُ	الكفارُ
والحجارة	لشدة ما ينبعث منها من حرارة كامنة إذا مست النار .
جنات	حدَائقَ .
رُزقوا	أطعمُوا من تلك الحدائق .
رُزقنا من قبلُ	أطعمنا فى الدنيا قبل ذلك .
متشابهاً	متماثلا فى جنسه ، مختلفاً فى طعمه .
أزواج مطهرة	زوجات من الحور العين ، خالية من كل عيب .

مُجْمَلُ المَعْنَى

١ — بعد أن قدّم الله أحكام الطوائف الثلاث : المؤمنين والمنافقين والكافرين ، انتقل إلى ما يجب أن يؤديه عباده جميعاً من التكاليف ، وأهمها أن يخصّوه وحده بالعبادة ، لأنه هو الذى خلقهم وخلق منْ كان قبلهم ، رجاءَ أن يكون خضوعهم ، وامتثالهم لأداء تكاليف العبادة واقياً لهم من عذاب النار ،

فهو الذى خلق لهم الأرضَ ممهدة ليسهلَ السيرُ عليها، والسماءَ كالبناء الذى يشدّ بعضُه بعضاً ، لما بين كواكبها من تجاذب وتماسك ، حتى لا يصطدمَ بعضُها ببعض ، وأنزل من السماء مطراً فأحيا به الأرضَ بعد موتها ، فأخرجت لنا ثماراً يانعةً لذيذة الطعم ، فلا يليق بنا أن نجعلَ لله شركاءَ نعبدهم من دونه ، باتخاذ الأصنام والرهبان والأحبار أرباباً من دون الله والمسيحَ ابنَ مريم ، ونحن نعلم أنها لا تماثله ، وتعجز أن تفعل ما يفعله .

٢ — ولما أقام الله سبحانه وتعالى الدليلَ القاطع على عجز الشركاء ، وأنهم لا يملكونَ لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ، عقّب بما يثبت دعوةَ رسوله المصطفى ، وهو القرآن المعجز ، فقال : إن كنتم فى شكّ مما أنزلنا على عبدنا محمد من القرآن ، فهأنتم أولاء من أهل اللَّسَن والفصَاحة ، وحسن البيان والبلاغة ، واللغة التى نزل بها القرآنُ لغتكم ، وألفاظه من جنس ما تتكلمون به ، فاجمعوا جموعكم ، وأتوا بسورة تماثل القرآن فى فصاحة أسلوبه ، وحسن ديباجته ، وقوّة بلاغته ، واستعينوا بمن شئتم من آلهتكم ، ومن تأنسون منهم القدرةَ على معاونتكم ، من غير الله سبحانه وتعالى ، فإن بذلتم غاية جهدكم ، وعجزتم عن معارضة القرآن — وسيستبين عجزكم حتما عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه — وتحققتم أنه معجز ، والتصديق به واجب ، فآمنوا به ، واتقوا دخول النار التى وقودها ناسٌ تحترق أجسامهم ، وحجارةٌ كمنت فيها الحرارةُ التى تشوى أبدانكم ، هُيئتْ لعذاب الكافرين الجاحدين المعاندين .

٣ — وبعد الكلام فى أمر التوحيد والنبوة ، ومصير العصاة الكفار يوم القيامة ، بيّن الله ثوابَ المطيعين ، ليقترن الترهيبُ بالترغيب ، فكلفَ رسوله عليه الصلاة والسلام ، أن يبشرَ المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا

الأعمال الصالحات، بأن لهم جنات تجرى من تحتها أنهار ذاتُ ماء جار ، كلما أطعموا من تلك الجنة ثمرةً من ثمارها ، قالوا : هذا الذى رزقنا به من قبلُ فى الدنيا ، ثم لا يلبثون أن يجدوا لهذه الثمار طعما ولذةً لم يعهدوها من قبلُ فى ثمار الدنيا، وإن كانت تشبهها شكلا، ولهم فى الجنات زوجاتٌ مطهرات جسما وخلقا ، وهم مخلدون فيها أبداً، لا يمسّهم فيها نصَبٌ ، وما هم منها بمخرَجين، وفى هذا دليل على أن الإيمان ينبغى أن يقترنَ بالعمل الصالح .

(٤)

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا : بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهٰذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا يستحيي	لا ينقص من قدره .
يَضربَ مثلا	يقرعَ آذان السامعين بمثل .
مَثلاً ما	أى مثل .

الألفاظ	شرحها
فما فوقها	فما فوقَها فى الصغر .
أنه	أن المثل .
الفاسقين	الخارجين عن طاعة الله .
ينقضون عهدَ الله	يبطلونه .
ميثاقه	توْكيده عليهم .
أمواتاً	نُطفاً فى أصْلاب آبائكم .
استوى إلى السماء	اتجهتْ قدرته إلى خلقها .
فسواهُنّ سبعَ سمٰوات	أتم خلق سبعَ سمٰوات .

مجمل المعنى

١ — عاب الكفارُ على المسلمين ضرْبَ الأمثال فى القرآن ، ونعَوْا عليهم ضرْب المثل فى أن الأصنام أضعفُ من أن تخلق ذبابة ، وأن الذبابَ إن سلبها شيئاً لا تستطيع استنقاذه منه، وأنه شبه عبادتها فى ضَعفها ببيت العنكبوت ، وقالوا : أىّ قدر للذّباب والعنكبوت حتى يضربَ الله بهما المثل ؟ فرد الله عليهم بأنه لا يرَى من النقص فى شىء أن يضربَ المثلَ بهما ، بل بالبعوضة فما فوقها فى الصّغر كالذرّة مثلا ، لأنه خالقَ كلَّ شىء فى هذا العالم ، ثم فصّل حالَ من يستمعون الأمثالَ بأن المؤمنين يقولون : إن هذا المثل هو الحقّ الواقعُ موقعهُ من الصحة والبيان ، وأما الكافرون فإنهم لفرط جهلهم وعنادهم، يُعرضون عن الحجة ، ويقولون فى مكابرة وعناد : ما الذى أراد الله بهذا المثل الحقير ، الذى لا يليق صدوره من الله ؟ فردّ عليهم ردّاً مشتملا على حكمة جليلة ،

وهى أن المثلَ وسيلةٌ لهداية المستعدّين للهداية ، وإضلال المنهمكين فى الغَواية ، وما يضلّ بضرب الأمثال إلا من خرَجوا عن طاعة الله بالتغابى عن حكمتها .

٢ — هؤلاء المتغابون ، هم أهل الشرك والكفر والنفاق ، ممن منحهمُ اللهُ عقولا يميزون بها الرشدَ من الغيِّ ، ولكنهم يهملون استعمالها ، ويتمادوْن فى طغيانهم وكفرهم ، وهم : —

(ا) الذين يبطلون عهدَ الله الموثّق ، المستدلّ عليه بالعقل ، وهو الحجة الدالة على وجوده وصدق رسله ، كخلق السموات والأرض ، والقرآن المعجز ، فألغَوْا عقولهم وحواسّهم ، فصاروا كما أخبر الله الله عنهم : لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل .

(ب) والذين يقطعون ما أمر اللهُ به أن يوصَل ، وهم المنافقون الذين لا يصلون القولَ بالعمل ، بل يظهرون غيرَ ما يبطنون نفاقاً وخداعاً ، والذين لا يصدقون ببعض ما أنزل على الرسل من الكتب ، بل يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض ، والذين يقطعون صلة الأرحام والقربى ، والذين يقطعون الصلة بينهم وبين خالقهم ، باجتناب أوامره ، واتباع نواهيه .

(ح) والذين يفسدون فى الأرض بالدعوة إلى الكفر ، والترغيب فيه ، وقطع الطريق على مَنْ يُريدُ الهجرةَ إلى رسول الله ، وارتكاب المعاصى التى يتعدى ضررُها إلى غيرهم ؛ هؤلاء هم الخاسرون ، لعدم تدبُّرهم فى عواقب ما يعملون ، واشترائهم النقضَ بالوفاء والفسادَ بالصّلاح ، والقطيعةَ بالصلة ، والعقاب بالثواب ، فأصابهم مما اقترفوا ضررٌ جسيم ، وباءُوا بالخسران العظيم .

٣ — وبعد أن عدّد الله مثالبَ هؤلاء الكفار ، المؤديةَ إلى سخط الله عليهم ، وجه الخطاب إليهم ، فأنكر عليهم كفرَهم مع توالى نعمائه ، ووبخهم على جحودهم مع تعدّد آلائه ، فهو الذى أوجدَهم من العدم قبل النشأة الأولى ، ثم بعث فيهم الحياةَ فى الدنيا ، ثم يميتهم بعد انقضاء آجالهم ، ثم إليه مرجعهم يومَ القيامة للحساب والجزاء .

٤ — وقد اقتضت إرادته أن خلق لهم كلّ ما فى الأرض ، لينتفعوا به فى أمور معاشهم فى الدنيا ، من حيوانات ونباتات ومخترعات وغيرها ، ثم اقتضت إرادته أن يخلق السموات وهى الأجرام العلوية ، كلّ منها يسبحُ فى فلكه ، فأتمهن سبعة ، وإذا كان العلمُ قدّر الأفلاك تسعةً أو أكثر ، فليس فى الآية ما يدلّ على نفى الزائد على السبعة ، فإن مفهومَ العدد وهو سبعٌ ، يدلّ على مجرّد الكثرة ، وفى الفخر الرازى كلام كثير لمن أراد المزيد ، والله عليم بكل كلىّ وجزئى فى السموات والأرض ، إذ لا يمكن أن يكون خالقاً لها ، من غير أن يكون محيطاً بكل شىء فيها .

(٥)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خَليفة	يكون خليفةً ينفذ أحكام الله فى الأرض .
يَسفك الدماء	يريقها بالقتل .
نسبح بحمدك	ننزهك عمَّا لا يليق بك ، دائبون على طاعتك .
نقدس لك	نطهر نفوسنا من الذنوب ، فلا نُفسدُ كما فعل غيرُنا ، ولا نسفك الدماء .

الألفاظ	شرحها
الأسماء كلها	أسماء جميع المسميات .
عرضهم	عرض المسميات ، وغُلِّبَ العقلاءُ على غيرهم فى الضمير .
بأسماء هؤلاء	بأسماء هؤلاء المسميات .
سبحانك	تنزيهاً لك عن الاعتراض عليك .
العلم الحكيم	الذى لا يخرج شىء عن علمه وحكمته .
أنبئهم بأسمائهم	أنبئْ الملائكةَ بأسماء المسميات .
تُبدون	تظهرون .
تكتمون	تخفون .

مجمل المعنى

١ — هذه الآياتُ دالة على تعظيم الله تعالى لآدم ، وهذا التعظيمُ نعمةٌ ثالثة شاملة أسبغها الله على بنى آدم ، لأن فيها تشريفاً لأبيهم ، يقول الله : اذكر يا محمد لقومك أنى قلت للملائكة حين تعلقت مشيئتى بخلق آدم : إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة يقوم بتنفيذ أحكامى فيها ، فقالت الملائكة متعجبين : أتستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسدُ فيها بالمعاصى ، وإراقة الدماء بالقتل ، فإن كان لا بدّ من الاستخلاف ، فنحن أحقّ به ، لأننا معصومون قائمون بتسبيحك وتقديسك ، عاكفون على تنزيه ذاتك وصفاتك عما لا يليق بها ، ولن تخلقَ خلقاً أكرمَ عليك منا ، فأجابهم الله : إنى أعلم ما لا تعلمونه من المصلحة فى استخلاف آدم .

٢ — وذكرُ الملائكة الإفسادَ وسفكَ الدماء ، يُشعر بأن الأرض كانت مسكونة بمن يُفسد فيها ويسفكُ الدماء قبل آدم، فقيل : إن طائفة من الجنّ كانت تسكنها ففعلوا هذا ، وقيل إن بشراً كانوا يسكنونها ، ثم دبت بينهم العداوةُ والبغضاءُ ، فأفنى بعضهم بعضاً ، ونحن نميل إلى هذا الرأى الثانى ، لأنه يتفق مع ما أثبته العلماء الباحثون ، من أنهم وجدوا جماجمَ ترجع إلى ثلاثين ألف سنة ، وكلمة « خليفة » تؤيد هذا المعنى، لأنه يخلف مَن قبله ؛ والملائكةُ أجسام نورانية ، يسبحون الليل والنهار ، لا يفتّرون عن العبادة ، لا يعصون اللهَ ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

٣ — وقد أوجد الله عند آدم استعداداً لمعرفة ذوات الأشياء ومسمياتها ، وأودع فى نفسه العلمَ بجميعها ، ثم أطلع الملائكةَ بالإلهام على هذه المسميات ، وقال لهم ، تعجيزاً لهم ، وإظهاراً لما خصّ به آدم : أخبرونى بأسماء هذه المسميات إن كنتم صادقين فيما جال بخاطركم ، أنى لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم منه وأفضل ، فقالت الملائكة : إنا ننزهك أن تخلقَ الخليفة عبثاً ، وإنما خلقته لحكمة اقتضتها مشيئتك، ولا علم لنا إلا ما علمتنا ، ولم تعلمنا أسماء المسميات ، فكيف نعلمها ؟ إنك وحدك العليم بخلقك ، الحكيمُ فى صنعك .

٤ — قال : يا آدم ، أنبئْ الملائكةَ بأسماء المسميات ، فلما فعل ، قال الله لهم : ألمْ أقل لكم : إننى أعلم ما غاب عنكم فى السموات والأرض ، ولا يعلمه غيرى ، وأعلم ما تبدون من قولكم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وما كنتم تكتمون مما جال بخاطركم : من أننى لا أخلقُ خلقاً إلا وأنتم أفضلُ منه وأعلم .

(٦)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ، وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اسجدوا لآدم	حيّوه بالانحناء .
رَغداً	أكلا هنيئاً وافراً .
هذه الشجرة	شجرة الحنطة أو الكرم أو التين .
فأزلهما الشيطان	فأوقعهما الشيطان فى الزلل والخطيئة .

الألفاظ	شرحها
عنها	بسبب الشجرة ، وهو مثل : وما فعلته عن أمرى.
اهبطوا	انزلوا من هذا النعيم إلى الأرض ؛ وجمع الضمير لأنهما أبوا البشر ، فكأنهما البشر كله .
بعضكم لبعض عدو	بعض ذرية إبليس عدو لبعض ذريتكم .
مستقر	مكان تستقرون فيه ، وتكدون وتكدحون .
ومتاع إلى حين	وما تتمتعون به من خيرات الأرض، إلى وقت انقضاء آجالكم .
كلمات	ألهمه الله أن يستغفر بكلمات يقولها .
إما يأتينكم	إن يأتكم ، أدغمت نون إن الشرطية فى ما الزائدة.
هدى	رسول أو كتاب .
ولا هم يحزنون	لا يصيبهم حزن لفوات ثواب .
خالدون	ماكثون أبداً .

قصة آدم

لما أراد الله خلق آدم، أخبر الملائكة أنه سيختار خليفة فى الأرض، فدار الحوار الذى سبق ذكره ، فلما جعله الله بشراً سوياً، ودبت فيه الحياة ، أمر الملائكة أن يحيوه بانحنائهم له ، ففعلوا ، ما عدا إبليس وكان من الجن ، فإنه أبى تعالياً واستكباراً ، وقال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فطرده الله من الجنة ، وأسكن آدم وزوجته حواء فيها، وكان الله قد خلقها من ضلع من أضلاعه فى أثناء نومه ، وملأ مكان الضلع لحما ، ليتناسل منهما بنوهما ، وأمرهما الله أن يستمتعا بكل شىء فى الجنة ، ما عدا

شجرةً كلفهما ابتلاءً وامتحاناً ألا يأكلا منها ، لكن الشيطان إبليسَ احتال حتى دخل الجنة ، وقال لآدم وحواء : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا لأن الأكلَ منها يجعلكما من الملائكة ، أو يجعلكما خالدين فى الجنة ، لا يدرككما موت ، ولا يلحقكما فناء ، وما زال بهما حتى أكلا من الشجرة ، فأخرجهما الله من الجنة إلى الأرض ، وحرمهما ما كانا فيه من النعيم ، لعصيانهما أمرَ الله ، ثم تاب عليهما بعد استغفارهما ، وسيأتى تفصيل هذه القصة فى مواطن أخرى .

مجمل المعنى

١ — هذا تفصيل للنعمة التى أسبغها الله على جميع البشر ، بتكريم أبيهم آدم ، إذ بيّن الله للناس على لسان رسوله ، أن من آلائه عليهم تشريفَ أبيهم ، بأن كلف الملائكة أن يحيوا آدم بالانحناء له ، ففعلوا ، إلا إبليس فإنه أبى تكبراً ، فطرده الله من الجنة لعصيانه وكفره ، وطلب اللهُ من آدم أن يسكنَ هو وزوجته حواءُ الجنة ، وأن يأكلا مما طاب لهما منها أكلا هنيئاً وافراً لا عناءَ فيه ، فى أى مكان يشاءان ، ما عدا شجرةً كلفهما ألا يقرّباها ، وذكر لهما أنهما — إن أكلا منها — يكونان قد تعدّيا حقوق الله ، وظلما أنفسهما بارتكاب المعصية .

٢ — ولكنّ إبليس الذى كان لهما بالمرصاد ، أراد أن ينتقم من آدم ، لأنه هو السبب فى طرده من الجنة ، فاحتال حتى دخلها ، وأوهمهما مؤيداً كلامه بالقسم ، أن الله لم ينهما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا لأن الآكل منها يصيرُ ملَكاً ، أو يبقى فى الجنة بقاء أبدياً ، وما زال بهما حتى حملهما على أن يزلا ، ويرتكبا خطيئةَ مخالفة ربهما ؛ فلما عصيا أمرَ

الله ، أخرجهما مما كانا فيه من النعيم والكرامة ، وأمرهما أن يغادرا هذا النعيمَ والمكانةَ السامية ، هما وما اشتملا عليه من ذريّتهما إلى الأرض ، يكافحون فى سبيل الحياة ، ويتعرضون لغَواية إبليس وذريته ، بعضهم لبعض عدو ، ولهم فى الأرض مستقر ميسرٌ للمعيشة ، وتمتعٌ فيها ينتهى عند انتهاء آجالهم ، وتلقى آدمُ قبل هبوطه إلى الأرض من الله كلمات ألهمه أن يقولها ليغفر له خطيئته ، فقال هو وزوجته حواء : ربنا إننا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين ، فتاب الله عليه بعد أن اعترف بذنبه ، وندمَ على ما فعله ، ووسعهُ فضله ورحمته ، لأنه يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، واكتفى اللهُ فى كتابه بذكر آدم فى قوله : فتلقى آدم من ربه كلمات ، لأن حواءَ تابعةٌ لآدمَ فى الحكم .

٣ — وكرّرَ الله قوله تعالى : قلنا اهبطوا : لاختلاف المقصود فى كليهما ، فالأول أمرٌ بالهبوط من دار النعيم والكرامة ، إلى دار البلاء والشقاء ، والآخر أمرٌ بالتكاليف الواجبة على آدم وذريته ، فبيّنَ أنه إن يأت من الله هدى : بإنزال كتاب ، أو إرسال رسول ، فمن تبعه نجا وفاز ، لم يلحقه خوفٌ من نزول عقاب ، ولا حزنٌ على فوات ثواب ، والذين كفروا وكذبوا بالأدلة القاطعة التى أتى بها الرسلُ للدلالة على وحدانية الله وربوبيته ، فأولئك هم أهلُ النار ، يمكثون فيها أبداً ، لا يفنون ولا يخرجون .

(٧)

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ◦ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ◦ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يا بَنى إسرائيل	يا أبناءَ يعقوب ، وهم اليهود .
أوفوا بعهدى	حققوا ما عَهدت إليكم من الإيمان ولا تغدروا .
أوف بعهدكم	أحققْ ما وعدتكم به من الثواب وغفران الذنوب .
إياى فارهبون	احذرونى وخافونى دون غيرى .
مصدقاً لما معكم	مصدقاً بالتوراة التى عندكم .

الألفاظ	شرحها
أوّل كافر به	أول فريق كافر بالقرآن ، لأن من يخلفكم يتبعكم .
ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا	لا تستبدلوا بالآيات التى فى كتبكم من وصف محمد عرَضاً يسيراً .
تَلبسوا	تخلطوا .
وتكتموا الحق	تكتموا الحقيقة ، وهى بعثُ محمد فى كتبكم .
اركعوا مع الراكعين	أدوا صلاةَ المسلمين التى فيها ركوع .
بالبرّ	بالإيمان بمحمد .
تتلون الكتاب	تقرءون التوراة .
استعينوا بالصبر والصلاة	استعينوا بالصوم والصلاة .
وإنها لكبيرة	وإن الصلاة لثقيلة .
الخاشعين	الخاضعين المتواضعين .

بنو إسرائيل

كان من أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بنو إسرائيل ، وهم اليهود ، وإسرائيلُ هو يعقوبُ بنُ إسحقَ بن إبرهيمَ عليهمُ السلام ، وإنما عادوْه غيرةً منه وحسداً ، لأن التوراة الصحيحة كانت تدل على أن رسولا من العرب يبعث فيهم ، فكانوا يرجون أن يكون من بنى إسرائيل ، فلما بعث من بنى إسماعيل حسدوه ، وأقاموا العراقيل فى سبيل دعوته ، فلما هاجر الرسولُ إلى المدينة ، ولهم فيها عصبية وسلطان ، واستوثق أمره ، وانتشرت دعوته ، كادوا له أشدّ الكيد ، وأخذوا يبثون الفتن والدسائس بين المسلمين ، وكان منهم المنافقون ذوو الإيمان الكاذب ، والعداوة الخفية ، والدهاء الماكر ،

يتزعمهم كعبُ بنُ الأشرف ، فنزلت هذه الآية وما يليها من آيات كثيرة ، تعدد آلاء الله عليهم ، وتبين مقابلتهم لها بالجحود والكفران ؛ والخطاب هنا لبنى إسرائيلَ عامةً ، ولرؤسائهم وأحبارهم خاصة .

مجمل المعنى

١ – يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أسبغتها عليكم ، بالتفكير فيها ، والقيام بشكر المنعم بها ، وراعوا حرمةَ الأمانة فيما عهدتُ به إليكم ، من صيانة التوراة غيرَ محرفة ولا مبدلة ، فأعلنوا وَصْفَ محمد فى التوراة الصحيحة التى لديكم ، أوف بعهدكم ، بحقن دمائكم ، وغفران ذنوبكم ، واحذروا بطشى ، وخافونى دونَ غيرى فيما تأتون وتذرون ، فإن بطشى شديدٌ لمن عصانى ، ومن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه ، وآمنوا بما أنزلت على محمد من القرآن المصدق لما معكم من التوراة الصحيحة ، المطابق لها فى الدعوة إلى التوحيد ، والعدل بين الناس ، والنهى عن المعاصى ، ولا تكونوا أولَ فريق كافر به من أهل الكتاب ، ولا تستبدلوا بالآيات التى نزلت فى التوراة فى نعت محمد عرضاً يسيراً ، بأن تكتموها خشية ضَياع رياستكم فى قومكم ، فإن ما يفوتكم أيها الأحبار والرؤساء من رسوم وهدايا وإن جلَ ، قليلٌ بجانب ما تخسرونه من رضا الله بعصيانكم ؛ وكان علماؤهم يعلمون العامة دينهم بالأجرة ، ويأخذون منهم كل عام شيئاً معلوماً من زرعهم وضرعهم — واجعلوا إيمانكم ، واتباعكم الحقَ ، واجتنابكم المعاصىَ ، وقايةً لكم مما أعددته للعصاة من العذاب الأليم ، وهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل ، فإنها تتناول فعلَ غيرهم ، فمن أخذ مالا على تغيير حقَ أو إبطاله ، أو رفض أن يقول ما يعلمه حتى يأخذَ عليه أجراً ، فقد دخل فى مقتضى هذه الآية .

٢ — ولا تخلطوا أيها اليهودُ الحقَّ المنزَّلَ فى التوراة ، بالباطل الذى تخترعونه ، وتخفوا الحقيقةَ التى تعلمونها فى التوراة من نعت محمد ، وأقيموا صلاة المسلمين ، وأعطوا الزكاة على حسب شريعتهم ، فإن أداء الصلاة والزكاة على غير ما شرعه الدين الإسلامى لغوٌ لا قيمةَ له ، فواجب عليكم أن تصلوا مع المسلمين صلاتَهم التى فيها الركوع أحد أركانها .

٣ — وكان رؤساء اليهود وعلماؤهم وأحبارُهم الذين اطلعوا على التوراة الصحيحة ، وعرفوا مما ورد فيها أن محمداً رسول الله حقاً ، يأمرون سراً من يثقون بهم من أقربائهم وغيرهم أن يتبعوا دين محمد عليه الصلاة والسلام ، لاعتقادهم أنه الدين الحقّ ، فوبخهم الله على أنهم يأمرون الناسَ بالإيمان بمحمد وينسون أنفسهم ، بتركها فى غفلتها وضلالتها ، وهم يتلون التوراةَ ، وفيها وعيدٌ لمن يخالف قوله فعله ، أفلا يعقل هؤلاء قبحَ ما يفعلون ، فيقلعوا عنه ، ويفعلوا ما يقولون ، ليطابقَ فعلهم قولهم ؟

٤ — وكما دعاهمُ الله فى الآية التى قبل الأخيرة إلى تَرْك الضلال والإضلال ، والعمل بشريعة رسوله عليه الصلاةُ والسلامُ ، أمرهم هنا بعد الإيمان بالصّبر ، ففيه جهادٌ للنفس ، وقمعها عن الشّهوات ، وردّها عن غيها ، وإرغامها على ما تكره ، ويدلّ مفهومُ الصبر على الصّوم ، بقرينة ذكره مع الصلاة ، كما أمرهم بالصلاة ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإن كانت ثقيلة إلا على الخاضعين المتواضعين ، الذين يعتقدون أنهم سيلقون ربهم يوم البعث والحساب ، لما تحتاج إليه الصلاةُ من طهارة البدن والثوب والمكان ، والاتجاه نحوَ الكعبة ، وإظهار الخشوع فى أثناء أدائها ، والوضوء لها ، وتكرارها خمس مرات فى اليوم .

(٨)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ، فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا

عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا ، وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
العالمين	جميع الناس الذين فى زمانهم .
لا تجزى	لا تغنى .
ولا يؤخذ منها عَدْل	ولا يؤخذ فيه فدية — والعدل : الفدْية .
نجيناكم	نجينا آباءكم الذين كنتم فى أصلابهم .
آل فرعون	أهل مصر .
يَسومونكم	يذيقونكم .
يذبحون أبناءكم	يذبحون الذكور ممن يولدُ منكم .
ويَستحيون نساءَكم	ويستبقون النساء أحياء .
بلاء	ابتلاء .
فَرَقنا بكم البحر	فَلقنا البحرَ وفصلنا ماءَه بكم ، فصار جزأيْن أنتم بينهما .
فأنجيناكم	أخرجناكم من البحر سالمين .
وأنتم تنظرون	وأنتم ترَوْن انطباق البحر على فرْعونَ وقومه .
أربعين ليلة	انتظار أربعين ليلة فى الطور ، تنزل بعدها التوراة .
اتخذتمُ العجلَ من بعده	اتخذتم العجلَ الذى صنعه موسى السامرى إلهاً من بعد موسى .
ظالمون	مجاوزون العدلَ فى عبادة غير الله .

الألفاظ	شرحها
ثم عفونا عنكم	محونا ذنوبكم ، وتجاوزنا عنكم .
من بعد ذلك	من بعد عبادتكم العجل .
الكتاب والفرقان	التوراة التى من شأنها أن تفرقَ بين الحق والباطل ، وتميز الحلالَ من الحرام .
بارئكم	خالقكم ..
فاقتلوا أنفسكم	ليقتل البرىء منكم المجرم .
جهرة	عِيانا غير مستتر بشىء .
الصاعقة	نار أصابتكم ، وصيحة أزعجتكم .
وأنتم تنظرون	وأنتم تنظرون أثر الصاعقة .
بعثناكم من بعد موتكم	أيقظناكم من بعد غشيتكم .
وظللنا عليكم الغمام	سترناكم من حرارة الشمس بسحاب رقيق .
المنّ	صمغ على الشجر حلو ، مع شىء من الحموضة.
السلوى	السُّمَانى « السُّمَّان » .

مجمل المعنى

١ — يأيها اليهود ؛ اذكروا نعمتى وآلائى عليكم ، وتفضيلى آباءكم الذين كانوا فى عصر موسى على جميع معاصريهم من بنى البشر ، واتقوا يومَ الحساب الذى لا تغنى فيه نفسٌ عن نفس شيئاً ، فكل امرىء بما كسب رهين ، ولا تقبل من أى عاص شفاعة ولا فداء ، ولا يستطيعُ أى ناصر أن يدفعَ الأذى عن أى إنسان ، ثم أخذ الله يعدّد معاصى اليهود الجاحدين فيما سيلى ، ويذكرهم بفضله عليهم ، ودفع الضرر عنهم فى الأيام الخالية ، فقال :

٢ — اذكروا أيها اليهود يوم أن نجينا آباءكم من ظلم فرعون وقومه، الذين كانوا يستعبدونكم، ويذيقونكم العذاب ألواناً، بتسخيركم فى بناء المعابد، وإقامة الهياكل، وحين تكاثرتم مع ما كنتم عليه من الذل، أبلغ أحد الكهنة فرْعون أن مولوداً ذكراً منكم يكون سبباً فى ذهاب ملكه، فأمر بأن يذبح كل مولود ذكر منكم، ويستبقى الإناث، وفى هذا العذاب، والتعرض للفناء، ابتلاءٌ وامتحانٌ لكم عظيم، إذ جرَتْ سنةُ الله أن يبلوَ خلقه بالحسنات والسيئات؛ ثم بعثَ اللهُ إليكم موسى، فنجاكم مما كنتم فيه من الهوَان والذل والاستعباد.

٣ — واذكروا يوم غادرتم مصرَ مع موسى، ورأيتم البحرَ أمامكم، وعدوّكم وراءكم، وخفتم أن يدركَكم فرْعونُ فينكلَ بكم، فأمرنا موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق، وانحسر الماءُ عن اثنى عشر مسلكاً عبرتموها، وتبعكم فرعون وقومه، فأغرقناهم وأنتم تنظرون انطباق البحر عليهم.

٤ — واذكروا أنكم بعد أن أنجاكم اللهُ من فرعونَ وقومه، وصرتم آمنين على أنفسكم، سألتم موسى أن يأتيكم بكتاب من عند الله، فلما وعده الله أن ينزل عليه التوراةَ بعد أربعين يوما بلياليها، يصوم نهارها، ويقضى أوقاتها فى العبادة على الطور، ليتلقى التوراة، واستخلف عليكم أخاه هرون، اتخذتم العجلَ الذى صاغهُ موسَى السامرىّ إلهاً ومعبوداً لكم، فى أثناء غياب موسى، وكنتم ظالمين باتخاذكم شريكاً لله الذى خلصكم من ظلم فرعون وقومه، وحين تبتم عفونا عنكم بعدما ارتكبتم من الآثام، لعلكم تشكرونى على عفوى وصفحى.

٥ — واذكروا يوم استجبنا طلبكم، وأنزلنا التوراة التى جمعت بين كونها كتاباً سماوياً، وبين كونها تميز الحلال من الحرام، وتفرّق بينَ الحق والباطل، لعلكم تهتدون بتدبر ما فيها، وتفكرون فى آياتها، نعمةً منا وفضلا،

وتعد التوراة فرقاناً ، بدليل قوله تعالى : ولقد آتينا موسَى وهرونَ الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين .

٦ — واذكروا يوم قال موسى لكم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجلَ إلها لكم ، فتوبوا إلى خالقكم ، وليقتلْ من لم يعبد العجلَ منكم منْ عبَده ، ففعلتم ما أمرتم به ، فقبل الله توبتكم ، إنه هو التواب الرحيم .

٧ — واذكروا قولكم لموسى : لن نقر لك بالإيمان حتى نرى الله عياناً ، لا يحجبه عنا شيء ، فانقضّت عليكم صاعقة أزعجتكم ، لتعنتكم ، وطلبكم ما يستحيل وقوعه ، وأنتم تنظرون إلى حالكم ، وما نزل بكم من آثار الصاعقة ، ثم أيقظناكم من غشيتكم لعلكم تشكرون ، وسخرنا لكم سحاباً رقيقاً يظللكمْ من حرّ الشمس ، وأنزلنا عليكم المنّ — وهو شيء يشبهُ الصمغ ، لزجٌ حلوٌ مع شيء من الحموضة ، كان ينزل كالطلّ من بزوغ الفجر إلى طلوع الشمس — كما أنزلنا عليكم السّمانى — وكان يأتيهم بكرةً وعشيا ، تسوقه ريح يرسلها اللهُ — وقلنا لكم : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فلم تلنْ قلوبكم ، ولم تشكروا نعمة الله عليكم .

هذه بعض نعمنا على اليهود ، ولكنهم جحدوها ولم يقابلوها بالشكر ، وهم فى موقفهم هذا ما ظلمونا ، لأنه ليس فى استطاعتهم أن يصيبونا بأىّ ضرر ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، لأن ضررَ العصْيان عائد عليهم وحدهم .

(٩)

وَإِذْ قُلْنَا : ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ، فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُولُوا : حِطَّةٌ ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا : اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى : لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
القرية	بيت المقدس .
الباب	باباً عيّنه لهم موسى ، ما زال يسمى باب حطة .
سجّدا	خاضعين خاشعين .
وقولوا : حطة	قولوا ما معناه : نسألك يارب أن تحط عنا خطايانا .
وسنزيد المحسنين	سنزيد المحسنين ثواباً .
فبدّل الذين ظلموا	قالوا غير ما أمرهم الله به ، وعصَوْا وتمردوا .
استسقى موسى لقومه	طلب من ربه السقيا لقومه ، لشدة عطشهم .
انفجرت	انشقت .
علم كل أناس مشرَبهم	علم كل فريق العين التي يشرب منها .
لا تَعثَوْا	لا تعتدوا بالإفساد .
بَقلها	كل نبات اخضرت به الأرض .
قثائها	نوع من الخيار « القتة » .
فُومها	حنطتها ، وقيل : هو الثوم .
أدنى	أحقر وأخسّ .
مصرا	بلداً كبيراً كمدينة .
ضُربت	حلّت وحقّت وأحاطت .
الذلة والمسكنة	الهوان والفقر .
باءوا بغضب من الله	رَجعوا بغضب الله ، وصارُوا مستحقين له .
بما عَصَوْا	بسبب عصيانهم .

مجمل المعنى

هذه الآياتُ استمرارٌ لما سبق من الآيات التى نزلت فى تعداد نعم الله على اليهود، وجحودهم إياها ، وكانوا قد ضَلّوا فى صحراء سيناء :

١ — اذكروا يا بنى إسرائيلَ يوم قلنا لآبائكم على لسان موسى : ادخلوا بيتَ المقدس بعد أن ضَلَلتم فى صحراء سينا هائمين على وجوهكم ، وستجدون فيها كل ما تشتهونَ من عيش هنىء على أن يكون دخولكم فى خضوع وخشوع ، من باب عيَّنه لكم موسى ، واسألوا الله عند دخولكم أن يحط عنكم خطاياكم ، فإن فعلتم ذلك غفر الله لكم ذنوبكم ، ومنْ كان محسناً منكم زدناه ثواباً بعد أن نغفر خطاياه ، ولكنكم بظلمكم خالفتم أوامرَ الله ، فقلتم غير ما أمركم اللهُ به ، استهزاءً منكم وتمرداً وعصياناً ، فأنزل الله عليكم عذاباً من عنده ، لخروجكم عن طاعته ، قيل : إنه طاعونٌ فتكَ بهم فتكاً ذريعاً ، والمراد بالإنزال هنا : صدورُه من العلىِّ الكبير .

٢ — واذكروا أيها اليهود يوم أن استسقى موسى لكم حين اشتد بكم العطش ، فأمرناه أن يضرب بعصاه حجراً ، فضرب ، فسال الماءُ من اثنتىْ عشرةَ عيناً منه ، فكان لكل سبط — أى لكل قبيلة من سلالة إسرائيلَ ، وكانت اثنتى عشرة قبيلة — عينٌ يشربُ منها هو ومن معه لا يتعداها ، وقلنا لكم : كلوا المنّ والسلوى ، واشربوا من العيون المتفجرة ، ولا تنشروا فى الأرض فساداً ، فتكونوا قدوة سيئة لغيركم ؛ والأسباط فى بنى إسرائيلَ كالقبائل فى العرب ، وهم ذريةُ أولاد يعقوبَ الاثنى عشر .

٣ — واذكروا يوم تدلل آباؤكم على موسى ، واستولى عليهم البطر حين كانوا تائهين حائرين ، بترك اللذيذ الشهى من الطعام ، وهو المن والسلوى ،

إلى الحقير التافه ، فقالوا لموسى : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها ، وقثائها ، وفومها وعدسها ، وبصلها ، فقال لهم موسى متعجباً مستنكراً : أتطلبون هذه الأنواع التى تعدّ تافهة حقيرة ، وتستبد لونها بالمنّ والسلوى — والباء بعد استبدل وما فى معناها تدخل على المتروك — فإن أبيتم إلا ما أردتم ، فادخلوا مدينة من المدن ، فإنكم تجدون ما سألتموه ؛ وحقتْ على آبائكم الذلة والفقر ، واستحقوا غضَبَ الله عليهم ، ذلك بسبب ما جبلوا عليه من التمّرد والعصيان ، وما جرَوْا عليه من الكفر بآيات الله ، فإنهم أحرَجوا موسى ، وتعنتوا فى مطالبهم ، وقتلوا أنبياءهم ظلما ، مع أن كتابهم يحرم القتل مطلقاً ، فكيف بالأنبياء ، ذلك الكفر والجرأةُ على النبيين بالقتل ، سببه ما ركب فى طباعهم منَ العصيان والعدوان .

(١٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ، مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ، فَقُلْنَا لَهُمْ: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذين هادُوا	اليهود .
الصابئين	عبدة الملائكة والكواكب .
أخذنا ميثاقكم	أخذنا العهد عليكم بالعمل بما فى التوراة .
رفعنا فوقكم الطور	زعزعناه من مكانه، فصار كالظلة فوق رءوسكم، والطور : الجبل بالسريانية .
بقوة	بجد واجتهاد .

شرحها	الألفاظ
أعرضتم .	توليتم
الخائبين .	الخاسرين
فى يوم الراحة ، والاعتداء : صيد السمك فيه .	فى السبت
كونوا كالقردة مطرودين حقيرين .	كونوا قردةً
فجعلنا هذه العقوبة عبرة لغيرهم .	فجعلناها نكالا
للأمم التى فى زمانها .	لما بين يديها
للأمم التى بعدها .	وما خلفها

مجمل المعنى

١ — سرد الله بعضَ مساوئ بنى إسرائيل فيما مضى ، وبيَّن ما ينتظرهم من عقوبة ، وذكر فى هذه الآية عاقبة أمر المؤمنين ، ليقترنَ وَعيدُ الله وعقابه للعصاة ، بثوابه للمتقين الذين صدقوا بدين محمد عليه الصلاة والسلام ، تصديقاً خالصاً من شوائب النفاق ، وكذلك عاقبة أمر اليهود والنصارى ، وعبدة الكواكب والملائكة ، ممنْ كان مؤمناً بدينه ، قبل أن يأتىَ الإسلامُ ، ثم آمنَ بمحمد بعد بعثته ، فهؤلاء جميعاً لهم ثوابهم عند ربهم ، ولا يلحقهم خوفٌ من عقاب ، ولا حزنٌ على فوات ثواب .

٢ — وكان موسى عليه الصلاة والسلام حين جاءَ بالتوراة إلى بنى إسرائيلَ ، ورأوْا ما فيها من التكاليف الشاقة ، عزّ عليهم أن يقوموا بها ورفضوها ، مع أنهم همُ الذين طلبوا من موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله كما تقدم ، فأمر الله جبريلَ أن يزعزع الطورَ — وهو جبل بسيناء — من

مكانه حتى صار كأنه ظُلَّة ، وظنوا أنه واقعٌ عليهم ، فأذعنوا واستكانوا ، فذكرَ الله ذراريهم في عهد الرسول بما فعل آباؤهم ، وليس في هذا إكراه على الدين ، لأن المؤمن بعد أن يتذوق حلاوة الإيمان ، يدرك خطأه فيما كان عليه من عناد .

٣ — واذكروا أيها اليهود يومَ أخذنا عليكم العهودَ والمواثيقَ بالعمل بما فى التوراة ، ألا تعبدوا إلا الله ، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، وذى القربى واليتامى والمساكين ، وأن تقولوا للناس حسناً ، وقلنا لكم : تدبرُوا ما فى التوراة التى أتيناكم بها بجدٍّ وعزيمة ، واعملوا بما جاء فيها ، رجاءَ أن تنبعثَ التقوى إلى قلوبكم ، فنكلتم ، ثم أعرضتم عما تعاهدتم عليه ، فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته بتوفيقكم إلى التوبة والانقياد إلى الحق ، لكنتم من الضالين .

٤ — وقد كان فى قرية أبلة — وهى مدينة على ساحل البحر الأحمر — جماعةٌ من اليهود يشتغلون بصيد السمك ، فألفت الحيتان بغريزتها أن هؤلاء الصيادين لا يصطادون يومَ السبت ، لأنه يومُ الراحة عندهم ، فكانت تبدو بكثرة فيه ، وكان الصيادون إذا خرجوا للصَّيد فى غير أيام السبت لا يجدون منها شيئاً ، فاحتالوا لمخالفة أمر الله ، الذى فرَضَ عليهم عدمَ العمل فى يوم السبت ، بأن حفروا حوضاً تدخل الحيتان إليه ، ويتعسر عليها الخروج منه ، فيصطادونها يوم الأحد ، فمسخَ الله قلوبَ المخالفين ، بأن صاروا كالقِرَدة لا يعقلون شيئاً ، تنفرُ الطباعُ من مجالستهم ، وتشمئزّ النفوس من معاشرتهم ، وجعل العقوبة عبرةً لمن يعتبرُ ، من العاصين الذين يحتالون لمخالفة أمر الله ، سواءٌ أكانوا فى زمانهم أم بعدهم ، وموعظةً لمن اتقوا الله ، حتى لا يقعوا فى مثل ما وقع فيه هؤلاء ، لأن السعيد من وُعظَ بغيره .

(١١)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا، تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ، وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا، قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا: اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
هُزُواً	سخريةً .
الجاهلين	الذين وُصموا بالجهل ، لسخريتهم من عباد الله .
ما هى	ما سنها ؟
فارض	مسنة .
بكر	صغيرة .
عَوان	نصَفٌ ، متوسطة بين الصغيرة والكبيرة .
فاقع لونها	لونها شديد الصفرة فى صفاء .
ما هى	أعاملة فى الحرث والسقى ، أم سائمة ترعى لتنمو وتسمن ؟
لا ذَلول	غيرُ مذللة فى العمل .
تثير الأرض	تجر المحراث فتقلب الأرض ، كدواب الحرث .
مسلَّمة	خالية من العيوب .
لا شيةَ فيها	ليس فيها أية علامة تخالف لونها .
جئت بالحق	نطقت بالبيان التامّ .
وما كادوا يفعلون	ما قاربوا أن يذبحوها ، لتعدد أسئلتهم .
ادّارأتم فيها	تخاصمتم ، وتنازعتم واختلفتم ، واتهمَ بعضكم بعضاً .
اضربوه ببعضها	اضربوا القتيل ببعض أجزائها .
آياته	دلائل قدرته .
من بعد ذلك	من بعد إحياء القتيل وظهور القاتل .
يَتفجر منه الأنهار	تتشقق الأنهار بالماء الذى يخرج من بين حجارة صلبة ، والنهر : الشق
يهبط من خشية الله	يتأثر فينحدر من أعلى إلى أسفل ، منقاداً لقدرة الله .

قصة البقرة التى سميت بها السورة ، ومجمل المعنى

هذه القصة تدل على أن الأمرَ قد يكون يسيراً سهلا ، ولكنّ الجدلَ والمماحكةَ يصيرانه شاقاً عسيراً ، وأن التنطعَ فى الدين ، واللجاجة فى السؤال ، يقتضيان التشدد فى الأحكام ، ولذا قال الله تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تبدَ لكم تسؤْكم :

١ ــ حدث أن كان فى بنى إسرائيلَ شيخٌ موسرٌ له ابن واحد ، فقتله ابنُ عمه طمعاً فى أن ينتقل الميراث إليه ، واتهمَ أبو القتيل بعض القوْم فأنكروا قتله ، فتخاصموا إلى موسى ، بعد أن كاد الشر يتفاقم بينهم ، فأمرهم أن يأتوا ببقرة ويذبحوها ، ليبينَ لهم البرىء من المجرم ، وكان يمكن أن ينتهىَ الأمرُ عند هذا الحد ، فيأتوا بأية بقرة ويذبحوها ، وينتظروا ما يسفرُ عنه حكم الله على لسان موسى ، ولكن اللجاجةَ والجدل طبعٌ فى بنى إسرائيلَ ، فقالوا له متعجبين مستنكرين : أتسخرُ منا ؟ فقال لهم موسى : أعتصمَ بتأديب الله إياى أن أكون من الجاهلين الذين يسخرون من عباده ، قالوا : ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هى : أمسنةٌ هى أم فتيّةٌ ؟ فقال لهم : إن اللهَ يقول : إنها بقرةٌ بين الفتية والمسنة ، وطلب منهم أن يأتوا ببقرة تتوافر فيها هذه الصفة فيذبحوها ، وأن ينفذوا أمرَ الله ، لكنهم لم يكتفوا بهذا ، بل قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ فقال موسى : إن الله يقول : إنها بقرة شديدةُ الصفرة ، صافيةُ اللون ، يسرّ منظرُها منْ رآها لحسنها ، لكنّ بنى إسرائيلَ الذين جبلوا على عدم امتثال أوامر الله ، واعتادوا المماطلة ، قالوا لموسى : ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ؟ فإن البقر قد تشابه علينا ، أبقرةٌ عاملةٌ فى حرث الأرض وسقيها ، أم بقرةٌ سائمة لتسمنَ وتذبح ؟ فقال

لهم موسى : إن الله يقول إنها بقرةٌ غير مذللة بالعمل فى الحرث والسقى ، سليمةُ الأعضاء ، لونها واحدٌ ، لا علامة فيها تخالف لونَ باقى جسمها ، فقالوا له : الآن جئت بالبيان الواضح ، وما كادوا يفعلون لتعدد أسئلتهم ، فطلبوا تلك البقرة التى فيها هذه الصفاتُ ، وجدّوا فى البحث عنها ، حتى وجدوها عند فتى بارّ بأمه وأبيه ، فاشتروها بأغلى ثمن ، بعدَ أن أعياهم طلبها ، لندْرة توافر هذه الصفات فى بقرة ، وبعد ذبحها أخذ موسى بعض أعضائها وضرب به القتيل ، فدبتْ فيه الحياةُ بقدرة الله ، وأعلن اسمَ قاتله ، وعاد ميتاً ، وعوقب القاتلُ بالقتل ، فحرمَ ما كان يطمعُ فيه من ميراث عمه .

٢ — واذكروا أيها اليهود يوم قتلتم نفساً ، فتخاصمتم فيها ، واتهم بعضكم بعضا ، والله معلن ما كتمتموه من أمر القاتل ، فقلنا لكم على لسان موسى : اضربوا القتيلَ ببعض أعضاء البقرة ففعلتم ، فدبت الحياة فى القتيل وأخبر بقاتله بقدرة الله تعالى ، وبهذه القدرة يحيى الله الموتى يومَ القيامة ، ويريكم دلائلَ قدرته لعلكم تعقلونها ، فإن من قدَر على إحياء نفس ، قادرٌ على إحياء الأنفس كلها ، كما قال : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وهذه الآية هى مبدأ القصة ، تأخرت عما قبلها للتشويق .

٣ — ومع ظهور هذه المعجزة لكم يا بنى إسرائيل ، وقد كانت كافية لأن تؤمنوا بموسى إيماناً صادقاً لا يكدره خلاف ولا مماحكة ، فإن قلوبكم لم تلنْ ولم تخشع ، بل بقيت على قساوتها وجفوتها ، وصارت كالحجارة فى صلابتها ، بل أشدّ منها صلابةً ، فإن من الحجارة حجارة تنشق منها الأنهار حين خروج الماء متدفقاً من منبعه ، ومنها ما يشقه الماء الرقيق اللطيف فيتأثر به ، وينفذ منه ، ومنها ما يتأثر بقدرة الله منقادا لمشيئته ، فينحطّ من أعلى الجبل إلى أسفله ، كالحجارة التى يقذفها بركان ، أو تتأثر بالصواعق ، أما أنتم فلم تتأثروا بالعظات والعبر ، ولم ينفذ إلى قلوبكم شىء من شعاع الإيمان الصحيح ، وما الله بغافل عما تعملون ، فهو سيريكم بضروب النقم ، إذا لم تتربوا بضروب النعم .

(١٢)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ : هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ : أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ بَلَى ، مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
منهم	من أحبار اليهود .
يسمعون كلام الله	يسمعون كلام الله فى التوراة .
يُحرفونه	يغيرونه ويبدلونه .
قالوا أتحدثونهم بما فَتحَ اللهُ عليكم	قال رؤساء اليهود الذين لم ينافقوا لمن نافق منهم : أتحدثون المؤمنين بما عرفكم الله من نعت محمد فى التوراة .
ليحاجوكم	ليقيموا عليكم الحجة .
عند ربكم	بما نزل فى التوراة من عند ربكم .
ومنهم أميون	ومن اليهود أميون لا يعرفون القراءة .
أمانىّ	أكاذيبَ يتلقونها من رؤسائهم .
الكتاب	التوراة .
وإنْ هُمْ إلا يظنون	ليس لهم فى إنكار نبوة محمد من علم إلا اتباع الظن .
فويل	فعذاب شديد .
يكتبون الكتاب بأيديهم	يختلقون فى التوراة كلاماً من عند أنفسهم .
مما يكسبون	مما يرتجون من الرشوة وتقاضى الأجور .
أتخذتم عند الله عهداً؟	هل اتخذتم عند الله ميثاقاً بعدم عذابكم ؟
بَلى	نعم تَمسكم النار .
أحاطت به خطيئته	أحاطت به الخطيئة وتملكته ، وغلبته على أمره ، حتى لا يستطيع الفكاك منها .

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يرون أنّ أحقّ الناس بالإيمان بنو إسرائيل، لأن دينهمُ التوحيد ، ولأن نعتَ الرسول فى كتبهم ، فكانوا يطمعون فى دخولهم الإسلامَ ، أكثر من طمعهم فى دخول عباد الأصنام ، ولكنهم لم يلبثوا أنْ رأوْهم معاندين مشاكسين، لما انطوت عليه نفوسهم من الحقد والحسد ، للرسول الذى كانوا يرجون أن يكونَ منهم ، فكانوا أكثرَ الناس استكباراً عن الإيمان ، وأذى للرسول ومن اتبعه من المؤمنين .

مجمل المعنى

١ — أفتطمعون أيها المؤمنون الصادقو الإيمان أن يؤمن اليهود لكم، وقد كانت طائفة من أحبارهم يسمعون كلام الله فى التوراة، ثم يعمدون إلى تحريفه وتأويله تأويلا فاسداً على حسب أغراضهم ، من بعد أن فهموه ، ولم يشتبه عليهم شيء منه ؟ وكان فريقٌ من المنافقين منهم إذا لقوا الذين آمنوا إيماناً صادقاً قالوا : آمنا بأنكم على الحق، وأن محمداً هو النبيّ الذى بشر به فى التوراة ، فإذا انفرد بعضُهم ببعض، قال غيرُ المنافقين منهم للمنافقين على سبيل العتاب والتأنيب : أتحدثون المسلمين بما عرفتم فى التوراة من نعت محمد، ليحتجوا علينا بما نزل فى التوراة من عند ربكم ، ليقومَ حجةٌ لهم علينا ؟ ألا تلاحظون هذا الخطأ الفاحشَ المؤدىَ إلى إفشاء هذا السر؟ وكيف يلومهم هؤلاء العصاةُ المعاندون على إفشاء هذا السر ؟ ألا يعلمون أن اللهَ مطلعٌ على سرهم وجهرهم ؟ .

٢ — ومن اليهود فريقٌ جهلة لم يطلعوا على التوراة ، لأنهم لا يعرفون القراءة ليتحققوا ما جاء فيها، فهم لا يعرفون من التوراة إلا أكاذيبَ تلقوها من رؤسائهم، وأخذوها ممن حرفوها ، فسمعوا منهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، وأن النار لن تمسّ اليهود إلا أياماً قليلة ،

بقدر الأيام التي عبد فيها آباؤهم العجل، وهي أربعون يوماً ، وما هؤلاء الأميون إلا قومٌ جهلة، ليس لهم بهذا علمٌ إلا اتباعَ الظن، الذي لا يؤيده دليل .

٣ — فالويل والخسرانُ لهؤلاء الذين يكتبون التوراةَ المحرّفة بأيديهم، ثم يدّعون أن ما كتبوه من عند الله ، ليحصلوا لأنفسهم عرضاً من أعراض الدنيا ، وهو الرياسةُ وجمعُ المال، وهذا الهدفُ وإن جلّ، قليل بجانب ما سيلقوْنه يومَ القيامة من العذاب الأليم، ويحرمونه من النعيم المقيم ، ويل لهم مما كتبت أيديهم من التوراة الزائفة، وويل لهم مما يكسبون من أجور تعليمهم للناس الأباطيل .

٤ — لقد قالوا عند ما توعدهم النبي بالنار يوم القيامة، جرياً على ما ألفوا من التلفيق واختلاق الأكاذيب في التوراة : لن تمسنا النارُ إلا أياماً قليلة، فأمرَ الله رسوله محمداً أن يقول لهم، توبيخاً لهم واستنكاراً : هل اتخذتم عند الله عهداً بما تزعمون، فلن يخلفَ الله عهده معكم ، وأنتم لذلك مطمئنون إلى صدق وعده، أم أنكم تفترون على الله الكذب ؟ وما دامت الحالةُ التي أنتم عليها تؤيد افتراءكم، فاعلموا أن من اقترف سيئة، واستولى على قلبه حبّ الخطايا ، وصار بطبعه ميالا إلى المعاصي ، ولا لذةَ له في سواها ، فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها ، أما الذين آمنوا إيماناً صادقاً ، وقرَنوا إيمانهمْ بالأعمال الصالحة ، فأولئك أصحاب الجنة يخلدون فيها .

(١٣)

وَإذْ أَخَذْنا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ ، وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أحسنوا إلى الوالدين إحساناً .	وبالوالدين إحساناً
قولوا للناس قولاً حسناً ليناً .	وقولوا للناس حُسناً
أدوهما على حَسب ما فى ملتكم .	أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاة
لا يقتلُ بعضكم بعضاً .	لا تسفكون دماءَكم
لا يخرجُ بعضكم بعضاً .	ولا تخرجون أنفسكم
قبلتم هذا الميثاق، واعترفتم بلزومه خلفاً عن سلف .	أقررتم
وأنتم تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق .	وأنتم تشهدون
يقتلُ بعضكم بعضاً .	تقتلون أنفسكم
تتعاونون عليهم .	تَظاهرون عليهم
بالمعصية والظلم .	بالإثم والعدوان
تنقذُوهم من الأسر ، بالفداء بمال أو غيره .	تُفادوهم
محرم عليكم إجلاؤهم عن ديارهم .	مُحرمٌ عليكم إخراجُهم
بما ورد فى التوراة من الفداء .	ببعض الكتاب
بما ورد فى التوراة من مَنع القتل والإخراج والمظاهرة .	وتَكفرون ببعض
ذل وهوان .	خزْىٌ
يصيرون إلى عذاب لا ينقضى .	يُردَون إلى أشد العذاب
آثروا العاجل على الآجل .	اشتروُا الحياة الدنيا بالآخرة

كان بالمدينة قبيلتان : الأوسُ والخزْرَجُ ، وكان بنو قريظة من اليهود حلفاءَ الأوْس ، وبنو النضير من اليهود حلفاءَ الخزرج ، فإذا اقتتل الأوسُ

والخزرجُ عاون كلٌّ فريق حلفاءه فى قتال الفريق الآخر ، وتخريب دياره ، وإجلاء أهله عن وطنه ، فإذا أسرَ أحدٌ من الفريقين ، جمعوا له مالا وافتدوه ، فإذا سئلوا : لم تقاتلونهم ثم تفادونهم ؟ قالوا : نقاتل لننصر حلفاءنا ، خشيةَ أن يُستذلوا ، ونفديهم لأننا أمرنا بفداء الأسرى من اليهود .

مجمل المعنى

١ — واذكروا أيها اليهود يوم أخذ الله الميثاق على آبائكم ، ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وأن يحسنَ كل منهم إلى والديه إحساناً ، بحسن معاشرتهما ، والتواضُع لهما ، وامتثال أمرهما ، كما يحسنون إلى ذوى قرابتهم ، بصلتهم ، وحسن معاملتهم ، وإلى اليتامى والمساكين ، وأن يقولوا للناس قولا جميلا ليناً ، وأن يؤدوا الصلاةَ ويعطوا الزكاة على حسب ما فرضَ عليهم فى كتابهم ، فأعرضوا عن العمل بالميثاق الذى أخذَ عليهم ، إلا قليلا منهم عكف على القيام به على وجهه الصحيح ، وليس عجيباً أن يكونَ هذا دأبهم ، فهم قوم عادتهم الغدر ، والإعراض عن الوفاء والطاعة .

٢ — فها هم أولاء مع ما أخذَ عليهم من الميثاق ، ومع النصوص الصريحة فى التوراة ، يريقُ بعضُهم دماءَ بعض ، ويخرجُ بعضُهم بعضاً بإجلائه عن دياره ، مع إقرارهم الميثاقَ وقبولهم إياه ، واعترافهم بلزُومه ، وشهادتهم على إقرار أسلافهم إياه .

٣ — ومن عجب أنهم يناقضون أنفسهم ، إذ يقتلُ بعضُهم بعضا ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويتعاونون عليهم ، مع غيرهم ، غيرَ مبالين ما يرتكبونه من المعاصى والآثام ، ثم إن وقع منهم أسرَى لدى من يتعاونون معهم ، أنقذوه من أسره بافتدائه ، مع أنه محرّم عليهم أن يخرجوا أحداً منهم من دياره ، فهم يؤمنون ببعض ما فى التوراة من وجوب افتداء الأسرَى ،

ويكفرون ببعضها الآخر ؛ بمخالفة النصوص الصريحة فيها بعدم القتل ، وعدم الإجلاء ، والتعاون مع الغير على من هم على ملتهم ، فجمعوا بين الفدية الواجبة ، وبين حرْمة القتل والإخراج والمظاهرة ، فما جزاء من يفعل هذا التناقض العجيب إلا الذلّ والهوان فى الحياة الدنيا ، وقد تم هذا فعلا بقتل بنى قريظة ، وأسر نسائهم وأطفالهم على يد المسلمين ، وإجلاء بنى النضير عن المدينة إلى الشام ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، ويومَ القيامة يصيرون إلى عذاب أشدّ ، والله تعالى لهم بالمرصاد ، لا يغفلُ عن أعمالهم ، ويعذبهم العذابَ الذى يستحقونه ، لأنهم آثروا الحياةَ الدنيا على الآخرة ، فلا يخففُ عنهمُ العذابُ برفع الجزية عنهم فى الدنيا ، ولا يخفف عنهم العذاب الذى أعده لهم فى الآخرة ، وما لهم من الله ناصرٌ ولا واق .

(١٤)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ : أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قفينا	أتبعنا رسولا بعد رسول .
البينات	المعجزات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص
أيدناه بروح القدس	قويناه بالروح المقدسة الطاهرة ، وهو جبريل .
غُلف	مغشاة بأغطية فلا تعى شيئاً ، وهى جمع أغلف ، وقلب أغلف : مستور عن الفهم والتمييز .
لعنهم الله بكفرهم	طردهم الله من رحمته بسبب كفرهم .
قليلا ما يؤمنون	إيمانهم قليل ، وما : زائدة .
يَستفتحون على الذين كفروا	يستنصرون على الكفار بقولهم : إن نبياً يبعث منهم .
ما عَرَفوا	الذى عرفوه من الحق ، وهو بعثة الرسول من غيرهم .
اشترَوْا	باعوا .
بَغياً	حسداً .
بما أُنزَلَ الله	يعنى القرآن .
بما أُنزلَ علينا	بالتوراة .
بما وراءَه	بالذى نزل بعد ما أنزلَ عليهم من إنجيل أو قرآن .
فلِمَ تقتلون ؟	ما السبب فى أنكم قتلتم أنبياءكم ؟
بالبينات	بالمعجزات ، كالعصا واليد وفلق البحر .
من بعده	من بعد غيابه عنكم للقاء ربه .
اسمعوا	اسمعوا ما تؤمرون به سمعَ قبول وطاعة .
أشربوا فى قلوبهمُ العجل	تمكن حب عبادة العجل من قلوبهم ، حتى كأن قلوبهم صارت تشربه .

مجمل المعنى

هذا الكلام استئناف واستمرار لجنايات اليهود ومآسيهم :

١ — ولقد أنزلنا على موسى التوراة ، وأرسلنا على آثاره رسلا تترى ، وأمددنا عيسى ابن مريمَ بالمعجزات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وقويناه بالروح المطهّرة المباركة ، وهو جبريلُ عليه السلام، رسولُ الوحى إليه من عند الله ، فكنتم أيها اليهود كلما جاءكم رسول كذبتموه أو قتلتموه ، أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا يصادف هوى فى نفوسكم تكبرتم عن اتباعه، ففريقٌ منهم كذبتموه كما فعلتم مع عيسى ، وفريقٌ آخر قتلتموه كما فعلتم مع زكريا ويحيى؟ ولقد حاولتم قتلَ محمد ، ولكنَّ الله عصمهُ منكم ففشلتم .

٢ — وقال اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساخرين ، حين دعاهم إلى الإسلام : قلوبنا مغشاةٌ بأغطية خِلقية ، فلا تنفذُ إليها دعوتك ، ولا نفقه شيئاً مما تقول ، هيَ فى أكنة مما تدعونا إليه ، ونحن فى غنى عنه ، فردَّ الله عليهم بما يشعرُ أنَّ قلوبهم خلقتْ على الفطرة السليمة الصالحة لقبول الحق ، المستعدّة للنظر الصحيح ، ولكنهم أبطلوا استعدادها بحسدهم وعنادهم ، فاستحقوا غضبَ الله ولعنته ، وطردَهم من رحمته ، فقليل منهم من يؤمن .

٣ — ولما جاءهم القرآن الموحى به من عند الله ، إلى رسوله محمد ، المصدق لما معهم من التوراة الصحيحة ، وكانوا قبل البعث إذا قامت الحرب بينهم وبين المشركين ، يستنصرون عليهم ، فيخرجون التوراةَ ويضعون أصابعهم على موضع ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام فيها ، ويقولون : اللهم انصرنا على المشركين بحق نبيكَ الذى نرى نعتهُ فى التوراة — فلما

جاءهم ما عرَفوه من التوراة ، ودلت نصوصها عليه بشأن هذا النبى ، وأرسل النبي من غير بنى إسرائيل ، كفروا به حسداً وخوفاً على الرياسة ، والمصالح الخاصّة التى يعيشون فى ظلها ، ألا لعنةُ الله على هؤلاء الكافرين.

٤ — بئس ما باعوا به أنفسهم ، لإيثارهم أعراض الدنيا ، و بذلهم ُ النفس والنفيس فى سبيلها ، وهو كفرُهم بالقرآن ، بغياً وحسداً من أجل إنزال الوحى على من اصطفاه الله للرسالة من عباده من غير بنى إسرائيل ، إذ قالوا : لقد كانت الرسالةُ فينا ، فما بالُ هذا النبيّ من غير بنى إسرائيل ؟ فاجتمع عليهم غضبُ الله لكفرهم ، فوق غضبه لحسدهم رسوله ، ولهم يوم القيامة عذابٌ يلقون فيه المهانة والاحتقار .

٥ — وإذا قيل لهؤلاء اليهود : آمنوا بالقرآن ، قالوا : لا نؤمن إلا بما أنزلَ علينا وهو التوراة ، ويجحدون بما أتى بعد التوراة من كتب منزلة ، كالإنجيل والقرآن ، فأخبرهم الله أنهم يعلمون أن ما نزل بعد التوراة حقٌ ، مصَدقٌ لما معهم .

٦ — فقلْ لهم يا محمد : إن كنتم تدعون الإيمانَ بالتوراة ، والعملَ بما فيها ، فلم تخالفون أمرَ الله بقتلكمُ الأنبياءَ فيما سلف من زمانكم ، مع أن اللهَ حرّم عليكم قتلهمْ ، بل أمركمْ بتصديقهم واتباعهم ؟

٧ — إنكم أيها اليهودُ لا ينفع فيكم وعظ ، ولا تفيدكم العبر ، ولا يثمر فيكم معروف ، لقد جاءكم موسى بالمعجزات الدالة على صدق دعوته ، المؤيدة لنبوته ، كالعصَا التى صارت ثعباناً لقفتْ ما صنعهُ سحرَةُ فرعون ، واليد التى أخرجها من جيبه فصارت بيضاء من غير سوء ، وفلق البحر حين تبعكم فرعونُ وقومه ، ثم اتخذتم العجل إلهاً بمجرد غيبته عنكم لمناجاة ربه ، وأعرضتم عن عبادة الله بعدوانكم وظلمكم ، لأنكم تعلمون أنه لا يقدر على هذه المعجزات إلا الإلهُ وحده ، القاهرُ فوق عباده .

٨ — واذكروا أيها اليهود إذ أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور ، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم بقوة — وقد سبق شرحُ هذا فى ص٥٥، ٥٦ من تفسير هذا الجزء — واسمعوا سمْعَ طاعة وامتثال، فقلتم لموسى تهكماً واستهزاء : سمعنا قولكَ ، وعصَينا أمرك ، ثم شغفتم حباً بعبادة العجل الذى صنعه لكم موسى السامرىّ، ونسيتم آلاءَ الله عليكم، فإن كان هذا هو الإيمان الذى تدّعونه ، فبئس الإيمان المقترنُ بهذه السيئات إيمانكم ، إذ لو كنتم مؤمنين حقاً ، لتركتم هذه القبائح .

(١٥)

قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ ، فتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إنْ كُنتُمْ صادِقِينَ . وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، قُلْ : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ، فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ، وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلاَّ الْفَاسِقُونَ . أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؛ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خالصة	خاصة بكم .
بمزحزحه	بمبعده .
فإنه نزّله على قلبك	فإن جبريل نزّل بالقرآن على قلبك .

شرحها	الألفاظ
بشرى بالجنة يوم القيامة .	بُشرى
ميكائيل .	ميكال
آيات واضحات .	آيات بيِّنات
أكفروا بالآيات ، وكلما عاهدوا عهداً .	أو كلما عاهدوا عهداً
نقضه وطرحه .	نبذه

مجمل المعنى

١ — كان اليهود يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون : لن تمسنا النار إلا أياماً قليلة ، وهى أربعون يوماً ، مدةَ عبادتهم العجل ، ويزعمون أنهم أولياءُ الله من دون الناس ، فأراد الله أن يفضحهم ، ويكشفَ سوءاتهم ، فأمر رسوله محمداً أن يقول لهم : إن كانت الجنة التى فى الدار الآخرة خاصة بكم دون سائر الناس كما زعمتم ، فالوصول إليها هين سهل ، فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين ، فإنّ من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحبَّ إليه من الحياة الدنيا ، لما يصيرُ إليه من نعيم الجنة ، ويزولُ عنه من أكدار الدنيا وشقائها ، ولكنهم لن يتمنوا الموتَ أبداً خوفاً وفرقاً ، لكفرهم وقبح أعمالهم الظالمة ، وتحريف التوراة ، ولتجدنهم يا محمد أحرص الناس على الحياة الدنيا .

٢ — ومن المشركين فريق يكفرُ بك عناداً واستكباراً ، مع أنه يعرفُ ما يئول إليه أمرُهُ يومَ القيامة من العذاب الدائم ، ويعتقد أنك على حقّ ، هذا الفريقُ يودّ أحدهمْ لحرصه على البقاء فى الدنيا أن يطولَ عُمرُهُ حتى يبلغ ألف سنة ، على أنّ تعميرَه فى الدنيا وإن طال ، لا يبعدُه

من العذاب ، لأن مصيره إلى الموت لا محالة ، والله مطلعٌ على ما يعمله هؤلاء الكفار ، فيجازيهم عليه يوم القيامة .

٣ — وكان عبد الله بن صُوريا َ— وهو من أحبار اليهود أسلمَ ثم كفر — سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن ينزلُ بما يوحى به إليه ، فقال له الرسول : جبريل ، فقال عبدُ الله : جبريلُ هذا عدونا ، لأنه ينزلُ عليك بما يطلعكَ على أسرارنا ، ولو كان ميكائيلَ لآمنا به ، لأنهُ رسولُ الخصْب والسلام ، فنزل قوله : قل من كان عدواً لجبريل. . . . . فالمولى جلّ وعلا يبلغ رسوله محمداً أنْ يقول لليهود : منْ كان عدواً لجبريل فليمتْ غيظاً وكمداً ، فإن جبريلَ هو الذى ينزلُ بالقرآن على موطن الحفظ والفهم وهو قلبك ، بأمر الله وتيسيره ، مصدقاً لما سبقهُ من الكتب ، وهدًى من الضلال ، وبشرَى للمؤمنين بالجنة يومَ القيامة .

٤ — من كان عدواً لله بمخالفة أوامره ، وعدواً للمقربين إليه من الملائكة والرسل ، وعدواً لجبريل وميكائيل ، فإنه كافر مستحق سخطَ الله وعقابه ، وإنما كانت معاداةُ جبريلَ تشملُ عداوةَ ميكائيل مع أنهم لم يعلنوها ، لأن عداوة أحدهما عداوةٌ للآخر ، فكلاهما من الملائكة المقرّبين .

٥ — وحين قال عبدُ الله بن صُوريا َ لرسول الله : إنك جئتنا بشىء نعرفه ، ولم ينزلْ عليك من آية بيّنة فنتبعك بها ، نزل قوله : ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفرُ بها إلا الفاسقون ، والعجبُ من أمر هؤلاء اليهود أنهم لا يتورعون أن ينقضوا اليومَ ما أبرموهُ بالأمس ، فكلما عاهدوا رسولَ الله عهداً نقضهُ فريق منهم ، عاهدوا الرسول على ألا يعاونوا المشركين عليه ثم نكثوا ، واستخفوا بما عاهدوا ، ولا غرْوَ فهذا دأبهم ، وإن الذى ينقضُ العهودَ والمواثيق منهم ويكفرُ بالله أكثرُهم ، لا القليلُ منهم ، وليس هذا عجيباً منهم ، فإن ذلك ديدنهم وعادتهم فى كل وقت وحين .

(١٦)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا: رَاعِنَا، وَقُولُوا: انْظُرْنَا، وَاسْمَعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
لم يعملوا بما فى التوراة .	وراءَ ظهورهم
كأن اليهود لم يعلموا ما فى التوراة من أن محمداً نبىٌّ حقاً .	كأنهم لا يعلمون
يتقوّل المتمردون المعاندون من اليهود على ملك سليمان .	تتلو الشياطين على ملك سليمان
ما تعلم سليمان سحراً ، حتى يصير بمنزلة من ينسبُ إلى الكفر .	وما كفر سليمان
ولكن اليهود الذين كالشياطين هم الذين كفروا بتعلم السحر .	ولكن الشياطين كفروا
ولم ينزل الله شيئاً على الملكين كما زعم اليهود .	وما أنزل على الملكين
بلدة بسواد الكوفة .	بابل
اسمى الملكين المزعومين .	هاروت وماروت
إنما نحن ابتلاء من الله للناس .	إنما نحن فتنة
فلا تتعلم السحر .	فلا تكفر
وما السحرة .	وما هم
ما يجرهم إلى عصيان الله .	ما يضرهم
لَمن اختار السحر من اليهود وآثره على التوراة .	لَمن اشتراه
نصيب فى الجنة .	خلاق
باعوا .	شَرَوْا
أن اليهود .	أنهم
ثوَاب .	مَثوبة
أمرٌ من المراعاة ، أى لاحظنا .	رَاعنا
انتظرنا ، وتأن علينا .	انظرنا
يختص بنبوته ووحيه .	يختص برحمته

مجمل المعنى

١ — لما بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مرسلا من عند الله ، تُطابقُ أوصافه ما فى كتاب اليهود ، لم يعمل فريق منهم بما فى التوراة المبشرة بمحمد ، المنعوت فيها نعتاً واضحاً ، ونبذوا ما فيها من دلائل نبوّة محمد ، وتجاهلوها بغياً وعناداً ، مع علمهم أن نبوتهُ فوقَ مستوى الشك . . .

٢ — وعارضت اليهود رسولَ الله بالتوراة ، فلما اتفقت التوراة والقرآن فى كثير من أحكامهما ، اخترعوا معارضة أخرى ، فاتبعوا ما تقولته شياطينهم العصاةُ منهم على ملك سليمان ، بالنيل منه ، لتكذيب محمد ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره فى المرسلين ، فقال بعض أحبارهم : يزعم أن محمد أن ابن داود كان نبيًّا ، واللهِ ماكان إلا ساحراً ، وإن تسخير الرّياح والجن والطير له ، ما كان إلا أثراً من براعته فى السحر ، ولما كان السحرُ كفراً ، فقد برّأهُ الله بقوله : وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين المتمرّدين من اليهود هم الذين كفروا بتعلم السحر وتعليمه للناس ، وكانت طائفة منهم نبذوا التوراة ، وعُنُوا بتعلم السحر .

٣ — ومن خرافات اليهود التى تسمى بالإسرائيليات ، التى دسوها وزيفوها ، القصة الآتية :

وهى أن ملكين يسمى أحدهما هاروت ، والآخر ماروت ، نزلا إلى الأرض ببابل — وهى مدينة بسواد الكوفة — لتعليم الناس السحر ، ابتلاء من الله تعالى ، وكانا ينصحان لمن يعلمانهم من الناس بقولهم : إنما نحن ابتلاءٌ وامتحان ، فلا تكفر بتعلم السحر واستعماله ، لئلا تكون مثلنا ، فتعلم الناسُ منهما من السحر ما يكون سبباً فى التفرقة بين المرء وزوجه ،

ولكنهم لا يستطيعون أن يضروا به أحداً ، أو يحدثوا أثراً ، إلا بأمر من الله تعالى ، ويتعلمون ما يضرهم ، لأن العلمَ بالسحر قد يجرّ إلى العمل به ، فيؤدى إلى عصيان الله ، كما أنهم يتعلمون مالا ينفعهم ، لأن مجردَ العلم به غيرُ مقصود لذاته ، فلا نفع فيه .

هذه القصة التى دسّها اليهود فى أساطيرهم ، قد ردّ الله عليها بقوله : وما أنزلَ على الملكين ، وما هنا : نافية ، نفتْ حدوثَ القصّة من أوّلها إلى آخرها ، فليست إلا حديثَ خرافة ، وهى كما قال الفخر الرازى : فاسدة مردودة .

٤ — ولقد علمَ اليهود أن من استبدل بالتوراة ، تعلّم السحر ، محرّمٌ عليه دخولُ الجنة ، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم ، تعلمُ السحر ، وإيثارُهم الضّارَّ السّيءَ العاقبة على المفيد النافع لو تدبروا فى أنفسهم ، ولو أنهم آمنوا بالقرآن ، واتقوْا عقاب الله بترك معاصيه ، كنبذ التوراة وراءَ ظهورهم ، وتعلم السحر ، لأثيبوا مثوبة من عند الله ، ولكان ذلك خيراً لهم مما باعوا به أنفسهم ، واختاروه لها ، لو كانوا يعلمون أنّ ثوابَ الله خيرٌ لهم وأبقى ، ولم يتجاهلوا حقيقة ما سيصيرُون إليه من العذاب الأليم .

٥ — وكان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقنهم شرائع الدين وأحكامه : رَاعنا : أى لاحظنا وتأنّ علينا فيما تلقننا إياه حتى نفهمه ، وسمع ذلك اليهودُ فوجدوا فى هذا التعبير فرصةً سانحة لهم ، ليسخروا من الرسول ويتضاحكوا ، فكانوا يخاطبونه بقولهم : رَاعنا ، ويمدون النون : يريدون يا راعنا ، وهى كلمة عبرية ، معناها : يا أحمق ، فهم يقصدون سبه بنسبة الرعونة والحمق إليه ، وسمعهم سعدُ بن عبادة يكرّرونها ، فقال لهم : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذى نفسى بيده ، لئن سمعتها من رَجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لأضربنّ عنقه ، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنُهى المسلمون عن استعمال هذه الكلمة ، وأمرُوا أن يقولوا للرسول : انظرْنا : منعا للبس ، وإبعاداً عن المشابهة ، وطلب منهم أن يسمعوا ما أمروا به سماعَ قبول ، أما الكافرون الذين أهانوا الرسولَ وسبُّوه ، فلهم عذاب مؤلمٌ وجيع يوم القيامة .

٦ — وكان جماعة من اليهود بعد أن نبُه أمرُ الرسول ، يظهرون المودّة للمؤمنين ، ويزعمون أنهم لا يحبون لهم إلا الخيرَ ، فبيّن الله خبثَ طويتهم ، وفضح كذبهم فيما تظاهروا به ، لما خالط قلوبهم من الحسد والكراهية ، بأنهم والمشركين لا يحبون أن ينالَ المسلمين أىّ خير من عند الله ، ويدخل فى مفهوم الخير الوحىُ الذى كان ينزل على الرسول ، واللهُ يختصَ برحمته منْ يشاء من عباده ، فينزل عليه الوحى ، ويعلمهُ الحكمة ، ويؤيده بنصره ، واللهُ ذو الفضل العظيم .

(١٧)

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ، إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى، مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
إن نُنْسِهِ التعبد بقراءة آية أو بحكمها .	ما نَنسخْ من آية
نتركها فلا نبدلها .	نُنسِها
بما هو خير للناس فى النفع والثواب .	بخير منها
بسؤال اليهود موسى : أرنا الله جهرةً .	كما سئل موسى من قبل
أخطأ الطريق الواضح ، والسواء فى الأصل : الوسط :	ضَلَّ سواءَ السبيل
يعيدونكم .	يرُدونكم
حتى يأتى أمر الله بقتالهم .	حتى يأتى اللهُ بأمره
تجدوا ثوابه .	تجدوه
من اليهود .	هُوداً
حرف جواب لإثبات ما نفوْه .	بلَى
انقاد لأمر الله .	أَسلَمَ وجهه
ليست على شىء من الإيمان يعتد به .	ليست النصارى على شىء
الفريقان من اليهود والنصارى .	وهم
قال المشركون مثل قولهم .	قال الذين لا يعلمون مثل قولهم .

زعم المشركون واليهودُ أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمرهم بخلافه ، وأنه يقولُ اليوم قولا ، ثم يرجعُ عنه غداً ، وما هذا القرآن إلا كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضُه بعضا ، فنزل قوله : ما ننسخ من آية . . . . والنسخ يكون :

١ – إما بالتلاوة دونَ الحكم، كآية : الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما ألبتة، جزاءً بما كسبا، نكالا من الله، واللهُ عزيزٌ حكيم.

٢ – وإما بالحكم دونَ التلاوة، كما فى آية : والذين يتوفوْن منكم ويذرُون أزواجاً، وصيةً لأزواجهمْ، متاعاً إلى الحوْل غيرَ إخراج، فإنها منسوخة بقوله : والذين يتوفوْن منكم ويذرُون أزواجاً، يتربصنَ بأنفسهنّ أربعة أشْهر وعشراً، وكما فى قوله : يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتمُ الرسولَ فقدّموا بين يدىْ نجواكم صَدقةً، فإنها منسوخةٌ بما وَرَدَ بعدها من من الآيات فى سورة المجادلة.

٣ – وإما أن يكون بالحكم والتلاوة معاً كآية : عشرُ رَضَعات معلومات يحرّمنَ، فإن حكمها منسوخٌ بخمس رَضَعات فالعشر منسوخ التلاوة والحكم، والخمس منسوخ التلاوة دون الحكم.

رَوَى مسلمٌ قال : نزل فى القرآن عشر رضعات معلومات، فنسخ من ذلك خمس رَضَعات إلى خمس رَضَعات معلومات، فتوفىَ رسولُ الله والأمرُ على هذا، وروى مثلَ هذا المعنى الترمذىّ وابن ماجة.

وقد أجمع السلف المشرّعون على جوَاز النسخ فى الأحكام، على حسب ما تقتضيه الظروفُ والأحوالُ فى عهد الرسول، فى الأوامر والنواهى، والحلال والحرام، والمباح والمحظور، وجاء فى القرآن الكريم : وإذا بدلنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلمُ بما ينزّل، قالوا : إنما أنتَ مفتر، أما الأخبارُ فلا يكون فيها ناسخٌ ولا منسوخ، لاستحالة الكذب على الله تعالى.

مجمل المعنى

١ – إنْ نبدل حكمَ آية فنغيره، أو نترُكْ تبديلهُ فنقرّه على حاله، نأت بحكم خير لكم من حكم الآية التى نسخناها فغيرْنا حكمها، رعايةً لمصلحة العباد، فى مختلف الظروف والأوقات، فإن الحكم الذى شرع

فى وقت لشدّة الحاجة إليه ، ثم زالت الحاجةُ إليه فى وقت آخر ، من الحكمة أن ينسخَ ويستبدلَ ، بما يوافق الوقتَ الآخر ، إما لخفته عليكم ، ووضع ثقله عن كاهلكم ، كما فى فرْض قيام الليل على المؤمنين إلا قليلا منه ، فى قوله : يأيها المزملُ قم الليل إلا قليلا ، نصفهُ أو انقصْ منه قليلا ، أو زد عليه ؛ فنسخنا هذا الحكم ، وخففنا هذا العبء عنكم ، وجعلنا القيامَ تطوعاً ، وإما لعظم ثوابه وكبير أجره ، من أجل مشقة القيام به ، كفرض صيام ثلاثة أيام كلّ شهر خلا يومَ عاشوراء ، فقد نسخناه ، واستبدلنا به صيام َشهر رمضانَ كلّ سنة ، وهو وإن كان أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات فى السنة ، لكنه خيرٌ لكم ، لزيادة ثوابه وعظيم أجره ، أوْ نأت لكم بحكم يستوى الأجرُ عليه ، مع أجر حكم نسخناه ، كالتحوّل فى الصلاة عن شطر بيت المقدس إلى شطر المسجد الحرام فى مكة ، فليس أحدهما أكثر مئونة من الآخر ، أو أخفّ منه ، إذ الأمران مستويان .

٢ — ألم تعلم يا محمد أنى قادر على تعويض عبادى عما نسخته من الأحكام بما هو خير لهم وأجدى ، مراعاةً لمصالحهم ؟ فإن النافع فى وقت ربما لا يكون صالحاً فى وقت آخر ؟ ألم تعلم يا محمد أن لى السلطانَ القاهر فى السموات والأرض ، أفعلُ ما أشاء ، وأحكمُ بما أريد ، وأتصرف فى أمور الناس أمراً ونهياً ، وإيجاداً وعدَماً ، وأجريها على حسب ما يلائم مصالحهم وأحوالهم ، وليس لهم غيرى مالكٌ ولا معين ؟ وذكر الولىّ مقترناً بالنصير ، سببه أن المالك ربما لا يقدر على النصرة ، والنصير ربما لا يكون مالكاً .

٣ — كان بعضُ المسلمين سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن بعض أشياءَ لا خيرَ لهم فى البحث عنها ، أو معرفة تفاصيلها ، كتفاصيل أسباب النسخ مثلا ، فمنعهمُ الله أن يلجوا فى الجدل ، أو يشغلوا أنفسهم بأسئلة

ربما أدت إلى التشدد عليهم فى بعض الأحكام ، ولقد أدت الأسئلة التى توالت على موسى ، كسؤالهم أن يروا الله عياناً ، إلى كفر كثير من بنى إسرائيل ، فلا يليق بالمسلمين أن يفعلوا فعلهم ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان ، بالخوض فيما لا يجدى ، المؤدّى إلى التشكك ، ويترك النظرَ فى الآيات البينات المنزلة لرعاية مصالح العباد ، فقد أخطأ الطريقَ السوىّ ، وحاد عن الطريق المستقيم .

٤ — تمنى كثيرٌ من أحبار اليهود أن يردّوكم أيها المسلمون إلى الكفر بعد إيمانكم ، حسداً من عند أنفسهم المجبولة على الشر ، بما أصابهم من ضياع سلطانهم وانتقاله إليكم ، من بعد ما تبين لهم الحق بالمعجزات ، والنعوت الصريحة التى فى التوراة ، فلا تهتموا بأمرهم ، وأعرضوا عن مجاراتهم ومكايدهم ، إلى أن يُنسخَ أمر الله بالعفو والصفح ويأذن لكم فى قتالهم ، وضرب الجزية على من لم يسلم منهم ؛ إن الله قدير على كل شىء ، وأقيموا الصلاة وأعطوا الزكاة ، وإن تقدموا لأنفسكم خيراً كصلاة أو صدقة ، تجدوا ثوابهُ عند الله ، فإنه مطلع على أعمالكم ، لا يضيعُ عنده عملُ عاملٍ منكمْ من ذكر أو أنثى .

٥ — وقالت اليهود : لن يدخلَ الجنة إلا من كان من اليهود ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى ، وزعم كلّ فريق أن دخول الجنة محصورٌ فيهم ، وهى أمانىّ باطلة ، لا دليلَ على تحققها ، فأمر الله رسوله أن يطلب منهم البرهان على اختصاصهم بدخول الجنة إن كانوا صادقين ، وردّ عليهم مثبتاً ما نفوه ، بأن من أخلص لله نفسه ، ولم يشرك به غيرَه ، وهو محسن فى جميع أعماله ، فله ثوابها عند ربه ، لا يضيعُ ولا ينقصُ ، ولا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزنون .

٦ — وقدمَ وفدٌ من نصارى نَجرانَ على المدينة ، وأتاهم أحبارُ اليهود ، فتناظروا بين يدى الرسول وتسابّوا ، وأخذ كل منهم يؤيد دينه ، ويسفه دين الآخر ، ويدعى بطلانه ، وكل منهم يتلو الكتاب المؤمن به ، فأنكر اليهود

الإنجيل ونبوّةَ عيسى ، وأنكر النصارى التوراةَ ونبوّة موسى ، وأعلن كل للآخر أنه ليس على شىء من الحقّ ، كذلك قال المشركون عبدة الأصنام مثل قولهم ، فى إنكار الأديان كلها ، وبطلان ما يخالف عقيدتهم ، فالله يحكم بين هذه الطوائف الثلاث فيما اختلفوا فيه يوم القيامة .

(١٨)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا؟ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ. لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ، إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً، سُبْحَانَهُ! بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ! كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ. وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، قُلْ: إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ،

وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سَعىَ فى خرابها	خربها بالهدم أو التعطيل .
ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين .	ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا فى خشية وخضوع .
فثم وجه الله	فقد ولوا وجوههم نحو جهة يرضاها الله .
واسع	يَسعُ فضلهُ ورحمتهُ كل شىء .
سبحانه	تنزيهاً له عنْ أن يتخذ ولداً .
قانتون	منقادون مطيعون .
بديعُ	مُبدع ، موجدٌ على غير مثال سابق .
قضَى أمراً	أراد أمراً .
الذين لا يعلمون	كفارُ مكة .
لولا يكلمنا الله	هلا يكلمنا الله .
آية	حجة على صدقك .
تشابهت قلوبهم	تماثلوا فى الكفر والعناد .

١ — كان الروم قد غزوا بيتَ المقدس وخرّبوه ، وقتلوا أهله من اليهود ، حوالى سنة ٧٠ بعدَ الميلاد ، وسبوْا نساءهم وأطفالهم ، وأحرقوا

التوراةَ ، ورموا فى بيت المقدس الجيفَ ، وذبحوا فيه الخنازيرَ ، وبقى خرابا إلى أن بناه المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب .

٢ — وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء نحو ستّ سنين على هجرته من مكة إلى المدينة ، يتحرّق شوقاً هو وصحابته إلى زيارة الكعبة ، ويرغبون فى الحج ، فأذّن فى الناس بأن يستعدوا للحج فى خلال شهر ذى القعدة ، وبلغ قريشاً أمرهم ، فامتلأت نفوسُهم خوفاً ، ودارت محادثاتٌ بينهم وبينَ الرسول ، انتهت بعقد صلح الحديبية — وهى قرية قريبة من مكة ، سميت باسم بئر هناك — ورجع الرسولُ هو وأصحابه عن مكة عامهم هذا ، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه للحج ، ويقيموا بمكة ثلاثة أيام .

مجمل المعنى

١ — لا أحدَ أظلمُ ممن تسبب فى منع ذكر الله فى مساجده ، إما بهدمها ، وتعطيلها عما أنشئت من أجله ، وإما بسعيه وإعانته فى خرابها ، وإذا كان هذا قد نزل فى أمر خاصّ ، فإنه يشمل كل من خرّب مسجداً ، أو عطله عن عبادة الله فيه ، أولئك الذين يفعلون هذا الفعل الذميم ، الذى يؤدى إلى سخط الله عليهم ، ما كان ينبغى لهم أن يرتكبوه ، وإنما كان الأجدر بهم أن يدخلوا هذه الأماكن المقدسةَ فى خشية وخضوع ، لا أن يجترئوا على اقتراف هذه المعصية ، التى تؤدى بهم إلى العار والصّغار فى الدنيا ، وإلى العذاب الشديد فى الآخرة ، وقد أنجز الله وعده فى الكفار ، فنصر الله رسوله عليهم ، ودانت للمسلمين رقابهم .

٢ — وطعنَ اليهود فى المسلمين لما حوّل الله القبلةَ من بيت المقدس إلى الكعبة ،

وعابوا عليهم صلاة النافلة على رواحلهم أينما اتجهت فى أثناء السفر ، فبين الله لهم أن نواحى الأرض كلها له ، لا يختص به مكان دون مكان ، فأينما ولى المسلمون وجوههم فى الصلاة ، فقد ولوا وجوههم نحو جهة يرضاها ، لأن الله يريد التوسعة على عباده ، ولا يضيق عليهم ، عليم بتدبير أمور خلقه ومصالحهم .

٣ — وزعم اليهود أن عزيراً ابن الله ، وهو يهودى كان يحفظ التوراة ، ولم يبق بعد وقعة بختنصر الذى خرب هو وجيشه بيت المقدس سنة ٧٠٨ قبل الميلاد من يحفظها ، فأملى عليهم من حفظه التوراة ، فقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله ، وادعى النصارى أن المسيح ابن الله ، وتقول المشركون بأن الملائكة بنات الله ، ألا سحقاً لهؤلاء القوم ، وتنزيهاً للواحد الأحد ، أن يكون له ولد ، بل هو خالق ما فى السموات والأرض ، وكل من فيها عبيد له ، مطيعون له ، خاضعون لمشيئته ، وهو موجد السموات والأرض ومبدعها على غير مثال سبق ، وله السلطان والنفوذ فيها ، فإذا تعلقت إرادته بشىء ، نفذت مشيئته على الفور .

٤ — وقال الذين لا يعلمون من جهلة المشركين ، والمتجاهلين من أهل الكتاب استهانة وعناداً : هلا يكلمنا الله ويعلمنا أنك يا محمد رسوله ، أو تأتينا آية تدل على نبوتك ، كأن تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، مثل هذا القول قاله من قبلهم من الأمم الماضية ، قالوا : أرنا الله جهرة ، وقالوا : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؛ تشابهت عقول هؤلاء ومن قبلهم بالمكابرة والعناد ، وتماثلت آراؤهم ، قد بينا الآيات لقوم لا يرون فى الآيات خفاء ، ويوقنون أنها منزلة من عند الله حقاً .

٥ — إنا أرسلناك يا محمد بالحق والهدى مبشراً بالجنة من أجاب دعوتك ، منذراً بالنار من عصى وعاندك ، فلا عليك إذا أصر الجاحدون أو كابروا ،

فلا يضق صدرك بمن لجّ فى الغواية وأصر على الكفر ، ولست مسئولا عن أصحاب الجحيم ، فما عليك إلا البلاغُ ، ولنْ ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع دينهم ، فقل لهم : إن هدى الله الذى هو الإسلام هو الهدى الصحيح ، لا ما تدعون إليه ، ولئن اتبعت أهواءهم الزائفةَ - فرضاً - بعد الذى جاءك من العلم بالدين الحق على لسان الوحى ، ما لك من الله من ولىّ يحفظك، ولا نصير يمنعك ، ويدفعُ عنك عقابه .

٦ - وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم أربعون من أهل الكتاب : اثنان وثلاثون من أهل الحبشة ، وثمانية من علماء الشام ، وأسلموا ، فبين الله أن الذين آتيناهمُ التوراة فلم يحرّفوها أو يغيرّوها أو يبدلوها ، ورأوْا فيها نعتَ النبى صلى الله عليه وسلم، وعلموا بمبعثه وأسلموا ، هؤلاء يقرءون التوراة حقّ القراءة ، من حيث الضّبطُ والتأملُ فى المعنى ، والتدبرُ فى الأوامر والنواهى ، فتأخذُ بمجامع قلوبهم ، أولئك يؤمنون بالتوراة التى لم يتناولها تحريف ، ومنْ يكفر بما جاء فيها فأولئك هم الخاسرون ، لمصيرهم إلى النار التى أعدها الله لهم .

٧ - يا بنى إسرائيل ، اذكروا نعمتىَ التى أنعمت عليكم . . . . . . إلى قوله : ولا هم ينصرون ، سبق شرحُ هاتين الآيتين فى ص ٤٧ من تفسير هذا الجزء ، وسببُ تكرارها أن الله بعد أن صدّر قصصهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم ، وبيّن أهوال القيامة، ختم الكلام معهم بتكرار النصح لهم ، والحضّ على اتباع الرسول .

(١٩)

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ◦ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ: أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدًا آمِنًا، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ◦ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَسْلِمْ، قَالَ:

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ، يَا بَنِيَّ ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ابتلى	اختبرَ وامتحن .
بكلمات	بأوامرَ ونواه كلفه إياها .
فأتمهن	فأدّاهن .
إماماً	قدوةً للناس .
ومنْ ذريتى	واجعل يا رب أئمة من ذريتى .
لا ينال عهدى الظالمين	لا تشملُ إمامتى الكافرين من ذريتك .
مثابةً	ملجأ ومعاذاً .
مَقام إبرهيم	الحجر الذى كان يقوم عليه إبراهيمُ فى أثناء البناء .
عهدنا إلى إبرهيمَ وإسماعيل	أمرناهما وكلفناهما .
طهّرا بيتى	اجعلاه طاهراً من كل ما يخل بقداسته .
للطائفين	لمن يَطوفون بالبيت .
والعاكفين	لمن يقيمون عنده أوْفيه .
قال : ومنْ كفر	قال الله : وأرزق من كفرَ .
القواعد	الأسس .
مسلمَيْن لك	منقادين لك .
أمةً	جماعة .

الألفاظ	شرحها
أرنا مناسكنا	علِّمنا شرائعَ عبادتنا فى أداء الحج .
آياتك	آيات القرآن .
والحكمة	وما فيه من الأحكام .
ويُزكيهم	ويُطهرُهم من الشرك .
ومَن يرغبُ عن ملة إبرهيم	لا أحدَ يترك دين إبرهيم .
سَفِهَ نفسهُ	جهل أن الله هو الذى خلقها وأنه تجب عليها عبادته .
اصطفيناه فى الدنيا	اخترناه رسولا من صَفوة عبادنا فى الدنيا .
أسْلِمْ	انقَدْ لله ، وأخلص له دينك .
ووصى بها	ووصى بملته .
اصطفى لكمُ الدينَ	اصطفى لكم دينَ الإسلام .

قصةُ بناء الكعبة

لما تزوج إبرهيمُ بهاجرَ، وولدت له إسماعيل، أسكنها هى وابنها الحجاز، وأنزلها فى المكان الذى أنشئت فيه مكة بعد ذلك ، وكان إبرهيم يتردَّد بينَ الشام حيثُ تسكن زوجته سارَة ، وبين الحجاز حيث تسكن زوجته هاجرُ وابنها ، وفى إحدى زياراته للحجاز ، أمر الله إبرهيم وابنهُ إسماعيل أن يبنيا الكعبة المشرَّفة فبنياها ، وهى أول بيت بُنِىَ لعبادة الله وحدَه ، وكان المكانُ الذى نزلَتْ فيه هاجرُ وابنها إسماعيل قفراً ، لا ماءَ فيه ولا زرعَ ، فدعا إبرهيمُ ربه أن يبعثَ إلى هذا المكان قوماً يعمرُونه، وأن يرزُقهم من الثمرات ما يكفى حاجتهم ؛ واستجاب الله دُعاءَه ، وأنبع بئر زَمْزَمَ ، فكانت القبائل العربية التى تمر

بهذا المكان تأخذ حاجتها من الماء ، ثم استوطنت إحدى القبائل وهى قبيلة جُرْهُمَ هذا المكان ، وتزوج منهم إسماعيل .

مجمل المعنى

١ — امتحن الله إبرهيمَ ببعض الأوامر والنواهى الشاقة ، كلفه إياها ليعوّده الجلدَ والصبر على تحمل المشاق ، كإلقائه فى النار ، وإسكان زوجته وابنه فى مكان قفر بالحجاز ، وذبح إسماعيل ، فأدّاهنّ خير أداء ، فقال له ربه : إنى جاعلك قدوة للناس يأتمون بك ويقتدون ، فطلب من الله أن يشملَ عطفهُ بعض ذريته ، فيكونَ منهم أئمة ، فنبههُ الله على أنه يكون من ذريته ظلمة لا يصلُحون أن يكونوا قدوةً للناس ، فلا تشملهم هذه الإمامة ، وإنما تنال الأبرارَ الأتقياء ، لأنهم هم الجديرون بأن يُقتدى بهم .

٢ — واذكر يا محمد أننا جعلنا الكعبة مكاناً يلتجئ إليه الخائف ، ومأمناً لا يتعرّضُ فيه أحدٌ لأهله ، يرى الرجل فيه قاتل أبيه ، فيحجزُه دينه أن يناله بسوء ، وأمرنا أمتك أن يتخذوا الحجرَ الذى كان يقومُ عليه إبرهيمُ حين ارتفع البناءُ مُصَلًى لهم ، يصلون خلفه ركعتى الطواف — وهو بعيد عن الحجر الأسود بسبع وعشرين ذراعاً — وهذا الحجر وإن كان ينقله إبرهيمُ من مكان إلى آخر فى أثناء البناء كلما انتقل إلى موضع آخر ، لكنه بعد انتهاء البناء وضعه فى جوف الكعبة .

٣ — واذكر إذ أمرنا إبرهيم وإسماعيل أن تكون الكعبةُ طاهرةً من كل ما لا يليق بقداستها ، باعتبارها مكاناً معدًّا لعبادة الله وحده ، حتى تكون مكاناً صالحاً لمن يطوف بها من الحضر والبدو ، والمقيمين عندها ، والمعتكفين فيها للعبادة ، والمصلين صلاةً ذات ركوع وسجود .

٤ — واذكر إذ قال إبرهيم : رب اجعل هذا القفر الذى لا زرع فيه بلداً يأمنُ فيه الخائف، ولا يسفك فيه دمُ إنسان ، ولا يظلم فيه أحد ، وارزُق من آمن من أهله بالله واليوم الآخر من الثمرات ما يجعله صالحاً للسكنى ، ولم يَقصر الله تعالى هذا الرزق على المؤمنين ، فقال : ومن كفرَ فإنى أرزقه ، وأمتعه قليلا فى هذه الدنيا ، ثم أسوقه رغم أنفه إلى عذاب النار ، فلا يجد عنها مَحيصاً لكفره، وعدم اعترافه بفضل من متعه بهذا النعيم ، وبئس المصير مصيره .

٥ — واذكر وقت أن كان إبرهيم وإسماعيل يرفعان أسس الكعبة ، ويقولان : ربنا تقبل منا هذا العمل الذى لا نبغى به إلا رضاك ، إنك أنت السميع لدعائنا ، العليم بصدق نيتنا، واجعلنا يا ربنا مخلصين لك ، منقادَين لأمرك ، واجعل بعضَ ذريتنا ممن تخفهم برضاك جماعة مطيعة لك ، وعرّفنا ما نتعبد به فى أداء الحج ، ووفقنا للتوبة إن فرط منا شىء سهوا ، إنك الذى تقبلُ التوبة من عبادك ، وتفيض عليهم من فيض رحمتك ، وابعثْ فى أمتنا المطيعة لك رسولا منهم ، يقرأ عليهم ما أوحى به إليه من آيات التوحيد والنبوة وغيرهما ، ويعلمهم القرآن، وما تكملُ به نفوسهم من العلوم والمعارف والأحكام ، ويطهرهم من دنس الشرْك ، إنك أنت الغالب القاهر ، ولا يصدُرُ عنك شىء إلا لحكمة أردتها ؛ ولم يبعث الله من ذرية إبرهيم وابنه إسماعيل نبياً إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ، أما سائر الأنبياء فهم من نسل يعقوبَ بن إسحقَ بن إبرهيمَ .

٦ — ولا يرغب عن ملة إبرهيمَ أحد فيتركها ، إلا من جهل أن نفسه قد خلقها الله ، وأن عبادته واجبة عليه ، فيستخف ويتهاون فى أدائها ، ولقد كان إبرهيمُ من صفوة عباد الله فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمنَ الصالحين ، الذين لهم الدرجاتُ العلا يوم القيامة ، ومن كان هذا حاله ، كان حقيقاً أن يُتبع ، فلا يعرض عن دينه إلا سفيه ، معرض عن التفكير

فى دينه ، فحين دعا إبرهيمَ خالقُهُ إلى الانقياد والطاعة له ، بادر إلى تنفيذ أمره ، وخالفَ أباه فى دينه .

٧ — ووصّى باتباع هذه الملة إبرهيمُ بنيه ، كما وَصّى يعقوب بنيه قائلا كل منهما : يا بَنى ، إن الله اختار لكم الدين الحق ، فلا تموتنّ إلا وأنتم ثابتون على إيمانكم به .

(٢٠)

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ قَالُوا: نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا: كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا، قُلْ: بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ. قُلْ: أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ؟. أَمْ تَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى؟ قُلْ: أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ؟ وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أم كنتم شهداء	أكنتم حاضرين أيها اليهود ؟
حضر يعقوبَ الموتُ	شهد علامات دنو الموت .
خَلَتْ	سلفت ومضت .
وقالوا	قال اليهود ، وقال النصارى .
قل : بَلْ ملة إبرهيم	قل يا محمد ، بل نتبع ملةَ إبرهيم .
حَنيفاً	مستقيما ، مائلا عن الباطل إلى الحق .
الأسباط	أولاد يعقوب الاثنى عَشر .
تَوَلّوا	أعرضوا .
شقاق	مناوأة ومخالفة .
فسيكفيكهمُ اللهُ	سيكفيك يا محمد أمرهم .
صبغة الله	الزموا فطرة الله .
مَن أحسنُ من الله صبغةً	لا صبغةَ أحسنُ من صبغة الله .
أتحاجونّنا فى الله	أتجادلوننا وتخاصموننا فى الله ؟
أمْ يقولون	أيقولون ؟ .
ومَن أظلم ممن كتم	لا أحدَ أظلمُ ممن أخفى .

مجمل المعنى

١ — هذه آياتٌ نزلت تكذيباً من الله لليهود فى دعواهم أن إبرهيم وأبناءه كانوا على ملتهم ، فوبخهم اللهُ على ادعائهم ، ومعنى هذا : أكنتم يا معشرَ اليهود المكذبين لمحمد ، الجاحدين لنبوته ، حاضرين حين احتضار يعقوبَ ، وسؤاله بنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ فأجابوه : نعبدُ إلهكَ وإلهَ آبائك إبرهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ، نعبدُ إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، ونحن له مستسلمون خاضعون ، مقرّون بالعبودية ، ولو أنكم — على سبيل الفرض — حضرتموهم ، وسمعتم ما قاله يعقوبُ لهم ، لعلمتم أنكم كاذبون فى ادّعائكم أن إبرهيمَ وبنيه كانوا يهوداً ، فلا تدّعوا على أنبيائى ورسلى الأباطيل ، ولا تنحلوهم اليهودية ، واعلموا أن إبرهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ قد مضَوْا لسبيلهم ، ولكل نفس ما كسبتْ ، وعليها ما اكتسبتْ ، وليس يغنيكم هذا عند الله شيئاً ، فاتركوا أمرهم ، فإنكم لا تسألون عن أعمالهم ، وإنما تسألون عما تقدّمون من أعمالكم ، لا تُثابون بثواب من أحسن ، ولا تؤاخذُون بسيئات من أساء ؛ وذكرُ إسماعيلَ هنا مع إبرهيمَ وإسحقَ مع أنه ليس أباً ليعقوب ، لأن العمّ بمثابة الأب .

٢ — وقالت اليهودُ للمسلمين : كونوا يهودا تهتدوا إلى الدين الحقّ ، وقالت النصارى للمسلمين : كونوا نصارى تهتدوا إلى الدّين الحق ، وهو تَرْديدٌ لدعوتهم التى أشرنا إليها فيما سبق بالصفحة ٨٦ من تفسير هذا الجزء من قولهم : لن يَدخلَ الجنةَ إلا من كان هوداً أو نصارى ، فأمرَ اللهُ رسوله أن يقول لهم على سبيل الردّ عليهم ، وتبيين ما هو أولى أن يقال : ليس الحقّ أن نتبعَ دينكم كما تقولون ، بل الحقّ أن نتبعَ ملةَ إبرهيمَ ، وأن نكون على دينه ، وهو الدين المستقيمُ المائلُ عن الباطل

إلى الحقِّ ، ولم يكن إبرهيمُ مشركاً مثلكم ، أما أنتم فمشركون . فقد زعم اليهود أن عُزَيراً ابنُ الله ، وزعم النصارَى أن المسيحَ ابنُ الله ، ومن كان مشركاً كان حقيقاً أن يرْفض دينهُ ؛ وحنيفا هنا : حالٌ من ملة إبرهيمَ ، وهى على وزن فعيل ، يستوى فيها المذكر والمؤنث .

٣ — قولوا لهم أيها المؤمنون : آمنا بالله ، وبالقرآن الذى أنزلَ علينا ، وبالصّحف العشر التى أنزلتْ إلى إبرهيمَ ، وآمنا بإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباط ، وهؤلاء وإن لم ينزلْ عليهم صُحُف ، فإنهم كانوا يتعبدون بالصّحف التى أنزلتْ على جدهم إبرهيم ، فكانوا بمنزلة من أنزلتْ إليهم ، والأسباط كما تقدم : هم الإثنا عشر سبطا أولادُ يعقوب ، وهم فى أبناء يعقوبَ بمثابة القبائل العربية فى أبناء إسماعيلَ ، وآمنا كذلك بالتوراة التى أنزلت إلى موسى ، وبالإنجيل الذى أنزلَ إلى عيسى ، وآمنا بما أوتى النبيون من المعجزات التى أيدهمُ اللهُ بها ، لا نفرّق بين أحد منهم ، كما فرّق أهلُ الكتاب ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، بل نؤمن بهم جميعاً ، ونحن خاضعون لله ، مذعنون له ، منقادون لأمره ونهيه .

٤ — فإن آمن اليهودُ والنصارَى بمثل هذا الإيمان الذى سبق ذكرُه ، من الإذعان لله ، والإخلاص له ، وعدم التفرقة بين الأنبياء ، فقد اهتدوا ، وعرَفوا أن الحقّ هو ما عليه المسلمون ، وإن أعرضوا عن هذا الإيمان ، فما هم إلا قومٌ مشاغبون مناوئون ، لا يبغون إلا الخلافَ والنزاعَ ، وشقَّ عصَا الطاعة ، فسيكفيكَ اللهُ أمرهم يا محمد ، ويريحك من عنادهم ، وحسبك الله من كاف ، وينجز وعده لك بالنصر والغلبة عليهم ، وقد كفاه الله شرّهم ، بقتل بنى قرَيظةَ ، وإجلاء بنى النضير ، وضرْب الجزية عليهم ، وهو السميع لما تدعو إليه ، العليمُ بما تُوالى من بذل الجهد فى إظهار دينه ، وإعلاء شأنه .

٥ – والزموا صبغةَ الله التى صَبغَ الناسَ عليها ، وهى الفطرةُ السليمةُ التى فطروا عليها ، بحيثُ لو تركوا وما خلقوا عليه ، لأدّت بهم فطرتهم إلى الدين القيم ، وهو دينُ الإسلام ، لا الصبغةُ التى تصبغُ بها أبناؤهم التى تسمى بالمعمودية ، وهى غمسهم فى ماء أصْفر ، يتطهرون به ، وهى كالختان لغيرهم ، وليس هناك صبغةٌ أحسن من صبغة الله ، لأنها صبغةُ الإسلام ، ونحن أيها المؤمنون موحدون، مطيعون ، خاضعون ، لا نستكبرُ عن اتباع أمره ، ونعترفُ بجميع أنبيائه ورسله .

٦ – كان أهل الكتاب يقولون : الأنبياء كلهم منا ، ولم تكن الأنبياءُ من العرب ، فلو كان محمد نبيًّا لكان منا ، فأمر الله رسولهُ أن يقول لهم : أتجادلوننا فى أمر الله ، واصطفائه نبياً من العرب دونكم ، وهو ربنا وربكم ، ولا يختصّ بقوم دون قوم ، ويصْطفى من عباده للرسالة من يشاء ، ولنا أعمالنا نجازَى بها ، ولكم أعمالكم تجازَوْن بها ، فلم تُنكرون علينا أن يكرمنا الله باختيار نبيّ منا ؟ ولم تستبعدون أن يكون فى أعمالنا ما يستحقّ الإكرام ، فتكونَ النبوةُ فينا ؟ ولم لا تكون أعمالكم لا تستحق شيئاً عند الله ، فحرمكم إياها ؟. إننا نحن مخلصون لله فى الدين والعمل ، فنحن أجدرُ منكم بأن يكون الرسول منا ، وفى الكلام إفحامٌ لليهود بالحجة الواضحة ، وتبكيتٌ لهم على الجدل فى غير طائل .

٧ – أيقول اليهود والنصارى : إن إبرهيم وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ كانوا يهوداً أو نصارى ؟ ويغالطون مغالطةً تاريخية لا تصدُرُ عن عاقل ، مع أن الله يقول : ما كان إبرهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلما ، وما كان من المشركين ، ويقول : يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبرهيمَ ، وما أنزلت التوراة والإنجيلُ إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ فقل لهم يا محمدُ تسفيهاً لرأيهم ، وإبطالا لزعمهم : أأنتم أعلمُ أم الله ؟ إنه لا أحدَ أظلمُ ممن أخفى شهادةً من الله ، مدونةً عنده فى الكتاب الذى بين

يديه ، على أنَّ من أخفى شهادة الله لإبرهيمَ فى أنه ليس يهودياً ولا نصرانياً ، لا يبعد عليه أن يكتم شهادةَ الله فى محمد ، وكلتاهما صريحتان فى كتب أهل الكتاب ، وما اللهُ بغافل عما يعملون ، فهو لا يترك أمرَ هؤلاء من غير أن يعاقبهم أشد عقاب .

٨ ــ تلك أمة قد خلت . . . . . . سبق شرح هذه الآية فى ص ١٠١ من تفسير هذا الجزء ، وكررت للمبالغة فى التحذير ، والزجر عن الافتخار بآباء لا يمتون إليهم بصلة الدين ، والله أعلم .

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثاني

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
مراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول

(١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ : لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
السفهاءُ من الناس	الجُهَّالُ من المشركين والمنافقين واليهود .
ولاَّهم	صرَفهم وحوّلهم .
المَشرقُ والمغربُ	المقصودُ أن لله جميعَ الجهات وله مُلكُ السموات والأرض .
وكذلك	وكما هدَيناكم إلى الإسلام .
وَسطاً	خياراً عدُولاً .
شهداءَ على الناس	تشهدون على الناس من الأمم الماضية أن رسلهم بلغتهم .
شهيداً	شاهداً أنه بلّغكم .
ينقلب على عَقبيه	يرجع إلى الكفر .
وإن كانت لكبيرةً	إن التَّوليةَ إلى الكعبة كانت كبيرةً عند من لعب الشيطانُ بعقولهم .
ليُضيعَ إيمانكم	ليضيعَ أجرَ صلاتكمْ إلى بيت المقدس .
تقلُّب وجهك فى السماء	رفعَ بصرك إلى السماء من وقت إلى آخر ، منتظراً الأمرَ باستقبال الكعبة .
شطرَ	جهة .
الحرَام	المحرم فيه القتالُ

قبلة المسلمين فى الصلاة

فُرضَت الصلاةُ على المسلمين بمكة فى ليلة الإسراء ، قبلَ الهجرة النبوية بنحو سنة ونصف ، وكان المسلمون يتجهون فى صَلاتهم نحو الكعبة ، فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أمرُوا أن يستقبلوا بيت المقدس تألفاً لليهود ، الذين كانوا كثيرين بالمدينة وما حَولها ، ولهم بعضُ النفوذ والسلطان ، فصلَّوْا إليه نحو ستة عشرَ شهراً . وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَحابته يتحرقون شَوقاً إلى الاتجاه نحو الكعبة ، لما لها عندهم وعند آبائهم وأجدادهم منْ قبلهم من المكانة والقداسة ، ولأنها بيتُ الله الذى أقامهُ جدُّهم إبراهيمُ مع ابنه اسماعيل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يرفعُ بَصرَه إلى السماء ينتظر أمرَ الله على لسان الوحْى ، بالتحول إلى الكعبة ، ولا سيما بعد أن كثر لغط اليهود بقولهم : إن محمداً يتبع قبلتنا ، ويخالف ديننا ، فنزل الوحْىُ بأمر الله لرسوله أن يتجه المسلمون فى صلاتهم نحو الكعبة ، وتقوّل الكفار والمنافقون واليهود ، الذين ينتهزون كل فرصة للطعن فى الإسلام ، فاتخذوا من هذا التحول وسيلة للنيْل من الرسول ، فقالوا : إن محمداً فى حَيرة من أمره ، لا يَدرى : أين يتجه فى صلاته ؟ ! بل لقد ارتد لهذا السبب عن الإسلام ، جماعةٌ من ضعاف الإيمان .

مجمل المعنى

١ — سيقول الجهال من المنافقين واليهود ، ممن خَفت أحـلامهم ، وطاشت عقولهم ، ولجُّوا فى العناد ، وأعرضوا عن النظر إلى الحكمة فى تغيير القبلة من

بيت المقدس إلى الكعبة : ما الذى حوّل المسلمين فى صلاتهم عن قبلتهمُ التى كانوا عليها ؟ ! فقل لهم يا محمد : إن الله سبحانه وتعالى لا يختص به مكانٌ دون آخر ، والكونُ كله ملك له ، يأمر عباده بالتوجه فى الصلاة إلى أى جهة شاء ، ولا اعتراض عليه فيما يشاؤه ، يهدى من يريد هدايته إلى الطريق السوىّ ، فيسدّده ويوفقه إلى السير فيه .

٢ — وكما هديناكم يا أمةَ محمد إلى الصراط المستقيم ، وجعلنا قبلتكم بيتَ الله الذى أقامه إبراهيم — جعلناكم خياراً عدولا ، لتكونوا شهداء على الأمم الذين من قبلكم ، بما ورد فى كتاب الله الناطق بالحق ، المبلغ إليكم على لسان رسوله ، بأن الرسل قد بلّغوا ونصحوا ، وأدوا رسالتهم خير أداء ؛ ويكون الرسول شاهداً عليكم ، بأنه بلّغكم رسالته . وما جعلنا الفترة التى بين الاتجاهين إلى الكعبة ، وهى التى اتجه فيها المسلمون عقب الهجرة إلى بيت المقدس ، إلا على سبيل الاختبار ، ليستبين أىّ المؤمنين يتبع رسوله فيما يأمره به الله ، وأيهم يتشكك فى الدين ، فيتأثرَ بكلام الكفار فى أن محمداً حائرٌ فى توجيه المسلمين فى أثناء صلاتهم ، فيضعف يقينه ، وليتميز الثابت على دين الإسلام ، ممن ينكُصُ على عَقبيه ، ولقد كانت هذه التولية إلى الكعبة كبيرةً عند من لعب الشيطان بعقولهم ، ولم يتغلغل الإيمان إلى أعماق قلوبهم ، فارتدوا عن الإسلام ؛ أما الذين هداهم الله إلى إدراك حكمة أحكامه ، فقد ثبتوا على إيمانهم ، وما كان الله ليضيعَ ثواب صلاة من صلى نحو القبلة الأولى ، وهى بيتُ المقدس ، قبل التحول ، إن الله رءوف بالناس ، فلا يُضيّعُ أجورهم ، ولا يَحرمُهم ثوابَ صلاتهم ، كثيرُ الرحمة لعباده .

٣ — إننا لنرى اهتمامك يا محمد بشأن التوجه إلى الكعبة ورفعَ بصرك إلى السماء ، انتظاراً إلى إجابتك إلى ما تحب ، من تحويل القبلة نحو الكعبة ، وتشوُّقك إلى إصدار أمرنا بتحقيق ما تتطلع إليه ، فلنحوّلنكَ إلى القبلة التى تحبها

وتشوق إليها ، فاستقبل فى صلاتك الكعبة ، وأينما يكن المسلمون َفليولُّوا وجوههم نحوها ، وإن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحولَ هو الحق الذى فرضه الله على إبراهيم وذريته وسائر عباده ، ويعلمون أنك لا تأمر بباطل ، وأنك النبي المبشّر به فى كتبهم ، وما الله بغافل عما يعملون من تدبير وكيد ، لا تحيق عاقبته إلا بهم .

(٢)

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّكَ إِذَنْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ

يَتلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آية	حجة وبرهان .
يعرفونه	يعرفون أن البيتَ الحرامَ هو القبلة .
الحق	الحقيقة المكتوبة فى التوراة والإنجيل عن القبلة .
الممترين	الشاكّين .
استبقوا الخيرات	بادروا وتسابقوا .
من حيثُ خرجت	من أى جهة خرجت لسفرٍ أو نحوه .
كما أرسلنا	أتم نعمتى كإتمامها بإرسالنا رسولا منكم .
يزكيكم	يطهركم من الشرك .
الكتاب والحكمة	القرآن والأحكامَ
فاذكرونى أذكرْكم	اذكرونى بالصلاة والتسبيح ونحوهما ، أجازكمْ بالنعم والرحمة .

مجمل المعنى

١ — ولئن أتيتَ اليهودَ والنصارى بكل حجة وبرهان على صدقك ، فى أن أمر القبلة مُوحى به من عند الله ، ما اتبعوا قبلتك عناداً واستكباراً ، ومحال

أن تتبع قبلتهم ، وإن تحدثوا إليك أنك إن عدتَ إلى قبلتهم بايعوك وآمنوا بك مخادعة ومكراً ، ومحال ٌ أن يتبع اليهود قبلة النصارى ، وأن يتبع النصارى قبلة اليهود ، مادام كل منهما باقياً على دينه ، ولئن اتبعت ما يريدون وما يحبون من بعد ما استبانَ لك على لسان الوحى — على سبيل الفرض — إنك إذن لممن يرتكبون الظلم الفاحش ، وفى الكلام تحذير عام للناس أجمعين ، موجه ٌ إلى شخص النبىِّ عن متابعة الهوى ، وفيه استعظام ٌ لصدور الذنب عن الأنبياء ، وأن الله لا يقبل من أنبيائه أن يتابعوا أهواءهم ، ويخالفوا أمرَه ، لأنهم لا ينطقون عن الهوى .

٢ — الذين آتيناهم ُ الكتاب من توراة وإنجيل ، يعرفون أن البيتَ الحرام قبلتهم ُ التى أمروا باتباعها ، لأنها قبلة إبراهيم ، وقبلة الأنبياء بعده ، كما يعرفون أبناءهم ُ الذين لا يلتبسون عليهم بغيرهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق المكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهو أن الأنبياء قبل محمد كانوا يتجهون فى عبادتهم نحو الكعبة ، وهم يَعلمون أن لا حق لهم فى كتمانه ، ويتعمدون معصيةَ الله تبارك وتعالى ، فاعلم يا محمد أن الحق هو ما أعلمناك به ، لا ما تكتمه اليهود والنصارى ، فلا تكن فى شك فى أن القبلة التى وجّهناك إليها ، هى قبلة خليلى إبراهيم ، ومن أتى بعده من الأنبياء ، وليس المراد أن النبىَّ كان شاكّاً ، وإنما جرَى أسلوب القرآن على توجيه الخطاب إلى النبىِّ ، ويقصد به الأمر أو النهى للناس أجمعين .

٣ — والواجب على كل مسلم أن يتجه فى صلاته إلى الكعبة من أىِّ جهة ، إن شمالا أو جنوباً ، أو شرقاً أو غرباً ، أو ما بين هذه الجهات ، فتسابقوا أيها المسلمون إلى الطاعات ، وبادروا إلى ما يحقق لكم سعادة الدارين ، من استقبال القبلة ، والتزود للآخرة بالعمل الصالح ، لتستحقوا رضا الله عنكم يوم القيامة ، فإن الله يأتى بكم ، وبمن خالف قبلتكم وشريعتكم يومَ القيامة ، من حيث كنتم : فى باطن الأرض ، أو فى قمم الجبال ، أو فى أعماق البحار .

فيوفى المحسنَ إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، أو يصفح عنه ، إن الله على كل شيء قدير .

٤ — ومن أى مكان خرجت يا محمد ، لسفر أو غـيره ، فول وجهك جهة المسجد الحرام إذا صليت ، وإن هذا الأمر لهو الحق من ربك، وهو ما كتمه اليهود والنصارى ، وما الله بغافل عما تعلمون ، ومن حيث خرجت فولّ وجهك جهة المسجد الحرام فى الصلاة ، وأينما كنتم ، فى سَفر أو حَضر ، ركوباً أو مشاة ، فى المنازل أو فى المساجد أو فى العراء ، فولوا وجوهكم نحوه، وكرر هذا للتوكيد إزراء باليهود والنصارى ، وتبكيتاً لهم على ما يكتمونه من الحق الذى فى كتبهم، لئلا يكون لهم حجة عليكم فى إنكار النبوة ، إذا لم تتجهوا إلى المسجد الحرام ، فإن المثبت فى كتبهم ، أن الرسول المنعوت فى التوراة والإنجيل قبلته الكعبة ، وبهذا تسقط حجتهم ، كما تسقط دعوى المشركين بقولهم : ما بال محمد يدعى أنه على ملة إبراهيم ، ويخالف قبلته ، اللهم إلا المعاندين منهم ، الذين يقولون : إن محمداً ما تحول إلى الكعبة إلا مَيلا إلى دين قومه ، وحبّاً لموطنه الذى نشأ وعاش فيه حتى بعث رسولا ، فإن كان قد بدا له أن يرجع إلى قبلة آبائه ، فإنه لا شك معتنق دينهم ، والمعنى أنه لا يكون لأحد كلام عليكم ، إلا كلامَ هؤلاء المعاندين، وهو هراء ، لا يعتد به ، فلا تعتدُّوا بكلامهم ، وامتثلوا أمرى ، ولا تخالفوا ما أمرتكم به ، ولتكون طاعتكم سبباً فى أن أتم نعمتى عليكم ، بإجابة سؤلكم فى الاتجاه إلى قبلة أبيكم إبراهيم ، وهدايتكم إلى الحق الذى أنكره اليهود والنصارى ، ونصركم على أعدائكم ، ولتهتدوا دائماً إلى ما فيه خيركم وصلاحكم .

٥ — ويكون إتمام نعمتى عليكم فى التوجه إلى القبلة ، كإتمـامها فى استجابة دعوة أبيكم إبراهيم ، حين سألنى أن أبعث من ذرية إسماعيل رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتابة والحكمة ، فقد بعثت رسولا منكم ، وهو

محمد صلى الله عليه وسلم ، يتلو عليكم آيات القرآن ، ويطهركم من الشرك ، ويعلمكم ما فى القرآن من الحكم والأحكام ، ويعلمكم من أخبار الأنبياء وقصص الأمم الخالية ، ما لم تكونوا تعلمونه من قبل ، فاذكرونى أيها المؤمنون بطاعتكم إياى فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه ، أذكركم برحمتى إياكم ، ومغفرتى لكم ، واشكروا لى ما أنعمت عليكم ، من التوفيق إلى الإسلام ، والهداية للدين الذى شرعته لمن ارتضيتهم من عبادى ، ولا تجحدوا إحسانى إليكم ، فأسلبكم نعمتى التى أنعمت بها عليكم ، فإنى قد وعدت خلقى أن من شكر لى زدته ، ومن كفرنى حرمته ، وسلبته ما أعطيته .

(٣)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ : أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ : الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ، فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولنبلوَنكم	ولنمتحننكم ، ولنختبرنكم .
بشىء من الخوف	بقليل من خوف تتعرضون له من أعدائكم .
والجوع	بالقحط والجدب ، فلا تُغل أرضكم .
نقص من الأموال	نقص ما يصلُ إليكم من الأموال بسبب الجدب .
والأنفس	ونقص فى الأنفس منكم ومن ذَرارِيكم ، بالقتال والموت .
والثمرات	ونقص الثمرات ، بإصابة زراعاتكم ببعض الآفات .
صَلَوَاتٌ من ربهم	مغفرة من الله .
رحمةٌ	لطف وإحسان ونعمة .
الصفا والمرْوَة	جبلان بمكة .
من شعائر الله	من مناسك الحج إلى بيت الله ، ومتعبَّداته .
اعتمر	زار ، والاعتمار أقل من مناسك الحج ، فليس فيه وقوف بعرفة ، ولا مبيت بمزدلفة ، ولا رَمْىُ جمار بمنى .
يَطَّوَّفَ بهما	يسعى بينهما سبعاً .
تطوع خيراً	فعل عبادة غير واجبة عليه .
شاكراً	مقدرٌ له عمله ، فيثيبه عليه .
البينات	الدلائل المبينة على بعثة محمد فى كتبهم .
الهدى	ما تهدى إليه كتبهم من وجوب اتباع محمد .

الألفاظ	شرحها
الكتاب	التوراة .
يلعنهم الله	يبعدهم من رحمته .
اللاعنون	مَن يتأتى منهم اللعنُ كالمؤمنين وغيرهم .
وبينوا	أظهروا ما كتمه اليهود .
يُنظرون	يُمهلون .

مُجْمَلُ المعنى

١ — يأيها المؤمنون استعينوا على قَهر نفوسكم ، وزجرها عن المعاصى ، وعلى ما تتوق إليه من اللذات المحرمة ، وعلى الطاعات من صوم وجهاد ، استعينوا على ذلك بالصبر ، فهو خير علاج لكبح جماحها ، واستعينوا على قمعها عن الفحشاء والمنكر بالصلاة ، لتكرارها كلّ يوم عدة مرات ، يناجى الإنسان فيها ربه ، إن الله يُعين الصابرين على أداء الطاعات ، إن تغلبوا بقوّة إرادتهم على إخضاع نفوسهم الأمّارةُ بالسوء .

٢ — واستشهد فى وَقعة بَدْر أربعة عشرَ صحابياً ، ثمانيةٌ من الأنصار ، وستة من المهاجرين ، فنزل قوله تعالى : ولا تقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله . . . والغرضُ من هذه الآية الحض على الجهاد ، وبذل النفس فى رفع لواء الإسلام والمعنى : لا تقولوا لمن يُقتلون فى الذود عن حياض الإسلام وإعلاء شأنه : هم أموات ، فإنهم لنباهة ذكرهم ، وشرف قدرهم ، أحياءٌ حياةً يمتازون بها عن غيرهم ، لا نعرف حقيقتها ، ولا ندرك كنهها ، فهم فى نعمة سابغة ، وعطف شامل ، وسرور دائم ، بما يلقون من فضل الله ، ولكننا لا نحس ما يستمتعون

به ؛ وهم كالأحياء بينكم ، بمواقف الجهاد والشرف التى بذلوا فى سبيلها حياتهم ، وقدموا فيها مطيعين لله نفوسهم .

٣ — وقد جرت سنة الله فى خلقه ، أن يَبتلىَ عباده بالخير والشرّ . ليستبين أمرُ من يشكر ومن يكفر ، فمن شكر على الخير فإنما يشكر لنفسه ، لما يجنيه من ثواب الله ، ومن كفر فإن الله غنىٌّ عن شكره ، كريمٌ فى العفو عنه إن شاء ، وفى هذه الآية تعليمٌ للمؤمنين بأن يصبروا عند البلاء ، ويوطنوا أنفسهم على أن الحياة ليست خيراً محضاً ، ولا شراً محضاً ، وإنما هى مزيج منهما ، تجرى فيها أحكام الله على ما يشاء ، والمؤمن الموفق من يستفيد مما تجرى به الأقدار ، ويربى نفسه على تحمل الشدائد والأخطار ، فإن الله جلت قدرته يبتلى الناس بأنواع من المكاره ، ويأمرهم بالصبر ، لتستبين قوة جلدهم وثباتهم ، ويبشر الصّابرين الذين يجاهدون أنفسهم ، ويرضَوْن بقضاء الله فيهم ، ويسترجعون حين وقوع المصائب بهم ، بقولهم : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يبشرُهم بالثواب وحسن الأجر ، وقد ذكر الله فى هذه الآية أنواعاً من البلاء ، يصيبُ بها عباده ، امتحاناً لصبرهم ، واختباراً لقوة إيمانهم ، وهى :

(ا) خوْفٌ مما ينالُ الأنسان من عدوّه . (ب) ومجاعة تحدث بالجدْب والقحط . (ج) ونقص فى الأموال من جرّاء هذا الجدب . (د) ونقص فى الأنفس من جراء القتال فى حروب تقع بينهم وبين أعدائهم ، أو موت يصيب ذراريهم . (هـ) ونقص فى الثمرات من جراء بعض الآفات ؛ فالعاقل من صبر عند الابتلاء ، ومن شكر عند الإعطاء . وهؤلاء الصابرون تحفهم مغفرة الله ورحمته ، وأولئك هم الذين اهتدوا بهُدى الله ، وامتثلوا لقضائه واسترجعوا ، ووكلوا إلى الله أمرهم وفعلوا ما يستوجبون به من الله الثواب الجزيل .

٤ — الصفا والمروة : جبـلان بمكة ، كان عليهما صنّمان فى الجاهلية ،

فكان على الصفا صنم يسمى إسافاً على صورة رجل ، وعلى المروة صنم يسمى نائلةَ على صورة امرأة ، يزعم أهل الجاهلية أنهما ارتكبا منكراً فى الكعبة ، فسخهما الله حجرَين ، ووُضعا على الصفا والمروة للاتعاظ بهما ، فلما قدُمَ العهدُ بهما عبدوهما ، فلما جاء الاسلامُ ، وكسرَت الأصنامُ – تحرّج المسلمون أن يسعوا بين الجبلين ، كما كان يفعل أهلُ الجاهلية ، فنزل قوله تعالى : إن الصفا والمروة من شعائر الله ، والمراد : أن السعى بينهما من المناسك التى يجب أن يؤدّيها من يقصد بيت الله الحرام للحجّ أو العمرة ؛ فمن حجّ البيت أو زاره ، فلا إثمَ عليه بعد كسر الصنمين أن يسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ماشياً ، إلا لعذر ، على أن يكون البدْءُ من الصّفا ، ومن تطوع بعمل خير فوق ما يجب عليه عمله ، من طوّاف وغيره ، وزاد على ما فرضه الله عليه ، أو كرّرَ الحجّ والعمرة – فإن الله شاكر له ، فهو قادر على إثابة المحسنين ، ولا يضيعُ أجر العاملين ، ولا يخفى عليه شىء من أمر عباده .

٥ – وسأل بعضُ الصحابة نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما فى التوراة ، فكتموهم إياه ، فأخبر الله أن الذين يكتمون شيئاً من الآيات الواضحة المبينة ، من بعد ما أظهره للناس ، كبعث محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ، أولئك يُبعدهم الله من رحمته ، ويذيقهم أليم نقمته، ويستحقون لعنةَ كل إنسان ، إلا الذين تابوا وآمنوا بمحمد ، وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا ما كتموه ، كعبد الله بن سلاَم ، فأولئك يقبل الله توبتهم، ويغفر لهم ما سلفَ من ذنوبهم ، واللهُ كثير التوبة والرّحمة لمن تاب وأناب .

وهذه الأحكام وإن نزلت فى اليهود فهى عامة ، ويتدرج تحت هذا :

(١) إثم من كتم شيئاً من أحكام الدّين قصداً ،مع ضرورة الدّاعى إليه، ومن يفعل ذلك يرتكب ذنباً كبيراً يقذف به فى جهنم يوم القيامة ؛ فعلى العلماء

أن يعلموا الجهال ، وعلى المتعلمين أن يعلموا الأميين زكاة لهم عن علمهم ؛ ولا يجوز الضن بالعلم انتظارا لأخذ أجر.

(ب) شناعةُ حال من يكتم ما فيه نفع للناس .

(جـ) وجوب إظهار حكم الشريعة ، فيما يعرض من أمور الدنيا ، وحرمة كتمانه ، ما دام منْ يظهره آمناً على نفسه .

٦ — أما الذين كفروا وماتوا على كفرهم ، فهم يستحقون لعنةَ الله والملائكة والناس أجمعين ، ويستحقون أن يخلدوا فى النار أبداً ، فلا يخفف عنهمُ العذاب طرفة عين ، ولا يمهلون لتوبة أو معذرة .

(٤)

وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي
خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ،
وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ
أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّٰهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّٰهِ ، وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا ، وَأَنَّ اللّٰهَ
شَدِيدُ الْعَذَابِ . إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
الْعَذَابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللّٰهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اختلاف الليل والنهار	تعاقبهما ، وما يطرأ عليهما من الزيادة والنقصان .
الفلك	السفن ، المفرد والجمع سواء .
بما ينفع الناس	بما تحمل من الناس والأقوات والبضائع .
بعد موتها	بعد أن كانت مجدبة لا تُخرج نباتاً .
بَثَّ	نشر وفرق .
المسخَّر	المذلل ، المهيأ بأمر الله تعالى .
لآيات	لدلائل على قدرته .
أنداداً	أمثالا كالأصنام .
الذين اتُّبِعوا	الرؤساء القادة المستكبرون .
الذين اتَّبَعوا	الأتباع المستضعفين .
كرة	رجعة إلى الدنيا .
فنتبرأ منهم	نتبرأ من الرؤساء الذين كنا نقتدى بهم .
كذلك	كما يريهم الله العذاب .
حسرات	ندامات .

كان الكفار لا يفتئون يجادلون ويعاندون ، ويستكبرون عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له يوماً : صف لنا ربك ، فنزل قوله : وإلهكم إله واحد . . . فقالوا له : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فهات دليلاً نعرف به صدقك ، فنزل قوله : إن فى خلق السموات والأرض . . الآية .

مجمل المعنى

١ — وإلهكم المستحقُ للعبادة منكم إله واحد ، لا شريك له ، ولا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ، وهو المنعم بآلائه جليلها وصغيرها على جميع خلقه .

٢ — وها كم الدّليلَ على وحدانيته وقدرته :

(ا) فإن فى خلق السموات وما فيها من الكواكب ، وشدة التماسك والتجاذب بينها .

(ب) وفى خلق الأرض وما عليها من جبال تستخرجُ منها المعادن ، وتتخذُ منها الأحجار ، وتهيئتها لسهولة السير عليها .

(ج) وفى تعاقب الليل والنهار فى نظام مُحكم ، بحيث لا يعدُو أحدُهما على وقت الآخر ، واختلافهما زيادةً ونقصاً ، وظلمةً ونورا .

(د) وفى السفن التى تجرى على سطح البحر ، حاملةً الناسَ من جهة إلى أخرى ، وموقرَةً بما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ونحوهما ، مما ينتفع به الناس فى معاشهم .

(هـ) وفيما أنزل الله من السماء من مطر كثير النفع ، نشرب منه ، ونُروى به أرْضنا ، فتخصبُ بعد جدْبها ، وتنبت لنا الزروع التى نأكل من ثمارها ، ونستظلّ بأشجارها ، والحبوبَ التى نصنع منها طعامنا ، وتأكل منها دوابنا .

(و) وفيما بثّ فى الأرض من الحيوانات التى نُسخّرها لركوبنا ، ونشرب ألبانها ، ونتخذُ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابسَ وأثاثاً ومتاعاً .

(ز) وفى تقلب الرياح فى مهابها ، شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، حارةً وباردة ، وعاصفةً ولينة .

(ح) وفى سوق السحاب المهيأ بين السماء والأرض للمطر .

إن فى خلق هذه الأشياء لبراهين قاطعة على وحدانية الله ، وكمال قدرته ، وباهر حكمته ، وواسع رحمته ، لمن تدبر وتفكر وتبصر .

٣ — ولكنّ هناك قوماً طاشت عقولهم ، وفسدت طباعهم ، فاتخذوا من غير الله أنداداً ، بعبادتهم الأصنامَ التى لا تسمعُ ولا تعقل ، ولا تغنى عنهم شيئاً ، مقلّدين فى ذلك آباءهم من غير تعقل ، أو خاضعين لنفوذ رؤساء يسلبون منهم إرادتهم ، ويغلبونهم على أمورهم ، فهم يحبون عبادة هذه الأصنام ويعظمونها ، كحبهم للمولى جل وعلا ، فيسوّون بينها وبين الخالق القادر فى المحبة والطاعة والتعظيم ، ولكن الذين آمنوا بالله ورسوله أكثرُ حباً لله من حب المشركين لأصنامهم ، لأنهم قصروا محبتهم على الله ، فلا يشركون فيها غيره ، ولا يعدلون عن عبادته أبداً ، على أن عبادة الكفار لأصنامهم غيرُ مستقرّة ، فهم يعدلون عنها إلى الله إذا ألمّ بهم خطب ، أو نزل بهم مكروه ، فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، يعبدون الأصنام حيناً ، ويرفضُونها حيناً ، بل ربما أكلوها حين يشتد بهم القحط ، فقد حكى أن باهلةَ إحدى قبائل العرب ، كانت لهم أصنام من الحَيْس (وهو تمرٌ ينزَعُ نواهُ ويُدقّ مع أقط « لبن غنمى مأخوذ منه زُبده » ، ويعجنان بالسمن) ، فجاعوا فى قحط أصابهم ، فأكلوها .

٤ — ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باتخاذ هذه الأصنام للعبادة ، حين يعاينون العذاب يوم القيامة ، أن السلطان ، والنفوذ ، والقدرة والغلبة ، لله وحده ، يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، وأن الأصنام التى عبدوها لا تضر ولا تنفع ، لما عبدوها ، ولندموا أشدّ الندم على ما فعلوا ، ولعرفوا أن الله يعاقبُ العاصين المعاندين بعذاب شديد .

٥ — لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم حين يرْون المستكبرين من الرؤساء

الذين أضلّوا المستضعفين من الأتباع ، يتبرءون من هؤلاء الأتباع ، وقدْ رأوْا ما أعِدّ لهم جميعاً من العذاب ، وانقطعت الصلات بين الفريقين ، لهالهم أمر هؤلاء وهؤلاء ، كلّ منهم يلقى التبعة على الآخر ، يقول المستضعفون : لقد أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ، ولولاكم أيها الرؤساء لكنا مؤمنين ، فيجيبهم الرؤساء المستكبرون : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ، وهكذا يحاول كلّ من الفريقين أن يتنصّل من التبعة ، كما يحاول أتباع الملوك فى هذا الزمان أن يتبرءوا مما ارتكبوا من الجرائم والأوزار ، ويلقون تبعتها على هؤلاء الملوك ، ويقولون عنهم بعد أن ذهب ملكهم ، ودالت دولتهم ، هم الذين أمرونا وأضلونا السبيل ، ولكن هذا لا يعفيهم ولا يعفى ملوكهم .

٦ — حينئذ يتمنى هؤلاء المستضعفون أن يعود الفريقان إلى الدنيا ، ليتبرءوا من المستكبرين ، كما تبرءوا منهم حين عاينوا العذاب ، ولكن الله يخيبُ رجاءَهم ، وكما يريهم العذاب ، يريهم أن أعمالهم السيئة فى الدنيا عادت عليهم بالحسرة والندامة ، وإن خروجهم من النار للعودة إلى الدنيا من أجل هذا الغرض أمر مستحيل التحقيق .

(٥)

يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأرْضِ حلَالاً طَيِّبًا ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ . وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ، فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ، وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حلالا طيباً	أكلا حلالا يستطيبه الشرع .
خُطوات الشيطان	طرق الشيطان التى يزينها لكم .
السوء	المعصية .

الألفاظ	شرحها
الفحشاء	أقبح أنواع الذنوب .
أوَ لَوْ كان آباؤهم	أيتبعون الشيطان ولو كان آباؤهم ؟
مثل الذين كفروا	مثل من يدعو المعاندين من الكفار إلى الإيمان .
ينعق	يَصيح ببهائمه ويزجُرها .
بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً	بالذى لا يسمع إلا صوتاً لا يَفهمُ معناه كالبهائم .
الميتة	حرم عليكم أكل الميتة .
الدّم	دم الفصد من الحيوان ، يأخذونه ويضعونه فى مَعىً ويشوُونه .
ما أهِلّ به لغير الله	ما نودىَ عند ذبحه بغير الله .
غير باغ	غير خارج عن المسلمين ، أو غير متجاوز ما يُمسك الرمق .
عاد	متعدٍّ عليهم ، بأن يقطع عليهم الطريق مثلا .

حرّم قومٌ من المسلمين على أنفسهم لذائذ الأطعمة ، وثمينَ الملابس ، وبعضَ ما لم يحرمه الله عليهم ، تحرّزاً من الوقوع فى الإثم ، وحرّم آخرون على أنفسهم أكل ما كان محرما عليهم قبل إسلامهم ، كعبد الله بن سلاّم وأضرابه ، حرّموا على أنفسهم أكل لحم الإبل ، لأنه كان محرماً عليهم فى دين اليهود : فنزلت هذه الآيات .

مجمل المعنى

١ — يأيها الناس ، كلوُا ممـا فى الأرض ، مما يستطيبه الشرع ، وتقبله النفوس المستقيمة أكلاً حلالا ، ولا تعملوا بما يزيّنه لكمُ الشيطان ، من

تحليل الحرام ، وتحريم الحلال، إنه عدوٌّ بيِّنُ العداوة ، لا يريد من وَسوسته إلا أن يُوقِعكم فى الإثم، ويزيِّنَ لكمُ ارتكاب ما قبَّحه الشرع ، وجاوز الحدَّ فى قبحه من الكبائر ، وأن تفتروا على الله الكذب ، بأن تقولوا بأن الله حرَّم هذا وأحل هذا ، فتنسبوه إلى الله افتراء ، كما يفعل الكفار .

٢ – وإذا قيل للكفار : اتَّبعوا ما أنزل الله ، من توحيده ، والإيمان برسوله ، وتحليل ما أحله الله ، وتحريم ما حرَّمه ، جنحوا إلى التقليد ، فقالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، ونعمل ما ورثناه عنهم، وعجيب أن يؤْثِرُوا التقليد على ما يبدو لهم أنه أوْلى بالاتباع ، وأن يتبعوا آباءهم ولو كانوا جهلة لا يتفكرون فى أمر الدين ، الذى يدعو إليه العقل السليم ، ولا يهتدون إلى التفرقة بين الحق والباطل .

٣ – ومثلُ الذى يدْعو الكفار المعاندين إلى الهـدَى الذى فيه نفعهم وصَلاَحهم فلا يستجيبون له ، ولا يستمعون إلى دَعوته ، ولا يتدبرون وَعظه وإرشاده – كمثل من يصيح فى قطيع من إبل نافرة ، فهو يدعوها إلى معاطنها لتنعم بالمأكل والمشرب، فلا تلبى نداءه ، تسمعُ دَوِىَّ الصوت ولا تعرف مغزَاه ، ويصل إلى أسماعها صوته ولكنها لا تفهم معناه ، فللكفار آذان ، ولكنهم لا يسمعون بها ، ولهم ألسنة ، ولكنهم لا ينطقون بها عن اعتقاد وعلم ، ولهمْ أعين ، ولكنهم لا يبصرون بها آثار قدرة الله ، ولهم عقول ولكن لا يعقلون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ .

٤ – يأيهـا المؤمنون، كلوا مما أبحنا لكم أن تأكلوه من مستلذات ما رزقناكم، سوَى ما حرَّمَ عليكم ، وقوموا بحقوق الله ، شكراً له على ما رزقكم وأحلَّ لكم ، إن كنتم تخصونه بالعبادة، وتقرّون أنه مُولِى النعم ، فإن عبادته لا تتم إلا بالشكر على آلائه ، ولا تأكلوا ما حرم عليكم ، وهو :

(ا) لحم الميتة — ما عدا السمك والجراد — وهى التى تموت من غير ذبح شرعى، وذلك لاستقذارها، فتنبو عنها الطباع السليمة، ولأنها ربما ماتت من جرّاء مرض معد، تنتقلُ عدْواه إليكم، أو من عارض لا يؤمن ضررُه.

(ب) الدّم المسفوح، وهو الدمُ الذى ينزل من حيوان بشقّ عرق فيه، فيؤخذ الدّم، ويملأُ به المصرانُ، ويشوى ويؤكل، وحرّمه اللهُ لأن الدم مسرح الجراثيم، وقد يكون فيه من الجراثيم ما لا تميته حرارةُ النار، فتنتقل العدْوى من الحيوان المريض إلى السليم، ولأنه عسر الهضم جداً، ويستثنى مما تكوّن من الدم الكبد والطحال.

(ج) لحم الخنزير، لقذارته، فإنّ أشهى غذاء له القاذورات والنجاسات، وأكلَ لحمه يسبب ما يسمى بالدودة الوحيدة، كما أثبت العلم والتجربة، وهى دودة قتالة فتاكة، هذا إلى أنه أعسر اللحوم هضما، لكثرة ما يختلط به من الشحم، فليتعظ من يستطيبونه.

(د) ما نودى باسم غير اسم الله عند ذبحه، كما يفعل المجوس وعبّاد الأوثان، فهم ينادون باسم ما يعبدونه، وكما يقول بعضُ العوامّ حين يذبحون حيواناً نذروه لأحد الأولياء، فيقولون مثلا: يا سيد يا بدوى، إذا كان هو المنذور له، يرْجون أن يتقبل منهم نذْرَهم، ويقضى حاجتهم، فأكل لحمه محرّم، لأنهم ذكروا اسم غير الله واهب النّعم، الذى أحلّ لهم هذا الحيوان، وسخرَهُ لهم.

فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شىء مما حرمه الله، على ألاّ يبغى من الأكل التلذّذ، وعلى أن يكون غيرَ عاد، بأن يكون فى مكان يرتكب فيه معصية، كقطع الطريق مثلا، وبشرط ألا يتناولَ إلا ما يمسك الرمق ويبقى الحياة، فلا ذنبَ عليه، ولا يؤاخذهُ الله على ما أكل، وهذه الأصناف الأربعة، بعضُ ما حرّمه الله، وسيأتى لها تفصيل فى سورة المائدة.

(٦)

إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قليلًا ، أُولَئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلّا النّارَ ، ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القِيامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى ، وَالْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ ! . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ، وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ثمناً قليلا	عِوَضاً حقيراً .
لا يكلمهم الله يوم القيامة	يَغضب الله عليهم يوم القيامة .
ولا يُزكيهم	ولا يُطهرهم من ذنوبهم بالصفح عنهم .
العذابَ بالمغفرة	آثروا العذاب فى الآخرة على المغفرة ، بكتمان ما أنزل الله .

الألفاظ	شرحها
ما أصبرهم على النار ،	إن أمرهم لعجيب ، بارتكاب ما يؤدى بهم إلى النار .
نزل الكتاب بالحق	نزل التوراة صحيحة فحرفوها .
اختلفوا فى الكتاب	فرقوا دينهم شيعاً .
شقاق بعيد	شقاق بعيد المدى .

مجمل المعنى

١ ــ الذين يكتمون ما أنزل الله فى التوراة ، بتحريم ما أحله الله ، وتحليل ما حرمه الله ، وإنكار ما ذكر فى كتابهم من نعت محمد ، ويؤوّلون ما فى الكتاب ، ويحرفونه على حسب أهوائهم ، وعلى حسب ما يتناولونه من الرّشوة ، ويؤثرون على الحقيقة التى فى كتابهم عرَضاً حقيراً من أعراض الدنيا ، يأخذونه من جُهَّالهم ومرءوسيهم ، خشية أن يفقدوا رياستهم عليهم ،أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يكون سبباً فى دخولهم النار ، ويغضب الله عليهم يوم القيامة ، ويعرض عنهم ، ولا يطهرهم من ذنوبهم بالمغفرة والعفو ، ولهم عذاب شديد الألم ، وهذا الحكم يصدُق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ، لأن الغرض تقرير حكم عام .

٢ ــ أولئك الذين اتبعوا أهواءهم ، فاستبدلوا بالهدى ضلالا ، وبالمغفرة يوم القيامة عذاباً ، فما أعجبَ أمرَهمُ الذى يسوقهم إلى نار يخلدون فيها ؛ وما أغرَبَ عدَمَ مبالاتهم بسوء مصيرهم ؛ هذا العذاب الذين يصيرون إليه ، بسبب أن الله نزل التوراة بالحق ، الذى لا يشوبه باطل ، فحرّفوها وأوّلوها لمطامعهم الخبيثة الفانية ، وتخلفوا عن النهج المستقيم ، الذى كان يجب أن يسيروا فيه ،

وإن الذين اختلفوا فى الكتاب ، فاتبعوا ما يلائم أهواءهم، ونبذوا ما لا يوافق أهواءهم، أصبحوا شيعاً وأحزاباً ، كلٌ يؤيدُ مذهبه، ويسفه مذهبَ غيره ، وطبيعى أن يدب بينهم شقاق بعيدُ الشقة ، واسع المدَى .

(٧)

لَيسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَالمَلائِكَةِ وَالكِتابِ والنَّبِيِّينَ ، وَآتى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالمُوفُونَ بعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا ، والصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
البر .	اسمٌ جامع لكل معانى الخير .
أن تُولوا وجوهكم	أن تتوجهوا وقت الصلاة .
قِبَلَ المشرق والمغرب .	في المكان الذى يقابل المشرق ، أو يقابل المغرب . والغرض : الاتجاهُ إلى أى جهة .

الألفاظ	شرحها
ولكن البر من آمن بالله	ولكن البرَّ . برُّ من آمن بالله .
واليوم الآخر	يوم القيامة .
وآتى المال	أعطى المال .
على حبه	على حب صاحب المال لماله .
وابن السبيل	المسافر والضعيف .
والسائلين	جمع سائل ، وهو من ألجأته الضرورة والحاجة أن يسأل الناس .
وفى الرقاب	وفى سبيل الأرقاء والعبيد ، لفك رقابهم من الرِّق ، وجعلهم أحراراً .
البأساء	الفقر والشدة .
والضراء	المرض والزمانة ، أى العاهة .
حين البأس	وقت مجاهدة العدو فى الحرب
أولئك الذين صدقوا	أولئك الذين أخلصوا فى الدين ، واتباع الحق ، وتحرى البر .
هم المتقون	المجتنبون للكفر ، والمبتعدون عن الرذائل .

مُجملُ المعنى

١ – لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كان المسلمون يستقبلون وقت الصلاة بيت المقدس ، واستمروا على ذلك حوالى ستة عشر شهراً ، ثم نزل قوله تعالى : قد نَرَى تقلُّبَ وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها ، فولِّ وجهكَ شطرَ المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ، فحول المسلمون قبلتهم إلى المسجد الحرام .

٢ — وكان النصارى يستقبلون أيضاً وقت صلاتهم بيتَ المقدس من جهة الشرق ، كما كان اليهود يستقبلونه من جهة الغرب .

٣ — فلما حوّل الله قبلةَ المسلمين جهة المسجد الحـــرام بمكة ، أكثر اليهود والنصارى من الخوض فى أمر هذا التحويل ، وادّعى كل منهما أن البرَّ كلَّ البرِّ ، والخيرَ كلَّ الخير ، إنما هو فى التوجه إلى بيت المقدس ، من الجهة التى يتوجه منها .

٤ — فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، ليسفه رأيهم ، وليبين أن البرّ لا ينال بمجرد التوجه إلى أىّ مكان من أى جهة ، وهى قوله تعالى : (ليس البرّ أنْ تولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب) .

٥ — ثم رسم الله حدود البر الصحيح ، لأى إنسان مهما كانت عقيدته أو قبلته ، فى الجزء الباقى من الآية الكريمة متضمناً ثلاثة أمور :

أولا : صحة الاعتقاد .

وثانياً : صدق العوْن للعباد وحسن المعاشرة .

وثالثاً : تهذيب النفس .

أو بمعنى آخر متضمناً قيام كلّ إنسان بواجبه لخالقه ، وواجبه لنفسه ، وواجبه للناس .

(صدق الاعتقاد)

أما صحة الاعتقاد ، أو قيام الإنسان بواجب الخالق ، فقد بينها الله فى قوله: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين : فكل من كفرَ بالله ، أو أنكر يومْ الحساب ، أو كفر بملائكة الله أو كتبه المنزلة ،

ولم يؤمن بأىّ نبي أو رسول من أنبياء الله ورسله عليهم السلام، فقد هدَمَ أوّلَ ركن من أركان البرّ ، وأوْصَدَ أوّلَ باب من أبواب الخير .

(صدق العون للعباد)

وأما صدْق العَوْن للعباد ، أو القيام بواجب الناس ، فقد بينه الله بقوله : (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفى الرقاب) ، وقد رسم الله حد البر فى معونة العباد بأمرين :

الأول : بذل المال .

والثانى : تعيين أصحاب الحق فى هذا المال .

أما المال فلايكون من البرّ بمجرد بذله وإعطائه ، ولكن يجبُ أن يُعطىَ الإنسان من المال الذى يحبه ويحرص عليه ، وهو صحيحُ الجسم سليمُ البدن ، يأملُ فى العيش ، ويخشى الفقر ، وأن يعطىَ من خيار المال وأقومَه ، وأن يكون المالُ الذى يعطيه تبرعاً ، لا من الزكاة المفروضة عليه .

وأما أصحاب الحق فى هذا المال ، فهم :

الأقارب : سواء أكانوا فى احتياج إليه فى ضرورة العيش ، أم كانوا يرغبون فيه للتصوّن ، أو لسدّ مطالبَ تقتضيها حالهم الاجتماعية ، فعليه إن وجدوا العيش فقط ، أن ينفق عليهم فى طلب العلم ، إن كانوا لا يجدون نفقاته ، وعليه أن يجهز البنات للزواج بذوى الكفاية ، وعليه أن يعينهم فى دفع الكوارث ، والإنقاذ من الشدائد ، إذا يسرَ الله له فى رزقه ، ووسعَ فى عيشه .

٢ — واليتامى : وهم الذين حرموا منذ الصغر عطف الآباء ، وصدَعتْ قلوبهم فى طفولتهم وحشة الحياة ، وجفوةُ الأيام ، فعلى ربّ المال أن يؤنسهم بماله ، ويؤسّيهم بمعونته ، فإن كانوا محتاجين كان لهم بمنزلة الأب الرحيم ،

ينفق عليهم فيما يحتاجون ، ويسرهم فى كل عيد ، ويفتح لهم ذراعيه حدباً عليهم ، مترفقاً بهم ، وإن كانوا غير محتاجين أتحفهم بالهدايا التى تشرح صدورهم وتطيِّب خواطرهم ، وتجبر قلوبهم ، وتسر نفوسهم .

٣ — والمساكين : وهم الذين يملكون من الأموال ما يقع موقعاً من حاجتهم ، ولكنه لا يكفيهم ، فمن البرّ لذى المال أن يعينهم بماله على سدّ ما يحتاجون إليه .

وابن السبيل : وهو المسافر ، الذى قطع السفرُ ما بينه وبين ماله وأهله ، أو الضيف الذى لا يجد وهو بعيد عن مثواه ما يسدّ خلته ، فعلى صاحب المال أن يمدّه بما يدفع عنه حاجته ، ويذهب بشدته .

٤ — والسائلين : وهم الذين فاجأتهم شـــدة ، أو ألمّت بهم نازلة ألجأتهم إلى طلب المعونة ، وإن كانوا من ذوى الغنى واليسار . فعلى الموسر أن يجيب سؤلهم لدفع الشدّة ، وكشف النازلة عنهم ، قال صلى الله عليه وسلم : للسائل حقٌ وإن جاء على فرسه.

٥ — وفى فك الرقاب : أى إعطاء المال للعبيد الذين يرْضَى سادتهم أن يحرّروهم من الرّقّ ، نظير أن يعطوهم مالا يؤدونه إليهم ، أو إعطائه للأعداء المحاربين مقابل فك الأسرى ، وإطلاق سراحهم ، أو شراء الأرقاء وعتقهم ، ولا ريب أن خير المال هو ما ينفق فى إطلاق الأسير ، أو تحرير العبيد .

(تهذيب النفس)

أما تهذيب النفس أو قيام الإنسان بواجبه نحو نفسه فقد بينه الله فى قوله : وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرينَ فى البأساء والضراء وحين البأس .

ولا شك أن الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاةُ أداء حقّ معلوم حدده الله لمن عينهم من المحتاجين ، فأداؤه على خير وجه دليل على طهر النفس ،

ونقائها من شوائب الشح . وفى شعورها بحالة الجماعة ، وما يجبُ بين أفرادها من تعاون وتضافر ، والوفاء بما يرتبط به الإنسان بعهد بينه وبين الله ، أو بينه وبين غيره من الناس ، فى كل ما لا يحلُّ حراماً أو يحرمُ حلالا — دليلُ الثقة ، وآية الارتباط الوثيق ، بين الأسرة الإنسانية .

أما الصبر فإنه خير الخلال الإنسانية ، ولا سيما فى المواطن الآتية :

(ا) إذا أصاب الإنسانَ شدةٌ أو فقر .

(ب) وإذا حلّ به مرض أو عاهة .

(ح) وإذا اشتبكت الأمة فى حرب ، والتحمت مع العدو فى الضرب .

نعم إن الصبر فى تلك المواطن التى تكشف الخوَر والضعف ، وتبعث على الذّلة ، أو تدعو للفزع والجزع ، هو خيرُ ما يدل على قوة النفس وجلدها واحتمالها ، وهى أسمى غاية التهذيب ، وخيرُ صفات البر .

ثم أشار الله إلى الذين جمعوا إلى الإيمان فضيلة البذل والصبر ، ووصفهم بأنهم هم الذين صَدَقوا فى الدين ، واتباع الحق ، وعمل الخير ، وأنهم هم المتقون الذين وقاهم الله من الكفر ، وسائر الرذائل ، واصطفاهم بجميع أنواع الكمال الإنسانى .

(٨)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى : الحُرُّ بِالحُرِّ ، وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ ، وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كتب عليكم	فرض وشرع .
القِصاص	أن يعاقب الحاكم الجانى على الجناية بمثلها .
فى القتلى	بسبب القتلى .
فمن عفى له من أخيه شىء	فمن تسامح معه ولى الدم ، فرضى بالدية بدل القصاص .
فاتباع بالمعروف	فطلب الدية من غير عنف .
وأداء إليه بإحسان	دفع الدّية إلى ولى الدم من غير مماطلة .

الألفاظ	شرحها
ذلك تخفيف	العفو وأخذ الدِّيَة تيسير ونفع .
فمن اعتدى بعد ذلك	فمن قتل بعدَ العفو وأخذ الدية .
فله عذاب أليم	فله عذاب فى الدنيا بالاقتصاص منه ، وفى الآخرة بعذاب النار .
أولى الألباب	ذوى العقول الكاملة .

مُجملُ المعنى

١ — كان فى أهــل الجاهلية بغىٌ وطاعة للشيطان ، فكان الحىّ إذا كان فيه عزٌّ ومنعة ، فقتل لهم عبد ، وكان قاتله عبد قوم آخرين ، قالوا : لا نقتل به إلا حراً منهم . وإذا قتلتْ منهمُ امرأة قالوا : لا نقتلُ بها إلا رجلا ، وإذا قُتل منهم وضيع ، قالوا: لا نقتل به إلا شريفاً . وكان على هذا البغى حيَّان من أحياء العرب ،حدثت بينهما دماء ، وكان لأحد الحيَّين طوْل وقوة على الآخر ، فأقسموا لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد ، والذكرَ بالأنثى . فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية وأمرهم رسولُ الله أن يكون القصاص على أساس التكافؤ فى القتل ، وعلى أساس قتل من قتل ، كائناً من كان ، فلا يقتصّ من غير القاتل ، وإنما يجب أن يقتصّ من القاتل فقط ، فيقتل الرجل ، إذا قتل امرأة ، وتقتلُ المرأة إذا قتلت رجلا ، ويقتلُ العددُ الكثير فى الواحد إذا اشتركوا جميعاً فى قتله عمداً ، وقد قتلَ عمر سبعة برجل بصنعاء وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء ، لقتلتهم جميعاً ، وعلى الجماعة إذا وقع بينها قتيلٌ أن تدلّ على القاتل إذا عرفوه ، فإذا ادّعوا الاشتراك فى قتله قتلوا

جميعاً به ، لقد قتل علىٌّ الحرورية وهى (طائفة من الخوارج) ، بعبد الله بن خبّاب، لما ناداهم أن أخرجوا إلينا القاتل ، فقالوا : كلنا قتله ، فأمر علىٌّ أصحابه أن يقتلوهم جميعاً به .

٢ – ولا يزال هذا البغىُ الجاهلىُّ قائماً بين أهل الصعيد ، فى مصرَ ، فإذا قتل من أسرة قتيل ، عَمدَ أهله إلى كبير من أسرة القاتل ، أو عظيم فيها ، فقتلوه بقتيلهم ، وإن لم يكن هو القاتل، هذا إثمٌ وعدوان ، وبغىٌ بغير حق ، لا يرضى عنه الله ، ولا يقره الإسلام .

٣ – وتنفيذُ القصاص أمر واجب على الحاكم ، وليس لولى الدّم أن يقتصّ بنفسه، فإن فعل ذلك عذب فى الآخرة ، وعوقب فى الدنيا ، فلو ثبت القتل على شخص،فليس لأسرة القتيل أن تقتص منه ، فإن فعلت تعرّضت للعقاب فى الدنيا والآخرة ، لأن القصاص هو من واجب الحكومة ، والفرضُ والإلزامُ فى القصاص ، المفهومُ من قوله تعالى : كتب عليكم : أمرٌ موجه إلى الحاكم ، الذى عليه تنفيذ القصاص من القاتل ، حقناً للدماء .

٤ – والقصاصُ من القاتل حقٌّ لولىّ الدّم ، فإذا أراد تنفيذ القتل فى القاتل نفذ ، وله أن يعفوَ عنه ، ويتركَ المطالبة بقتله ، وفى هذه الحالة يأخذُ من القاتل دية القتيل .

٥ – وإذا عفا ولىّ الدّم عن القاتل ، ورضى بأخذ الدّية فعليه أن يتبعَ فى طلبها منه طريق اللين والمعروف ، لا طريقَ الشدّة والعنف ، كما أنّ على القاتل أن يدفع الدّيةَ بالإحسان ، ولا يسلك سبيل المماطلة والتسويف ، لأن الله حثّ ولىّ الدّم أن يحسنَ المطالبة ، كما حثّ القاتل أن يحسن الأداء فقال : فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان .

٦ — وقد كتب الله على بعض الأمم السابقة القصاص فقط ، وكتبَ على بعضها العفو والدية فقط ، ولكنه رحمة بالمسلمين خيّر ولىّ القتيل بين القصاص والعفو والدّية نفعاً لهم ، وتيسيراً عليهم ، وتخفيفاً ورحمة بهم .

٧ — وعليكم أيها المسلمون أن تلتزموا الحدود التى بينها الله لكم فى القصاص ولا تتجاوزوها ، فلا يجوز أن ينفذ القصاصَ فى القاتل غيرُ الحاكم ، ولا يجوز أن يُقتلَ غير القاتل ، ولا يجوز أن يعفو ولىُّ الدّم عن القاتل ويأخذ الدّيةَ ، ثم يقتله بعد ذلك ، فمن فعل شيئاً من ذلك جوزى فى الدنيا بالعقاب ، وفى الآخرة بالعذاب .

٨ — وقد شرع الله القصاص حقناً لدماء النـاس ، وإبقاء على حياتهم ، فإن من عرَف أن من قتل يقتل ، امتنع عن القتل ، وحفظ دمه ودم من كان يريد قتله ؛ ولهذا جعل الله القصاص حياة للناس، لأن مجرّد العلم به يردَعُ القاتل عن القتل ، فتحيا به نفسان : نفسٌ كانت ستذهب بالقتل ، ونفس كانت ستذهب بالقصاص ؛ وكان الناس قبل حدود القصاص يقتلون غير القاتل ، ويقتلون الجماعة بالواحد ، فتثور الفتنة بينهم ، ويقتلُ بعضهم بعضاً ، فلما شُرع القصاص من القاتل فقط، سلم الباقون ، وكان القصاصُ سبباً لحياتهم ، فعليكم يا أصحاب العقول الكاملة أن تقيموا حدُودَ القصاص كما شرعها الله لكم ، وكتبها عليكم وتقوا أنفسكم أمرَ التساهل فيها ، وتحافظوا عليها ، فتحفظوا دماءكم .

(٩)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كُتِبَ	فرض .
إذا حضر أحدكم الموت	إذا حضرت أسباب الموت ، وظهرت أماراته ، من العلل والأمراض المخوفة .
خيراً	مالا كثيراً ، وحلالا طيباً .
الوصية	هى تصرف من الموصى فى حياته ، لمصلحة شخص أو جهة معينة ، فى بعض ما يمتلكه ، على أن يكون فعله وتنفيذه بعد الموت .

الألفاظ	شرحها
بالمعروف	بالعدل الذى لا وكس فيه ولا شطط .
فمن بدّله	فمن غيّره من الأوصياء والشهود ، بزيادة أو نقص أو إنكار .
بعد ما سمعه	بعد ما علمه وتحقق لديه .
إثمه	إثم التبديل وعقابه .
خاف	توقّع وعلم .
جنفاً	ميلا فى الوصية من غير قصد .
إثماً	تعمداً وقصداً للجنف والميل .
فأصلح بينهم	أصلح بين الموصى إليهم ، بإجرائهم على نهج الشرع .
فلا إثم عليه	فلا ذنب عليه فى ذلك التبديل . لأنه تبديلُ باطل إلى حق .

مجمل المعنى

١ — حدّد الله حقوق الوارثين من الوالدَيْن والأقربين فى كتابه العزيز ، ولم يجعل لهم حقاً فى الوصية ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قسّم لكل إنسان نصيبه من الميراث ، فلا تجوز لوارث وصية) .

٢ — لكنْ الإنسان قد يجمعُ مالاً كثيراً من طريق الحلال الطيب ، ثم يموت عنه ، ولا يكونُ لوالديه أو بعض أقاربه فى هذا المال حقٌ مقسوم ، لاختلاف الدين بينه وبين والديه ، واختلاف الدين مانع من الميراث ، أو

لحجب بعض الأقارب بطبقة أعلى ، كأن يموت الشخص عن وَلَدَيْن وابن لابنه المتوفَّى — أو عن أقاربَ من ذوى الأرحام، لم يحدَّد لهم نصيب من الميراث ، وفى ثروته متسع لإزالة فقرهم وسد خلتهم، فإذا أحس هذا الإنسان دنوَّ أجله ، وشعرَ أن أمارات الموت قد ظهرت ، وأسبابه قد حضرت — وجب عليه أن يوصىَ بنصيب عادل من ماله لا وكس فيه ولا بخس ، لهؤلاء الوالدين والأقربين ، والمعروف هو ما تطمئن إليه النفوس والفِطَر ، ولا تنبو عنه المصلحةُ ، والعدلُ الذى لا وَكسَ فيه ولا شطط ، والقيامُ بالوصية على حسب ما شرعه الله من شعائر فرْضٌ واجب على المتقين ، الذين يخافون الآخرة .

٣ — ولا يجوز لأحد من الشهود أو الأوصياء بعدَ أن يقرَّ الموصى وصيته أن يغير فيها بزيادة أو نقص ، أو إخراج أشخاص لهم حقٌّ فى الوصية ، أو إدخال آخرين فيها ، فمن فعل ذلك فقد أثمَ واستحق عقاب الله الذى يسمع أقوال المبدِّلين فى الوصية ، ويعلم بنياتهم ، فيجازيهم على ما فعلوا .

٤ — والوصية للوالدين والأقربين على الصورة التى بيَّنَّا، إنما تجب على من ترك مالاً كثيراً اكتسبه من طريق الحلال، وليست الكثرةُ مقدرةً بمقدار، ولكنها تختلف باختلاف الشخص — فإن مقداراً من المال يملكه شخص ، يصير غنياً لقلة عياله، ويملك شخص آخر نفسَ هذا المقدار، فلايصير به غنياً لكثرة عياله .

وإذا توقع الإنسان من الموصين ، أو من الشهداء على الوصية ، ميلا أو جوراً فى الوصية ، وذلك بإنكار حقٍّ للموصى له ، أو بزيادة أو نقص فى نصيبه ، أو جوْر وميل عن جادَّة العدل، فقام بالإصلاح ، وأجرى سننَ الوصية على منهج الشرع . فإن الله يحب هذا الإصلاح ، ويقبل من أجله التبديل . فإذا جرت الوصية مثلا على أكثر من ثلث التركة ، أو زيد نصيب فرد زيادةً فاحشة ، وهضمَ نصيبُ آخرَ هضماً مجحفاً ، ثم تدخل إنسان ، وردَّ الحقوق إلى نصابها وفق العدل والحق ، فإن الله يثيب المصلح على إصلاحه ، ويغفر له سيئاته ، ويشمله بفضله ورحمته .

(١٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ، فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الصيام	الامتناع نهاراً مع النية عن جميع المفطرات المعهودة.

الألفاظ	شرحها
كما كتب على الذين من قبلكم	كما فرض على الأمم التى سبقتكم .
أياماً معدودات	موقّتات بعدد معلوم .
أو على سفر	أو كان مستمراً على السفر .
فعدة من أيام أخر	فعليه صوم أيام بعدد أيام المرض أو السفر التى أفطر فيها .
وعلى الذين يطيقونه	وعلى من يستطيعون الصوم بجهد ومشقة .
فدية طعام مسكين	إعطاء فدية عن إفطار كل يوم ، وهى مقدار إطعام مسكين .
فمن تطوّع خيراً	فمن زاد فى الفدية على مقدار طعام مسكين .
فهو خير له	فالزيادة فى الفدية خير له .
وأن تصوموا خير لكم	والصيام لمن يستطيعونه مع الجهد والمشقة خير من الفطر مع الفدية .
أنزل فيه القرآن	بدأ فيه نزول القرآن على محمد — وكان ذلك ليلة القدر —
هدى للناس	هادياً للناس ، بما فيه من إرشاد للحق .
وبينات	وآيات واضحات ، من الحكم والتشريع والأحكام .
من الهدى والفرقان	مما يهدى الناس إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ويفرق بين الحق والباطل .
فمن شهد منكم الشهر فليصمه	فمن كان حاضراً مقيما وقت هلال الشهر ، وجب عليه الصوم .

الألفاظ	شرحها
ولتكملوا العدة .	ويريد الله أن تكملوا عدة الشهر ثلاثين يوماً صائمين ، إذا لم تروا هلال شوال .
ولتكبروا الله على ماهداكم	ويريد الله أن تحمدوه وتكبروه ليلة الفطر ، تعظيما له على هدايته إياكم ، للشرائع الكفيلة بسعادتكم
ولعلكم تشكرون	لتشكروه على التيسير لكم فى العبادات .

مُجملُ المعنى

١ — أيها المؤمنون : إن الصيام عبادة قديمة ، فرضها الله عليكم كما فرضها على الأمم السابقة من قبلكم ، فتحملوا مشقته ، لتطهروا بها نفوسكم ، وتجنّبوها الإثم والعصيان .

٢ — وقد حدد الله الأيام التى فرَض صيامها عليكم ، ووقّتها بزمان وعدد معلوم ، كما حددها ووقّتها أيضاً للأمم السالفة ، ولا يريد الله أن يشقّ عليكم فى فرض الصيام ، أو يحملكم من أمره عسراً ، لأنه لم يجعل عليكم فى الدين من حرج ؛ فرخص للمريض منكم ، ولمن سافر قبل فجر يوم الصيام ، أن يفطر ، وأن يصوم أياماً أخر من غير رمضان ، بعدد أيام المرض وأيام السفر ، التى أفطرها .

٣ — ومن النـاس من لا يكون مريضاً أو مسافراً ، ويمكنه أن يصُـومَ ولكنّ الصوم يلحق به شدة ومشقة ، كأن يكون عاملا مجْهداً فى عمله ، والصوم ينهكه ويرهقه ، أو يكونَ ضعيف البنية ، والصومُ يضعفه ويوهنه ، أو يكونَ ممن يؤذيهم الجوع ، كالشيخ الهرم ، والمُرضع ، والحبلَى ؛ فقد رخصَ الله لكل

من هؤلاء أن يفطر ، وأن يعطى الفدْية ، وهى طعام مسكين عن كل يوم يفطر فيه — وقد قدّرها القدماء من فقهاء العراق بنصف صاع من قمح ، وبصاع من غير القمح ، كالبلح والذرة مثلا ، كما قدرها القدماء من أهل الحجاز بمُدٍّ ، والصاع قدحان وثلث قدح بالكيل المصري — والمُدّ نصف قدح مصرى ، والقدَحُ ثُمن الكيلة المصرية — ونرى أن تكون الفدية عن إفطار يوم واحد لمن يشق عليه الصيام فى زماننا ، قدرَ ماينفقه الشخص على طعامه فى وجبتى الإفطار والسحور ، وتختلف باختلاف الشخص الذى يفطر ، فهى للشخص الموسر غيرها للشخص المتوسط ، وهى للشخص المقل غيرها للموسر والمتوسط ،وقد أصبح عرف عصرنا لا يستسيغ تقديم الفدْية طعاماً للمساكين ، لأنه يؤذى شعورهم الاجتماعى ، فالأوْلى تقديمها نقوداً كما بيَّنَّا .

٤ — وليس تحديد فدية اليوم بإطعام مسكين واحد ، هو غاية ما ينتهى إليه الشخص ، إذا أفطر لمشقة الصوم عليه ، لكنه يزداد خيراً ويدخر عند الله ثواباً ، كلما زاد فى فديته وأجزل فى عطائه .

٥ — ومع أن الله شرع لكم الفطر مع الفدية ، إذا نالكم من الصوم جهد ومشقة ، وشرع لكم الفطر والقضاء فى حالتى المرض والسفر ، ترخيصاً لكم ، وتيسيراً عليكم ، فإن الخير لكم أن تجاهدوا أنفسكم ،وتأخذوها بتحمل المشقات ، وتصوموا ولا تفطروا ، إن كنتم تعلمون الخير ، وتريدونه لأنفسكم .

٦ — والصيام الذى كتبه الله عليكم أيها المسلمون ، قد حدّدَ لكم أيامه ، ووقّته بشهر رمضان . وهو شهر مبارَك ، نزلت فيه أول سورة من القرآن فى ليلة القدر ، والقرآن هداية للناس ، ودستور الخير ، وطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وفارق بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل ، بما فيه من الحكم والأحكام ، والدلائل الناطقة بقدرة الله وعظمته .

٧ — وعلى كل مسلم مكلف ، مقيم غير مريض ، إذا رأى هلال رمضان، أو علم به ، أن يصوم ؛ أما من كان مريضاً أومسافراً ، فقد أباح الله له الفطر ، على أن يصوم بعد انقضاء رمضان ، الأيام التى أفطرها .

٨ — وقد أراد الله بإباحة الفطر مع الفدية ، لمن يشق عليه الصوم ، وإباحته مع القضاء للمريض والمسافر ، أن يخفف عنكم ، ولا يشق عليكم فى العبادة ، وألا يجعل عليكم فى الدين من حرج ، وأن ييسر عليكم ولا يعسر ، كما أراد أن تكملوا عدة رمضان ثلاثين يوماً ، إذا لم تروْا هلال شوال ، وأن تجهروا بتكبيره والثناء عليه بعد انقضاء رمضان ، حمداً له وثناء عليه ، لأنه هداكم إلى الإسلام والإيمان ، ولتشكروه على فيض رحمته على عباده .

(١١)

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سألك عبادى	طلبوا أن يعرفونى .
فإنى قريب	فإنى عليم بأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم ، علم القريب منهم .
فليستجيبوا لى	فليجيبونى فيما دعوتهم إليه ، من الطاعة والعمل ، كما أجيبهم إذا دعونى لمهماتهم .
لعلهم يرشدون	ليستقيموا على طريق الهدى والرشاد .

مجمل المعنى

١ — جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل قول الله تعالى : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب .

٢ — والله سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان ، ولكنه موجود فى كل زمان

وفى كل مكان، عليم مطلع على كل ما يصدر من عباده من أقوال وأفعال وأحوال، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو قريب منهم ، بل أقربُ إليهم من نفوسهم .

٣ — وإذا كان اللهُ أقربَ إلى عباده من حبل الوريد ، فهو يسمعُ كلَّ من ناداه ، ويجيب كل من دعاه ، ويلبى نداء من يطلبه من عباده ، الذين يرجون ثوابه ، ويخشون عقابه ، ويدعونه ليعينهم على الطاعة ، ويجيبهم إلى البرّ ، ويكشف عنهم الضرّ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رَحم ، إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دَعوَته ، وإما أن يدّخر له ، وإما أن يكفّ عنه السوء بمثلها) .

٤ — ولا يستجيب الله دعاء إنسان يرتكب المحرمات ، ويجترح السيئات ، ويستبين ذلك من قوله تعالى : (وإذا سألك عبادى) ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يُنْسبُ إليه إلا الذين أطاعوه ، واتبعوا الحلال واجتنبوا الحرام. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الرجل يطيلُ الشعرَ أشعثَ أغبرَ ، يمدُّ يديه إلى السماء : يارَبِّ ، يارَبِّ ، ومطعمه حرام ، ومشرَبهُ حرام ، وغذىَ بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ ! وقيل لإبرهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ؟ ! قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرَفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرَفتم النار فلم تهرُبوا منها ، وعرَفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرَفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم ، واشتغلتم بعيوب الناس .

٥ — وحق على عباد الله أن يجيبوه إلى الطاعة ، ويستجيبوا إلى العمل بما أمرهم به ، كما أنه يجيبهم إذا دعوه ، فيأتيهم بالخير ، ويدفع عنهم الضر ، وأن يصدقوا فى الإيمان بالله ، لكى يرشدهم إلى الخير ، ويهديهم الطريق المستقيم .

(١٢)

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ، لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليلة الصيام	كل ليلة يُصبح الإنسان بعدها صائماً .
الرفث إلى نسائكم	الاستمتاع بنسائكم .
هن لباس لكم	هن يخالطنكم ويتصلن بكم ، اتصال الثوب بالجسد .

الألفاظ	شرحها
وأنتم لباسٌ لهن	وأنتم تخالطونهن وتتصلون بهن ، اتصال الثوب بالجسد .
تختانون أنفسكم	تخونون أنفسكم ، فتظلمونها بتعريضها للعقاب ، وتنقيص حظها من الثواب .
فتاب عليكم	خفف عنكم .
وعفا عنكم	محا عنكم إثم مخالفتكم لما نهاكم عنه .
باشروهن	استمتعوا بهن .
وابتغوا ما كتب الله لكم	واطلبوا ما أحل الله لكم منهن .
الخيط الأبيض	البياض الممتد كالخيط فى صفحة الأفق عرضاً ، عند طلوع الفجر .
الخيط الأسود	السواد الممتد كالخيط فى صفحة الأفق ، قبيل نهاية الليل .
أتموا الصيام إلى الليل	صوموا كل النهار ، حتى يجىء الليل فأفطروا .
عاكفون فى المساجد	معتكفون فى المساجد ، والاعتكاف : أن يمكث الإنسان فى المسجد مدة ، مع نية التعبد والتقرب إلى الله .
تلك حدود الله	هذا ما حرمه الله عليكم ، وما نهاكم عنه .
فلا تقربوها	لا تقتربوا من هذه المحرمات حتى لا تقعوا فيها .
ولا تأكلوا أموالكم	لا يأخذ بعضكم أموالَ بعض ، ويستول عليها .
بالباطل	بطريق غير حلال ، كالسرقة والغصب .
وتدلو بها إلى الحكام	ولا تلقوا بأمرها إلى الحكام .

الألفاظ	شرحها
لتأكلوا	لتستولوا بسبب التحاكم .
فريقاً	طائفة وجماعة .
بالإثم	بالتمويه على القاضى ، أو بشهادة الزور ، أو بالأيمان الكاذبة ، أو المصالحة مع علمكم بأن المقضى له ظالم ،
وأنتم تعلمون	وأنتم على علم بأنكم على الباطل .

قصة الآية

لما فُرِضَ الصيامُ كان المسلمون إذا جاء الليل حل لهم أن يأكلوا ويشربوا ، ويستمتعوا بنسائهم فى الليل ، بشرط ألاّ يناموا ، وألا يصلوا العشاء الآخرة ، التى يأتى وقتها فى الثلث الأخير من الليل ، فإذا ناموا ، أو صلّوا العشاء الآخرة ، حُرِّم عليهم جميعُ المفطرات من الطعام والشراب والاستمتاع بالنساء، حتى تجىءَ الليلةُ القابلة .

وقد حدث أن عمر رضى الله عنه بعد أن صلّى العشاء الآخرة ، استمتع بزوجته ، فارتكب ما حُرِّم عليه ، فندم وبكى واغتسل، وأخذ يلومُ نفسه ، وذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما فعل، وقال يارسول الله : إنى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخاطئة ، وأسأله التوبة والمغفرة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما كنت جديراً بذلك يا عمر ، أى ما كان ينبغى لمثلك أن يفعل ذلك ، ويخالف ما نهى اللهُ عنه ، فرجع عُمرُ إلى بيته حزيناً كئيباً .

وعند ذلك قام رجال آخرون ، وأقروا للنبي بأنهم فعلوا مثل الذى فعله عمر ، بعد أن صلَّوُا العشاء الآخرة ، أو بعد أن ناموا .

وكان قيسُ بنُ صِرْمة الأنصاريّ ، يعملُ فى النخيل بالنهار وهو صائم ، حتى أجهده العمل ، فلما انقضى النهار وجاء الليل ، وحلّ له أن يفطر ، جاء إلى امرأته ، فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت لا ، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك ما تأكله ، ثم ذهبت تبحث له عن طعام ، فغلبه النوم لشدة تعبه فى النهار ، فنام ، فلما رجعت امرأته ومعها الطعامُ وجدته نائماً ، فقالت فى إشفاق وحزن : خيبةً لك ، ولم تشأ أن توقظه لأنها تعلم أنه لا يحلّ له أن يأكلَ ، وتركته نائماً ، فلما طلع الصبح ، ذهب إلى عمله صائماً ، واستمرّ فيه حتى انتصف النهار ، فأغمىَ عليه لشدة الجوع والتعب ، وذُكرَ أمرُ هذا الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فكان ما حصل من عُمرَ ، واعترافُ أصحاب النبي له بأنهم فعلوا مثلَ ما فعل ، وكان أمرُ قيس هذا سبباً فى أن يترفقَ الله بعباده ، فأحل لهم طوال ليالى الصيام أن يأكلوا ويشربوا ويستمتعوا بالنساء ، من أول الليل إلى الفجر وإن ناموا أو صلَّوُا العشاء الآخرة ، ونزلت هذه الآية الكريمة .

مجمل المعنى

١ — إنكم تخالطون نساءكم ويخالطنكم ، ويتصلن بكم وتتصلون بهن ، كما يتصلُ الثوب بالجسد ، فيصعبُ عليكم فى ليالى الصيام أن تصبروا عنهن ، وتمنعوا أنفسكم من الاستمتاع بهن ، ولهذا فقد أباح اللهُ لكم ما منعكم منه ، وأحلّ لكم ما كان حرّمه عليكم ، من الاستمتاع بهن فى ليلة الصيام إذا نمتم أو صليتم العشاء الآخرة .

٢ — وكان الله مطلعاً على ما كان يصدر منكم من خيانة أنفسكم ، وظلمها ، والإساءة إليها ، بتعريضها إلى العقاب ، وتنقيص حظها من الثواب ، بارتكاب ما نهاكم عنه ، من الأكل أو الشرب أو الاستمتاع بالنساء ، بعدَ النوم أو بعدَ صلاة العشاء الآخرة ، فخفف عنكم ، ومحا إثم هذه المعصية عنكم ، وأحلَّ لكم أن تستمتعوا بما أحلَّ لكم من نسائكم ، وأن تأكلوا وتشربوا حتى قبيل طلوع الفجر ، حينما يبدو سواد الليل إلى جانب بياض النهار ؛ فيجب عليكم وقتئذ أن تصوموا ، وأن تمسكوا عن جميع المفطرات طول النهار ، حتى تغرُبَ الشمس ، ويجيء الليل ، ثم تفطروا فيه كما تشاءون .

٣ — والاعتكاف من العبادات المستحبة ، وهو أن يمكث الإنسان فى المسجد وقتاً بنية العبادة ، والقربَى إلى الله ، وإذا نوى المسلمُ الاعتكاف فى المسجد مدة ، حرُم عليه الخروجُ من المسجد فى أثناء المدّة التى نوى فيها الاعتكاف إلا لضرورة ، كما حرُم عليه أن يخرج من المسجد ليستمتع بزوجته ، ثم يعودَ إلى معتكفه ، فإن هذا حرام ، ومفسدٌ لعبادة الاعتكاف — وكان بعض المسلمين إذا اعتكفوا خرجوا من المسجد فى مدة الاعتكاف ، واستمتعوا بنسائهم ، ثم عادوا إلى الاعتكاف فى المساجد ، فنهاهمُ اللهُ عن ذلك ونزل قوله تعالى : ولا تباشروهنَّ وأنتمَّ عاكفونَ فى المساجد .

٤ — وقد بين الله لكم فى هذه الآيات الحدود الفاصلة بينَ الحلال والحرام ، وبينَ الحقّ والباطل ، ونهاكم أن تقربوا الحرامَ ، أو تدْنوا من الباطل ، فإن القربَ من الحرام أو الباطل ، قد يوقعكم فيه ، والخيرُ لكم أن تبتعدوا عنه ، قال عليه الصلاة والسلام : (إنَّ لكل ملك حمىً ، وإن حمىَ الله محارمه ، فمن رتَعَ حول الحمى يوشكُ أن يقع فيه .

٥ — قصة عبدان الحضرمى وامرئ القيس الكندى

وقد ادّعى عَبْدانُ الحَضْرمىُ على امرئ القيس الكندىّ (وهو غير امرئ القيس الشاعر) قطعةَ أرض، ولم يكن لدَى عبدانَ بينة يثبت بها أن قطعةَ الأرض له، وأنكر امرؤ القيس أن قطعة الأرض لعبْدان، وأنكر امرؤ القيس حق المدعى فى امتلاك القطعة، ولما كانت البينةُ على من ادّعى، واليمين على من أنكر، فقد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس بأن قطعة الأرض له، وليست لعبْدان، فهمّ بأن يحلف، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا، أولئك لا خلاَق لهم فى الآخرة، ولا يكلمهم الله، ولا ينظرُ إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، فارتدع عن اليمين، وسلّم الأرض لعبدان، فنزل قوله تعالى: ولا تأكلوا أموالكم بينكم...

٦ — من النـــاس من يستولى على أموال غيره، ويأخذها ظلماً، كما كنا نرى ما يفعله بعضُ الأقوياء بالضعفاء، حينما يصبح الضعيفُ فيرَى أن قطعة أرضه الصغيرةَ قد ضُمت إلى مزارع القوىّ الفسيحة، وأن الحدّ والمعالمَ التى كانت تحجزُ بين أرضيهما وتميزهما قد أزيلت، وصار الضعيف لا أرضَ له ولا مأوى، ولا يجد له حيلةً فى أن يسترد أرضه، ولا قوةَ له فى أن يخاصم القوىَّ أو يقاضيه؛ ومن الأقوياء من يفعلُ غير ذلك، فيضايق الضعيف فى سقى أرضه وزرعها، ليضطَرَّ إلى تركها له، ومنهم من يتلمس سبيلا آخرَ غيرَ ذلك، ليأخذ أموال الناس بطريق غير حلال.

ومنهم من يتخذ التحاكمَ والتقاضىَ وسيلةً لأخذ أموال الناس بطريقة آثمة، فيلق بقضية باطلة أمام الحكام، ويستعينُ على أن يلبس الباطلَ أمامهم ثوبَ الحق، فيوكلَ بعض المحامين مثلاً فيصطنعون حججاً وبينات ما أنزل الله بها

من سلطان ، أو يلجئون إلى بعض من لا أخلاق لهم ، فيشهدونَ الزّور أمامَ القضاة ، أو يحلفون أيماناً كاذبة ، أو يقبلون المصالحة على بعض المال المتقاضَى عليه ، وهم يعلمون أنهم ظالمون ، وليس أقبحُ ممن يستولى على حقوق غيره باطلا وظلماً ، وهو يعلم أنه من الظالمين المبْطلين .

٧ — لقد نهى الله هؤلاء وهؤلاء عن اتباع البـاطل ، فى أى صورة من صوره ، وارتكاب الإثم والعصيان ، بما يُدْخلون على الحكام من كذب وزُور ، حتى يستولوا بأحكامهم على بعض أموال الناس . وقد روى أن خصمين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنما أنا بشر مثلكم ، وأنتم تختصمون إلىّ ، ولعلّ بعضَكم أَلْحنُ بحجته — (أى أفهمُ وأفطنُ بها من غيره ، يصرّفها إلى أى وجه شاء) — فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشىء من حقّ أخيه ، فإنما أقضى له قطعةً من نار ، فبكيا . وقال كلٌّ واحد منهما : حقى لصاحبى ، فقال : اذهبا فوختَّيا ، ثم استَهِما ، ثم ليُحلِلْ كلٌّ واحد منكما صاحبه .

(١٣)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحجِّ ، وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، والْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْـكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَـكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، واتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُـكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسألونك من الأهلة	يسألونك عن سبب ظهور الهلال صغيراً كالخيط ، ثم يكبر إلى أن يصير كالقرص .
مواقيت للناس	علامات تبين الأوقات التى تتعلق بمصالح الناس فى حياتهم : كالزراعة والتجارة والمعاملات ، أو تتعلق بأمور الدين : كالصوم والفطر .
والحج	ويعرف بها الناسُ الأوقات التى يؤدون فيها مناسك الحج .
بأن تأتوا البيوت من ظهورها	بأن تنقبوها وتدخلوها من غير أبوابها .
تفلحون	تفوزون فى الدنيا والآخرة .
وقاتلوا فى سبيل الله	قاتلوا لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، وإقامة شرائعه .
ثقفتموهم	ظفرتم بهم ، ووجدتموهم .
أخرجوهم من حيث أخرجوكم	أخرجوهم من مكة بعد فتحها ، كما أخرجوكم منها مهاجرين .
والفتنة	الشرك بالله
أشدُّ من القتل	أعظم من قتالهم فى الحَرَم ، وفى الأشهر الحُرُم .
حتى لا تكون فتنة	حتى لا يفتَن المسلمون عن دينهم ، بالقتل أو التعذيب .
ويكونَ الدينُ لله	وتخلص العبادةُ لله ، فلا يُعبد أحد سواه .

الألفاظ	شرحها
فإن انتهوا	فإن رجعوا عن الشرك وعبادة الأصنام ، ودخلوا فى الإسلام .
الشهر الحرام بالشهر الحرام	كما قاتلوكم فى الشهر الحرام قاتلوهم فى شهر حرام مثله ، رداً لاعتدائهم .
الحرمات	جمع حرمة ، وهى ما يمتنع انتهاكه ، ويجب احترامه
قصاص	مساواة .
والحرمات قصاص	اقتصوا منهم ، فانتهكوا من حُرُماتهم بمثل ما انتهكوا من حرماتكم .
وأنفقوا فى سبيل الله	أنفقوا أموالكم فى الطاعة والجهاد .
ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة	لا توقعوا أنفسكم فى الهلاك بالشح بالمال ، والقعود عن الجهاد ، فيطمع فيكم عدوّكم فيهلككم .

مجمل المعنى

١ – سأل مُعاذُ بن جبل ، وثعلبةُ بن غنم الأنصارى ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثلَ الخيط ، ثم يزيد حتى يستوىَ ويستدير ، ثم ينتقص حتى يعودَ كما كان ، فنزلت هذه الآيةُ مبينةً حكمةَ الله فى زيادة القمر ونقصانه ، وظهوره واستخفائه كل شهر ، فإن فى هذا التغيير الكونى فوائد للناس ، فى دنياهم ودينهم ، لأنّ الهلال لو بقىَ على حال واحد ، ما حصل التوقيت ، على أن الناس أخذوا من أوضاعه المختلفة أوقاتاً يحددون بها الآجال فى الديون والمعاملات ؛ ويقدّرون على حسبها الأعمال ، ويعرفون بها مواعيدَ الصوم والفطر ومناسك الحج ، ومدّةَ الحمل والرّضاع ، وغيرَ ذلك

وليس من شك فى أن لمنازل الكواكب أثراً عظيما فى حياة أمة بدوية ، ليس لها حظ كبير من العلم والمعرفة .

٢ — وفى إجابة السائلين بذكر الفوائد التى تعود عليهم ، من اختلاف وجه القمر كلَّ شهر ، دون تعرّض إلى بيان الأسباب الكونية ، كالجاذبية العامة بين الكواكب ، ودَوَران القمر حولَ الأرض ، وغير ذلك مما ترتب عليه ظهور القمر كلَّ شهر فى هذه الأوضاع — تعليمٌ ربانىٌّ ، بأن الأمة فى حياتها الفطرية ، والإنسانُ إذا كان قليلَ الحظ من الثقافة والعلم ، ينبغى أن يتبصر أولا بما هو مرتبط بشئون الحياة ، وما هو واقع فى مدَار الحس والنظر والتجربة .

٣ — كان من عادة الأنصار إذا أحرَموا بالحج أو العمرة يلتزمون ألاَّ يحول بينهم وبين السماء حائل ، وحرّموا على أنفسهم أن يأتوا حائطا (بستاناً) أو بيتاً أو داراً من الباب ، فإن كان أحدهم من أهل المدَر ، أى ممن يقيمون فى المدينة ويتخذون البيوت مساكنَ لهم ، نقبَ فى ظهر بيته نقباً يخرجُ منه ويدخل ، أو ينصب سلماً يصعدُ فيه داخلَ البيت وخارجه ، وإن كان من أهل الوَبر ، أى ممن يسكنون الخيمة والفسطاط ، خرَج من خلف الخيمة أو الفسطاط ، وكان لا يجوز لأحد منهم أن يدْخلَ أو يخرُج من الباب ، حتى يؤدى المناسك ويتحللَ من الإحرام ، وكانوا يروْن ذلك براًّ وخيراً ، وعبادةً تقرّبهم من الله ، وحافظ الأنصار على هذه العادة زمنَ الجاهلية وفى بدء الإسلام ؛ وكان بعضُ قبائل العرب يطلقُ عليها : الحُمْسُ وهى التى لاتأخذ بهذه العادة ، ومنها قريش وكنانة وخزُاعةُ وثقيف — ولم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار عادتهم تلك ؛ وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم دَخل من الباب ، ودخل خلفه رجل من الأنصار ، وخرَق عادة قومه ، فقال له النبىّ : لمَ دخلتَ وأنت قد أحرمت ؟ قال دخلتَ أنت فدخلتُ وراءك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم إنى أحمسُ ، أى من القبائل التى لا تلزم نفسَها بهذه العادة ، ولا ترى فيها براًّ

وخيراً ، فقال الرجل : وأنا دينى دينك ، فنزلت آية : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ؛ ونبه الله على أن هذه العادة ليس فيها شىء من البر والخير ، ولا معنى للتمسك بها وبقائها ، وإنما البرّ الحقّ ، والخيرُ المحض ، هو العمل الصالح مقروناً بتقوى الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وارتقاب ثوابه ، وخوف عقابه . فعليكم أن تراقبوه ، وتقصدوا بأعمالكم وَجهه راجين منه الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

٤ — لم تقوَ شوكة المسلمين قبلَ الهجرة ، فكان القتالُ محظوراً على المسلمين ، لأن قوّتهم وقوة أعدائهم غيرُ متكافئة ، وكان دُستور الدّعوة إذ ذاك : ادفعْ بالتى هى أحسنُ ؛ فاعفُ عنهم واصفح ؛ واهجرهم هجراً جميلا .

فلما هاجر النبىُّ إلى المدينة ، وقويت شوكة المسلمين ، خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة ، فنزل الحديبية قرب مكة — والحديبية اسم بئر ، فسمى ذلك الموضع باسم تلك البئر — فصدّه المشركون عن البيت الحرام ، وكان ذلك عام ست من الهجرة ، وأقام بالحديبية شهراً ، فصالحه كفار قريش على أن يرجعَ من عامه ذلك كما جاء ، على أن تخلى له مكة فى العام القابل ثلاثة أيام ، وألا يكون بينه وبينهم قتال عشرَ سنين ، فرجع النبىُّ وأصحابه إلى المدينة ، فلما كان العامُ القابل تجهز النبىُّ وأصحابه لعمرة القضاء .

وخاف المسلمون غدْرَ الكفار ، وكرهوا القتال فى الحرَم ، وفى الشهر الحرام ، فنزلت آية : وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، فكانت أول آية نزلت فى الأمر بالقتال ، وأحلّ الله للمسلمين أن يقاتلوا المشركين إذا قاتلوهم ، ولو كانوا فى الحرَم أو الشهر الحرام ، وصارَ حقّاً على المسلمين أن يقاتلوا منْ يناجزونهم القتال ، ويبدءونهم به ، وأن يقاتلوا فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ، وإقامة شرائعه ، وأن يكفوا عن قتل من ليسوا أهلا للقتال ، ومن ليس له قدرة

عليه ، ومن لا يقع منهم أذًى للمسلمين ، كالنساء والصبيان ، والشيوخ والرهبان ، فقد نهى الله عن الاعتداء عليهم ، وأعلن بغضَه وعدمُ حبه لمن يعتدون على الضعفاء الذين لا يقاتلون ، ولا يسببون أذى للمسلمين ؛ وقد نهى أبو بكر يزيد ابن أبي سفيان عن قتل هؤلاء ، وعن تخريب العامر ، وذَبح الشاة والبقر لغير مأكل ، وإفساد شجرة مثمرة بحرق أو غيره .

٥ — وعليكم أيها المسلمون أن تقتلوا من يقاتلكم من المشركين حيث لقيتموهم ، وظفرتم بهم ، سواء أكان القتال فى الحل أم الحرَم ، فى الأشهر الحرام أم فى غيرها ، وأخرجوهم من مكة بعد أن قوىَ أمركم ، واشتدّ أزركم ، كما أخرجوكم منها مهاجرين ، وإن بقاءهم على الشرك وهم فى الحَرَم وصدّهم لكم عنه ، أشدّ من قتلكم إياهم فيه ، ولا تكونوا وأنتم عند المسجد الحرام البادئين بقتالهم احتراماً له ، فإن هتكوا حرمة المسجد الحرام ، وبادءوكم بالقتال فيه ، فقاتلوهم واقتلوهم ، ولا تبالوا بقتالهم فيه ، فإنهم هم الذين هتكوا حرْمته ، فاستحقوا عذاب الله ، واستحقوا أن تنكلوا بهم ، وأن تجازوا الكافرين بمثل ما فعلوا بكم ؛ فإن رجعوا عن الكفر ، وكفوا عن القتال ، فإن الله يقبلهم فى عباده الصالحين ، ويغفرُ لهم ما قد سلف من سيئاتهم ، ويدخلهم فى رحمته .

٦ — اقتلوا المشركين كافةً حتى تقضُوا على عبادة الأصنام ، وتزول الفتنة ، ويذهبَ الشرك ، ويصير الدّين خالصاً لله ، ولا يكونَ للشيطان فيه نصيب ، فإن رجعوا عن شركهم ، وكفّوا عن قتالكم ، فكفوا عن قتالهم ، ولا تعتدوا عليهم ، فإن اعتديتم عليهم ، كنتم أنتم الظالمين .

٧ — وكان المشركون قد قاتلوا المسلمين فى عام الحُدَيبية فى ذى القَعدة ، وهو شهر حرَام لا يحلّ القتالُ فيه ، فلما خرج المسلمون فى العام التالى فى عمرة القضاء فى ذى القعدة أيضاً ، كانوا كارهين للقتال فيه ، فقيل لهم هذا الشهرُ

الحرام الذى خرجتم فيه للعمرة ، بالشهر الحرام السابق الذى صدّوكم فيه عن المسجد الحرام ، فلكم أن تقاتلوهم فيه كما قاتلوكم فيه ، ولا تبالوا أن تهتكوه بالقتال ، كما هتكوه بالقتال ، وافعلوا بهم مثل ما فعلوا بكم ، وانتهكوا من حُرُماتهم مثل ما انتهكوا من حرماتكم ، اقتلوهم إن قاتلوكم ، فعدْوانٌ بعدوان ، واتقوا الله إذا نصركم على أعدائكم ، ولا تعتدوا فيما لم يرخص لكم أن تفعلوه ، لأن الله يحب عباده المتقين ، فيحرسهم ، ويصلح شأنهم بالنصر والتمكين .

٨ — وليس ما يجب على المسلمين هو القتال فحسب ، ولكن عليهم الجهادُ بالنفس والمال ، فعليكم أن تنفقوا أموالكم فى الإعداد للقتال والجهاد ، وإياكم أن تقبضوا أيديكم عن الإنفاق ، فيطمع فيكم العدو ، ولا توقعوا أنفسكم فى الهلاك ، بالكفّ عن الجهاد ، والإنفاق فى سبيله ، فإن ذلك يقوّى العدوّ ، ويسلطهم على إهلاككم ، ولذلك قيل : إن الاستعداد للحرب ، مما يمنع الحرب وأحسنوا أخلاقكم وأعمالكم ، فإن الله يحب المحسنين ، ويزيد لهم الخير .

(١٤)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ ، فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ، فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا ، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أحصرتم	مُنعتم من أداء النسك بعد الإحرام .
استيسر من الهدى	تيسر للمُهدى على حسب حاله ، بدنة أو بقرة أو شاة .

الألفاظ	شرحها
ولا تحلقوا رءوسكم	ولا تتحللوا من الإحرام بحلق رءوسكم .
حتى يبلغَ الهدْىُ محِله	حتى يصلَ الهدى إلى محله ، وهو الحرم .
به أذًى من رأسه	فى رأسه أذى من هوامّ ، أوالتهاب ، أو صداع يشتد ببقاء الشعر ، فحلق رأسه .
ففديةمن صيام أو صدقة	فعليه أن يفدى ، إما بصيام ثلاثة أيام ، أو بالتصدق بثلاثة صيعان من غالب قوت البلد ، على ستة مساكين .
أو نُسك	أو ذبح شاة .
فإذا أمنتم	فإذا كنتم فى أمان ، ولم يمنعكم مانع من عذر أو مرض .
فمن تمتع بالعمرة إلى الحج	فمن نوى الإحرام بالعمرة ، مع الإحرام بالحج .
فما استيسر من الهدْى	فعليه الهدى الذى تيسر له من الإبل أو البقر أو الغنم .
فمن لم يجدْ	فمن لم يجد البدنة أو البقرةَ أو الشاةَ ، لعدم وجودها أو لعجزه عن دفع ثمنها .
فصيامُ ثلاثة أيام فى الحج	فعليه أن يصومَ ثلاثة أيام وهو مُحْرِمٌ بالحج .
وسبعة إذا رجعتم	وصيام سبعة أيام ، إذا فرغتم من أعمال الحج ، ورجعتم إلى وطنكم .
ذلك	الحكم المذكور من وجوب الهدى ، أو الصيام على من تمتع .
لمن يكن أهلهُ حاضرى المسجد الحرام	لمن لم يكن مستوطناً مكة أو ضواحيها .

شرحها	الألفاظ
شوالٌ وذو القَعدة ، وعشر ليال من ذى الحِجة .	أشهر معلومات
فمن نوى الحج وأحرم به فى هذه الأشهر ، فقد ألزم نفسه بشعائره .	فمن فَرض فيهن الحج
فلا يحلّ له الاستمتاعُ بامرأته .	فلا رَفثَ
الفسوق : جميعُ ما نهى الله عنه فى الحج وفى غيره .	ولا فسوقَ
المجادلة والمخاصمة الشديدة ، والمماراة المغضبة ، والسِّباب .	جدَال
وما تقدموا من صدقة .	وما تفعلوا من خير
خذوا معكم ما يكفيكم من الزاد ، حتى لا تكونوا كَلاً على أهل هذه البلاد .	وتزودوا
هو ما يستصحبه الإنسان فى السفر من مأكل ومشرب وملبس ومركب .	الزاد
العقول .	الألباب

مُجملُ المعنى

الحج والعمرة من شعائر الدين ، فرَض الله عليكم أيها المسلمون أن تؤدوا جميع مناسكهما ابتغاء وجه الله ، لا يشوبهما غرض من أغراض الدنيا ، كالتظاهر أو التفاخر والرياء ، وأن تؤدوهما مستجمعين كل الشروط والأركان .

١ — وأول ما يجب عليكم من شعائرهما الإحرام بهما من الميقات ، وهو المكان المعين للإحرام ، فإذا نويتم الإحرام ، ثم أحصرتم ، ومنعتم من أداء بقية المناسك ، كأن يحول بينكم وبين أدائها عذر ، كما وقع عامَ الحديبية ، حين

صدّ المشركون النبيّ ومنعوه من دخول مكة بعد أن أحرم بها ، وكأنْ أصاب الإنسانَ مرض ، أو مات زوجُ المرأة أو محْرَمها المرافقُ لها ، فلكم أن تتحللوا من هذا الإحرام ، وعليكم الهدْىُ الذى يتيسر لكم ، وهو أن تذبحوا شاة فى المكان الذى أُحصرتم فيه ، وترسلوها إلى الحرَم ليأكلها مساكينه ، ولكم أن ترسلوا ثمن الهدى ليشترى فى الحرم ويذبح فيه ، ولكم أن ترسلوه حيا إلى الحرم ويذبح هناك ، ولا يحلّ لكم أن تتحللوا من محظورات الإحرام ، كحلق الرأس مثلا إذا أحصرتم ، حتى تعلموا أن الهدْىَ الذى قدمتموه قد وصل محله ، وهو الحرَم .

٢ — ومحظور عليكم إذا كنتم محْرمين ، أن تُزيلوا شعراً من رءوسكم أو وجوهكم ، أو من أىّ جزء من أجزاء الجسم ، فإن هذا مظهر من مظاهر الرفاهية والزينة والتجمل ، وهى أمور لا تناسب الحاجّ الذى ينبغى أن يقصدَ إلى بيت الله أشعثَ أغبرَ ، لكن إذا كان برءوسكم ، أو فى أى موضع من منابت الشعر ، قروح أو صُداع أو أذًى ، ويخشى الضررُ مع بقاء الشعر ، فقد رخص الله لكم أن تزيلوه ؛ وعليكم فدية بواحدة من ثلاث ، أنتم مخيرون فيها : إما صيام ثلاثة أيام ، وإما أن تتصدقوا بما يكفى إطعام ستة مساكين يوماً كاملا ، وإما أن تقدموا نسكاً ، أى تذبحوا شاة ، أو تتصدقوا بثمنها على مساكين الحرَم .

٣ — فإذا أمنتم من العدو ، أو برئتم من المرض ، ولم يمنعكم مانع من أداء المناسك ، وتمتعتم بأداء فريضة العمرة والحج بسفر واحد ، وباستمتاعكم بالإحلال بين العمرة والحج ، فعليكم الهدىُ الذى يتيسر لكم ؛ والهدْىُ هو ما يهدَى من النَّعم للحرَم ، وهو من الإبل والبقر والغنم ، وهى على هذا الترتيب فى الأفضلية ، فإذا لم تجدوا الهدْىَ لعدم وجوده ، أو للعجز عن ثمنه ، فعليكم صيامُ عشرة أيام كاملة ، ثلاثة منها فى أثناء الحج ، وسبعة إذا رجعتم إلى بلدكم بعد إتمام الحج — وإنما تجب فدية التمتع على غير سكان البيت الحرام ، والمقصودُ بهم سكانُ مكة وضواحيها — والمقصود بالتمتع ، أن يُحْرِم الإنسان بالعمرة أولا ،

بحيث يؤدى بعض مناسكها ، ولو ركناً واحداً فى أشهر الحج ثم يحجُّ فى العام نفسه ، واتقوا الله ، ولا تتعدوا ما بيّن الله لكم من حدود ، فإن تعديتموها ، فاعلموا أن الله شديد العقاب .

٤ — وليس للعمرة وقت مخصوص تؤدّى فيه ، فيمكن أداؤها فى جميع أيام السنة ، أما الحج فلا يؤدى إلا فى أشهر معلومات محددة ، وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فمن عزَم على الحج ، وألزم نفسه به ، ونوى الإحرام ، فعليه أن يؤديه خالصاً لله ، وليجرّد نفسه من المعاصى ، وليباعد بينها وبين الشهوات ، وليؤدِّ الحج تقيًّا نقيًّا ، كيومَ ولَدته أمه ، لأن الحكمة من الحج هى اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها لله ، وفى بيت الله ، متجردين من نعيم الدنيا وزينة الحياة ، طائعين مخلصين لله ، لا تنزع نفوسهم إلى الشهوات ، ولا يُميز بينهم اختلاف الملبس ، وتباين المظهر ، ولهذا فلا يجوز لهم أن يستمتعوا بنسائهم ، وقد أحل الله لهم أن يستمتعوا بهن فى غير الحج ، ولا يجوز لهم أن يأتوا بمعصية مما حرم الله عليهم ، فى وقت الحج أو فى غيره ، وإذا كان الله يعاقب على المعصية فى أى حال ، فإنه شديد العقاب ، شديد الغضب على من يعصيه فى الحج ؛ فلا ينبغى لعباده أن يفعلوا ما نهاهم عنه فى الحج ، من التنعم والترفه ، كحلق الشعر ، وقص الظفر ، والتطيب ، فضلا عن المعاصى التى حرّمها عليهم فى كل وقت ، وفى كل حال ، ولا يجوز لهم وهم متجهون إلى الله ، أن يصدر منهم جدال ومخاصمات أو سباب ، كما لا يجوز أن تكون منهم مماراة على أشهر الحج أو مناسكها ، فقد عين الله المناسك ، وحدّد لهم أوقاتها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ، ما بين السماء والأرض عملٌ أفضل من الجهاد فى سبيل الله ، أو حجة مبرورة لا رَفثَ فيها ولا فسوق ولا جدال) ؛ والحج المبرور هو الذى لم ترتكب فيه أو بعده معصية ، ومعلوم أن المعاصى محرّمةٌ دائماً ، ولكن الله نبه بمنعها فى الحج ، تعظيما لحرمته ، لأن فى التلبس بالمعاصى

فى أيام الحج فجوراً صارخاً ، وتحدياً فاحشاً . وتنبه الآية على أن الحج هو عهدٌ بين العبد وخالقه ، على التوبة والطاعة ، والإقلاع عن الإثم والمعصية ، فيجب قهرُ الشهوات بترك الرفث ، وقهرُ النفس الأمّارة بالسوء ، بإبعادها عن الفسوق والمعاصى ، وقهرُ العاطفة بترك الجدال ، لأن منشأ الشر ومبعث الخصومات محصور فى تلك النواحى الثلاث .

٥ ــ وما دام الله قد نهاكم فى الحج عن الرفث والفسوق والجدال ، فإنه تعالى يحثكم فيه على نقيض ذلك ، ويطلب أن يصدُرَ منكم فى الحج التعفّف ، والكلام الحسن ، والفعل الجميل ، والطاعة ، والوفاق ، والحلم ، وسعةُ الصدر ، ونبذُ الخصومات ، إنكم إن فعلتم ذلك ، فإن الله يعلمه ، ويجازيكم عليه بالثواب . وعليكم أن تتزودوا بالطعام والشراب ، والمركب والمال ، لسفر العبادة والمعاش وبتقوى الله وطاعته ، للسفر للآخرة ، وهذا خير زاد . فإن الإنسان فى الدنيا ، ينبغى أن يحمل عبء نفسه ، ولا يكون كَلاًّ على غيره ، أما فى الآخرة فإن عمل صالحاً فلنفسه ، و إن أساء فعليها ؛ هذا قانون الحق والعدل الإلهى ، فعليكم أن تأخذوا به ، وتتقوا الله يا أولى الألباب ، وأصحابَ العقول السليمة ، والبصائر الحكيمة ؛ وقد كان ناس من اليمن يحجون بغير زاد ، ويقولون : نحن ذاهبون إلى حج بيت الله ، أفلا يطعمنا ؟ فإذا ذهبوا صاروا كَلاًّ على أهل بيت الله الحرام ، وهم قوم فقراء ، محتاجون إلى المعونة والصدقة ، وربما ظلموا وغصبوا ، فأمرهم الله أن يأخذوا الزاد للسفر ، ولا يظلموا ولا يغتصبوا ، وأن يعتمدوا على أنفسهم ، ولا يكونوا كَلاًّ على غيرهم ، ونزل قوله تعالى : « وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى » .

(١٥)

لَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ، وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ، وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللهَ ، أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ .

شَرْحُ الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جناح	إثم .
أن تبتغوا فضلا من ربكم	أن تطلبوا منه فضلا ورزقاً ، وهو الربح بالتجارة أو الكراء ، أى بكثرة العمل بأجر فى موسم الحج
أفضتم من عرفات	اندفعتم فى زحمة وكثرة من عرفات ، بعد الوقوف فيها ذاهبين إلى المبيت بمزدلفة ، وهو من إفاضة الماء أى اندفاعه بكثرة .
فاذكروا الله	فكبروا الله وهللوا بعد المبيت بمزدلفة .
عند	بالقرب أو مما يلى .
المشعر الحرام	جبل فى آخر المزدلفة .
واذكروه كما هداكم	اذكروه ذكراً حقاً ، كما علمكم وهداكم إلى معالم دينه ، ومناسك حجه .
الضالين	التائهين الجاهلين عن الإيمان والطاعة .
أفيضوا	قفوا بعرفات ، كما يقف جميع الناس .

الألفاظ	شرحها
واستغفروا الله	اطلبوا من الله المغفرة مما ارتكبتم من الإثم .
فإذا قضيتم مناسككم	أديتم عبادات الحج ، من رَمى جمرة العقبة ، والطواف والمبيت بمنى .
ما له في الآخرة من خلاق	ليس له فى الآخرة حظ ونصيب ، لاقتصار همه على الدنيا .
وقنا عذاب النار	احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار .
نصيب مما كسبوا	حظ من الثواب ، لطلب خير فى الدنيا والآخرة .
والله سريع الحساب	يحاسب عباده على كثرتهم فى وقت قصير .
أيام معدودات	أيام التشريق الثلاثة التى تتلو يوم عيد النحر .
فمن تعجل فى يومين	استعجل السفر فى منى فى ثانى أيام التشريق بعد رمى جماره .
ألد الخصام	شديد الخصومة لك يا محمد ، ولأتباعك .
تحشرون	تجمعون يوم القيامة للحساب .
يُعجبك قوله	تستحسنه وترضاه وتميل إليه .
تولى	انصرف .
أخذته العزة بالإثم	حملته الأنفةُ والحميّة بفعل ما يأثم به .
المهـــاد	الفراش ، والمراد به المنزل والمثوى .

مجمل المعنى

١ — كانت عكاظُ ومجنّةُ وذو المجاز أسواقاً للعرب يجتمعون فيها ، يتفاخرون ويتناشدون الشعر ، ويبيعون ويشترون ، وكان من عادتهم أن يصبحوا بعكاظَ أول يوم من ذى القعدة ، ثم يذهبوا إلى مجنّةَ بعد مضى عشرين يوماً من ذى القعدة ، فإذا رأوا هلال ذى الحجة ذهبوا من مجنةَ إلى ذى المجاز ، فلبثوا به ثمانىَ ليال ، ثم ذهبوا إلى عرَفة للحج ، وكانت معايشهم من هذه الأسواق ، فلما جاء الإسلامُ وفرَض الحجّ ، وعينت أيامه ومناسكه ، تأثّم الناس فيها ، وتحرّجوا من البيع والشراء ، والتجارة والكراء ، وكانت معايشهم منها ، فنزل قوله تعالى : ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم ، ورُفع عنهم الجناحُ والإثم من كسب الرزق بالتجارة والعمل ، إذا لم يشغلهم عن عبادة الله ، وأداء فريضة الحجّ .

٢ — وقد فرَضَ الله عليكمُ من الأركان التى لا يتمّ الحجّ بدونها ، أن تقفوا بعرَفةَ يومَ عرَفة بعد الزّوال ، ويستحبُّ أن تقفوا بها راكبين إن استطعتم تعظيما لشعائر الله ، وأن تجمعوا فيها بين صلاتى الظهر والعصر ، فإذا أديتم هذا المنسكَ فاندفعوا مسرعين إلى المزدَلفة لتقفوا فيها وتبيتوا بها ، ثم تذكروا الله مهللين مُلبّين مكبرين ، فى المكان الذى يلى المشعرَ الحرام ، وهو جبلٌ فى آخر المزْدَلفة قبيلَ الفجر إلى أن تطلع الشمس ، ويحسنُ أن تجمعوا فى المزْدَلفة بين صلاتى المغرب والعشاء ، وأن تخلصوا فى التّهليل والتكبير ، حمداً لله ، واعترافاً بفضله عليكم ، واذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، وأرشدكم إلى معالم الدين ومناسك الحج ، وقد كنتم من قبل هدايته لكم ضالين ، تجهلون الإيمان والطاعة ، ولا تعرفون الدّينَ الحق ، والمناسك الصحيحة .

٣ — وقد كانت قريشٌ فى الجاهلية ترفع عن النـــاس ، وتتعالى عليهم ، وتأبى أن تتساوى بهم فى الحياة والعبادة، إذ كان العرب فى الحجّ يقفون بعرفة ، وقريشٌ تقف بمزدَلفة ، ولما كان الله قد سوّى بين الناس فى العبادة، كما سوّى بينهم فى الحقوق ، وكان من أهم أغراض الإسلام تجمع الناس ليتآلفوا ويتحابوا ويتعاونوا ، وفى اجتماعهم لعبادة الله تأليف للقلوب ، ومبادَلة للعطف والرحمة والصفاء ، فقد جعل من سنن عبادته ، وشعائر دينه ، الجماعة ، ولهذا أقيمت المساجد ، ليجتمعَ الناسُ فيها كلَّ يوم خمس مرات فى خمس صلوات ، وجعل صلاة الجماعة خيراً من صلاة الفرد . وفرَضَ صلاةَ الجمعة كل أسبوع ، ليجتمع فى المسجد خلق كثير ، وجماعة أكثر من جماعة الصلوات المفروضة كلَّ يوم ، وسنَّ صلاةَ العيدين كل عام ، ليجتمع أهل القرية أو المدينة فى مؤتمر دينى ، تخلص فيه قلوبهم من شوائب الحقد والحسد ، والعداوة والبغضاء ، ويخرُجون منه متصافحين يهنئُ بعضهم بعضاً ، ثم شرع المؤتمر الأكبر والمجتمع العامَّ الذى يجمعهم من جميع أقطار الأرض على اختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ومنازلهم ، متجرّدين من مظاهر الثوب والمكان ، التى تفرق بينهم ، ليتدارسوا شئونهم ، ويتعاونوا على ما يصلح حالهم ، فلما جاء الإسلام لم يرضَ الله من قريش أن تنفرد بالوقوف بمزْدَلفةَ ، وأن تتميز دون الناس بمظهر خاص ، وهو الذى يقول : يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ لهذا أمرهُم أن يقفوا مع الناس بعرَفةَ ، وأن يفيضوا بعد موقفهم فيه من حيث أفاض الناس ، ويخرجوا معهم جميعاً — لا فرق بين شعب وشعب ، أو قبيلة وقبيلة — من عرَفة بعد أن يقفوا بها ، ويبيتوا معهم فى المزْدَلفة، ويؤدوا شعائر دينهم ، ومناسك حجهم ، كما يؤديها جميعُ الناس سواءً بسواء، وقد طلب الله إليهم أن يستغفروه مما ارتكبوا من الإثم لتغييرهم مناسكَ حجه فى الجاهلية ، والله سبحانه وتعالى يقبل التوبةَ من عباده ، ويغفرُ لهم ما فرط من ذنوبهم ،

إذا أخلصوا فى التوبة إليه ويشملهم بعظيم رحمته . وهنا ينبغى أن ننبه إلى أن ما يقيمه أصحابُ الغنى والسلطان للمباهاة والعظمة ، من مساجدَ يخصصونها لصلاتهم ، وصلاة أعوانهم وخدمهم ، ليس من سنن الإسلام ، ولا يقبلُ الله لهم فيها صلاةً ولاعبادةً ، لأن المساجد لله ، وليس لعبد عليها سلطان ، يُدْخلُ فيها من يشاء ويمنعُ من يشاء . وحينما يبنى المسجدُ يخرجُ عن ملكية بانيه ، ويصبحُ بيتاً من بيوت الله ، مباحاً للمسلمين ، يؤدون فيه صلاتهم وعبادتهم .

٤ — وكان العــرب فى الجاهلية يقفون فى موسم الحجّ ، يفاخرون بآبائهم ، ويذكرون ما كان من فعالهم ، ومحاسن أيامهم ، ومنهم من كان يقفُ ويقول اللهم إن أبى كان عظيم القبّة ، عظيم الجفنة ، فأعطنى مثل ما أعطيته . فنزلت الآية : فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً : مبيناً لهم سوءَ ما كانوا يفعلون ، قائلا لهم : إن الواجب عليكم إذا أديتم عباداتَ الحجّ ، وقضيتم مناسككم ، أن تذكروا الله ، ذكراً كثيراً ، كما كنتم تذكرون آباءكم ، وأن تتركوا التباهى ، بأفعالهم ، وأن تحمدوا الله وتكبروه على ما أسبغ عليكم من نعمه ، وأن تذبّوا عن حرمه ، وتغضبوا لمعصيته ، كما تذُبون عن آبائكم ، وتغضبون لسبابهم ؛ بل يجب أن تكون غَيْرتكم على الله ، وحميتكم له ، وثناؤكم عليه ، أشدّ من غيرتكم وحميتكم ، وثنائكم على آبائكم ، لأنه هو الذى خلقكم ، وهداكم للإيمان ، وهو الذى رباكم ، وخصكم بنعمة العقل ، وفضّلكم على كثير من العالمين .

٥ — وقد بين الله حالَ ما كان عليه العرب فى الجاهلية ، وحالَ من يكون على شاكلتهم من الناس ، ممن يطلبون مصالحَ الدنيا ، ولا يرجون ثوابَ الله فى الآخرة ، ويجعلون كلّ همّهم الحصولَ على المال والجاه ، وابتغاءَ الزينة واللذات على أى وجه كان ، لا يخافون الله ، فيما يقولون ، ويفعلون ويكسبون ، يطلبون

الدنيا ولا يطلبون الآخرة ، هؤلاء ليس لهم نصيب من ثواب الله ، ولا حظَّ لهم فى الآخرة ، لأنهم لم يعرفوها ، ولم يعملوا لها ، ولم يؤمنوا بها .

٦ — ومنهم من يطلبون من الله أن يعطيهم حسنةَ الدّنيا ونعمها ، وحسنة الآخرة وثوابها ، أما نعمُ الدنيا فهى حسنُ الذّكر ، وسعة الرزق ، ومحبةُ الناس ، وعزّة النفس ، وصحةُ البدَن ، ونجابة الولد ، وخدمةُ المجتمع ، والتوفيقُ لعمل الخير ؛ وأما حسنة الآخرة ، فهى ثوابُ الله ورحمته ، وهى الجنةُ دارُ المتقين ، ويطلبون أن يقيهم اللهُ النارَ بعفو منه ومغفرة ، هؤلاء الذين يطلبون حسنات الدّنيا والآخرة ، ويعملون للعاجلة والآجلة ، يجيب الله دعاءَهم ، ويجعل لهم حظاً من نوع ما طلبوه ، وهو حسنةُ الدنيا والآخرة ؛ والله سبحانه وتعالى يحاسبُ الناسَ على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى لمحة سريعة ، لا يعجزُه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، ويعطيهم من الثواب والعقاب بقدر ما قدّموا من حسنات ، أو اجترحوا من سيئات ، لا يؤخرَ ثوابَ محسن ، ولا عقاب مسىء .

٧ — وعليكم أن تذكروا الله بالتهليل والتكبير والتلبية ، بعد رمى الجمار ، وعقبَ الصلاة ، وأنتم مقيمون بمنى فى أيام معلومة ، وهى أيام التشريق الثلاثة ، التى تلى يوم النحر ، وأنتم مخيرون بين أن تقيموا بها يومين ، ثم تتعجلوا العودةَ إلى مكة بعد رَمى الجمار . أو تقيموا بها أيام التشريق الثلاثة ، لا إثمَ على من يفعل هذا أو ذاك ، وإن كان الأفضل لكم أن تقيموا ثلاثةَ الأيام ، وهذا التخييرُ فى التعجل بيومين ، أو بإقامة ثلاثة أيام للحاجّ التقىّ ، فلا يصيبه إثم من هذا أو ذاك ، وهذه الأحكامُ التى بيّنها الله لكم ، يجب عليكم أن تؤدوها ، وتحذَروا الإخلال بها ، وتتقوا الله الذى يجمعكم يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم .

٨ — كان الأخنسُ بن شريق الثقفىّ حسنَ المنظر ، حُلوَ المنطق ، يوالى رسولَ الله ، ويظهر له المحبة ، والتعلقَ بالإسلام ، ويُخفى فى نفسه الكفر ،

وينطوى قلبه للإسلام وللنبىّ على العداوة والبغضاء ، وكان كلامه يرُوق النبىّ ويعجبه ، وكان من خبره أنه انصرف من مجلس النبىّ ، ورجع إلى قومه ، فمرّ فى طريقه بزرع لقوم من المسلمين ، فأحرق الزرع ، وقتل الماشية ، فنزلت فيه الآية : ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا . . .

٩ — وفى هذه الآية تحـذير من الذين يقولون بألسنتهم ، ما ليس فى قلوبهم ، فتراهم يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، وتراهم يبهرون السامعين بحسن منطقهم ، وحلاوة لسانهم ، فى تقواهم وإيمانهم ، ومحبتهم لله ورسوله ، ويشهدون الله على أن ما يقولونه بألسنتهم ، موافقٌ لما فى قلوبهم ، يريدون بهذا البهتان أن ينالوا حظاً من حظوظ الدنيا ، وهم فى حقيقة أمرهم من أشد الخصوم للمسلمين ؛ فإذا انصرف واحد من هؤلاء ، وأتيحت له الفرصة ، وخُلّىَ بينه وبين الانتقام ، ارتكب كل شنيعة وجريمة ، وأهلك الحرث والنسل ، وأفسد كل ما وصلت إليه يده ، والله يبغض الفساد ، ويمقت المفسدين .

١٠ — ومن هـذا القبيل ما يقع من وُلاة السـوء ، لتحقيق أغراض خسيسة ، من ظهورهم أمام الناس بمظهر التقى والورع ، أو بما يبدونه من الحرْص على خير الشعب ومصلحة الأمة ، ثم هم فى الحقيقة يكيدون للأمة ، ويدبّرون لها الشر ، بقتل المصلحين من رجالها ، والمجاهدين من أبنائها ، ويحرقون مدنها ، ويتلفون أموالها ، ويحرضون أعداءها عليها ، وإذا زَجرهم زاجر ، أو وعظهم واعظ ، فقال له : اتق الله فى عباد الله ، وكف عن ظلمك وطغيانك ، أمعن فى ظلمه وطغيانه ، لا دينَ يردَعه ، ولا تقوَى تمنعه ، وأخذته العزة والحميّة ، فأمعن فى الإثم ، ومضى فى الطغيان ، فتسوء عاقبته ، ويذهب عنه عزّهُ وسلطانه ، ويأخذه الله أخذَ عزيز جبار ، ويلقيه فى جهنم مهاد الظالمين ، ومثوى الجبارين .

١١ — ومن الناس من يبيع نفسه فى سبيل مرضاة الله ، فيبذلهـا فى الطاعة والجهاد ، والدعوة إلى الخير ، ومقاومة الفساد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإصلاح ذات البين ، والمجاهرة بالرأى ، وإعلان الحق ، والغيرة على دين الله ، وإن بذل فى سبيل ذلك حياته ، وقدم نفسه للفتك والقتل ، لا يبتغى بذلك عرَض الدنيا ، وإنما يبتغى به وجه الله والدارَ الآخرة ، هؤلاء عباد الله وأحباؤه ، هو رءوف بهم ، يُعينهم على مشاق الطاعة ، وتحمل ألوان الاضطهاد ، وفى سبيلها خرج صُهيبٌ الرومىّ مهاجراً من مكة إلى المدينة ، فاعترضه نفرٌ من قريش ، فنزل عن راحلته ، وأخرج الأسهم من كنانته ، ثم قال : يا معشر قريش ، لقد علمتم أنى من أرماكم رَجلا ، وايمُ الله لا تصلُون إلىّ حتى أرْمىَ كل سهم معى فى كنانتى ، ثم أضربَ بسيفى ما بقىَ فى يدى منه شىء ، ثم افعلوا ما شئتم ، وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة ، وخليتم سبيلى ، قالوا : نعم ، فدلهم على ماله ، وخلّوا سبيله ، فلما حضر المدينة ، قال له النبى : رَبحت أبا يحيى : فنزل قوله تعالى : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وقد قدمنا تفصيل شرحها وتفسيرها

مبحث مجمل فى الحج والعمرة

فرض الله الحج والعمرة على كل مسلم ، مرة فى حياته ، إذا كان بالغاً عاقلا ، حرًّا قادراً ، وأركان الحج هى : الإحرام ، وطواف الزيارة ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة .

أما الإحرام فهو نية الدخول فى الحج ، ولكل قطر مكان خاص ، يجب على الحجاج من أهل هذا القطر إذا وصلوا إلى هذا المكان ، أو كانوا بمحاذاته ، أن يبدءوا إحرامهم ، ويسمى : الميقات ؛ وميقات أهل مصر والشام وبلاد

المغرب وما إليها : الجُحفة وهى موضع معروف بين مكة والمدينة — إن لم يمروا بالمدينة ، فإن مروا بها فميقاتهم ذو الحُليفة .

وميقات أهل العراق وسائر بلاد المشرق : ذات عِرْق ، وهى قرية على مرْحلتين من مكة ، والمرحلة مسير يوم بالإبل .

وميقات أهل المدينة : ذو الحُلَيفة : وبينها وبين مكة تسعُ مراحل .

وميقات أهل اليمن والهند : يَلَمْلَم ، وهو جبل يبعد مرْحلتين عن مكة .

وميقات أهل نجد : قَرْن : وهو جبل مشرف على عرفات يبعد مرحلتين عن مكة .

ومن كان من مكة ، فميقاته مكة .

وإذا أراد الإنسان أن يحرم ، استُحب أن يقص أظفاره ، ويحلق رأسه إذا كان رجلا ، وتقصر شعرها إذا كانت امرأة ، ويغتسل ، ثم يلبس إزاراً ورداء ، ويتطيب ثم يصلى ركعتين ، وبعد ذلك كله ينوى الإحرام فيقول : بلسانه وقلبه : اللهم إنى أريد الحج فيسِّره لى ، وتقبله منى ؛ ثم يلبى بعد ذلك ، فيقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمدَ والنعمةَ والملكَ لك ، لا شريك لك ؛ ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من التلبية بصوت منخفض ، ويحرُمُ على المحرم عقدُ الزواج ، والاستمتاع بالنساء ، والتطيب بالطيب ، وتشتد الحرمة ، ويزداد غضب الله ، على الذين يرتكبون الأفعال المحرَّمة ، وهم مُحْرمون بالحج .

ويحرمُ على المحرم أيضاً صَيدُ البر بالقتل أو الذبح أو الإشارة إليه ، ويحرم عليه إذا كان رجلا أن يلبس ثوباً مخيطاً ، أو محيطاً ببدنه أو بعضه ، كالقميص والسراويل والحذاء ، وأن يغطىَ رأسه ووجهه ، كما يحرمُ على المرأة سترُ وجهها ويديها ، فإذا دخلَ مكة كان مستحبًّا أن يغتسل ، وأن

يدخلها نهاراً ، ويبدأ الدخول بالمسجد الحرَام من باب السلام ، ملبياً ، متواضعاً ، خاشعاً .

أما الطواف فهو الركن الثانى من أركان الحج ، وهو طواف الزيارة أو الإفاضة ، ويبدأ وقته من فجر يوم النحر ، وهناك طواف مستحبٌ قبل ذلك ، وهو طوافُ القدوم ، ويبتدئ من وقت دخول مكة إلى الوقوف بعرفة ، وطوافٌ واجبٌ ، وهو طوافُ الودَاع ، ويجب أن يكون الطوافُ حولَ الكعبة فى داخلِ المسجد الحرام ، وأن يبدأ الطواف من الحجر الأسود ؛ ويستحب طهارة الثوب والبدن قبلَ الطواف ، وأن يكون مشياً للقادر عليه ، وأن يكون سبعة أشواط ، وأن تُصلَّى ركعتان عقب الطواف .

أما السعى بين الصفا والمرْوَة فهو الركن الثالث من أركان الحج ، ويجب أن يؤخر بعد طواف الإفاضة ، وأن يكون سبعة أشواط مشياً للقادر ، وأن يبدأ فى السعى بالصفا ، وينتهى بالمروة .

والركن الرابع : هو الحضور بأرض عرفة بأي حال من الأحوال ، سواء أكان الحاج يقظان أو نائماً ، قاعداً أو قائماً ، واقفاً أو ماشياً ، بشرط أن يكون ذلك بعد زوال شمس اليوم التاسع من ذى الحجة ، إلى فجر يوم النحر .

ويجب على الحاج الإحرام من الميقات كما سبق ، والوجودُ بمزدَلفة ولو لحظة ، بشرط أن يكون ذلك فى النصف الثانى من الليل بعد الوقوف بعرفة ، ورَمى الجمار بأن يرمى جمرةَ العقبة وحدَها يوم النحر ، ويرمى الجمرات الثلاث كلَ يوم من أيام التشريق الثلاثة ، التى تجىء عقبَ يوم النحر ، ومن واجبات الحج : المبيت بمنى أيام التشريق الثلاثة ، ويفسد الحج بالجماع للرجل والمرأة ، إذا كان قبل الوقوف بعرفة ، ويجب قضاؤه ، وعلى كل منهما دمٌ ، وإن كان بعد الوقوف بعرفة ، وقبل الحلق ، كان محرَّماً ،

ولكن الحج لا يفسد ، وعلى كل منهما بدَنة : والبدنة من الإبل : هى ما طعن فى السادسة ، ويحرُمُ الطوافُ على الجُنُب والحائض والنفَساء، فمن فعل فعليه أيضاً بدَنة . ولا يجوز للمحرم أيضاً الاستمتاع بالنساء بغير الجماع ، كالمعانقة والمباشرة والتقبيل ، ويلزمه إن حصل شىء من ذلك دَمُ شاة أو بقرة أو بدنة ، وكذلك من أزال شعر رأسه أو لحيته أو إبطه أو رقبته بغير عذر ، فإن فعل ارتكب إثماً ، ووجب الدم ، وإن كان قد أزاله بعذر ، كان مخيَّراً أن يذبح شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام ، أو يطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، ونرى أن يعطيهم مقدارَ ما ينفقون على طعامهم فى يوم ، ويجب الدم أيضاً على الرجل إذا لبس مخيطاً ، أو ستر رأسه ، أو تطيَّب ، أو قص أظفاره أو بعضها ، وعلى الحاج أن يعوِّض صيدَ البر ، وقطع الحشيش فى الحرم ، بأن يشترى بقيمته هدْياً يذبحه فى الحرم ، أو طعاماً يوزعه على الفقراء ، أو يصوم .

والعمرة فرض واجب كالحج ، وأركانها : الإحرام ، والطواف والسعى بين الصفا والمروة ، ويصحّ الإحرام والعمرة فى جميع أوقات السنة ، ويندبَ تأخير الإحرام بها لمن يحج ، حتى تغرب شمس اليوم الرابع ، ويجب للعمرة ما يجب للحج ، وعلى كل حال فهى كالحج ، ولكن ليس لها وقت معين ، وليس فيها وقوف بعرفة ، أو نزول بمزدلفة ، أو رمىُ جمار .

أوجه تأدية الحج والعمرة

يؤدَّى الحج والعمرة على أوجه ثلاثة :

أولا : الإفراد ، وهو أن يحرمَ بالحج وحده ، ويؤدى مناسكه ، فإذا فرغ منها أحرم بالعمرة ، وطاف وسعى لها ،

ثانياً : القِران ، وهو الجمع بين الحج والعمرة فى إحرام واحد من ميقات الحج .

ثالثاً : التمتع ، وهو أن يؤدّى مناسك العمرة أولا ، فإذا فرغ منها أحرم بالحج فى نفس العام ، والقِرانُ أفضل من التمتع ، والتمتع أفضل من الإفراد .

ويجب على كل من المتمتع والقارن هدْىٌ ، إذا لم يكن متوطناً بالبيت الحرام ، وأن تقع عُمرةُ المتمتع فى أشهر الحج ، وأن يحج فى عام العمرة .

والهدى بدنة ، وهى ذكر أو أنثى من الإبل أتمت خمس سنين ، ودخلت فى السادسة ، أو بقرة أتمت سنتين ودخلت فى الثالثة ، أوشاة أتمت سنة ، وهى على هذا الترتيب فى الأفضلية .

(١٦)

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . أَمْ

حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يأيها الذين آمنوا	المقصود بهم من آمنوا من أهل الكتاب .
السِّلم	الإسلام .
كافة	جميعاً .
ولا تتبعوا خطوات الشيطان	لا تسلكوا السبيل الذى يدعوكم إليه الشيطان ، بمخالفة ما أمرتم به .
إنه لكم عدو مبين	إن عداوته لكم بينة ظاهرة .
زللتم	تنحيتم عن طريق الاستقامة ، وملتم عن اتباع جميع أحكام الشريعة .
من بعد ما جاءتكم	من بعد ما وصلت إليكم ، وتمكنتم من معرفتها .
عزيز	غالب لا يُعجزه شىء عن الانتقام منكم .
حكيم	لا ينتقم إلا بحقّ وحكمة .
هل ينظرون	لا ينتظرون .
يأتيهم الله	يأتيهم أمرُ الله وحُكمه ، وبأسه وانتقامه .

الألفاظ	شرحها
ظلل	جمع ظلة ، وهى ما يستظلّ به ، والمعنى : غمام كالظلل .
الغمام	السحاب الأبيض .
وقُضى الأمرُ	أتم أمر إهلاكهم وتدميرهم ، وفرغ منه .
سل بنى إسرائيل	اسأل يا محمد بنى إسرائيل ، تبكيتاً وتقريعاً لهم .
من آية بينة	من معجزة ظاهرة ، كفلق البحر ، والمن والسلوى ، فبدّلوها كفراً .
ومن يبدل نعمة الله	ومن يغير الآيات البيّنات ، وهى نِعَمٌ من الله ، لأنها سبيل الهداية إلى الحق .
شديدُ العقاب	يعاقبه أشد عقوبة ، لارتكابه أشنع جريمة .
زُين للذين كفروا	حُبّب للكفار من قريش .
الحياة الدنيا	متاعها وزُخرفها ومنافعها .
ويسخرون من الذين آمنوا	يهزءون ويستذلون فقراء المؤمنين .
والذين اتقوا	والمؤمنون المتقون ، الذين اجتنبوا الشرك ، واتبعوا الإيمان .
فوقهم يوم القيامة	يرفعهم الله يوم القيامة فى غرف الجنان ، فيشرفون على المشركين فى الدرك الأسفل من النار .
والله يرزق من يشاء	والله يوسّعُ فى الرزق على من يشاء من عباده .
بغير حساب	بغير حصر ولا تقدير .
أمة واحدة	متفقين على الإيمان ، أو على الجهالة والضلال .
فيما اختلفوا فيه	فيما التبس عليهم من الحقّ .
بَغياً	حسداً بينهم وظلماً .

الألفاظ	شرحها
مثلُ الذين خلوا من قبلكم	مَثل ما أصاب الأممَ السالفة ، من الشدائد والكوارث .
البأساء	شدّةُ الخوف والضرر .
الضراء	الأمراض والآلام .
زُلزلوا	أزعجوا إزعاجاً شديداً .
متى نصر الله	اشتد بهم الضجر ، وذهب صَبرهم ، فقالوا ذلك .
ألا إنَّ نصر الله قريب	نصر الله لعباده المتقين ، مهما بلغت بهم الشدة ، مؤكد قريب .

مجمل المعنى

١ — لمَّا دخل أهلُ الكتاب فى الإسلام ، كان بعضُهم يراعى بعض أحكام دينه القديم ، فمنهم من كان يعظم السبتَ على عادة اليهود ، ويحرِّم لحمَ الإبل وألبانها ، حتى إن عبد الله بن سلام ، استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على عادة تعظيم السبت ، وأن يقرأ من التوراة صلاته من الليل ، فنزلت هذه الآية ، مخاطبة المؤمنين من أهل الكتاب ، بأن ادخلوا فى الإسلام كلية ، وأدوا جميع شرائعه وأحكامه ، ولا تخلطوا به غيره من الأديان ، وإذا كنتم قد اعتنقتم الإسلام بقلوبكم لا بأفواهكم ، فلا ينبغى أن تقيموا معه أى عبادة من دين آخر لم يقرها الإسلام ؛ وإياكم أن تسلكوا سبيل الشيطان فيما يزين لكم ، من الانحراف عن بعض شرائع الإسلام ، وأن تميلوا بعض الميل عن دين الحق ، فإنكم إن انحرفتم عنه بعد ما وصلت لكم الحُجج الظاهرة ،

والبراهين القاطعة ، والمعجزات الساطعة ، الموجبة للدخول فيه ، والتمسك به ، فاعلموا أن الله ينتقم منكم أشد انتقام ، لأنه عزيز غالب ، لا يعجزه شىء عن الانتقام منكم بحق وحكمة . وفى تهديد الله الذين يميلون عن الدين بعد ما وضحت لهم بيناته ، وظهرت آياته ومعجزاته ، دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أشد وأعظم من عقوبة الجاهل به ، وأن الله لا يعذب الناس حتى يرسل لهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأن من لم تبلغه دعوة الإسلام بينة ظاهرة ، لا يؤاخذه الله ، إذا لم يعتقد الإسلام ويتبع أحكامه ، فعلى المسلمين أن يدعوا إلى دينهم بالحجة الثقة ، والبرهان الواضح ، إن شاءوا أن يعرف الناس دينهم على حقيقته ، ويتبينوا أصول عقائده ونظمه وأحكامه .

٢ ــ وماذا ينتظر المخالفون عن أمر الله ، المصرون على العناد ، وعدم الامتثال لما أمروا به ، والانتهاء عما نهوا عنه ، إلا أن يأتيهم بأس الله وغضبه ، فى ظلة من الغمام ، والملائكة ، ومن حيث كانوا يتوقعون الغيث والرحمة من الغمام والملائكة ، إذا بهم يؤخذون من حيث لم يحتسبوا ، ويأتيهم الشر من حيث ينتظرون الخير ، والشر إذا وقع من مظنة الخير ، كان أشد وقعاً ، وأعظم هولا ، فيُقضَى أمرُ إهلاكهم وتدميرهم ، ويُفرَغ منهم على أبشع صورة وأسوأ حال ، والله جل شأنه هو المتصرف فى خلقه ، لا عاصمَ من أمره ، ولا فرارَ من حكمه ، وإليه ترْجعُ كلُّ أمور عباده .

٣ ــ سل بنى إسرائيل مقرّعاً وموبّخاً لهم ، عن الآيات الكثيرة ، والبينات الواضحة ، التى عرَفوها حق المعرفة فى التوراة ، عن أمر محمد ورسالته ، وعدّد المعجزات الظاهرة التى جاءهم موسى بها ، كفلق البحر وإنزال المنّ والسلوى ، ليؤمنوا به ، ويتبعوا رسالته ، فبدّلوها جحوداً وإنكاراً لرسالة محمد ، كما بدّلوها كفراً بموسى ، ومن يغير الآيات البينات ، والحججَ الواضحات ، وهى

نعم من الله ، لأنها سبيلُ الهداية إلى الحق ، فيجعلها سبيلا للزيغ والضلال ، بما يُدْخلُ فيها من تحريف وتأويل ، ونسخ وتبديل ، فإن الله يعاقبه أشدّ العقاب .

٤ ـ ولقد زينت الحياة الدنيا فى عيون الكفار من قريش ، وحسَّنَتْ لهم ، وأشربت محبتَها قلوبَهم ، حتى تهالكوا عليها ، وتهافتوا فيها ، معرضين عن غيرها ، وخيل إليهم أن المال ولا شىء غيره ـ هو سبيل السعادة والسلطان ، فسخِروا من فقراء المؤمنين ، وضعفاء المسلمين ، كبلال وصُهيب ، وابن مسعود وعمّار ، رضى الله عنهم ، واستهزءوا بهم ، واسترذلوهم ، كما حاولوا أن يفتنوهم بالمال ، ويردُّوهم عن دينهم ، فما زادوا إلا استمساكاً بدينهم ، وعُزوفاً عن الدنيا وزينتها ، وإن هؤلاء المؤمنين المتقين ، الذين يسخر منهم الكافرون لفقرهم ، هم فى أوج السعادة بإيمانهم ، وفى ذروة العز بدينهم ، وأنهم يومَ القيامة سيُحلُّهم الله غرفَ جناته ، وسيشرفون من عليين على هؤلاء المشركين ، وهم فى الدرك الأسفل من النار ، والله خالقُ العباد ، ورازقهم بغير حساب ، يوسِّع لمن شاء من عباده فى رزقه من غير حساب أو تقدير ، لحكمة يقتضيها ناموس الكون ، وسنةُ الله .

٥ ـ ولقد كان الناس أمة واحدة ، يعيشون على غير هدى من دين ، وعلى غير يقين من إيمان ، فبعث الله لهم أنبياء ، يبشرون المهتدين بثواب الجنة ، ويخوفون الضالين عذابَ النار ، وأنزل معهم الكتبَ تبين الحق من الباطل ، وتميز الخير من الشر ، فإذا اختلفوا فى أمر ، والتبس عليهم طريق الحق فيه ، رَجعوا إلى هذه الكتب لتحكم بينهم ، وتهديهم صراطاً مستقيماً ؛ ولم يقع اختلافٌ فى الحق ، وتأويل فيه ، إلا بين الذين أنزل الله لهمُ الكتابَ ليهديهم ، من بعد أن وضحت فيه البينات ، ووقفوا منه على معالم الحق ظاهرةً نيرة ، لما شاع بينهم الحسد والظلم حرصاً على الدنيا ، فعموا عن الحق

وضلوا سواء السبيل ؛ وقد شاء الله أن يرشد المؤمنين من أمة محمد إلى الحق الذى اختلف فيه أهلُ الكتابين بإذنه وإرادته ، فهداهم ، والله يهدى من من يشاء من عباده إلى طريق مستقيم ، لا يضل من سلكه ، ولا يشقى من اتبعه .

٦ — وقد أصاب المسلمين فى غزوة الخندق جَهد وبلاء ، وقاسوا فيها من الحر والبرد وسوء العيش ، وأنواع الشدائد ، ما جاوز احتمالهم ، وتعدّى طاقتهم ، فأنزل الله على نبيه : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ... إلى آخر الآية : ليشُد من أزرهم ، ويقوى فيهم احتمال الشدائد ، والصبر على المكاره ، ويحث نبيه ومن معه من المؤمنين على الثبات والجلد ، فإن سعادة الدارين لا تجنى إلا بالمشقة والجهاد ، قد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فيقول له : أظننتم أن تدخلوا الجنة ، دون جهد ومشقة ، ودون صبر على القتال فى سبيل الله ، ولما ينزلْ بكم من البلاء ، ومكابدة الشدائد ، ومقاساة الهول ، مثل ما نزل بالأمم التى خلت من قبلكم ، فقد ابتلاهم الله بالفقر والجوع ، والخوف والمرض والآلام ، وأزعجتهم الكوارث إزعاجاً شديداً ، كأن الأرض زُلزلت بهم ، واشتد بهم الفزَع والجزَع ، حتى استسلموا أو كادوا إلى اليأس والضجر ، وحملهم ذلك على أن يقول الرسول والمؤمنون المقتدون بآثاره ، السائرون على هديه ، مستبطئين فزعين : متى نصر الله ؟ فأسعفهم الله برحمته ، وأدركهم بنصره ، وأذهب عنهم خوفهم ، وأزال عنهم ضَجرهم ، وقال لهم : ألا إن نصر الله مؤكد ، قريب لا ريب فيه ، وفى هذه الآية رمز إلى أن رضوان الله لا يدْرَك إلا بمكابدة المشقات ، ورفض اللذات .

(١٧)

يَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلْ : مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ . كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ماذا ينفقون	أى شيء ينفقون ؟ .
وابن السبيل	المسافر والضيف .
كتب عليكم القتال	فرض عليكم الجهاد .
كره	مشقة مكروهة .
قتال فيه	يسألونك عن قتال وقع فى الشهر الحرام .
قتالٌ فيه كبير	القتال فيه وِزْرُه عظيم .
وصدٌّ عن سبيل الله	ومنع عن دين الله .
وكفرٌ به	وفيه كفر بالله .
المسجد الحرام	مكة .
إخراج أهله منه	إخراج النبي وأصحابه منه .
أكبر عند الله	أعظم وزراً من القتال فيه عند الله .
والفتنة أكبر من القتل	والشرك منكم بالله وأنتم فيه ، أشد عند الله من القتل .
ولا يزالون يقاتلونكم	ولا يزال الكفارُ يقاتلونكم أيها المسلمون .
يَردُّوكم عن دينكم	ليخرجوكم من الإسلام ، ويعيدوكم إلى الكفر .
حَبِطت أعمالهم	بَطَلَت أعمالهم الصالحة .
هاجروا	فارقوا أوطانهم .
جاهدوا فى سبيل الله .	قاتلوا لإعلاء دين الله .

مجمل المعنى

١ — جاء عَمْرو بنُ الجَمُوح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ مسنّ ، وله مال كثير ، فقال : يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا ؟ وأين نضَعها ؟ فنزل قوله تعالى : يسألونك ماذا ينفقون . . . .

٢ — وقد بين الله سبحانه وتعالى ما يجب على الموسر أمثال عَمرو بن الجموح من فعل الخير ، بإنفاق المال على الوالدَين والأقربين ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ؛ والتعبيرُ بالخير عن المال الذى ينفقُ ، إشارةٌ إلى أن المقصود به المال المكسوبُ من طريق الحلال ، وأن الله لا يقبلُ من عباده أن يجمعوا المال الحرام ، ثم ينفقون منه فى طاعته ، لأن الطاعةَ لا يمكن أن يكونَ أساسُها معصية أو حراماً ، كما أنها تشير إلى أن إنفاق المال تقرباً إلى الله ليس له حدٌّ يقف عنده الموسرون ، فكلما استكثَروا من الإنفاق فى وجوه الخير والبرّ ، ازدادوا ثواباً وأجراً عند الله ، وأن إنفاق المال المقصودَ فى هذه الآية ، هو غير مال الزكاة ، فإنه حق معلوم ،ونصيب مقرر فى مال الإنسان، خرج عن ملكه ، وعدَمُ إخراجه عن حوْزته ، وإعطائه للمستحقين ، اغتصاب وتعطيل لركن من أركان الدين ، يعاقبُ عليه فى الدنيا والآخرة .

٣ — وفى هذه الآية بيانٌ عمَنْ يحبّ الله أن ينفقَ المال عليهم ، وهم مرتبون على حسب وقوع الإنفاق موْقعه من البر والخير ، واكتساب ثواب الله :

ا — الوالدان أولا ، فإن الإنسان مهما أحاطهما بصنوف البر ، وأغدق عليهم من الخير ، فلن يوَفيهما حقهما .

ب — ثم الأقربون بتفضيل الأقرب فالأقرب ، وليس ما يحقّقُ ما حث الله عليه من التعاون على البر ، أكثرَ من أن يُفيضَ الإنسان بعطفه وبرّه على ذوى قرباه ، ولو قام كل موسر بمعونة أقاربه ، لكان فى ذلك خيرُ ما يعبّر عن

الضمان الجماعي ، الذى تدعو إليه الحضارة الأمريكية وتقوم به مصر هذه الأيام ، وقد دعا إليه الإسلام منذ جاء .

جـ — واليتامى : ومعلوم أن البر بهم يخفف من لوعتهم ، ويزيل وَحشتهم ، ويجبرُ ما انصدع من قلوبهم ، بحرمان رعاية الأب .

د — والمساكين : وهم الذين لا يجدون ما ينفقون ، وما أبَرّ أن يعين القادر مسكيناً على الحياة ، فيسد جوعَه ويكسو عُرْيه ، ويشعره بإنسانيته ! ولاشك أن الإنسان إذا وفر السعادةَ وخفضَ العيش لمن ولداه وربياه ، ولمن تصلهُ بهم صلات الدم والقربى ، ثم لمن حوله من اليتامى والمساكين ، فقد عَمل على تحقيق الخير للأسرة الإنسانية ، التى تعيش معه فى محيط حياته وبيئته ، ورَبط بينهم وبينه برباط المودّة والمحبة ؛ فإذا اتسع ماله بعد ذلك ، فلينفق منه فى سبيل الله ، وإعلاء دينه ، وإحياء شريعته :

وفى عموم ذلك ينطوى كل خير و إصلاح وتهذيب ، وعزة لله ورسوله وللمؤمنين .

هـ — أما الإنفاق على ابن السبيل ، وهو المسافر أو الضيف ، أو من انقطعت به الغرْبةُ فى طلب علم ، أو سعى فى كسب الرزق ، وحيل بينه وبين الحصول على ماله ، أو عجزَ عن كسب رزقه ، فبابُ الخير مفتوحٌ لمعونته ، حتى يتحقق بذلك التكافل والتراحم ، بين أبناء الأسرة الإنسانية الكبرى ؛ أرأيتَ أوثقَ للتعاون ، وأقوى فى التكافل والتآزر ، وأوفقَ فى الخير والبرّ من أن يبذلَ المرء ماله فى تلك الوجوه التى بينها اللهُ ؟ وإن كل خير تفعلونه ، وكل مال تنفقونه ، فإن الله يعلم كل العلم كيف اكتسبتموه وكيف أنفقتموه ، وهو الذى يثيبكم على قدر ما أنفقتم ، وعلى حسب ما قصدتم .

٥ — ولما بيَّن الله فى الآيتين السابقتين أن ثوابَ الإنسان عنده على قدر ما يحتملُ من مشقة فى الشدائد ، وبقدر ما يبذُل من جهد ومال فى سبيل الخير ، فرَضَ عليهم القتال لحماية الدين ، والجهاد فى سبيل الله ، والقتال فرض عين على كل إنسان ، إذا اعتُدىَ على دينه أو وطنه ، والتجنيد عام

لا يغنى منه أحد ، ولم يصبح القتال المطلوب للذود عن البلاد ، أو لحماية الدين، مقصوراً على الذهاب إلى الميدان ، أو حمل السلاح ، وإنما ينبغى أن يقاتل كل فرد فى الأمة لكفاح العدُوّ ، والذود عن الوطن ، فهذا بالمال ، وذاك بالقلم واللسان ، وهذا بالعلم أو الطب ، وذاك بالهجوم والضرب ، وهذا بالدعاية أو التجسس ، وذاك بتقوية الروح المعنوية ، وشد أزر الأمة .

٦ — والقتال مكروه للنفس بطبيعتها ، لما فيه من التعرض للقتل والأسر ، وتشويه البدن ، وإتلاف المال ، وتدمير المصانع ، وتخريب البلاد ، وإشاعة الرّعب والفزع فى النفوس ، ولكن لا تظنوا أن كل ما تكرهون شر لكم ، وأن كل ما تحبون خير لكم ، فقد تكرهون شيئاً كالحرب والقتال ، لما فيه من الأذى والإتلاف والهلاك ، ثم يكون فيه الخير لكم ، فتغلبون وتظفرون ، وتعزون وتنتصرون ، ويخشاكم العدوّ ، وتتعودون البأس ، وتتدربون على الحرب ، وقد تحبون شيئاً كالسلم وترك القتال مثلا ، لما فيه من السلامة والراحة والدعة ، ثم يكون شراً لكم ، لأنكم تضعفون، وتُطمِعون العدو فيكم ، فيستولى على بلادكم ، ويذهبُ بأسكم ، وتقعون فى ذل الاستعباد ، وقبضة الاستعمار .

٧ — والله يعلم ما فيه خيرٌ وشر لكم ، وانتم لا تعلمونه ، فلا تقيسوا الخير والشر بمقياس آرائكم ، وعلى حسب أهوائكم ، فاعتقدوا الخير الذى بيّنه الله لكم وافعلوه ، واعرفوا الشر الذى بيّنه لكم واجتنبوه .

٨ — وقد رُوِىَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش على سَرِيَّة — والسريَّة : قطعة من الجيش — فى جمادى الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين، ليترصدُوا عِيراً لقريش — والعير إبل تسير فى قافلة ، تحمل تجارة القوم وطعامهم — وكان مع العير عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين ، واستاقوا العيرَ وما فيها من تجارة ، وكان ذلك أولَ

يوم من رجب ، وهو من الأشهر الحرم ، التى حرم الله فيها على المسلمين أن يبدءوا بالقتال ، فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام ، وهو الشهر الذى يأمن فيه الخائف ، ويذهب الناس فيه آمنين ، سعياً وراء أرزاقهم : فعظُم ذلك على أصحاب السرية ، وعنفهم المسلمون لما رجعوا إليهم ، بقتل الحضرَمى فى الشهر الحرام ، فشق عليهم ذلك ، وظنوا أنهم أغضبوا الله بما فعلوا ، وأنهم لا ثوابَ لهم ، ولا أجرَ فى جهادهم وقتالهم ، فنزلت الآية : يسألونك عن الشهر الحرام . . . . والآية : إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا . . . .

٩ – يسألك كفارُ قريش يا محمدُ عن حكم الإسلام فى قتال يحصل فى الشهر الحرام ، استفظاعاً وتعجباً ، من هتك حرمته ، بقتل الحضرَمى فيه ، فقل لهم : حقاً إن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير ، ولكنكم تتعجبون وتَستفظعون ما أخطأ فيه نفر منا من القتال فيه ، فلماذا لم تتعجبوا ولم تستفظعوا ما وقع منكم من منكرات ، هى أشد من القتال فى الشهر الحرام ، من صدَكم الناس عن دين الله ، وكفركم به ، ومنعكم المؤمنين من دخول المسجد الحرام للحج والعمرة ، وإخراجهم منه وهو وطنهم وهم أهله ، كما فعلتم برسول الله وأصحابه ، حينما أخرجتموهم من مكة ، وحينما منعتموهم عند الحدَيبية من الدخول إلى المسجد الحرام ، أليس هذا منكم أكبرَ جُرْماً ، وأعظم نكراً ، من القتال فى الشهر الحرام ؟ وإن بقاءكم على كفركم فى المسجد الحرام ، وإخراج المؤمنين منه ، ومنعهم عنه ، لفتنة أكبر وِزْراً ، وأعظمُ إثماً ، من القتال فى الشهر الحرام .

١٠ – والله يحذركم أيها المؤمنون السكوتَ عن الكفار ، وينبهكم إلى أنهم حريصون على قتالكم ، متى سنحت لهم فرصة الإيقاع بكم ، فى الأشهر الحرم أو فى غيرها ، ليردوكم عن الإسلام ، ويعيدوكم إلى الشرك إن استطاعوا ، ولن يستطيعوا ، لأن الله حبب الإيمان إلى نفوسكم ، وثبته فى قلوبكم ، وإن

الذين يرتدون عن الإسلام ، ويرجعون كفاراً ،سيعطل الله كل أعمالهم فى الدنيا ، فلا يعاملون فيها معاملة المسلمين ، بل قد أحل الله سفكَ دمائهم ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، يقيمون فيها، ولا يخرجون منها أبداً . وإن أصحاب السريّة من المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الدين ، الذين يطمعون فى رحمته ، قد جعلَ الله لهم ثواب إيمانهم وهجرتهم وجهادهم ، ولن يؤاخذهم بخطأ القتال فى الشهر الحرام ، والله عظيم المغفرة ، عميم الرحمة بعباده المؤمنين المجاهدين .

(١٨)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، وَيَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ : الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ، قُلْ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسألونك	السائلون هم المؤمنون .
الخمر	كل سائل أو دقيق أو جاد ، ويؤثر تعاطيه من الفم أو غيره فى الأعصاب ، فيغير طبيعة العقل والتمييز .

الألفاظ	شرحها
الميسر	القمار ، وهو المراهنة على منفعة أو مال يظفر به الغالب فى لهو أو قرعة .
فيهما	فى تعاطيهما .
إثم كبير	وزر عظيم .
وإثمهما أكبر من نفعهما	وعقاب الإثم فى تعاطيهما ، أكبر من المنافع التى تعود منهما .
ماذا ينفقون	ما الذى ينفقونه من أموالهم ؟
العفو	الفاضل عن النفقة الواجبة للعيال .
كذلك	مثل ذلك البيان الواضح فى الإجابة عما سألتم .
لعلكم تتفكرون	لتفكروا فيما أمركم الله به ، وما نهاكم عنه ، فتأخذوا الحلال ، وتتركوا الحرام .
ويسألونك عن اليتامى	ماذا يفعلون فى الحرج من أجل اليتامى ؟ وهل تجوز مخالطتهم فى النفقة والكسوة والسكنى ؟
إصلاح لهم خير	مخالطتهم مع مراعاة الصالح لهم ، وتنمية أموالهم ، ورعاية شئونهم ، خير من تركهم .
تخالطوهم	تخلطوا نفقتهم بنفقتكم ، وتعيشوا وتسكنوا معهم ، على وجه ينفعهم .
فإخوانكم	فهم إخوانكم فى الدين ، وهو أقوى رابطة من النسب ، وأوثق علاقة من القرابة .
والله يعلم المفسد من المصلح	والله يعلم من يصلح فى أمورهم ومن يفسد ؛ بالمحافظة على أموالهم أو تضييعها .
لأعنتكم	لكلفكم مشقة ، وضيق عليكم ، فحرمكم مخالطتهم .

مجمل المعنى

١ — الخمر من المفاسد التي إذا اعتادها إنسان ، تحكمت في إرادته ، وملكت عليه هواه ، وشق عليه أن يتركها ، وقد سلك الله في تحريمها التدرج ، حتى لا تشعرَ النفوس بمشقة المنع ، ولا يحملها شدة التعلق بها على عدم امتثال البعض إلى أمر الله في اجتنابها ، فأنزل الله فيها أربع آيات : أولاها : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً » فكان المسلمون يشربونها ، وهي لهم حلال ، ثم إن عُمرَ ومُعاذاً وجماعة من الصحابة ، قالوا يا رسول الله : أفتِنا في الخمر ، فإنها تذهب بالعقول ، وتسلبُ الأموال ، فنزل قوله تعالى : « فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس » فشربها قومٌ ، وتأثَّم منها آخرون ؛ ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً ممن ظلوا يشربونها ، فشربوا وسكروا ، فلما حضرت الصلاة ، قاموا إليها ، فأم بعضهم المصلين ، وقرأ : « قل يأيها الكافرون ، أعبد ما تعبدون » : ولم يقل « لا » « أعبد » ، فنزلت الآية : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، فقلَّ من يشربها ؛ ثم دعا عقبان بنُ مالك قوماً ، فيهم سعدُ بنُ أبي وقاص ، وسقاهم ، فلما سكروا افتخروا ، وتناشدوا الشعر ، حتى أنشد سعدٌ شعراً فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصاري بلَحْيَ بعير — واللحى : العظمُ الذي تنبت عليه الأسنان — فشجه موضحة — أي جرحه جرْحاً أبان العظم — فشكا إلى رسول الله ، فقال عمر : اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله تعالى : يأيها الذين آمنوا ، إنما الخمرُ والميسر والأنصابُ والأزلامُ ، رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكمُ العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصُدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » فقال عمر : انتهينا يا رب ، وحُرِّمت الخمر ، وصارت من الكبائر .

٢ — والميسر كان شائعاً بين العرب ، وهو يطلق على كل أنواع القمار ، وكل متبصر يعلم أن كثيراً من المفاسد الشائعة ، والأموال الضائعة ، والأسر المنحلة ، والأخلاق المرذولة ، والأعراض المسلوبة ، يرجع إلى الخمر والقمر ، أو إلى المائدة الخضراء ، والليالى الحمراء ، كما يقولون ، ولما جاء الإسلام كان حريصاً أن يوَقِّى أبناءهُ شرور المفاسد ، فحرمها تحريماً قاطعاً

٣ — وكان سؤال بعض المسلمين ممن سلمت فطرتهم ، وصَدَقَ إيمانهم ، عن حكم الله فى تعاطى الخمر ولعب الميسر ، بعد ما ظهر من ضررهما ، وشيوع تعاطيهما بين العرب — مقدمة للتحريم والمنع ، فطلب إلى النبىَّ أن يجيب السائلين : بأن فى تعاطى الخمر والميسر إثماً كبيراً ، ووزراً عظيماً ، لأن شارب الخمر يذهب عقله — والعقل عماد التفكير السليم ، والتصرف الحكيم — فيصدر عنه الهذَرُ والسِّباب ، والمخاصمة وقولُ الفحش ، ولا يبالى بإتلاف المال ، وإهدار الكرامة ، وابتذال النفس ، والقمار يجلب الخراب ، ويبدد الأموال ، ويورث بين لاعبيه العداوة والبغضاء ، ويبذُرُ فى النفوس الشقاق والخصام ، وليس بعد الذى ذكرنا من إثم أكبر ، وضرر أخطرَ على المال والنفس والدين منه ، وللخمر والميسر إلى جانب إثمهما ومفاسدهما بعض المنافع للاعبين والشاربين ، وللبائعين والشارين ، فلقد قيل : إن الخمر تبعث السرور والفرحَ فى القلب ، وتقوى الضعيف ، وتشجع الجبان ، وفيها كسب — وهو كسب خسيس — لأصحاب الحانات ، وقيل فى القمار : إن الفائز فيه يشعر بالظفر ، ويحصلُ على ربح بغير كد أو تعب ، وهما معاً حبائلُ لصَيد النساء ، وانتهاك الأعراض ، وسلب الأموال ، وهذا النفع الذى يهدم الخلق ، ويذهب بالمال ، ويخدش الشرف ، نفع ضئيل ، وأقل من القليل ، إلى جانب الآثام الكبرى ، التى يجر إليها الخمر والقمار .

٤ — وقد بيَّن الله فى آية سابقة خير الوجوه لإنفاق المال ، وذكر أنها

للوالدينْ والأقربين ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ، بعد سؤال بعض المؤمنين رسولَ الله عن ذلك ، ولكنهم ما زالوا يسألون عن المقدار الذى ينفقونه فى جهات الخير . فأجيبوا إلى ما سألوا ، وطُلب إلى النبىّ أن يقول لهم : إن ما تنفقون للخير من أموالكم هو العفوُ ، وهو القدْرُ الزائد عما يحتاج إليه الإنسان لنفقته ونفقة عياله ، وكان الرجلُ من أصحاب رسول الله بعد نزول هذه الآية ، إذا كان له مالٌ من ذهب أو فضة ، أو زرع أو ضرع ، قدَّرَ ما يكفيه وعياله لنفقة سنة ، فأمسكه ، وتصدق بسائره ، وإن كان ممن يعمل بيده ، أمسك ما يكفيه وعياله يوماً ، وتصدّق بالباقى ، وكان بعض المسلمين يبالغ ، فينزلُ عن كل ما يملك ، تصدّقاً على الناس ، وتقرّباً إلى الله ، ولكن النبىّ لم يقر هؤلاء على المغالاة فى الصدقات إلى هذا الحد ، فقد رُوى أن رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب ،أصابها فى بعض المغازى ، فقال : خذْها منى صدقة ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه من الجانب الأيمن ، فقال : خذْها منى صدقة ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من الجانب الأيسر ، فأعرض عنه ،وقال مغضباً : هاتها ، فأخذها فحذفه بها حذفاً لو أصابه لشجه أو عقره ، ثم قال : يجىء أحدكم بماله كله يتصدق به ، ويجلسُ يتكفف الناس ، إنما الصدقة عن ظهر غنى . فأىّ مبدأ اشتراكى من المبادئ التى تقوم بين الأمم المتحضرة ، جعل المنافعَ جارية بين الناس ، والتعاون بينهم أساساً مقرراً فى حياتهم ، وناطَ به سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، كما شرع الإسلام ؟ ومثل ذلك البيان الواضح للإجابة عما سألتمَ أيها المسلمون ، والنظام المحكم الدقيق الذى يضمن لكم خيرَ الداريْن ، يبين الله لكم آياته ، ويهديكم سبيله ، لتفكروا فيما هو خير لكم فى الدنيا والآخرة ، فتحبِسوا من أموالكم ما يصلحكم فى معاش الدنيا ، وتنفقوا الباقى فيما ينفعكم عند الله فى الآخرة .

٥ — لما نزل قوله تعالى : إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلوْن سعيراً ، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرَابه من شرابه ، فاشتد ذلك على اليتامى والأوصياء جميعاً ؛ وذُكروا لرسول الله ، فأنزل الله تعالى : قل : إصلاح لهم خير ، فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهمْ بشرابهم ، وبيَّن الله ما يجب عليهم لليتامى ، لينالوا به الخير ، وهو أن يكون المقصودُ من مخالطتهم ومعايشتهم ومساكنتهم ، هو الإصلاح لهم ، فلقد أباح الله للأوصياء أن يخلطوا نفقتهم بنفقة اليتيم ، بشرط ألا يغبنوهم ولا يظلموهم ، لأن من العسير تحديد ما يمكن أن يأكل اليتيم ، كما أنه من الشاقّ عزلُ طعامه وشرابه ، فإن هذا يوحش نفسه ، ويوقع على وصيّه عنتاً ومشقة ، ولهذا بيّن الله ما يجب أن يُرَاعيه الأوصياء فى شأن اليتامى ، وهو أن يراعوا مصالحهم ، وأن يعتبروهم إخواناً لهم ، تربط بينهم أخوّة الدين ، وهى أقوى من أخوّة الصِّهر والنسب ، وليست رعاية مصالح اليتامى مقصورة على التصرف فى أموالهم فقط ، ولكنها مبسوطة على الإشراف على تعليمهم وتربيتهم ، والمحافظة على صحتهم ، وصيانة أخلاقهم ، وتثمير أموالهم ، وتنميتها فى خير الوجوه ، وأن يُشعروهم بالأخوّة ، وبالمودة والرحمة ، ويظهروا اهتمامهم بهم ، وقربهم من نفوسهم ، ويمتزجوا بهم فى شئون الحياة امتزاج المخالطة ، حتى لا تستوحش نفوسهم ، ولا تتصدع باليتم قلوبهم . وقد جعل الله أموال اليتامى ، وحقوقهم ورعايتهم ، فى ذمة الأوصياء ، وهو الذى يعلم من يصلح فى أمورهم ومن يفسدها ، وأراد الله التيسير عليكم بمخالطة اليتامى ، ولو أراد لضيّق عليكم ، وكلفكم مشقة ، فأتمّكم بمخالطتهم . ومفهوم الآية أن الله أباح للأوصياء أن يخلطوا من أموال اليتامى بأموالهم ؛ ما يصعبُ عليهم تحديده ، كثمن الطعام والشراب ، ويُقبَلُ تقديرهم فى ذلك على حسب مستوَى المعيشة والحياة التى يعيش فيها اليتيم ، أما التصرفات التى جرت العادة بالتوثُّقِ فيها ، فعلى الأوصياء أن يقدموا عليها البينات.

(١٩)

وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ : هُوَ أَذًى ، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
ولا تتزوجوا .	ولا تنكحوا
المراد بهن : اللائى لا يؤمنّ بكتاب سماوى ، كالتوراة والإنجيل .	المشركات
ولأمة مسلمة مع ما بها من خساسة الرّق وَوضاعة الشأن ، خير من مشركة مع ما بها من شرف الحرية ورفعة الشأن .	ولأمة مؤمنة خير من مشركة
ولو أعجبتكم بجمالها ومالها ونسبها .	ولو أعجبتكم
المراد بهم : غيرُ المسلمين .	المشركين
يدعون من يتزوجهم ويعاشرهم ، إلى ما يؤدى إلى النار ، من الكفر والفسوق .	يدْعون إلى النار
عن وقت الحيض وموضعه ، ماذا يكون شأنُ الرجال مع النساء فيه .	عن المحيض
شيء مستقذر ، وفيه أذى لمن يقربه .	أذى
لا تقربوا النساء وقت الحيض .	فاعتزلوا النساء فى المحيض
لا تباشروهن حتى ينقطع الحيض ويغتسلن .	ولا تقربوهن حتى يطهرن
فأتوهن بعد انقطاع الحيض والطهر ، كما أمركم الله	فأتوهن من حيث أمركم الله
المتنزهين عن الفواحش والأقذار .	المتطهرين
فيهن تحرثون الأولاد ، أى تزرعونهم ، كما يزرع البذر فى الأرض .	نساؤكم حرث لكم

الألفاظ	شرحها
فأتوا حرثكم أنى شئتم	فأتوا موضع النسل والحرث كيف شئتم .
وقدموا لأنفسكم	واعملوا العملَ الصالح الذى تجدونه أمامكم يوم القيامة .
مُلاقوه	ستلاقونه يوم القيامة ، ليحاسبكم على ما فعلتم من خير أو شرّ .
وبشر المؤمنين	قدم للمؤمنين البشرى ، بما أعد الله لهم من الكرامة فى دار النعيم .
عُرضة لأيمانكم	قوة لأنفسكم ، وعُدَّةً فى الامتناع من البر .
أن تبروا	لأجل ألا تبروا .
لا يؤاخذكم	لا يعاقبكم .
باللغو فى أيمانكم	اللغو : ما لا خير فيه ، والساقط الذى لا يعتد به من الكلام وغيره ، واليمين اللغو : ما لا يعقد عليه القلب ، والمراد : الهزل والمزاح ، والأيمان جمع يمين ، وهو الحلف .
بما كسبت قلوبكم	بما انعقدت عليه قلوبكم ، وطابق حقيقة ما فى نفوسكم .

مجمل المعنى

شملت هذه الآيات خمسة أحكام :

١ — لا يجوز زواج المسلم من المشركة ، وهى التى لا تدين بكتاب سماوى ، كالمجوسية والوثنية ، إلا إذا أسلمت ، فله أن يتزوجها بعد إيمانها ،

أما الكتابية كاليهودية والنصرانية ، فيجوز له أن يتزوجها وهى على دينها ، وقد فضل الله الأمة المملوكة المسلمة ، على ما بها من خساسة الرق ، ووضاعة الشأن ، فأحل تزوج المسلم بها ، على المرأة الحرة المشركة ، على ما بها من شرف الحرية ، ورفعة الشأن ، فحرم عليه أن يتزوج بها ، ولو وقع فى نفسه الإعجاب بها، بجمالها ومالها وشرفها — فقال : ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم .

٢ — ولا يجوز أن تتزوج المرأة المسلمة من مشرك ، والمراد بالمشرك فى هذا الحكم : منْ كان على غير دين الإسلام — وقد فضل الله العبد المسلم ، على الكافر الحر ، ولو كان ذا مال وجاه ، لأن الكفارَ يدْعون من يعاشرهم ويقارنهم إلى ما يؤدى إلى النار ، من الكفر والفسوق والعصيان ، والله يدعو من يقارنُ ويعاشرُ عباده المؤمنين إلى الجنة ، بالاعتقاد الحق ، والعمل الصالح ، بإذنه وتوفيقه ، ويبين آياته وأحكامه ، للناس ، ليتعظوا ويعملوا بها ، فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران .

٣ — ويجب على الرجل ألا يباشر امرأته . إذا كانت حائضاً ، حتى ينقطع الحيضُ وتطهرَ ، أى تغتسل منه ، وتنظفَ جميع جسمها ، لأن الحيض مستقذر كريه ، وفيه أذى للرجل والمرأة ، إذا حصلت المباشرة فيه ، فإذا تطهرت المرأة واغتسلت بعد انقطاع الحيض ، فقد حل لزوجها أن يباشرها ، كما أمر الله ، أى بعد انقطاع الحيض وبعد الطهر . والله سبحانه وتعالى يحب عباده الذين يتوبون من الذنوب ، ويحب المتطهرين المتنزهين عن المعاصى والأقذار ، ولما نزل قوله تعالى : فاعتزلوا النساء فى المحيض ، أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال ، فأخرجوهن من البيوت ، فقال ناس من الأعراب : يا رسول الله ، البردُ شديد ، والثياب قليلة ، فإن آثرناهن هلك سائرُ أهل البيت ، وإن استأثرنا بها هلك الحُيَّضُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما أمرتم

أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضْن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت ، كفعل الأعاجم .

٤ — النساء حرث للرجال ، يلقوُن فيهن بأصل النسل ، ويزرعون فيهن الولد ، وقد حل لرجالهن أن يباشروهن ، فى موضع النسل، وفى مسلك الولد ، ويستمتعوا بهن كيف شاءوا ، وفى أى حال أرادوا ، ما داموا لا يشذون فى الاستمتاع ، ولا يخالفون ما أحل الله فى الجماع ، وعليكم أيها الرجال أن تقدموا لأنفسكم الأعمال الصالحة ، لتجدوها أمامكم عند الله يوم القيامة ، واعلموا أنكم ستلاقون وجهه ، ليحاسبكم على ما فعلتم من خير أو شر ، فبشر يا محمد أتباعك المؤمنين ، الذين امتثلوا أوامر الله ، واجتنبوا نواهيه ، بما أعد لهم من الكرامة فى دار النعيم .

٥ — حذر الله عبادَهُ أن يلجئوا للأيمان والحلف ، ليتخذوها وسيلة وتعلة ، وقوة يستندون إليها فى الامتناع عن عمل الخير ، والتقوى والإصلاح بين الناس ، فقال : ولا تجعلوا الله حاجزاً لكم عن فعل البر والتقوى والإصلاح ، ولا ينبغى أن يبتذَل اسم الله ، وتجعلوه معرضاً لأيمانكم بكثْرة الحلف ، والله سميع لما يقوله عباده ، عليم بنياتهم ، وما تكن صدورهم . وقد نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق ، إذ حلف ألا ينفق على مِسطح ، وكان من ذوى قرباه ، لافترائه على عائشة رضى الله عنها فى الإفك . . . وبعض الناس تجرى على لسانه ألفاظ الحلف والأيمان فى أمور تافهة ، فتسمع منهم فى أثناء كلامهم : تَعالَ والله ، نعم والله ، تفضل بالله ، لا والله ، فهذه الألفاظ وأمثالها أيمان لغو ، لا يعاقبكم الله أيها المؤمنون عليها ، ولا يوجبُ عليكم كفارة لها ، وإن كان من اللائق ألا تجعلوها جارية على ألسنتكم ، وإنما يؤاخذكم ويعاقبكم بما قصدتم إليه ، وتعمدتم فيه الكذب ، وكان عقدُه ونيته فى قلوبكم ، والله غفور لمن يقصدُ العمد والكذب فى أيمانه ، حليم على المتعمدين الكاذبين فيها ، لم يعجل بعقوبتهم تربُّصاً لتوبتهم .

(٢٠)

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
يحلفون ألا يقربوا نساءهم، إما مطلقاً وإما مدة تزيد على أربعة أشهر .	يؤلون من نسائهم
انتظارُ ومكثُ أربعة أشهر .	تربّص أربعة أشهر
رَجعوا فى الإيلاء فى أربعة الأشهر من يوم الحلف	فاءوا
يغفر فى المؤلى إثم حِنثه فى اليمين ، بفيئه ورُجوعه .	غفور
وإن تركوا الفيئة مدة الأربعة الأشهر ، وصمموا على الطلاق فليوقعوه .	وإن عزموا الطلاق
ينتظرن ويمنعن أنفسهن من التزوّج برجل آخر .	يتربّصن بأنفسهن
جمع قُرء ، وهو الطهر مع الحيض ، أو الخروج من الطهر إلى الحيض .	ثلاثة قُروء
يخفين الحمل ، أو حالة الحيض عندهن .	يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن
أزواجهن .	بُعولتهن
أصحاب الحق بمراجعتهن فى العدة ، إذا كان الطلاق دون الثلاث .	أحقُّ بردهن
إن قصدوا بالمراجعة إصلاح حياتهما معاً .	إن أرادوا إصلاحاً
ولهن على الرجال حُسن المعاشرة ، مثلُ ما للرجال عليهن من الطاعة .	ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف
منزلة ومزية .	درجة

الألفاظ	شرحها
فإمساك بمعروف	فلكم إمساك ومراجعة للزوجة، مع المعروف وحسن الصحبة .
أو تسريح بإحسان	أو تركها بلا مراجعة ، وإطلاق سراحها حتى تنقضى عدتها ، من غير أن يظلمها شيئاً من حقها، أو يسىء القول فيها .
أن يخافا	أن يظنا .
ألا يقيما حدود الله	ألا يؤديا ما فرضَ الله من القيام بواجبات الزوجية.
فلا جُناحَ عليهما فيما افتدت به	فلا إثم على الرجل فى أخذ ما افتدت به نفسها من المال ، ولا على المرأة فى إعطائه .
أن يتراجعا	أن يرجعَ كل منهما إلى حالة الزوجية .

مجمل المعنى

١ — الإيلاء : أن يحلف الرجل على امرأته ألا يقربها مطلقاً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر ، فإن حلف على أربعة أشهر فقط ، أو أقل ، فلا يعتبر ، والرجال الذين يؤلون من نسائهم ، ويحلفون ألا يقربوهن مطلقاً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر ، تأديباً لهن بالهجر ، لهم أن ينتظر النساء عليهم أربعةَ أشهر ، فإن فاءوا فى أثنائها ، ورجعوا إلى معاشرة نسائهم فيها ، وحنثوا فى يمينهم ، غفر الله لهم ما ألحقوه بهن من ضررَ، لهجر فراشهن مدة الأربعة الأشهر ، ورحمهم ، فلم يشدد عليهم ، ولم يلزمهم المضى فى تنفيذ القسم ، ووجبت عليهم كفارة الحنث، إن كانوا قادرين عليها ، وإن كانوا غير قادرين أعفاهم منها ؛ وإذا كانوا لا يستطيعون فى مدة الأشهر الأربعة أن يفيئوا

بمعاشرتهن ، لغيبتهم فى سفر، أو تجنيد ، أو مرض ، فلهم أن يعلنوا رجوعهم عن الإيلاء ، وحينما ينتهى المانع من المعاشرة ، بالعودة من السفر ، أو بالشفاء من المرض ، ويستطيعونها ، وجبت عليهم ، ولزمتهم الكفارةُ إن كانوا قادرين .

٢ — أما إذا لم يفيئوا فى الأربعة الأشهر التى تبدأ من يوم الحلف ، فلم يقربوا نساءهم خلالها ، كان معنى هذا أنهم عازمون على طلاقهن ، مصممون فى قطع رباط الزوجية ، وللزوجة حينئذ أن ترفع أمرها إلى القاضى ، ليحكم لها برجوع زوجها إلى فراشها ، وقيامه بما أحل الله منها ، فإن لم يفعل ، طلق عليه طلقة واحدة ، والله سميع لإيلاء الرجال من النساء ، ولتطليقهم لهن بعد ذلك ، عليم بنياتهم فى ضرارهن وإيذائهن بالإيلاء وبالطلاق ، وسيحاسب كلا منهم على إساءته ، ويأخذه بظلمه .

٣ — وإذا طلقت النساءُ المدخولُ بهن ، فإن كن ممن يحضنَ ، وكن من غير ذوات الحمل . وجب عليهن أن يتربصْنَ بأنفسهن ، وينتظرن ، فلا يتزوجن برجل آخر ثلاثة قروء ، والقرْء هو الطهر مع الحيض ، أو هو الخروج من الطهر إلى الحيض ، وتسمى مدة الأقراء الثلاثة التى تنتظر فيها المرأة بعد الطلاق لتستبرئْ الرحم من الحمل : عدّة ، فإن كانت المطلقة غير مدخول بها ، فلا عدّة عليها .وإن كانت ممن لا يحضن لصغر أو كبر ، فعدتها ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا فعدتها تنتهى بوضع الحمل ؛ والعبرة بقول المرأة فى أمر العدّة ، وهى وحدها مؤتمنة على ذلك ، ولهذا لا يحل للنساء أن يخفين ما خلق الله فى أرحامهن من الحمل أو الحيض ، استعجالا فى العدة ، حتى يفوتن على الرجال حق مراجعتهن فيها ، أو يغتصبن نفقة العدة مدة أطول ، وفى إخفاء أمر الحيض أو الحمل إثم كبير ، فلا ينبغى للمطلقات أن يجترئن عليه ، إن كن يؤمنّ بالله واليوم الآخر ، ويخشين الله ، ويخفْن حسابه فى يوم الجزاء

٤ — وكما أن المطلَّقة هى صاحبة الحق ، ومسموعةُ القول فى أمر العدة ، إن كانت بالأقراء أو المدة ، أو وضع الحمل ، فإن الأزواج لهم أيضاً الحق فى ردِّ المطلقات طلاقاً رجعيًّا ، قبل انقضاء العدة ، إن كانوا يقصدون بالمراجعة العوْدَةَ إلى الحياة الزوجية ، التى تقوم على الإصلاح وحسن العشرة ، أما إذا أرادوا بها الإساءة إلى المرأة ، فإن الله يعاقبهم عليها ، وليس القصد من إرادة الإصلاح والإحسان فى رد المطلقة ، أن المراجعة لا تصح إلا بها ، ولكن الله يحث الرجالَ على ألا يُرْجعوا المطلقات بقصد الضرر بهن ، وإنما يردُّوهن بقصد الإصلاح والإحسان ، ويحذرهم مراجعةَ النساء للإضرار بهن

٥ — ولا ينبغى للرجال أن يظلموا النساء ، كما لا ينبغى للنساء أن يخرُجن عن طاعة الرجال ، فلهنَّ من حقوق الزوجية على الرجال ، كحسن الصحبة والعشرة بالمعروف ، مثلُ الذى عليهن من الطاعة لهم ، فعلى الرجال أن يتقوا الله فى النساء ، وعلى النساء أن يتقين الله فى الرجال ؛ وقد جعل الله للرجال منزلة ودَرَجةً ، بما ألقىَ على كاهل الرجال من واجبات وتبعات دون النساء ، فعليهم القتالُ والجهادُ ، وعليهم الصَّدَاقُ والإنفاق ، هذا إلى أنهم أكثر احتمالا لمتاعب الحياة ، وأكثر تعقلا وتفكيراً ، وتبصراً للأمور من النساء ، وبما أن الله فضَّل الرجال بهذه المزايا ، وجبَ عليهم حسنُ معاشرة النساء ، وأن تتسع لهن أخلاقهم ، لأن الأفضل ينبغى أن يتحامل على نفسه ، فيجب على الرجال أن يحسنوا إلى النساء ، بقدر ما خصَّهم الله من فضل ومزية عليهن ، وبقدر ما ألقى عليهم من واجبات ، ومن يخالف ما أمر الله به ، فإن الله قادر على الانتقام منه ، لأنه وضع للناس شرائعه بحكمة توافق مصالحهم فى الدنيا ، وتضمن سعادتهم فى الآخرة .

٦ — وعدد الطلاق الذى يحق للرجال فيـه الرد والرجعة ، على حسب ما بيَّنا ، مرتان ، فإذا طلق الرجل مرة ، فله أن يرد امرأته ويرْجعها ، فإن

طلقها مرة ثانية ، فله أيضاً أن يردها ويرْجعها ، وبعد الرجعة الثانية ، ليس له إلا إمساك وإبقاء على الزوجية ، بمعروف وحسن معاشرة ، ولطف معاملة فى هاتين المرتين . فإن طلقها مرة ثالثة ، فلا يحل له مراجعتها ، وعليه أن يتركها تقضى عدتها ، ويطلق سراحها بإحسان ، فلا يسىءُ فيها القول ، ولا يحول بينها وبين الزواج من غيره .

٧ — وكانت جميلة بنتُ عبد الله بن أبىّ زوجة لثـابت بن قيس ، وكانت تبغضه وهو يحبها ، فشكته إلى أبيها فلم يقبل شكواها ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم ، وشكته إليه ، وأرته أثر الضرب ، وقالت : لا أنا ولا ثابت : لا يجمع رأسى ورأسه شىء ، والله لا أعتب عليه فى دين ولا خلق ، لكنى ما أطيقه بغضاً ، وإنى أكره اللغوَ فى الإسلام : « أكره أن يؤدىَ بغضى له إلى ما هو كفر فى الدين » إنى رفعت جانبَ الخيام ، فرأيته أقبلَ فى عدة رجال ، وهو أشدهم سواداً ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهاً ، فقال ثابت : ما لى أحب إلىّ منها بعدك يا رسول الله ، وقد أعطيتها حديقة تردّها علىّ ، وأنا أخلّى سبيلها ، ففعلت ذلك ، فخلّى سبيلها ونزل قوله تعالى : ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . . . الآية . فكان أولَ خُلع فى الإسلام . والخلع : معناه أن يطلق الرجل زوجته على الفدية ، وقد حرم الله على الرجال أن يضاروا نساءهم ، ويسيئوا إليهن ، حتى يتضايقن ويطلبن الطلاق ، نظير أن يعطينهم شيئاً من الصداق الذى دفعوه إليهن ، ولكن قد تسوء الحياة بين الرجل وزوجته ، ويقع بغضه فى قلبها ، وتصبح حياتها فى كنفه شقية ، وتعملُ على النشوز وفساد العشرة ، ويعلمان أنهما لا يقيمان حدود الله فى الزوجية ، ويظن كل واحد منهما أنه لا يؤدى لصاحبه حقه ، لاستحكام الكراهة بينهما ، فلا حرج على المرأة حينئذ من أن تفتدى نفسها ، بأن تعطىَ الرجل بعض ما أخذته من الصداق ، ولا حرج على الرجل أن يأخذ ما أعطته المرأة ،

ليُطلقَ سراحها ويطلقها ، ويسمى هذا الطلاق الذى تدفع فيه المرأة عوَضاً من مال أو عقار لقاء طلاقها خُلْعاً ، وليس للرجل حق مراجعتها فى الخُلع إلا برغبتها ، وقد طلب الله من الحكام والمتوسطين فى نظر قضية الزوجين ، أنهم إذا خشوا منهما ترك حدود الله ، إن بقيت صلةُ الزوجية قائمة بينهما ، أن يتدخلوا لفصم عُراها . ليذهب كلٌ إلى حال سبيله ، ويتصالحا على أن تفتدى المرأة نفسها ببعض ما أخذت من الصداق ، وأن يخالعها الرجل ، ويطلّقها دون أن يكون له حق مراجعتها إلا بإذنها ؛ وترك إقامة حدود الله من المرأة ، هو استخفافها بحقوق الزوج ، وعدمُ طاعتها ، وكرهها له . كما حصل من جميلةَ بنت عبد الله ، لزوجها قيس بن ثابت فى القصة السابقة . وهذه الأحكام المذكورة هى الحدود التى رسمها الله بين الزوجين ، فلا ينبغى لهما ، أو لمن يحكم بينهما ، أن يتعداها بالمخالفة والرفض ، ومن يتعدّوها ، فإنهم يكونون ظالمين لأنفسهم ، لأنهم يعرضونها لسخط الله وغضبه .

٨ — وإذا طلّق الرجل زوجته مرة ثالثة ، فلا تحل له مراجعتها ، والعقدُ عليها ، ولا يمكن أن تعود إلى عصمته بأى حال من الأحوال ، إلا إذا تزوجت برجل غيره ، ويدخلُ بها ، وتذوق عُسَيْلَتَهُ ، ويذوق عُسَيلتها . فإن طلقها الزوج الثانى ، وانقضت عدة طلاقها منه ، جاز للزوج الأول أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين ، إن رغب كل منهما فى تجديد الزواج ، والعودة إليه ، وظنا أنهما يقيمان حدود الله التى أوجبها على الزوجين ، من حسن العشرة ، وجميل المخالطة ، وهذه الحدود يبيّنها الله لقوم يعلمون ما يرتبطون به ، ويفهمون ما يأخذون به أنفسهم من مواثيق الزواج ، وليس من سنن الإسلام ، ولا مما يُقره الدين ، ما يلجأ إليه بعض المحتالين على شرائع الله ، إذا رغب فى إعادة زوجته المطلقة منه ثلاثاً ، من الاتفاق على أن يعقد عليها لرجل آخر ، ويدخل بها ليلة أو ليلتين ، ثم يطلقها ، ليحللها له ، وقد سمى رسول الله مثل هذا

الرجل تَيْساً، ولعنه فقال : لعن الله التيس المستعار، وقال : لعن الله المحلِّل والمحلَّل له؛ والحكمة فى هذا التشريع الحكيم ، الردع عن المسارعة فى الطلاق ، ثم العودة إلى المطلقة ، فإن رباط الزوجية عُقد باسم الله ، وعلى سنة رسول الله ، فلا ينبغى أن يتهاون الزوجان فى بته . وأن يتساهلا فى فصم عراه .

(٢١)

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ؛ وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فبلغن أجلهن	قاربن الانتهاء من العدة .
فأمسكوهن بمعروف	فردوهن إلى عصمتكم ، وعاشروهن بمعروف

الألفاظ	شرحها
أو سرحوهن بمعروف	أو اتركوهن حتى تنقضى عِدَّتهن بمعروف ، من غير ضرر .
ولا تمسكوهن ضراراً	ولا تراجعوهن وتمسكوهن فى عصمتكم ، بقصد الإضرار بهن ، والانتقام منهن .
لتعتدوا	لتظلموهن حتى تجبروهن على أن يفتدين أنفسهن منكم بالمال .
ومن يفعلْ ذلك	ومن يُمسك المرأة بقصد ضررها .
فقد ظلم نفسه	فقد عرضها لعقاب الله .
ولا تتخذوا آيات الله هزواً	ولا تأخذوا أحكام الله هازئين غير جادِّين .
نعمة الله عليكم	هى الإسلام .
والحكمة	هى سنة رسول الله فيما لم ينص عليه فى الكتاب .
يعظكم به	يخوفكم به .
فبلغن أجلهن	انقضى أجل عدتهن .
فلا تعضلوهن	لا تحبسوهن ، ولا تمنعوهن أن يتزوجن .
أزكى لكم وأطهر	خير لكم ، وأبعد لنسائكم عن الريبة .
والله يعلم وأنتم لا تعلمون	والله يعلم ما فيه الخير والصلاح لكم ، وأنتم لا تعلمون.

مُجملُ المعنى

١ — ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عَدَد ، وكانت العِدة معلومة مقدَّرة ، واستمر هذا فى أول الإسلام برهة ، فكان الرجل يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ، فإذا كادت عدتها تنقضى ، وتحل من طلاقه

يراجعها ، ليبقيها ضِراراً ، فلاهو يحسن عشرتها ، ولا هو يدَعها لتنقضى عدتها وتتزوجَ بغيره من الرجال ، وقد فعل رجل فى عهد النبى بامرأته ذلك ، فكان لا يؤويها ولا يُحلها من عصمته ، فهو يطلقها فإذا دنا أجل انقضاء عدتها راجعها ، فشكت المرأة أمرها إلى عائشة رضى الله عنها ، فذكرت ذلك للنبى ، فأنزل الله آيات الطلاق المذكورة .

٢ — وإذا طلقتم النساء ، فلكم قبل أن ينقضى أجل العدة أن تمسكوهن وتردوهن إليكم بالمعروف ، فتقوموا بواجبات الزوجية ، من الإنفاق وحسن العشرة ، أو تسرّحوهن وتتركوهن حتى تنقضى العدة . ويصيرَ أمرهن لأنفسهن ، ولا يحل لكم أن تراجعوهن وتمسكوهن فى عصمتكم لتضروهن وتعتدوا عليهن ، وتظلموهن حتى تلجئوهن إلى الافتداء منكم بالمال ؛ ومن يفعل ذلك منكم فقد ظلم نفسه ، وعرضها لعقاب الله ؛ ويجب أن تكونوا جادّين فى الأخذ بأحكام الله ، والعمل بها ، وأن ترْعوْها حق رعايتها ، وألا تتخذوها هزُواً ولعباً ، لتنفيذ أغراضكم ، وتحقيق مكايدكم ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ هداكم للإسلام ، ومنّ عليكم بنبوة محمدصلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليكم القرآن والسنة ، فقابلوها بالشكر ، واهتدوا بهديها ، يعظكم الله بكل ذلك ، ويحذركم مخالفة كتابه ، وسنة نبيه ، فعليكم أن تتقوه باتباع حدوده ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . واعلموا أنه مطلع على كل ما يصدر منكم ، عليم بكل أحوالكم ، قال أبو الدرداء : كان الرجل يطلّق فى الجاهلية ويقول : إنما طلّقت وأنا لاعبٌ ، وكان يعتق ويتزوج ويقول : كنت لاعباً : فنزل قوله تعالى : ولا تتخذوا آيات الله هزُواً . وقال عليه السلام : من طلّق أو أعتق أو نكح أو أنكحَ ، فزعم أنه لاعب ، فهو جاد .

٣ — وقد روى أن معَقِلَ بنَ يسار ، كانت أخته تحب أبا البَدّاح ، فطلّقها ، وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم ندم فخطبها ، فرضيت ، وأبى

أخوها أن يزوجها وقال : وجهى من وجهك حرام إن تزوجته ، تركك حتى انقضت عدتك ، فلما خطبك خُطَّاب آخرون يجىء ويخطبك معهم ، لاأزوِّجه أبداً ؛ فنزل قوله تعالى : فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه الآية ، وقال له : إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن أبى البدّاح : فقال : آمنت بالله ، وزوجها منه .

٤ — وإذا طلَّق النساء أزواجهن ، أو تسببتم فى طلاقهن أيها الأولياء ، وانقضت عدتهن ، ورغب كل من الرجل والمرأة أن يتزوجا ثانياً ، فلا ينبغى للأولياء أو الأقارب أو العشيرة أن يعضُلوا المرأة ، ويمنعوها من الزواج بالرجل الذى عرَفته وعرَفها ، وأحبته وأحبها ، وحدث بينهما التراضى على أن يعيدا حياة الزوجية ، فى ظل السعادة والمعروف وحسن العِشْرة ، وذلك النهى عن العضْل عبرةٌ وعظة للمؤمنين الذين يخافون الله واليوم الآخر ، وهذا أزكى لكم ، وخير لحياتكم ، وأطهر لأعراضكم ، وأبعد بها عن الرِّيبة ، لأنكم لا تأمنون إن منعتموهن من الزواج ، أن يقع بينهما ما يغضب . والله يعلم ما فيه مصلحتكم ، والخيرُ لكم وأنتم لا تعلمونه ، فاتبعوا ما يأمركم به ، واجتنبوا ما ينهاكم عنه .

٥ — ومن المعروف الشائع بين بعض الناس ، أن تأخذهم أنَفَة وحَمِيَّة ، فلا يسمحوا للمرأة إذا طلقها زوجها ، وأراد أن يُعيد العقد عليها برجوعها إليه ، بعد أن تكون قد صَفَتْ أنفسهما ، ورغب كل منهما فى أن يعود إلى صاحبه ، ومنهم من تكون بينه وبين الزوج عداوةٌ أو ضَغينة ، فيطلِّق منه قريبته أو ابنته ، فإذا رغبت فى أن تعود إليه ، عارض وتشددَ ، وأبى وهدّد . ومنهم من يمنع زواج البنت ، لأن لها ميراثاً يخشى أن ينتقل إلى بيت زوجها بعد الزواج .

هذه أنواع من العَضْل الذى حرمه الله ، وقد يؤدى إلى فساد كبير ، هذا إلى ما فيه من تحكم واستعباد ، ولا يرضى عنه دين أو خلق .

(٢٢)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا، وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
والوالدات يرضعن أولادهن	يجبُ على الوالدات أنْ يرْضعن أولادهن .
المولود له	الوالد .
رزقهن	أجرُ طعامهن .
بالمعروف	على حسب المتعارَف ، من غير إسراف أو تقتير .

شرحها	الألفاظ
قدر استطاعتها .	وُسْعَها
لا يقع الضررُ على الأم بسبب ولدها .	لاتضار والدة بولدها
ولا يقع الضرر على الأب بسبب ولده .	ولا مولودٌ له بولده
وعلى ورثة الأب إذا مات ، ما يجب على الأب ، من نفقة الرضاع .	وعلى الوارث مثل ذلك
فِطاماً .	فصالا
أن تُرْضعوهم من مراضعَ أجنبيات .	أن تسترضعوا أولادكم
ما أعطيتم .	ما آتيتم

مجمل المعنى

١ — فرض الله على الأمهات أن يرْضعن أولادهن عامين كاملين ، إذا لم يقبل الطفل غيرَ ثدْى أمه ، أو لم توجد له ظئْر ، أى مُرضعةٌ ترضعه ، أو وُجدت وكان الأب عاجزاً عن دفع أجرتها ، وعلى المولود له وهو الأب ، أن يقوم بأجرة طعام الأمهات المرضعات وكسوتهن ، سواء أكنّ فى عصْمة الآباء ، أم كن مطلّقات ؛ وقد حُدد الحوْلان الكاملان مدة للرضاع ، لمن أراد أن يكملها ، وليكون فى تحديدهما قطعٌ للتنازع بين الزوجين على مدة الرضاع ، فإذا أراد الأب فطم الطفل قبل العامين ، ولم ترْض الأم ، فليس له ذلك ، وإذا طلبت الأم نفقة الرضاع بعد الحولين ، فليس لها ذلك أيضاً .

وتقدر نفقة الوالدة لطعامها وكسوتها ، إذا أرضعت ولدها ، على حسب

المتعارف لمثلها ، وعلى قدر حال الزوج ، من غير إفراط ولا تفريط ، وبدون إسراف أو تقتير ، لا تكلف نفسٌ إلا وُسعها ، فلا يُطلبُ من الوالدة الصبرُ على التقتير عليها فى قيمة نفقتها ، وزوجها قادر موسر ، ولا يطلبُ من الزوج ما فيه إسراف عليه ، بل يراعى القصدُ والاعتدال .

٢ — ولا ينبغى أن تَضر الوالدة زوجها بسبب ما لهـا من حق إرضاع ولدها ، واستحقاقها للنفقة على أبيه ، فترهقهُ بالمطالب ، وتعنفَ عليه فى المطالبة ، وتكلفه ما لا يُطيق ، وما ليس بعدْل من الرزق والكسوة ، فإن سوء معاملتها يحمله على إهمال شأن ابنه أو كراهيته ؛ ولا ينبغى أن يضر والدٌ زَوْجته بسبب ولدها ، بأن يمنعها حقوقها عليه فى الرزق والكسوة ، أو يأخذَه منها إلى مرْضع أخرى ، وهى تريد إرضاعه من ثديها ، لأنها أحنّ عليه ، وأرعى لشئونه من الظئر . وعلى وارث الأب أن يقوم بنفقة إرضاع الطفل إذا مات الأب ؛ ولا شك أن الطفل الرضيع هو أحد ورَثة الأب ، فتجب نفقةُ رَضاعته فى ماله إن كان له مال ، وإن لم يكن للطفل مالٌ فعلى باقى ورثة أبيه أن يتكفلوا بها ، فإن لم يستطيعوا ، فالرضاعةُ مفروضة على الأمّ حتما بدون أجر .

٣ — وإذا رأى الوالدان أن الطفل قبل أن يبلغَ الحولين لا يحتاجُ إلى الاغتذاء بلبن الأم ، ولا يضر الفطامُ صحتهُ ، وتشاورا فى أمره ، ووجد أن مصلحتَه تقضى بفطامه ، واتفقا على ذلك ، فلا جناح عليهما ، ولا إثم فى أن يفطم قبل الحولين . ومفهوم الآية أن الرضاع بعد الحولين لا يترتب عليه أحكام التحريم فى الزواج ، كما لا يستوجب نفقة للأم كما أسلفنا

٤ — والأصلُ أن كل أم يلزمها أن ترْضعَ ولَدها ، وكل أب يلزمـه أن يقوم بنفقة الطعام والكسوة للأم التى ترضع ولَدُها ، ولكن إذا اتفق الأبُ والأم على استئجار ظئر ، أى مرضع للولد ، جاز ذلك ، ولا بأس به إذا

قام الآباء بإعطاء الظئر أجرتها ، على قصد خير ومعروف ، حتى تكون راضية النفس ، طيبة الخاطر بالرضاع ، إصلاحاً لشأن الصبي ، واحتياطاً في أمره بالمعروف ، واتقوا الله في شأن أولادكم ، فلا تسيئوا أمهاتهم ، ولا تمنعوهن رزقهن وكسوتهن ، وأعطوا المراضع أجورهن بقول معروف ، ووجه مستبشر ، فإن الله بصير بكل ما تعملون .

(٢٣)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ، يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ، أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ، وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ، مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ، مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ، إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ، أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يتوفون	يموتون .
ويذرون	ويتركون .
يتربصن بأنفسهن	يعتددْن ويمنعن أنفسهن من التزوج .
بلغن أجلهن	انقضت عدتهن .
فلا جناح عليكم	فلا إثم عليكم .
فيما فعلن فى أنفسهن	فيما اتخذن لأنفسهن من وسائل الزينة والتطيب ، والتحلى والتزوج .
بالمعروف	على حسب ما هو معروف بين النساء ، حينما يُبدين زينتهن للخطاب .
ولا جناح عليكم فيما عرضتم	لا وزْرَ عليكم فى التعريض بخطبة النساء وهن فى عدة الوفاة ، والتعريض ضد التصريح ، وهو إفهام المعنى بعبارة تحتمله ، وتحتمل شيئاً آخر غيره .
خطبة	الخطبة بكسر الخاء : ما يصدر من الرجل للمرأة من قول أو فعل ، يدل على إعجابه بها ، واستلطافه إياها ، بغيةَ زواجه منها .
أكننتم فى أنفسكم	سترتم وأضمرتم ، من التزوج بها بعد انقضاء عدتها .
علم الله أنكم ستذكرونهن	علم الله أنكم ستذكرونهن سراً وإعلاناً فى نفوسكم وبألسنتكم ، فرخص لكم فى التعريض دون التصريح .

الألفاظ	شرحها
لا تواعدوهن سرّاً	لا تأخذوا منهن العهود والمواثيق فى سر وخفية ، على ألا يتزوجن غيركم .
قولا معروفاً	المراد بالمعروف من القول : هو الذى يدل على التعريض المباح فى وقت العدّة .
ولا تعزموا عقدة النكاح	ولا تنووا عَقدَ الزواج ولا تبرموه .
حتى يبلغ الكتاب أجله	حتى ينتهى الوقت المفروض المحدد للعدة .
يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه	يعلم ما يدور فى أنفسكم من العزم على عمل ما لا يجوز ، فاحذروا أن تفعلوه .
ما لم تمسوهن	ما لم تدخلوا بهن .
أو تفرضوا لهن فريضة	أو تعينوا لهن مهراً .
ومتعوهن	أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن ، وهذا الشىء يسمى مُتعة .
على الموسع قَدرُه	على الموسر أن يُعطيها مُتعة ، بقدر اتساع حاله ، وعلى حسب ما يطيق .
المقتر	المقل القليل المال ، والضيق الحال .
متاعاً بالمعروف	متعوهن متاعاً على حسب ما هو معروف شرعاً ومروءة ، وما هو مناسب لحالكم ، ولائق بمطلقاتكم .
حقاً على المحسنين	والمتعة حق واجب على المؤمنين ، الذين يُحسنون إلى أنفسهم ، بامتثال أوامر الله .
فنصف ما فرضتم	فالواجب لهن نصفُ ما فرضتم .
إلا أن يعفون	إلا أن يصفحن ، ويتركن نصف المهر المستحق لهن .

الألفاظ	شرحها
أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح	أو يترك الزوجُ الذى بيده عقدةُ النكاح لمطلقته التى لم يدخلْ بها ، نصفَ المهر المستحق له .
وأن تعفوا أقرب للتقوى	وتركُكم أيها الأزواج جميع المهر لمطلقاتكم ، أقرب لتقوى الله ، وأجبر لقلوبهن .
ولا تنسوا الفضل بينكم	ولا تنسوا أيها الأزواج أن تجعلوا البر والفضل يجرى بينكم . والفضل هو فعل ما ليس بواجب ، من البر والخير .

مجمل المعنى

١ — بيَّن الله تعالى عدة النساء اللائى يموت عنهن أزواجهن بعد الدخول بهن ، بأنها أربعة أشهر وعشرَة أيام بلياليها ، فعليهن أن يتربصْن فيها بأنفسهن ، ولا يتزوجن حتى تنقضى مدة العدة كلها ، هذا إذا كن غير حاملات ؛ أما أولات الأحمال ، فعدتهن تنقضى بوضع الحمل والطهر من النفاس . وفى عدة الوفاة ، يجب على المرأة أن تلزمَ الحدَادَ على زوجها ، وتلزَمَ البيت ، فلا تخرج منه ، ولا ينبغى لها أن تتزين أو تتحلى أو تتطيب ، أو تلبس الملابس التى تظهر جمالها وحسنها ، وفاء لزوجها ، وصوْناً لنفسها من القيل والقال ؛ وعلى الأولياء والحكام إذا رأوا أن النساء اللائى مات عنهن أزواجهن ، لم يرعين لهم عهداً ، ولم يقمن بواجب الحداد عليهم فى مدة العدة ، فخرجن من منازلهن ، أو أظهرن زينتهن ، أن يمنعوهن ذلك ، ويرْجعوهن إلى ما أوجب عليهن من التربص بأنفسهن ، أى امتناعهن عن التزوج ، واتخاذ الحداد ، حتى ينقضى أجل العدة . فإن امتثلن فلا جناح ولا إثم عليكم فى أن

يتعرضن للخُطَّاب ، ويفعلن ما حرم عليهم ،وما منعن منه فى العدة ، ولهن أن يتجملن ويتزين ،ويلبسن ما شئن ،ويتزوجن على حسب ما هو معروف فى الشرع ، من إباحته للمرأة أن تختار زَوْجها ، وأن تجهز نفسها ، وتقدر صَداقها ، وتستكمل ما تتطلبه شئون الزواج .

٢ — وكما أوجب الله على المـرأة الحدادَ على زوجها المتوفَّى حتى تنقضى عدتها ، حرّم على الرجال أن يصرحوا بخطبة النساء ، أو يعلنوا رغبتهم فى الزواج منهن فى أثناء العدة ،ولا إثم عليهم — إذا أحسوا ميلا إليهن ، ورغبة فيهن — أن يعرضوا بخطبتهن تعريضاً ، وأن يذكروها تلويحاً لا تصريحاً . فيذكروا لهن العبارات التى لا تكون نصاً فى الخطبة ، أو رغبة حقيقية فى طلب الزواج ، كأن يقول لها الرجل مثلا : سعيدٌ من تكونين زوجة له ، أو أنا ممن يقدُرُون الزوجة الصالحة ، أو لعل الله يوفقنى لزوجة صالحة ، أو أن حالى والحمد لله طيبة ؛ ولا جناحَ أيضاً فى أن يكن الرجل فى نفسه رغبته فى المرأة ، وهى فى عدة الوفاة ،ويستر نيته على التزوج بها ، وقد علم الله أن بعض الرجال سيذكرون النساء المتوفى عنهن أزواجهن ، وستتجه نفوسهم إلى الرغبة فى الاقتران بهن سراً أو علناً ، فرخص لكم فى التعريض دون التصريح ، وحرّم عليكم وهن فى العدة أن تعطوهن وعداً بالزواج ، أو أن تأخذوا عليهن عهداً أو ميثاقا فى سر وخفية ، ألا يتزوجن بغيركن ، أو أن تقولوا لهن قولا فيه إفحاش واستهجان ، لكن لم يحرم عليكم أن تقولوا لهن قولا معروفاً ، غير منكر ، لا يتجاوز حد التعريض إلى التصريح ، ولا يتعدى الإشارة الخفية والتلميح ، إلى الإبانة والتوضيح ؛ ولا يحل لكم والنساء فى عدة الوفاة أن تعزموا على أن تعقدوا عليهن عقدَ النكاح ، وإذا كان مجرد العزم ، وانعقادُ القلب عليه ، محرماً فى العدة ، فالزواج فعلا محرمٌ تحريماً باتاً ، وممنوع منعاً قاطعاً ؛ فإذا حصل أن رجلا وامرأة حدثت بينهما مواعدة على الزواج ، أو تصريح

بالخطبة فى عدة الوفاة أثما على ذلك ، بل حرم عليهما بعض الأئمة أن يتزوجا أبداً ؛ أما إذا حصل زواجٌ فى العدة بالفعل فيفرقُ بينهما ، ويقام عليهما حدّ الزنا ، ويحرم على الزوج الزواج بها إلى الأبد ، هذا رأى عمر بن الخطاب ، أما علىٌّ فرأى الاقتصار على التفريق بينهما ، وفى ذلك قصة يحسن أن نوردَها :

بلغَ عمرَ بنَ الخطاب أن امرأة من قريش ، تزوجها رجل من ثقيف فى عدتها ، فأرسل إليها ، ففرّق بينهما وعاقبهما ، وقال : لا ينكحها أبداً ، وجعل صَدَاقها فى بيت المال ، وفشا ذلك فى الناس ، فبلغ علياً فقال : يرحم الله أمير المؤمنين ، ما بال الصداق وبيت المال ؟ ؛ إنما جهلا ، فينبغى للإمام أن يردها إلى السنة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ فقال : لها الصداق بما استحل من فرجها ، ويفرق بينهما ، ولا جلد عليهما ، وتكملُ عدتها من الأول ، ثم تعتد من الثانى عدة كاملة ، فبلغ ذلك عُمرَ ، فخطب الناس فقال : أيها الناس : ردوا الجهالات إلى السنة . ومعنى هذا أن عُمرَ أخذ بقضاء على ، رضى الله عنهما .

أما إذا انقضت عدةُ النساء ، فلكم أن تعزموا على عقد النكاح عليهن ، ولكم أن تتزوجوا بالفعل منهن ؛ واعلموا أن ما تفعلونه سرا مما نهاكم الله عنه ، معلوم لله ، لأنه يعلم ما فى أنفسكم ، فاحذروا أن تفعلوه ، واعلموا أن الله واسعُ المغفرة لمن عزم على فعل أمر مخالف ، ثم اجتنبه خشية من الله ، حليم على عباده المذنبين ، فلا يعاجلهم بالعقاب ، بل يفسحُ لهم باب المتاب .

٣ — وفى سابق الآيات ، بيّن الله أن الرجل إذا طلق امرأته بعد الدخول بها ، فإنه لا يستحق شيئاً من مهرها ، إلا ما افتدت به نفسها فى الخلع السابق بيانه . وإذا لم يكن دفع لها مهراً مسمى ، أو لم يسم لها مهراً ، استحقت فى ذمته المهر المسمى ، أو مهر المثل إذا لم يكن سمى لها مهراً ، وفى هاتين يبين الله حكم :

(١) المطلقة قبل أن يدخل بها زوجها، ولم يُفرَض لها مهرٌ .

(٢) والمطلقة قبل أن يدخل بها زوجها وقد فُرِض لها مهر .

أما الأولى فلا يجب لها مهر ، ولكن لها المتعة لقوله تعالى : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ، أى لا تبعةَ ولا إثمَ عليكم ، إذا لم تدفعوا مهراً لمن طلقتموهن قبل أن تدخلوا بهن ، ولم تفرضوا لهن فريضة ، وإنما يجب عليكم لهن المتعة . ونحسب أن عصرنا هذا يطلق عليها التعويض — وهى مالٌ أو عقار أو منفعة تفرض على الرجل لمطلقته التى لم يدخل بها ، ولم يفرض لها مهر ، وتقدر المتعة لها على حسب ما يطيق الزوج ، وبقدر حاله من اليسر أو العسر ، بالمعروف الذى يقتضيه الشرع ، وتوجبه مروءة الرجل ، ومكانته وطاقته . والمتعة حق واجب على المؤمنين الذين يحسنون إلى أنفسهم ، بامتثال أوامر الشرع ، واجتناب نواهيه ؛ وقد نزلت آية : ومتعوهن . . . إلخ : فى أنصارى تزوج امرأة من بنى حنيفة ، وكانت مفوضة فى تعيين مهرها ، فطلقها قبل الدخول بها ، فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عندما أظهر الرجل أن لا شىء له : متعها بقلنسوتك .

أما الثانية ، وهى التى طلقت قبل الدخول بها ، وقد فرض لها مهر ، فيجب لها نصف المهر المفروض ، إلا أن تعفو عنه ، وترد المهر كله للزوج ، وتسقط حقها هذا فى النصف ، أو يعفوَ الزوج الذى بيده عقدُ النكاح عن النصف المستحق له ، ويترك المهر كله لها ؛ وعفوُ الأزواج ، وتركهم المهرَ كله للمطلقات اللائى لم يدخلوا بهن ، ولم يفرض لهن مهر ، أقرب إلى تقوى الله ورضائه ، ففيه جبر لقلب امرأة فاتها من زوجها صحبتهُ ، فلا يفوتها منه نحلتهُ ؛ والنحلة : المهر ، وفى ترك المهر كله لها إشعار بأن لها مكانة

ومنزلة تخفف عليها لوعةَ الطلاق ، وصَدْمةَ الفراق . واعملوا أيها الأزواج إذا طلقتم نساءكم على هذه الصورة ، أن تحيطوهن بالفضل والبر ، وأن تجعلوا الخير جارياً بينكم ، فتتركوا لهن جميع المهر ، فإن ذلك أكرمُ لكم ، وأظهرُ لمروءتكم . لقد دخل جبير بن مطعم على سعد بن أبي وقاص ، فعرض عليه بنتاً له ، فعقد عليها ، فلما خرج طلقها ، وبعث إليها بالصداق كاملا ، فقيل له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرَضها عليّ ، فكرهت رده ، قيل : فلم بعثت بالصداق كاملا ؟ قال : فأين الفضل ؟ إشارة إلى قوله تعالى : ولا تنسوُا الفضْل بينكم ، والله لن يضيع عنده ما قدمتم من التفضل والإحسان ، وهذا وعد جميل للمحسن ، وحرمان وتهديد للمسيء .

(٢٤)

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى، وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ، وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ، مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حافظوا على الصلوات	داوموا وواظبوا على إقامتها فى أوقاتها ، بجميع شروطها .
الوسطى	الفضلى . والصلاة الوسطى : صلاةُ العصر (على ما اخترنا) .

الألفاظ	شرحها
قانتين	ساكنين خاشعين .
وصية لأزواجهم	فليوصوا وصية لأزواجهم
متاعاً إلى الحول	يتمتعن بالإنفاق عليهن من مال أزواجهن ؛ مدة سنة .
غيرَ إخراج	يلزمنَ البيوت ولا يخرجن منها .

مجمل المعنى

١ — لقد أمر الله بالمحافظة على إقامة الصلوات ، وأدائها فى أوقاتها ، مستكملة جميعَ الشروط والأركان ، وقد جاءت آية الصلاة معترضة بين آيات المطلقات ، والمتوفَّى عنهن أزواجهن ، وهى تشمل أحكاماً متعلقة بأحوال الناس فى الدنيا ، وقد ينحرف العبد مع الهوى ، فيحيدُ عن القصد فى اتباعها ، فجاء نسق آية الصلاة بين هذه الآيات المتعلقة بحقوق الناس فى الدنيا ، حتى تذكرهم بوجوب طاعة الله فى تنفيذ أحكامه ؛ والصلاةُ عبادة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى أيضاً ذكر ودعاء لله ، تشير إلى أن أمور الحياة ، ومشاغلَ الدنيا مهما كثرت وتزاحمت ، لا ينبغى أن تلهينا عن حقوق الله ، وأداء الصلاة ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؛ والوُسطى مؤنث الأوسط ، وهو خير الشىء وأعدله ، والصلاة الوُسطى خيرَ الصلوات وأفضلها ؛ والمراد بها — فى خاصة رأينا — : صلاةُ العصر ، لما استفاض من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوُسطى ، صلاةِ العصر ، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً ؛ وإنما كانت العصرُ أفضل الصلواتَ ، لأن وقتها يجىء وسط زحمة الأعمال

فى آخر النهار ، وفى ساعة اهتمام الناس بإنجاز هذه الأعمال قبل انقضاء اليوم ، وربما شغلتهم أعمالهم وشئونهم عن الصلاة ، وفى أدائها فى مثل هذا الوقت إيثارٌ لحق الله ، وقيامٌ بواجب عبادته ، برغم مشاغل الدنيا . فلذلك كانت خيرَ الصلوات وأفضلها ؛ وعليكم إذا قمتم لله فى الصلاة ، أن تكونوا قانتين خاشعين ، ساكنين منقطعين لله ، متوجهين إليه بالدعاء والتكبير . خشية له ، ومراقبة لجنابه المقدس ، روى عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الصلاة ، فيرد علينا ، فلما رَجعنا من عند النجاشى سلمنا عليه ، فلم يرد علينا ، فقلنا : يا رسول الله : كنا نسلم عليك فى الصلاة فترد علينا ، فقال : إن فى الصلاة شغلا . وروى زيدُ بنُ أرقم ، قال : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل صاحبه ، وهو إلى جانبه فى الصلاة ، حتى نزلت : وقوموا لله قانتين ؛ فأمرنا بالسكوت ، ونهينا عن الكلام فى الصلاة

٢ — والصلاة ذكر لله ، يجب ألا يغفلَ عنه قلبُ مسلم ، ولا يعوق عنه عائق ، مهما اشتدّ ، وقد رخص الله لكم أن تؤدوها على أى حال : قائمين ، أو قاعدين ، ماشين أو راكبين ، إذا أصابكم مرض ، أو وقع بكم خوف أو فزع . فإن خفتم من عدو ، وكنتم فى حال رُعب وفزع ، أو كنتم فى صفوف القتال ، وفى ميادين الحرب والجهاد ، فأدوا صلاتكم حيث أنتم .أدوها راجلين أى ماشين أو راكبين ، قائمين أو قاعدين ، متجهين للشرق أو للغرب ، لا يشغلكم شاغل ، ولا يمنعكم مانع من ذكر الله ، فهو الذى سيشف قلوبكم ، وينزلُ السكينة على نفوسكم فى حال الفزع والخوف ، فإذا ذهب عنكم الخوف ، وعادت إليكم الطمأنينة والأمن ، فاذكروا الله ، وعودوا إلى صلاتكم بقيامها وركوعها وسجودها ونظامها وجماعتها ، واشكروه شكراً يوازى تعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمونه ، من إقامة الصلاة فى حالتى الأمن والخوف .

٣ — ذهب جماعةٌ من المفسرين في تأويل الآية الثالثة ، إلى أن المتوفى عنها زوجها كانت تجلس في بيت الزوج حولًا ، وينفق عليها من ماله ، ما لم تخرج من المنزل ، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح في قطع النفقة عنها ، وقد قالوا : إن هذه الآية نسخت أحكامها ، بجعل عدتها أربعة أشهر وعشرا . ونسخت النفقةُ بفرض ميراثها الربعَ أو الثمن . وذهب آخرون إلى أن هذه الآية محكمةٌ لا نسخ فيها ، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً ، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة لإتمام الحول ، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت ، ولا إثم عليكم إذا خرجت المرأة بعد العدة الشرعية ، وفعلت ما هو معروف للمرأة التي تستعد للخطاب ، من التزين والتجمل ، ولعل الله تعالى أراد أن يلزم الزوجة بعد وفاة زوجها ، فجعل لها بعد انقضاء عدتها — إذا أرادت — أن تبقى في منزل الزوجية ، وينفق عليها من مال زوجها ، بقية الحول ، ولا ينبغي أن تطرد من مسكنها بعد أربعة أشهر وعشر ، وكان هذا حقا لها قبل نزول قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزاجاً يتربص بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » ، ثم نسخ هذا الحق بهذه الآية ، وآية الميراث التي في سورة النساء ، وقد قدمنا في صفحة ٨١ من تفسير الجزء الأول أن هذه الآية نسخت حكماً لا تلاوة .

٤ — وقد أحاط الله سبحانه وتعالى المطلقات اللائي فرض لهن مهر ، ولم يدخل بهن — بالرعاية والصيانة بعد طلاقهن : فجعل من حقهن المتعة لهن على الرجال الذين طلقوهن ؛ وذلك بأن يعطوهن من المال والكساء والنفقة ما يمتعهن المتاعَ الحسن المعروف لأمثالهن ، على حسب طاقة الرجال الذين طلقوهن ، لكيلا يتعرضن للفاقة والاحتياج والتبذل ، بعد أن يتخلوا عنهن .

٥ — وهذه المتعة التي جعلها الله حقا واجباً للمطلقات على الرجال المؤمنين المتقين ، هي فوق ما يجب لهن من نفقة العدة التي قد تكون غير

كافية لسد احتياجات المرأة وصيانتها ، بعد خروجها من بيت زوجها ؛ ومثل هذه الأحكام التى تحدد واجبات الرجال ، وحقوق النساء بيّنها الله لكم فى آياته ، لتحكموا عقولكم ، وتأخذوا بها فى حياتكم ؛ لأنها كفيلة بسعادتكم أفراداً وجماعات .

(٢٥)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُمُ اللّٰهُ : مُوتُوا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ، إِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ وَاللّٰهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ألم ترَ	قد علمت وتعجبت من شأنهم ، أو : ألم ينته إلى علمك ؟
حذر الموت	خوف الموت فى القتال .
فقال لهم الله موتوا	فأماتهم اللهُ جميعاً فى وقت واحد ، ميتة نفس واحدة
إن الله لَذُو فضل على الناس	يتفضل عليهم بالحياة والأرزاق والنعم ، التى يضنون ببذلها فى سبيل الله .

الألفاظ	شرحها
أكثر الناس لا يشكرون	قليلا من الناس يشكرون الله على تفضله عليهم .
وقاتلوا فى سبيل الله	أمر محمد وأمته بالجهاد لإعلاء دين الله ، وإقامة شرائعه .
سميع	يسمع ما يقوله المتخلفون عن الجهاد ، والمسارعون إليـــه .
يُقرض الله قرضاً حسناً	ينفق فى سبيل الله إنفاقاً طيبة به نفسه، من مال حلال ، ابتغاء ثواب الله .
فيضاعفه له أضعافاً كثيرة .	فيجازيه بقدره مرات كثيرة ، نماء وسعادةً فى الدنيا ، وحسنَ ثواب فى الآخرة .
يقبض ويبسط	يقتر فى الرزق على عباده، ويبسطه ويوسعه عليهم.
وإليه ترجعون	وسترجعون إليه يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

مجمل المعنى

١ — هذه الآية تحكى قصة قوم من بنى إسرائيل ، طلب إليهم نبيهم أن يخرجوا لقتال أعدائهم ، والدفاع عن حياتهم ودينهم ، فخافوا أن يقتلوا فى الحرب ، وآثروا أن يفروا من الموت ، وتركوا ديارهم وأوطانهم حرصاً على الحياة ، فأراد الله أن يعلموا أنهم لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ، وأنه وحده هو الذى يحيى ويميت ، وأن الفرار من القتال لا ينجى من الموت ، وأن القتال لا يسلبُ الحياة إلا بإرادته جل شأنه : « قل إن الموتَ الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم » ، فصدر عليهم قضاؤه العاجل ، فأماتهم جميعاً فى وقت واحد ، ميتة نفس واحدة ، وسلبهم الحياة التى كانوا يحرصون عليها ، ويفرون

من أجلها ، ثم أعادها إليهم ، ليستيقنوا أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ، مهما كثر عددهم ، وأن الله وحده هو المتفضلُ على عباده بحياتهم وأرزاقهم ، ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على ما أغدق عليهم
من النعم ، وأسبغ عليهم من الفضل . ٥

٢ — وقد نزلت هذه الآيات حينما فرَضَ الله القتال على المسلمين ، تذكرة لهم وعبرة ، وحثاً على الجهاد ، والتعرض لأسباب الاستشهاد ، وليعلموا أن الموت إذا لم يكن منه بد ، ولم يمنع منه مفر ، فأولى أن يكون فى الجهاد فى سبيل الله ، وأن الاستباق إلى القتال فى سبيل الله ، إن كان من ورائه الموت ، فهو موت كريم ، يفضى إلى دار النعيم ، وإن كان من ورائه النصر ، فهو نصر مبين ، وعزة لله والرسول والمؤمنين .

٣ — وقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا فى سبيله ، وألا يفروا من القتال خوف
الموت كما فر بنو إسرائيل ؛ وسبيلُ الله هو ما شرعه للمسلمين من دين وأحكام ٦
تنظم حياتهم ، وتكفلُ لهم سعادة الدنيا والآخرة ؛ والآية صريحة فى وجوب القتال على المسلمين ، دفاعاً عن دينهم وحقوقهم وحياتهم ، وذلك بأن يقاتلوا كل من يعتدى على حريّاتهم ، أو ينازعهم فى ديارهم وأوطانهم ، أو يضيق عليهم فى أقواتهم وأرزاقهم ، أو يصادرهم فى دينهم ومعتقداتهم ؛ ولا يقبل الله منهم تخلفا أو قعودا عن القتال ، فهو الذى يسمع ما يقوله المتخلفون القاعدون عن القتال من علل لا يقبلها منهم ، وما يقوله المسارعون السابقون إلى الجهاد كسباً لثوابه ، وابتغاء مرضاته ، ويعلم ما يخفيه هؤلاء وهؤلاء ، فيجزى هؤلاء بالعقاب ، وهؤلاء بالثواب .

٤ — وليس الأمر مقصوراً على أن يقاتل المسلمون دفاعاً عن دينهم وحياتهم وكرامتهم فحسب ، ولكن الله تعالى أمرهم أن ينفقوا من الأموال ،

التى يمتلكونها من الطرق الحلال المشروعة فى سبيله وابتغاء ثوابه، طيبة بها نفوسُهم، دفاعاً عن دينه، وتأييداً لشرائعه، وتقوية لروح التعاون والتراحم بين جماعة المسلمين.

٥ — وقد جعل الله ما ينفقه المسلمون فى سبيل البرّ والخير والصدقة قرضاً له، يرده عليهم بركة ونماء فى أموالهم، وسعادة وتوفيقاً فى حياتهم، وثواباً وإحساناً فى آخرتهم، حثا لهم على البذل والإنفاق، وترغيباً فى التبرع والصدقات، والتوسعة على الفقراء والمحتاجين، والله هو الغنى الحميد — ووعدهم أن يضاعف لهم الثواب، ويرد عليهم ما أنفقوه بقدره أضعافاً كثيرة، ونبههم إلى أن الله هو الذى يبسط الرزق ويضيقه، وهو الذى يعطى ويمنع، فلا ينبغى لمن وسع عليهم فى الرزق، وأكرمهم بالغنى، أن يقبضوا أيديهم عن الإنفاق فى وجوه البر والخير، لأنهم سيرجعون إليه يوم القيامة، فيحاسبهم على ما كسبوا وما أنفقوا.

٦ — أبو الدَّحداح يُقرض الله قرضاً حسناً

عن زيد بن أسلمَ قال: لما نزلت «منْ ذا الذى يقرضُ الله قرْضاً حسناً» قال أبو الدحداح: فداك أبى وأمى يا رسول الله، اللهُ يستقرضنا، وهو غنى عن القرْض؟ قال: نعم، يريدُ أن يدْخلكم الجنة به، قال: فإنى إن أقرضتُ ربى قرْضاً يضمن لى به، ولصبيتى الدَّحداحة معى الجنة؟ قال: نعم، قال: ناولنى يدَك، فناوله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يدَه، فقال: إن لى حديقتين، إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضاً لله تعالى — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعل إحداهما لله، والأخرى دَعها معيشة لك ولعيالك، قال: فأشهدك يا رسول الله: أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائة نخلة، قال: إذن يجزيك الله به الجنة.

(٢٦)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ: ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؛ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ، قَالُوا: أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ ، تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ، قَالَ : إِنَّ اللهَ

مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ، إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، قَالُوا : لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الملأ	الأشراف من الناس ، والقوم .
من بعد موسى	من بعد وفاة موسى .

شرحها	الألفاظ
هو صمويل أو شمويل أو شمعون كلها بمعنى واحد ، ويسمى بابن العجوز ، لأن أمه ولدته على كبر .	لنبى لهم
وَلِّ علينا أميراً .	ابعث لنا ملكاً
أتوقع أنكم تجبنون وتمتنعون عن القتال إن فرض عليكم .	هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا
أى سبب لنا فى ألا نقاتل ؟	وما لنا ألا نقاتل
وقد عَرض لنا ما يستوجب القتال ، وهو إخراجنا من أوطاننا ، وأوطان أبنائنا وذرياتنا .	وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا
أعرضوا وتخلفوا ، ولم يتحقق ما طلبوه من القتال .	تولوا
الذين ظلموا أنفسهم ، وخالفوا عن أمر الله ، فى ترك الجهاد .	والله عليم بالظالمين
كيف يستحق أن يكون ملكاً علينا ، وهو فقير وضيع النسب ؟	أنّى يكون له الملك علينا
نحن أولى ، لأننا أغنياء ، ومن أسباط الملوك والأنبياء .	ونحن أحق بالملك منه
صندوق من خشب ، فيه التوراة ، وقطع من ألواح موسى ، وعصاه ، وثيابه ، وعمامة هارون .	التابوت
توجِّهُ الثورين اللذين يجرانه ، ليرجعاه من فلسطين إلى بنى إسرائيل .	تحمله الملائكة
انفصل بهم عن بلده ، وبعد عنها ، وهو ذاهب لقتال العمالقة والفلسطينيين .	فصل طالوت بالجنود
مختبركم .	مبتليكم

الألفاظ	شرحها
فليس مني	فليس من أنصاري وأشياعي .
ومن لم يطعَمه	ومن لم يذقه ولم يشرب منه .
إلا من اغترف غُرفة بيده	إلا من شرب قليلا ، ولم يكرع منه كثيراً ، فذاك مرخص به لهم .
فشربوا منه	أفرطوا فى الشرب منه .
آمنوا معه	أطاعوه وشربوا قليلا منه .
الذين يظنون أنهم ملاقو الله	المخلصون الذين تيقنوا لقاء الله ، وتوقعوا ثوابه .
فئة	فرقة وجماعة .
بإذن الله	بإرادته وحكمه وتيسيره .
برزوا لجالوت وجنوده	ظهروا لهم ، ودَنوْا منهم .
وآتاه الله الملك	جعله الله ملكاً على بنى إسرائيل جميعهم ، ولم يجتمعوا قبله تحت لواء ملك واحد .
والحكمة	والنبوة .
وعلمه مما يشاء	علمه منطق الطير والدواب ، وصنعة الدروع .

قصة طالوت وجالوت ومجمل المعنى

لما دخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بعد وفاة موسى ، ظلوا ستا وخمسين وثلثمائة سنة ، وليس عليهم ملك ، وإنما كان يقيم الأمر فيهم ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، قضاةٌ يعينهم الأنبياء ، وفى بعض الأحيان كان الأنبياء يقيمون أنفسهم قضاة عليهم .

وكان بنو إسرائيل فى هذه الأزمان ، عرْضة للغزو والقتال من الأمم المجاورة لهم ، كالفلسطينيين والمديانيين ، والعمالقة من العرب ، كما كان الانتصار فى الحروب تارة يكون فى جانب بنى اسرائيل ، وتارة يكون فى جانب خصومهم المحاربين ، وكان المتبعُ فى بنى إسرائيل أنهم إذا دخلوا فى حرب ، قدموا أمام الجنود التابوت ليقوى من عزائمهم ، ويستنصروا به على أعدائهم ، وكان فى هذا التابوت ، عصا موسى وثيابه ، وقطعٌ من الألواح التى جاء بها قومهُ ، فوجدهم قد عبدُوا العجل ، فغضب ، وألقاها فتكسرت ، فنزع منها ما كان صحيحاً ، وأخذ القطعَ المتكسرة فجعلها فى التابوت ، كما كان فيه ثيابُ هارون وعمامته ، وكان النصر حليفاً لبنى إسرائيل ببركة هذا التابوت ، حينما كانوا فى طاعة الله ، واتباع شرائعه ، يثبتُ به أقدامهم ، ويغلبون به من قاتلهم ؛ فلما عصوْا ربهم ، وخالفوا أنبياءهم ، غُلبوا وسُلبَ منهم التابوت ، حينما اشتبكوا فى حرب مع الفلسطينيين ، فهزموهم هزيمة منكرة ، وأخرجوهم من ديارهم ، وأسروا أبناءهم ، وأذلوهم دهراً طويلا ، وفقدوا التابوت ، الذى كان يملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة أمام الأعداء ، ويقوى من عزائمهم ، فلا يفرون ولا ينهزمون .

حاقَ الذل والهوان ببنى إسرائيل بعد انهزامهم ، وأخذ التابوت منهم ، فذهب أشرافهم ووجوههم ، إلى نبيهم « صَمويل » ، وطلبوا منه أن يقيم عليهم ملكاً ، يجتمعون تحت رايته ، ويمضون تحت قيادته ، ليقاتلوا أعداءهم الذين أذلوهم ، واغتصبوا التابوت الذى يحفظ شريعتهم ، وتراث أنبيائهم ، ويؤتيهم النصر على أعدائهم ، فقال النبى صمويل : أنا أعلم بحالكم ، وما أنتم عليه من التخاذل ، وأتوقع أنى إن أقمت لكم ملكاً كما تريدون ، ثم فرَض الله القتال عليكم ، ستجبنون وتقعدون ، فقالوا : وأى غرض لنا فى ترك القتال ، بعد أن عرَضَ لنا ما يوجبه علينا ، ويدفعنا إليه دَفعاً ؟ لأن العدو قد أخرَجنا

من أوطاننا ، وأسرَ أبناءنا فلماذا نجبن عن قتاله ، أو نفر من لقائه ؟ لكن نبيهم كان أعلم بحالهم ، فلما فُرِضَ القتال عليهم أعرضوا عنه ، وتخاذلوا ، إلا قليلا منهم .

أخبرهم « صمويل » أن الله قد أجابهم لما سألوا ، وأقام طالوت ملكاً عليهم ، وكان شاباً عالماً جميلا ، طويل القامة .

ومن خبر تمليك طالوت على بنى إسرائيل ، أن أباه كان له أتُن ضَلت ، فأمر ابنه أن يبحث عنها ، فانطلق يسأل عن هذه الأتن ، حتى أتى المدينة التى فيها صَمويل ، والتقى به ، فأكرمه وباركه ، ومسح رأسه بالزيت المقدس ، وأخبره أنه سيصير ملكاً على بنى إسرائيل ؛ فلما عرَف بنو إسرائيل ذلك عجبوا ، ولم يرتاحوا لاختيار طالوت ملكاً عليهم ، ذلك لأن المُلك فى بنى إسرائيل كان فى بنى « يهوذا » ، والنبوة كانت فى بنى « لاوى » ، أما طالوت فكان من أبناء « بنيامين » ، الذين همْ عامة الشعب ، فلا يكونون ملوكاً أو أنبياء ، هذا إلى أن طالوت كان فقيراً ؛ فقالوا : من أية ناحية من نواحى المجد تجعل لطالوت الحق فى أن يكون ملكاً علينا ؟ فقال لهم صمويل : هو ملك عليكم ، لأن الله اصطفاه واختاره ، وميزه بصفات الملك ، فقد آتاه علماً واسعاً ، يصرف به أموركم بحكمة وحزم ، وآتاه جسما قويا طويلا ، يعينه عند اللقاء ، ويجعله مهيباً فى عيون الأعداء ، وأن الصفات الضرورية للملك هى العلم والدين والقوة لا النسب ، هذا إلى أن الله يصرف الكون كما يريد ، ويعطى ملكه من يشاء ، فليس لكم على إقامة طالوت ملكاً عليكم من حجة أو اعتراض .

قالوا لصمويل النبى : وأين البيِّنة على أن الله اختار طالوت ملكاً علينا ؟ فدعا ربه أن يأتيهم بالبينة على تمليك طالوت عليهم ، فقال : « إن آية ملكه

أن يأتيكم التابوت » الذى اغتصبه منكم أهل فلسطين ، وأن يعيده كما كان إلى أرض إسرائيل ؛ ثم سلط الله البلاء والوباء على أهل فلسطين ، الذين اغتصبوا التابوت ، فأصابتهم البواسير والأوجاع ، وكانت المصائبُ تأتيهم أولا من المكان الذى فيه التابوت ، ثم تنتشر فيهم ، حتى ظنوا أن البلاء الذى حاقَ بهم ، والمصائب التى نزلتْ عليهم ، هى من بقاء التابوت عندهم ، وقرروا أن يردوه إلى بنى إسرائيل ، ووضعوه على عجلة يجرها ثوران ، وأمرَ الله الملائكة أن توجههما وتسوقهما بالتابوت إلى أرض بنى إسرائيل ، وبينما هم فى أخذ ورد فى شأن طالوت ، رأوا التابوت وقد جاء إليهم ، كما أخبرهم « صمويل » ، فآمنوا وصَدّقوا بأن الله هو الذى اصطفاه ملكاً عليهم ، وأيقنوا بالنصر على أعدائهم .

عقد طالوت لواء الحرب لبنى إسرائيل ، ودعاهم للجهاد فى سبيل الله ، وقتال أعدائهم الذين أذلوهم وأهانوهم ، فاجتمع تحت لوائه منهم جيش كبير ، وساقهم إلى قتال الفلسطينيين ، وكان قائدهم « جالوت » الذى اشتهر بالشجاعة والقوة ، وسار ذكرُ بطولته وانتصاره بين جميع الأمم المجاورة لفلسطين ، ومنهم بنو إسرائيل ، فهابوه وتحامَوا الاشتباك معه فى حرب أو قتال ، ودانوا له بالطاعة والولاء .

سار طالوت بجنوده ، وانفصل بهم عن الديار ، وبعدَ عن الأوطان ، وأصبحوا قريبين من لقاء العدو ، وأراد الملك القائد « طالوت » أن يعرف صلابة جنده وعزمهم ، ويقف على مدى صَبرهم وَتجلدهم وإيمانهم ، فقال لهمْ — وقد بلغ بهم الجهدُ ، ونال منهم الظمأ — : إنكم ستمرون بنهر ، والله مختبركم ومبتليكم به ، حتى يتميز المطيع من العاصى ، والصادق من الكاذب ، والواهن الضعيف من الجلد الصبور ، فرخص لكم فى أن ينال كل منكم من مائه غُرفة بيده ، يقتل بها ظمأه ، ويزيل عطشه ، ومنعكم أن تشربوا منه

كثيراً ، وترتووا من مائه ، وسأميز بذلك جنودى المخلصين ، والصابرين المؤمنين من غيرهم ، فلما جاءوا إلى النهر خالف معظمهم أمر طالوت ، وأقبلوا عليه يعبون منه عبا ، ويكرعون فيه كرعا ، ويشربون منه شرْب الهيم — (والهيم الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء) — وأطاع قليل منهم ، فبعضهم لم يطعموا ماءه ، وبعضهم نالوا منه غرفة كما أمرهم طالوت ، فترك من خالفه ، وصحب منْ أطاعه ، حتى جاوز بهم النهر ، وعلموا أنهم لا محالة سيلاقون جالوت وجنوده ، وهم أشد منهم بأساً ، وأوفر عدة ، وأكثر عدداً ، فقال فريق منهم : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، لأننا قلةٌ وهم كثرةٌ ، فقال أولو العزم منهم — وهم الذين يعتقدون أنهم إذا قتلوا فى الجهاد فسيلاقون وجه الله شهداء مؤمنين ، محرضين على القتال أولئك الضعفاء الجبناء ، الذين تخوفوا لقاء جالوت وجنوده ، مستشعرين الصبر والعون من الله : كمْ من فئة قليلة غلبتْ فئة كثيرة بإذن الله ، والله ُ مع الصابرين ، فلما دَنوْا من العدُو ، وظهروا له ، ووقفوا أمامه وجهاً لوجه ، فزعوا إلى الله تعالى أن يفرغ الصبر فى قلوبهم ، حتى يملكوا أمرهم ، وتقوى عزائمهم فتثبت أقدامهم ، ويصبروا على ملاقاة عدوهم ، فيكتب النصر لهم ، فاستجاب الله دعاءهم ، وهزموهم بإذنه وقتل داودُ جالوت .

كيف قتل داودُ جالوت

كان داودُ أصغر إخوته ، وقد ذهبوا فى جند طالوت ، وبقى داودُ يرعى الغنم ، وكان قصيراً نحيلا سقيماً ، فطلب منه أبوه أن يذهب ليقف على خبر إخوته ، ويطمئنه عليهم ، فحمل مِخْلاته على عاتقه ، ووضع فيها بعض الزاد والحجارة ، وأخذ مِقلاعه ، وانطلق حتى وصل إلى مقر الجيش ، فسمع جالوتَ

يطلب أن يخرُجَ له بطلٌ من جند طالوتَ ليبارزه، فلم يخرج أحدٌ لمبارزته، فنادى ثانية وثالثة، فجبنوا وخافوا ، فقال طالوت : من يبرزْ إليه ويقتله ، فأنا أزوجه ابنتى ، وأحكمه فى مالى ، فتقدم دوادُ وقال : أنا أبرُزُ إليه وأقتله . فازدراه طالوتُ ، لصغر سنه ، وقصر قامته ، وضآلة جسمه ، فاغترّ جالوتُ وكرر النداء ، فى زَهو وخُيَلاء ، فلم يخرُجْ إلا داودُ ، فقال له طالوت : هل جربت نفسك ، واختبرت قوّتك ؟ قال : وقع ذئب فى غنمى فضربته ، ففصلتُ رأسه عن جسده ، قال طالوت : الذئبُ ضعيفٌ ، ألم تجرب نفسك فى غيره ؟ قال : دخل أسدٌ فى غنمى فضربته ، ثم أخذت بلَحييه فشققتهما ، أليس الأسد أقوى من جالوت ؟ قال طالوت : بلى ، فألبسه الدرْع ، وأركبه فرَسه ، وأعطاه سلاحه ، ومشى داود قليلا ثم رجع ، فظن الناس أنه تهيب لقاء جالوت ، لكنه نزل عن الفرس ، وخلع الدرْعَ ، وألقى السلاح ، وقال : أحبّ أن أقاتله على عادتى ، وأخذ مقلاعه ، وتقلد مخلاته ، وخرج إلى جالوت وهو شاكى السلاح على جواده ، فلما رأى داودَ على هذه الحال سخر منه وقال : أنت يافتى تخرُج إلىّ بمخلاة ومقلاع ؟ هل زعمت أنك تطارد كلباً ؟! قال داود : وأنت أهون ؛ قال جالوت : لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع ، واقترب من داود ليتناوله بيده، استخفافاً به ، وسرعان ما وَضَع داودُ حجراً فى مقلاعه ، وأداره ، ورمى به جالوت فقتله ، فساد الذعر والخوف جنود جالوت ، وانهزموا أمام داود، فزوجه طالوت ابنته ، وآتاه الله النبوة والملك على بنى إسرائيل قاطبة ، وعلمه منطق الطير ، وصناعة الدروع .

والله يهدى عباده الصالحين إلى الخير ، ويملأ قلوبهم بالإيمان ، ويعينهم بالقوة والنصر على المفسدين فى الأرض ، فيطهرونها من شرورهم ، ويمنعون الناس من ظلمهم وبغيهم، ولولا أن الله يدفع الكافر بالمؤمن ، والمفسد بالصالح ، والمحسن بالمسىء ، تفضلا منه على عباده ، لانتشر البغى ، وسادت الفوضى ،

وعم الفساد ، وقد نزلت الآيات السابقة تحكى هذه القصة،وتحرض النبى وأصحابه على القتال ، دون أن يهولهم كثرةٌ من الكفار ، وزيادة العدَد والعدة ، لأن الإيمان والصبر يثبتُ الأقدام ويعقب النصر ، وقد بيّن الله فى هذه الآيات أخبار بنى إسرائيل فى حقبة من الزمان،ليعلم الناس أن محمداً على حق ، ولأن هذه الأنباء لا يعلمها إلا نبى مرسل للعالمين .

١٩٥٣/٢٩٩١

[illegible]

[illegible] جالوت [illegible]

[illegible] داود [illegible]

[illegible]

[illegible] جالوت [illegible]

[illegible]

[illegible]

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ؛ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَلَـكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَـكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْـكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تلك الرسل	إشارة إلى الرسل الذين وردت أسماؤهم وأنباؤهم فى القرآن .
فضّلنا بعضهم على بعض	فضلنا بعضهم على بعض بالخصائص والمعجزات ، وسوينا بينهم فى الرسالة .
منهم من كلم الله	هو موسى عليه السلام ، كلّمه الله فى الطور من غير سفير .

الألفاظ	شرحها
ورفع بعضهم درجاتٍ	هو محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، اختصَّه الله على سائر الرسل المتفاوتين فى الفضل ، بمراتب من الشرف والكمال .
وآتينا عيسى ابن مريم البيِّناتِ	كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله .
وأيَّدْناه	قوَّيناه .
برُوح القُدُسِ	بجبريلَ .
من بعدهم	من بعد كلِّ رسول من الرسُل .
من بعد ما جاءتهم البيِّناتُ	من بعد ما جاءتهم المعجِزات الباهرة ، والآياتُ الظاهرة .
يَفعلُ ما يريد	يفعل حسب ما يريد ، من غير أن يوجِبه عليه موجب ، أو يمنعه منه مانع .
مما رزقناكم	شيئاً مما أعطيناكم إياه .
خُلَّةٌ	صداقةٌ ومودَّةٌ خالصةٌ .
شفاعة	وسيلة أو واسطة ، لجلب خيرٍ أو دفع ضُرٍّ .
هم الظالمون	الذين ظلموكم فأخرجوكم من دياركم ، وحاربوا دعوة نبيِّكم ، فكافِحوهم بالنفس والمال .

مجمل المعنى

١ — هؤلاء الرسل الذين وردت أسماؤهم ، أو ذكرت أخبارهم فى القرآن ، قد سوَّى الله بينهم فى الرسالة ، وهداية الخلق ، والعِصمة من الزَّلل ، فلا ينطقون عن هوًى ، وإنما يقولون ويفعلون بوحيٍ يوحَى. لكنَّ اللهَ فضل

بعضهم على بعض بالخصائص والمعجزات ، وجعلهم متفاوتين فى مراتب الكمال ، فجعل منهم أولى العزم الذين ثبتوا وجدّوا ، وصبروا على أمر الله فيما عهد إليهم فيه ، وهم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ، ورفع إدريس مكاناً عالياً ، وفضّل موسى فكلمه على الطور من غير واسطة أو سفير ، ورفع محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل درجات عالية ، فختم به النبيين ، وأرسله رحمة للعالمين ، ونعته بالخلق العظيم ، وأنزل عليه القرآن معجزة باقية على الدهر دون سائر المعجزات ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وفضّل عيسى عليه السلام بمعجزات باهرات ، وآيات ظاهرات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، والإخبار بما يأكل الناس ، وما يدّخرون ، وقوّاه بجبريل روح القدس ، تأييداً لرسالته ، وردّاً على تفريط اليهود فى شأنه ، وشدة طعنهم فيه ، ومعارضتهم له ، وعلى إفراط النصارى فى تقديسه ، وزعمهم أنه ابن الله .

٢ — ولقد جاء الرسل إلى الأمم بالبيّنات الدالة على رسالتهم ، والمعجزات القاطعة بصدقهم ، بيد أن الخلاف كان يقع بينها ، من بعد أن يظهر فيهم الرسول ويأتيهم بالمعجزات ، ويحدث القتال بين من صدّقه وبين من كذّبه منهم ، ولو أراد الله لهدى الناس جميعاً إلى اتباع الرسل ، فلم يختلفوا ولم يقتتلوا ، لأن الله لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، ولا يحدث من أفعال العباد إلا ما يوافق مشيئته ، لكن إرادته اقتضت — لحكمة يعلمها هو فى نظام الكون — أن يختلفوا بمشيئته هو فى أمر الرسل ، فلم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته ، فمنهم من آمن بما جاء به الرسول ، وعمل بموجبه ، ومنهم من خالفه حسداً

أو عناداً ، أو بغياً وطمعاً ، ولو أراد الله غير ذلك لحدث ، لأنه يفعل حسب ما يريد ، من غير أن يوجِب الفعل عليه موجبٌ ، أو يمنعه منه مانع .

٣ — وبعد أن بيّن الله أنه أرسل الرسُل وفضّل بعضهم على بعض ، وأيّدهم بالمعجزات ، وأن الأمم قد اختلفوا على الرسل بعد ما جاءتهم البينات ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، أمر المسلمين أن يُنفقوا بعض ما رزقهم اللهُ من مال ، وأن يتبرّعوا به لإعانة المجاهدين فى سبيله ، وإعدادِ وسائل الكفاح والقتال ، من العُدّة والسلاح ، لمجاهدة الكافرين الذين ظلمُوهم بالعُدْوان على ديارهم ، وخنْقِ حرياتهم ، ومحاربتهم فى دينهم وعقائدهم ، وقد حثّ الله المؤمنين على الإنفاقِ فى سبيله ، وبيّن أن الأموال التى عندهم لم يجمعوها بمحض كدّهم وكسبهم ، ولكنها رزقٌ لهم من عند الله ، فيجب أن ينفقوا منها فى سبيل الله ، ونبّههم على وجوب إدراك الفرصة ، وإنفاقِ المال الذى أعطاهم فى سبيلِه وابتغاء مرضاته ، قبل أن يأتيهم يومُ الحساب ، يوم لا ينفعهم فيه مالٌ ولا بنون ، ولا يستدركون فيه ما فاتهم ببيع أو شراء ، ولا تُجْدى فيه صداقة الأصدقاء ، أو خُلّة الأخلاء ، أو شفاعة الشافعين ، لمن يبخلون أو يَجْبُنُون ، فكل امرئ بما كسب رهين ، وقد مضت الآيات المتضمنة القصصَ وأحوال الأمم ، مقدّمةً بين يدىْ آيات القتال والجهاد والإنفاق فى سبيل الله ، حثّاً للمسلمين على بذْل النفس والمال دفاعاً عن دينهم وأوطانهم ، لعلهم يستيقظون ويتذكرون ويتعظون .

(٢)

اللّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ، وَيُؤْمِنْ بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا إلهَ إلا هوَ	هو المستحقُّ أن يعبَدَ دونَ غيره .
الحيُّ	الباقى الذى لا يفنَى .

شرحها	الألفاظ
الدائمُ القيام على تدبير الكون وحفظه .	القيُوم
ارتخاء فى الأعصاب ، وثقل فى الرأس، وفتور فى الجسم يتقدَّم النوم .	سِنَةٌ
حالةٌ تعرِض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ ، تقف معها المشاعر الظاهرة عن الإحساس .	نومٌ
ليس لأحد أن يبتغى عنده وسيلةً للعفو عن عاص ، أو إثابةِ غيرِ مستحق للثَّواب .	من ذا الذى يشفعُ عنده
إلا بأمره وإرادته .	إلا بإذنه
يعلم ما حدثَ قبلهم ، وما حدثَ بعدهم ، وما يدْركونه وما لا يدركونه ، من أمور الدنيا والآخرة .	يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
من معلوماته .	من علمه
مُلْكه وعظمته ، وعلمه وسلطانُه .	كرسيُّه
لا يثقله ولا يشقُّ عليه .	لا يئوده
المتعالى بذاتِه عن الأنداد ، القاهرُ الغالبُ للأشياء .	العلىُّ
الذى يُحْتقَر بالنسبة إليه كل ما سِواه .	العظيم
قد تبين الإيمان من الكفر ، والهدى من الضلال .	قد تبين الرشد من الغىِّ
كل ما عُبِد من دون الله ، أو صَدَّ عن سبيلِ الله .	الطاغوت
بالاعتقاد الحق ، والإيمان الوثيق .	بالعُرْوَة الوُثْقى
لا انقطاعَ لها .	لا انفصام لها
مُعينُهم ومتولى أمورهم .	ولىُّ الذين آمنوا
الكفر والمعاصى والشُّبه ، وجميع فنون الضلال .	الظلُماتِ
الإيمان والهداية والتوفيق ، وجميع فنون الحق .	النورِ
الملازمون لها بسبب ما ارتكبوا من الجرائم .	أصحاب النار
ماكثون فيها أبداً .	خالدون

آية الكرسى

(١) مناسبتها لما قبلها

لما ذُكرَ فى الآيات السابقة أنه تعالى فضّل بعض الأنبياء على بعض ، وأن منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتى عيسى ابنَ مريم البيّنات ، وكان اليهود والنصارى قد أحدثوا بعد أنبيائهم بدَعاً فى أديانهم وعقائدهم ، ونسبوا لله تعالى ما لا يجوز عليه ، وكان من العرب من اتخذوا من دون الله آلهة ، فصار جميع الناس الذين بعثَ إليهم محمدٌ كافة على غير استقامة فى شرائعهم وعقائدهم ، فقد أتى الله بهذه الآية العظيمة ، الدالة على تفرُّده تعالى بالوحدانية ، وعظيم الصفات ، ليردّهم إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وقد سميتْ آيةَ الكرسى ، لأنه ذكر فيها .

مجمل المعنى

١ — الله جلّت قدرته هو وحده المستحقُّ للعبودية ، المتفرِّد بالوحدانية ، الباقى الذى لا يموت ، القائم دائماً بتدبير خلقه بدقة ونظام محكم ، ويقَظة تامّة ، ليس من شأنه أن يعتريه فتور أو غفلة ، له ملك السموات والأرض ، وما فيهما من مخلوقات عاقلة وغير عاقلة ، هو موجدها ومالكها وربها ، عظيم الكبرياء ، ليس لأحد أن يشفع عنده فى جلب ثواب ، أو إزالة عقاب ، إلا بإذنه ، وفى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » : رد على المشركين الذين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله ، وكانوا يقولون : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» ، كما أن فيها دليلا على

وجود الشفاعة عنده بإذنه وأمره، لمن اصطفاهم من عباده من الملائكة والأنبياء والعلماء ، والمجاهدين والمؤمنين الصالحين ، عليم بكل أمور الدنيا والآخرة ، وما وقع قبلنا وما يحدث بعدنا ، ولا معلوم لأحد من خلقه إلا ما شاء الله أن يعلمه ، وسع مُلكه وعلمه وقدرته جميعَ السموات والأرض ، فقام على تدبيرها بسلطان وحكمة وقوة ، ونسبة الكرسى له تعالى، تصوير لعظمة ملكه، وعلمه وقدرته ، كما أن كرسى المُلك رمز لسلطانه وحكمه وقوته ، لا يُثقله ولا يشق عليه حفظها، وأمرُ تدبيرها، وهو المتعالى بذاته عن الأنداد والنظراء، القاهر الغالب لجميع الأشياء، العظيم فى سلطانه، الذى يستحقر بالنسبة إليه كل ما سواه .

٢ — لما بيَّن الله فى الآية السابقة دلائل الوحدانية ، وصفاته الإلهية ، وأنه جل شأنه هو المعبود دون سواه ، وأضاء للعقول طريق معرفته ، والإيمان به ، لم يُجْرِ أمر الإيمان على الإكراه والقسر ، بل جعل الدخول فى الإسلام لمن شاء بمحض الاعتقاد والاختيار ، بعد أن استبان الرُّشدُ من الغيِّ ، والإيمان من الكفر ، والحق من الباطل ، « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، ومن ترك عبادة الأوثان والشيطان ، وهجر طريق الضلال ، وآمن بالله ، واتبع هداه، فقد اعتصم بالدين الصحيح ، واستمسك بالإيمان الوثيق ، واهتدى إلى الخير والتوفيق ، وسلك السبيل الموصِّلَ إلى رضائه تعالى ، وعقد لنفسه من الدين عقداً متيناً ، لا تحله شبهة أو ضلالة ، والله سميع لما يقوله كل عبد ، عليم بما يعتقده ، لا يخفى عليه ما يجرى على الألسنة ، وما تكِنُّ الصدور ؛ وقد نزلت هذه الآية فى أنصارِىٍّ من بنى سالم بن عوف ، كان له ابنان ، فتنصرا قبل أن يُبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدما المدينة ، فلزمهما أبوهما ، وقال : والله لا أدعكما حتى تُسلما ، فأبيا ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقال الأنصاريّ : يا رسول الله ، أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ، فنزل قوله تعالى : «لا إكراه فى الدين» ؛ فخلاَّهما رسول الله ودينهما الذى يريدان .

٣ – والله سبحانه وتعالى يعين الذين يريد لهم الإيمان ، ويتولى أمورهم ، فيخرجهم بلطفه وتأييده ، وهدايته وتوفيقه ، من الكفر إلى الإيمان ، ويكشف عنهم ظلمات الشُّبه فى الدين ، ويهديهم إلى نور اليقين ، ويطمس على بصيرة أولئك الذين ثبت فى علمه كفرهم وضلالهم ، فيجعل أولياءهم الطاغوت : أى الشياطين والأصنام والأوثان ، وسائر المضلين عن طريق الحق ، فيخرجونهم بالإغواء والتمويه والضلال من نور البيِّنات التى جاءهم بها محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى ظلمات الكفر ، والانهماك فى الغىِّ ، وسائر فنون الضلال ، أولئك الذين ضلُّوا عن الحق ، وتردَّوا فى الكفر والغىِّ ، ملازمون للنار ، ماكثون فيها أبداً .

(٣)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ؟ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ، قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ ، أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه	النمروذ الذى جادل إبراهيم وعارضه فى ربوبية الله .
أن آتاه الله الملك	لأن الله جعله ملكاً ، فاستكبر وبطِر .
أنا أحيي وأميت	أعفو عن القتل وأقتُل .
يأتى بالشمس	يطلعها فى الصباح .
فبهت الذى كفر	تحير ودهش ، وانقطعت حجته .
أو كالذى مر على قرية	أو كعُزير الذى مرَّ على بيت المقدس ، بعد أن خرّبه بُخْتَنَصَّر .
خاوية على عروشها	خالية ، ساقطة حيطانها على سقوفها ، والعروش : جمع عرش ، وهو السقف .
أنى يحيي هذه	كيف يعيد الله العمران والحياة فى هذه القرية ؟
ثم بعثه	ثم أحياه .
قال : كم لبثت	قال له ملك من عند الله : كم سنة مكثت ميتاً ؟
لم يتسنه	لم تغيره السنون .
لنجعلك آية للناس	لتعتبر أنت ، ولتكون آية للناس على البعث ، ودليلا على قدرة الله .
العظام	عظام حماره .
ننشزها	نحركها ونركّبها ، وننفخ فيها الروح ، ونبعث الحياة .
فلما تبين له	فلما ظهرت له قدرة الله على أنه يحيي ويميت .
أرنى	بصّرنى
بلى	بلى آمنت .

شرحها	الألفاظ
ولكن سألت ذلك إرادة طُمأنينةِ القلب .	ولكنْ ليطمئنّ قلبي
فأمِلْهن ، واضممهن إليك . .	فَصُرْهن إليك
ثم جزّئهن ، وفرّق أجزاءهن على الجبال التي حولك.	ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً
قل لهن : تعالَيْنَ بإذن الله .	ثم ادعهن
ساعيات مسرعات فى طيرهن ، أو فى مشيِهن على أرجلهن	سعياً
لا يمتنع عليه ما يريد .	عزيز
لا يفعل إلا ما فيه الحكمة .	حكيم

لما بيّن الله أن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، أنزل الآية الأولى من هذه الآيات استشهاداً على ذلك ، بأمرِ النمروذ الذى غُلِب وقُهر فى محاجّته ومجادلته ، إذ كان الطاغوت وليّه ، وبأمرِ إبراهيم الذى غلبه فى الحجة وأفحمه ، إذ كان الله وليّه ، حتى يعلم النبي أن الله يُضل من يشاء ، ويهدى من يشاء .

ثم ذكر الآية الثانية والثالثة ، استشهاداً على أن الله يحيي ويميت ، ويُنشئ الخلق ويعيده ، وأنه ولىّ عباده المؤمنين ، يهديهم بالحجة والبينات ، والأدلة الواضحات .

(١) قصة إبراهيم والنمروذ ، ومجمل المعنى

ألم ينته إلى علمك يا محمد أمر النمروذ ، الذى ركبه البطر والطغيان والعُتُوّ ، بعد أن أعطاه الله الملك والقوة والسلطان ، كيف تصدّى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات ؟ وكيف أنه جادل إبراهيم فى ربوبية الله

عز وجل ضلالاً وطغياناً ؟ وكيف أنه لما عرف أن إبراهيم كسَّر الأصنام سجنه ، ثم أخرجه من السجن ليحرّقه ؟ فسأله : من ربك الذى تدعو إليه ؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت ، أى يخلق الحياة وينزعها من الأجساد ، فهو المتصرف فيك وفى أشباهك ، بما لا تقدر عليه أنت ولا أشباهك ، فقال الملك : أنا مثل ربك فى ذلك ، ودعا برجلين ، فقتل أحدهما ، وأطلق الآخر ، وقال : هأنذا : أحيي وأميت ، فلما عرف إبراهيم حماقته ومغالطته ، أراد أن يُفحمه بدليل لا يقبل الجدل والمغالطة ، والتمويه والتلبيس ، وعدل عن مثالٍ خفىّ إلى مثالٍ جلىّ ، فقال : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، إن كان لك مثل قدرة الله ، فأفحمه إبراهيم ، وقطع عليه حجته ، وبهت الذى كفر ، ولم يستطع أن يقول : أنا الآتى بها من المشرق ، كما قال : أنا أحيي وأميت ، لأن ذوى الألباب يكذبونه ؛ وإن الله لا يهدى أولئك الذين ظلموا أنفسهم ، فأبعدوها عن الإيمان ، وأوقعوها فى الكفر ، فاستحقت العذاب الخالد ، « أفمن حقت عليه كلمة العذاب ، أفأنت تنقذ من فى النار » ؟

(٢) قصة عُزَير ، والقرية الخاوية على عروشها

لما بالغ بنو إسرائيل فى تعاطى الشر والفساد ، وجاوزوا فى العتوّ والطغيان كل حد معتاد ، سلط الله عليهم : بختنصر : ملك بابل ، فسار إليهم فى جيش كثيف ، حتى وطئ الشام ، وخرّب : بيت المقدس ، سنة ٧٠٩ قبل الميلاد ، وقتل منهم من قتل ، وأسر من أسر ، وشرّد من شرد ؛ وكان عُزَير فيمن شرّدوا ، وعاد إلى بيت المقدس بعد خرابها ، ومرّ عليها راكباً حماره ، ومعه طعامه من التين والعنب والعصير ، مما يُسرع إليه العطب والفساد بعد وقت قصير . فلما رآها على هذا الخراب ، وقد سقطت سُقُفُها ، وانهارت عليها

حيطانها ، وصارت تلالا من التراب ، وأكواماً من الأنقاض ، استبعد إعادتها كما كانت ، وعمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا فى كل مكان ، فقال فى حسرة وتلهف واستبعاد : أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها ، ويعيد إليها مبانيها بعد هدمها ، وعمارتها بعد خرابها ؟ . فأراد الله أن يريه أن ما استبعده فى بناء القرية ، وفى إعادة المشرّدين من أهلها إليها ، أمر ليس بعيداً على قدرة الله ، وضرب له المثل فى نفسه ، بما هو أعظم مما سأل عنه سؤال حسرة وتلهف واستبعاد ، ليؤكد له قدرته على كل شىء ، فأماته الله مائة عام ، وأمات حماره ، وأبقى تينه وعنبه وشرابه بجواره ؛ وفى أثناء موته وجّه الله ملكاً عظيماً من ملوك فارس إلى بيت المقدس ، فأعاد عمارتها وبناءها ، بعد أن استمرت خراباً سبعين سنة ، وأعاد إليها السكان ، ودبت فيها الحياة والعمران ، وصارت أحسن مما كانت عليه ، فلما انقضت المائة السنة من موت عزير ، بعثه الله وأحياه كهيئته يوم موته ، ووجّه إليه ملكاً ، فسأله ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى : كم لبثت ؟ فقال عزير على التخمين والظن : مكثت يوماً ، ثم نظر فوجد أن الشمس لم تغرب ، فقال : أو بعض يوم ، فقال له الملك : بل لبثت فى موتك مائة عام ، فانظر لأمرين آخرين من دلائل قدرة الله تعالى : فهذا طعامك وهذا شرابك ، انظر إليهما ، لم يتغير شىء فيهما ، بعد أن مرّت عليهما هذه السنون الطويلة ، وهذا حمارك ، انظر كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله ، ليتبين لك ما ذكرناه من اللّبث المديد ، والمكث الطويل ، لتعتبر فى نفسك ، ولنجعلك عبرة وآية للناس من قومك ، حين ترجع إليهم فى المدينة العامرة ، وكانت خربة خاوية على عروشها ، ثم انظر إلى عظام الحمار التى أريناكها بالية متناثرة ، كيف نجمع أمامك أجزاءها ، ونردّها إلى أماكنها من الجسد ، ثم نكسوها لحماً ، ثم نعيد إليه الحياة أمامك ، لتشاهد بعينيك كيف نقدر على

إحياء غيرك ، كما علمت كيف أعدنا الحياة إليك بعد موتك؟ فلما تجلت له قدرة الله، وتبينَّ له كيف أعاد الله الحياة لميت أمامه، قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير ، لا يستعصى عليه أمر من الأمور؛ روى أنه ركب حماره ، وأتى محلّته ، فأنكر الناسَ ، وأنكره الناس، وأنكر المنازل ، ومضى على وهمٍ منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة، قد أدركت زمن عزير ، فقال لها : يا هذه ، أهذا منزل عزير ؟ قالت: نعم ، وأين عزير؟ لقد فقدناه وأنا فى شرخ الصبا ، وبكت بكاء شديداً ، فقال لها : أنا عزير ، فأنكرت عليه ، وقالت: إن عزيراً كان مستجاب الدعاء ، فإن كنت عزيراً حقًّا ، فادع الله يرد علىّ بصرى، فدعا ربه، ومسح على عينيها، فأعاد إليها بصرها، ورأت عزيراً كما فارقها منذ مائة عام، وأخذ بيدها، وقال لها : قومى بإذن الله. فقامت صحيحة ، فأسرعت إلى بنى إسرائيل، وأخبرتهم خبره، فاجتمعوا إليه، وقرأ عليهم التوراة عن ظهر قلب، فضلُّوا ، وقالوا : عزير ابن الله . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً

وهذه القصة دليل محسوس على البعث ، وفيها آية له ، جعلها الله لعزير فى نفسه ، وآيةٌ شاهدة أمامه فى حماره

(٣) الله تعالى يُرِى إبراهيم كيف يحيي الموتى

كان إبراهيم حنيفاً مسلماً ، مؤمناً بوحدانية الله ، وما كان من المشركين ، على يقين بأن الله يحيي ويميت ، فلم يسأله جلت قدرته عن الإحياء والإماتة ، لأن إيمانه بهما مقرر ، مقطوع به ، لكنه سأل عن كيفية الإحياء ، فسأل الله أن يريه ذلك عِياناً ، ليتأيد اليقين بالعيان ، ويظاهر الإيمان الاطمئنان ، ويشاهد بعينه ما يعلمه بقلبه ، وإذا كنا نشعر بلذة وارتياح، فى الاطلاع على على أجزاء الوسائل التى ابتكرها الإنسان ، ومشاهدة عملها وتركيبها ، مع أننا نقطع

عن يقين بالنظريات التى أنشئت تبعاً لها ، كالسيارة والطيارة والمذياع ، أليس مما يشتاق إليه إبراهيم ، وقد اتخذه الله خليلا ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، ونصره على النمروذ العاتى الجبار ، أن يسأل الله أن يريه آية من قدرته ، رؤية مشاهدة وعيان ، لترى قوة الله جلية ظاهرة . ويستجيب إلى ما ركّب الله فى طبيعة الإنسان من حب الاطلاع ، بالرؤية والعيان ، لما هو ثابت فى النفس والجنان .

من أجل هذا سأل إبراهيم ربه سؤال تشوق واستعطاف ، ودعاه دعاء تأدب واستكشاف ، أن يريه كيفية إحياء الموتى ، ويجعله ينظر بعينيه قدرته على الخلق ، حتى يتآزر العلم بالاستدلال والمشاهدة والنظر ، فإن ذلك أسكن للقلب ، وأهدى للبصيرة ؛ والعلم بالدليل مما يجوز معه الجدال والتشكيك ، ولكن العلم بالمشاهدة ، مما يقطع ألسنة المكابرين ، ويأخذ الحجة على الكافرين المعاندين ؛ ولما كان الله يعلم إيمان إبراهيم وحسن اعتقاده ، سأل سؤال تقرير لما فى نفسه ، وتحقيق لما ينطوى عليه ضميره ، فقال : أو لم تؤمن؟ قال إبراهيم : بلى قد آمنت ، وأنت تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك .

ثم إن الله أمره أن يأخذ أربعة من الطير ، قيل إنها طاوس وديك وغراب وحمامة . وأن يَصيرَهُنَّ ويضمهن إليه ، ويجمعهن ويُملهن نحوه ، ليتحقق بيديه ونظره من أنواعها وألوانها وحجمها ، ويتأمل أشكالها وألوانها ، ويستيقن من معرفتها ، ثم يقطعها قطعاً ، ويخلط جميع أجزائها المقطعة ، ودمائها وريشها ، ثم يجعل على كل جبل من الجبال التى حوله بعضاً من أجزائها المختلطة ، ثم يدعوهن ، ويقول لهن : تعالين بإذن الله ؛ فلما فعل ما أمره الله به ، جعل كل جزء منها يطير نحو صاحبه ، وصار الدم إلى الدم ، والريش مع الريش ، حتى صارت كما كانت أولا ، وأقبلت نحوه مسرعات ، تمشى مشياً ، وتطير طيراناً ؛ فلما رأى إبراهيم بعينى رأسه ، كيف أعاد الله للطير الحياة بعد الموت كما سأله ،

قال له : أعلم أن الله جل شأنه ، عزيز غالب على أمره ، لا يعجزه شيء ، حكيم فيما يفعل وفيما يذر .

وهذه القصة أيضاً تدل على فضل إبراهيم عليه السلام ، وعلو مكانته عند الله ، ويُمْن الضراعة فى الدعاء ، وحسن الأدب فى السؤال ، حيث أراه الله فى الحال ما سأله ، على أيسر ما يكون ، وأرى عزيراً ما أراه ، بعد مائة عام .

(٤)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ، أَصَابَهَا وَابِلٌ، فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى سبيل الله	فى وجوه الخير ، وأعظمها الجهاد فى سبيل الله .
كمثل حبة	كمثل باذر حبة .
أنبتت سبع سنابل	أخرجت ساقاً تشعب منها سبعة أفرع ، بكل فرع سنبلة .
والله يضاعف لمن يشاء	يزيد أضعافاً من الخير والثواب لمن يشاء ، على حسب إخلاصه ، وجوده وتعبه .
واسع	لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة .
عليم	يعلم بنية المنفق ، ومقدار ما أنفق ، والطريق التى حصّل منها المال .
المنّ	أن يعتدّ على المنعم عليه بإحسانه ويفخر عليه به ، ويستوجب بذلك حقّاً عليه .
والأذى	أن يتطاول عليه بسبب إحسانه إليه .
ولا خوف عليهم	لا يخافون فى الدنيا والآخرة أى مكروه يقع بهم .
ولا هم يحزنون	لا يشعرون بالحزن على فوات أى مطلب فاتهم من مطالب الدنيا والآخرة .
قول معروف	عدم إعطاء السائل مع كلام لين تقبله النفس .

الألفاظ	شرحها
ومغفرة	واحتمال وستر لما وقع من السائل، من الإلحاف فى المسألة .
خير من صدقة يتبعها أذى	خير للسائل من عطاء مشوب بإهانة وأذى، وإذلال له .
والله غنى	لا يحوج عياله الفقراء ، فيرزقهم من طريق آخر ليس فيه أذى
حليم	لا يعاجل أصحاب المنّ والأذى بالعقوبة ، ولكنه يمهلهم كى يرتدعوا .
لا تبطلوا صدقاتكم	لا تضيعوا أجرها .
كالذى ينفق ماله رئاء الناس	مثل الذين ينفقون أموالهم مرائين للناس، لا قاصدين وجه الله .
ولا يؤمن بالله واليوم الآخر	ويكون حالهم كحال الكافر الذى لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً .
فمثله	فمثل هذا المرائى المنافق .
صفوان	حجر كبير أملس .
عليه تراب	عليه يسير من التراب كالغبار .
وابل	مطر عظيم .
صلداً	أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلا .
لا يقدرون على شىء مما كسبوا	لاينتفعون بشىء مما أنفقوا رياء ونفاقاً ، ولا يجدون له ثواباً .
والله لا يهدى القوم الكافرين	لا يهديهم إلى الخير والرشاد .

الألفاظ	شرحها
وتثبيتاً من أنفسهم	وتيقناً من أنفسهم لهم ، على إنفاق ذلك فى طاعة الله ، وأنه يثيبهم عليها .
بربوة	بأرض مرتفعة طيبة .
فآتت أكلها	فأعطت ثمرها الذى يؤكل .
ضعفين	أعطت ضعفى ثمر غيرها من الأرض .
فطل	الطل : القطر الخفيف المستدق ، أى أضعف المطر ، أو الندى .
إعصار	ريح شديدة ترتفع ، فيرتفع معها غبار : الزوبعة .

الجهاد والإنفاق

جعل الله عزة المسلمين والحياة الكريمة للمؤمنين فى أمرين :

(ا) الجهاد ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وقتال المعتدين على أوطانهم ، الغاصبين لحقوقهم .

(ب) إنفاق المال فى سبيل الله ، أى فى وجوه الخير ، كمساعدة الفقراء ، وصلة الأقارب ، وإقامة منشآت البر ، كمعاهد التعليم ، ودور العلاج ، والمستشفيات ، والتمريض ، والإسعاف ، وتزويد المجاهدين بالسلاح والمئونة والعتاد .

ولما كان من طبيعة الإنسان أن يحرص على الحياة وعلى المال ، وهما أعز شىء عنده ، وليس من الهيِّن بذلهما إلا بعوض ، هو خير منهما وأبقى ، فقد قص الله قبل هذه الآيات قصصاً من أخبار الأمم التى باءت بالذل والهوان ، لقعودها عن القتال ، وحرصها على المال ، ولم ينجها من الموت أو الفقر جبن أو بخل ، وهذه القصص تقطع بأن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأن الله سيبعث عباده

يوم لا ينفعهم فيه مال ولا بنون ، حتى ينفقوا من أموالهم فى سبيل البر ، ما يجدونه شفيعا لهم يوم القيامة .

عثمان وعبد الرحمن بن عوف يجهزان جيوش المسلمين

وقد نزل قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة . . . » الآية ، فى شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حث الناس على الصدقة ، حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاءه ، عبد الرحمن بأربعة آلاف ، فقال : يا رسول الله ، كانت لى ثمانية آلاف ، فأمسكت لنفسى وعيالى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت ! وقال عثمان : يا رسول الله : علىّ جهاز من لا جهاز له ، وجهز الجيش بألف بعير بأقتابها وأحلا سها ، وسمّى جيش غزوة تبوك هذه : جيش العُسرة ، لأن النبى ندب الناس إلى الغزو فى شدة القيظ ، وكان وقت إيناع الثمر ، وطيب الظلال ، فعسر ذلك عليهم وشقّ ، ولم يكتف عثمان بذلك ، بل جاء بألف دينار ، فصبها فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ يدخل يده فيها ويقلبها ويقول : ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم ، اللهم لا تنسى هذا اليوم لعثمان ، فعَلاَ ذلك ولم يكد يخطر ببالهما شىء من المن والأذى ، فنزل قوله تعالى : « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مجمل المعنى

١ — مثل الذين ينفقون أموالهم فى وجوه البر والخير ، من جهاد فى سبيل عزة المسلمين ، وإعطاء المحتاجين ، وإسعاف المصابين ، وعلاج المرضى ، وتعليم

الجاهلين ، وتدبير الأعمال للمتعطلين ، فى أن الله يضاعف أجرهم بمقدار سبعمائة ضعف لما أنفقوا — كمثل باذر حبة فى أرض طيبة ، تعهدها بالرعاية والسقى ، فأخرج الله له ساقها قويةً ، وتفرع منها سبع شعب ، فى كل شعبة سنبلة ، وفى كل سنبلة مائة حبة ، والله يزيد لمن يشاء من المنفقين المتصدقين فوق هذه الأضعاف أضعافاً من الأجر والثواب لا حد لها ، على حسب جوده وإخلاصه ، وفضل الله واسع ، لا يضيق على من يشاء أن يتفضل عليه بمضاعفة الأجر والثواب ، وهو عليم بنية المنفق ، وبقدر ما أنفق ، وبالطريق الذى كسب منه المال ، فيثيبه على قدر ما يستحق .

٢ — والذين ينفقون الأموال فى وجوه البر والخير وفى سبيل الله ، قاصدين بإنفاقهم وجه الله ، مبتغين ثوابه ورضاه ، لا يريدون ممن أنفقوا عليهم جزاء بوجه من الوجوه ، ولا يتبعون الإنفاق منًّا عليهم ، ويتناسون الإحسان إليهم ، فلا يذكرونه لهم ، ولا يفخرون به فى مجالسهم ، ولا يؤذونهم بقول أو عمل ، كأنْ يقول منعم لمن أنعم عليه : لقد أحسنت إليك ، أو أن لى فضلا عليك ، أو كيف تجرؤ علىَّ وأنت مغمور بنعمتى ؟ وغير ذلك مما يقوله من يمنون على الناس إن أعطوهم ، ويؤذونهم لأنهم أحسنوا إليهم ، قال أسامة بن زيد : لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله لا تسلم عليه — فمن أنفق فى سبيل الله ، ولم يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى ، فقد كتب الله له الجنة أجراً ، وآمنه من الخوف والهول يوم القيامة ، وأذهب عنه الحزن على الدنيا ، وسر قلبه بالآخرة .

٣ — والصدقة المتبوعة بأذى ، تعتبر صدقة فى ظاهرها ، وهى ليست شيئاً فى حقيقتها ، يحبط الله أجرها ، ولا يثيب عليها ، وخير منها ، بل أولى وأمثل ، عدم الإعطاء مع قول معروف ، وردٌّ جميل للسائل ، بكلمة طيبة تقع فى نفسه موقعاً حسناً ، ومغفرة وعفو لما يصدر عنه من إلحاف فى المسألة ، وإلحاح على المسئول ، ومضايقة له ، هذا الرد الجميل مع

عدم الإعطاء خير عند الله وله ثواب ، أما الصدقة التى يتبعها الأذى فلا خير فيها ولا ثواب ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « الكلمة الطيبة صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » ؛ والله غنى عن الذين يتبعون إنفاقهم منًّا وأذى ، لا يحوج عياله الفقراء إليهم ، ويرزقهم من طريق آخر لا يؤذى نفوسهم ، ولا يجرح عزتهم ، حليم لا يعاجل أصحاب المن والأذى بالعقوبة ، وإزالة النعم ، فهو القادر أن يجعلهم هم الفقراء ، ويجعل الفقراء أغنياء

٤ - يناديكم الله أيها المؤمنون ، وينهاكم عن إحباط أجر الصدقات ، وتضييع ثواب الإنفاق ، بالمن والأذى ، فيكون شأنكم فى ذلك شأنَ من ينفق ماله رياء وسمعة ، ليقال : إنه سخى كريم ، ويثنى عليه الناس ويحمدوه ، وشأنَ الكافر الذى ينفق المال مباهاة ووجاهة ، ولغايات دنيوية ، لا لدافع الإيمان بالله فى الدنيا ، والخوف منه فى الآخرة ؛ وقد ضرب الله مثلا لمن سقط أجر صدقاتهم ، ولم يثابوا على الإنفاق بسبب المن والأذى والرياء والكفر بالصفوان ، أى الحجر الكبير الأملس، الذى تغطيه طبقة من التراب ، فيقع فى ظن من يراه أنه أرض طيبة منبتة ، فإذا أصابه وابل ، ووقع عليه مطر شديد ، أذهب عنه التراب ، وظهر صلداً لا يصلح للإنبات ، وأخلف ما ظنه الظان حينما رآه وعليه التراب ، كذلك هؤلاء الذين أنفقوا رياء أو منًّا أو كفراً ، يرى الناس أن لهم إنفاقاً وصدقة ، كما يرون التراب على الصفوان، فيظنون أن لهم بما أنفقوا ثواباً ، فإذا كان يوم القيامة انكشفت نياتهم ، وذهب ثوابهم ، كما ذهب الوابل بما كان عليه من التراب ، ولم ينتفعوا بشىء مما أنفقوا بالمن أو الرياء أو الكفر ، ولم يجدوا ثوابه عند الله ، والله لا يهدى الكافرين إلى الخير والرشاد .

٥ — فى الآية السابقة ضرب الله مثل من أنفق ماله رئاء الناس فحبط ثوابه ، وضاع أجره ، بصفوان مغطى بتراب ، سقط عليه المطر ، فأزال التراب ، وكشف عن حجر صلد لا يخرج زرعاً ولا ثمراً ، وفى هذه الآية يضرب الله مثلا محسوساً ، مقابلا للآية السابقة ، للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، قاصدين بالإنفاق وجهه ، طالبين رضاءه ، منبعثين للإنفاق بتثبيت وإيمان ويقين من أنفسهم ، ليس لهم دافع أو باعث إلا طاعة الله وطلب ثوابه — ضرب الله مثل هؤلاء — فى أن الله يضاعف أجرهم ، ويزكى عملهم ، ويجعله فى الدنيا والآخرة أبهى عملا ، وأحسن مدّخراً — بصاحب بستان أورقت فروعه وأزهرت ، وامتدت أغصانه وأثمرت ، والتفّت أشجاره وأورقت ، فوق ربوة عالية قليلا ، وقد رق نسيمها ، وراق منظرها ، وطابت تربتها ، وأخصبت أرضها ، فإذا أصابها طلّ ، أى مطر ضعيف ، وقطر خفيف ، كفاها سقياً ، لكرم أرضها وطيبها ، وإذا أصابها وابل أى مطر شديد ، سقاها ولم يفسدها ، وأزهى أشجارها ولم يتلفها ، فأعطت ثمارها ضعفين ، أى ضعفاً بعد ضعف ، وجادت من أكُلها بأضعاف مضاعفة ، بالنسبة لغيرها من الأرَضين وأربت كثيراً طيباً ، كما يربى الله نفقات المخلصين ، سواء أكانت قليلة أم كثيرة ، ما دام يطلب بها رضا الله تعالى ، والله يرى أعمالكم كثرت أو قلت ، ويعلم نياتكم فيها من رياء أو إخلاص ، فيحبط أجر المرائين ، ويضاعف أجر المخلصين .

٦ — والآية الأخيرة تمثيل لمن ينفقون الأموال رياء ، ولمن يفعلون الخيرات ، ويعملون الطاعات ، ثم يختمون كل ذلك بإساءات ، فلا يثابون يوم القيامة على ما أنفقوا ، ولا يجزون بما فعلوا ، ولا يستطيعون مرداً أو استدراكاً لما فاتهم ، فيبقون فى ندم وحسرة .

قال ابن عباس : إن هذا مثل ضربه الله للمرائين بالأعمال ، يبطل ثوابهم يوم القيامة ، وهم فى أشد الحاجة إليه ، كمثل شيخ كبير ، كان له بستان فيه من كل الثمرات ، وله صبية صغار محاويج ، ، لا يقدرون على عمل أو كسب ، فأصاب البستان ريح عاصف ، فيه نار أحرقت أشجاره ، وأذهبت ثماره ، فى وقت لا يستطيع فيه العمل ، ولا يقدر صبيته على كسب ، فيندم ، ولا يفيده الندم .

ومعنى الآية : لا يحب أحدكم أن يفعل الخير ، ويعمل عملا طيباً ، وينفق المال ، فإذا جاء يوم القيامة لم يجد له ثواباً على ما عمل وما أنفق ، رياء ومنًّا ، وتفاخراً وتظاهراً ، فيندم ويتحسر ، ويكون كصاحب بستان فيه نخيل وأعناب ، وفيه كل الثمرات ، أشجاره مورقة ، وظلاله وارفة ، تنساب تحتها المياه انسياباً ، وتجرى بينها الأنهار جرياناً ، فيبهج النفس مرآه ، ويروق العين منظره ، وقد أصابه الكبر ، وأدركته الشيخوخة ، وله صبية صغار محاويج من بنات وبنين ، لا قدرة لهم على الكسب ، فكانت معيشته ومعيشة ذريته من ذلك البستان ، فأرسل الله عليه ريحاً شديدة فيها نار فأحرقته ، وليس له من القوة ما يعيد غرسه ، ولم يكن فى استطاعة ذريته أن تعينه لضعفهم ؛ كمثل ذلك يضرب الله لكم الأمثال ، ويبين الآيات ، لتتفكروا وتتنبهوا إلى زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها .

(٥)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ . وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من طيبات ما كسبتم	من خيار ما حصلتم عليه بالكسب .
ومما أخرجنا لكم من الأرض	ومما جعلناكم قادرين على إخراجه من الأرض ، من الزرع والمعادن والرِّكاز .

الألفاظ	شرحها
ولا تيمموا الخبيث	ولا تقصدوا الردىء مما عندكم .
منه تنفقون	تخصونه بالإنفاق منه فى سبيل الله .
ولستم بآخذيه	وأنتم لا ترضون أن تأخذوه فى حقوقكم ، أو ديونكم التى لكم على الناس .
إلا أن تغمضوا فيه	إلا أن تتساهلوا فيه ، لأن رداءته خفيت عليكم وقت أخذه .
غنى	مستغن عن تصدقكم على الفقراء بالردىء .
حميد	مستحق على كل حال لأن تحمدوه على ما أعطاكم
يعدكم الفقر	يخوفكم ويحذركم الفقر إذا تصدقتم .
ويأمركم بالفحشاء	ويغريكم بالبخل إغراء الآمر ، والفحشاء هنا : البخل
والله يعدكم مغفرة منه	والله يعدكم ويبشركم إذا تصدقتم ، أن يغفر لكم ذنوبكم .
وفضلا	ويعدكم أن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم فى الدنيا ، وأعظم ثواب فى الآخرة .
واسع	يوسع فى الرزق والثواب على من أنفق .
عليم	يعلم أفعالكم ونياتكم .
الحكمة	طاعة الله ، والفقه فى الدين ، والعمل به .
ومن يؤت الحكمة	ومن يؤته الله الحكمة .
يذكر	يتذكر .
أولو الألباب	أصحاب العقول السليمة .
يعلمه	يعلم كل نفقة صغيرة أو كبيرة ، ويعلم كل نذر فى طاعته أو معصيته .

الألفاظ	شرحها
وما للظالمين من أنصار	ليس للظالم الذى يمنع الصدقات ، أو ينذر المال أو ينفقه فى المعاصى ، من ناصر ينصره ، ويمنعه من عقاب الله .
إن تبدوا الصدقات	إن تظهروا الصدقات التى تعطونها .
فنعما هى	فنعم شيئاً الصدقات التى تظهرونها .
وإن تخفوها	وإن تعطوا الصدقات خفية .
وتؤتوها الفقراء	وتعطوها الفقراء ، عالمين بوصولها إليهم فى حال إخفائها .
فهو خير لكم	فإخفاء الصدقة على هذا الوجه خير لكم ، لأنه يرفع عنكم مظنة التظاهر .
ويكفر عنكم من سيئاتكم	والتصدق يكفر عنكم بعض سيئاتكم .
بما تعملون	بما تعملونه من إخفاء الصدقات وإظهارها .
خبير	عليم بما خفى وما ظهر من كل ما تعملون .

مجمل المعنى

١ — لما نزل الأمر بالصدقة ، كان بعض المسلمين يجىء بقنو التمر الجيد : (السباطة) ، ويعلقه فى المسجد ، ليأكل منه المحاويج ، فجاء بعض الصحابة بأقناء فى بعضها حشف ، وفى بعضها شيص ، وفى بعضها ردىء ، وهم يرون أن ذلك جائز ، وأن صدقتهم مقبولة ، فنزلت الآية : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

٢ — والمناسبة بين هذه الآية والآيات التى قبلها واضحة ، فإن الآيات السابقة جاءت مبينة فضل النفقة فى سبيل الله ، من وجوه البر المتعددة ، مقبحة

صدقة المنّ والأذى والرياء ، وجاءت هذه الآية مكملة لآداب الإنفاق إلى جانب ما تقدم ، حتى يكون مقبولا عند الله ، وهو أن يكون ما ننفق من الجيد المختار مما نكسبه من أى عمل مشروع ، سواء أكان تجارة أم صناعة أم غيرها ، أو مما نستخرجه من الأرض بالزرع أو التعدين ، أو مما نعثر عليه من كنوز فيها .

٣ — يأمركم الله أيها المؤمنون أن تخرجوا صدقاتكم من أجود ما كسبتموه من حلال ، ومن خير ما تخرجونه من الأرض ، فعليكم إذا ربحتم مالا ، ونتجتم شيئاً من عمل فى تجارة أو صناعة أو حرفة أو مهنة ، أو أخرجتم خيراً من الأرض زرعاً أو ثمراً أو حباً ، أو خشباً أو معدناً ، أو عثرتم فيها على كنز — عليكم أن تتصدقوا منه ، وأن تنفقوا فى سبيل الله مما أنعم عليكم من ذلك ، على أن تكونوا حصلتم عليه من طريق حلال ، وتخيرتم من طيبه وجيده ، فقدمتموه صدقة .

٤ — وينهاكم الله عن أن تعمدوا إلى ردىء ما عندكم ، وخبيث ما لديكم ، من مال أو كساء ، أو طعام أو ثمار أو أثاث ، فتخرجوا منه صدقاتكم ، وتخصصوا منه نفقتكم فى سبيل الله ، فإنكم لا تقبلون أن تأخذوا هذا الردىء فى حقوقكم ، أو ديونكم التى لكم عند الناس ، وتعمدون أن تتقاضوها من الجيد الممتاز ، ولا ترضون أن تأخذوا الردىء لأنفسكم فى حقوقكم أو ديونكم ، إلا أن تغمضوا أو تتساهلوا فى أخذه ، لأنكم لم تتحرّوا الدقة عند أخذه ، أو لم تجدوا غيره ، أو لم تعرفوا ما فيه من رداءة وقت أخذه ، فكيف تعطون حقوق الفقراء عليكم من خبيث ما لديكم ، أو ردىء ما عندكم ؟ ألا فلتعلموا أن الله الذى وسع عليكم من فضله ، غنى عن صدقاتكم التى تقدمونها من الردىء الخبيث ، ولن يقبلها الله منكم

لعياله الفقراء ، مستحقٌ لأن تحمدوه على نعمه ، وتعترفوا بفضله ، فتجعلوا صدقاتكم من خير ما عندكم .

٥ - الشيطان شر خلق الله من إنس وجن ! ممن يغوون ويضلون عن سبيل الله ، وشيطان النفس هواها الذى يأمرها بالسوء ، ويزين لها الشر ، والشيطان يخوفكم الفقر أيها الناس ، فيمنعكم من الصدقات ، ويقبض أيديكم عن الإنفاق ، ويغريكم بالبخل والفحشاء إغراء الآمر لكم ، المتسلط على نفوسكم ، والله يعدكم ويبشركم أنكم إذا أنفقتم من طيبات ما كسبتم ، أن يغفر لكم خطاياكم ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، وأن يخلف عليكم من فضله خيراً مما أنفقتم فى الدنيا ، ويضاعف لكم الثواب فى الآخرة ، وهذا وعد من الله ، والله لا يخلف الميعاد ، وهو واسع الفضل ، يبسط الرزق والثواب للمحسنين ، عليم بنيات المنفقين المتصدقين .

٦ - والله يهب الحكمة لمن رضى عنه من عباده ، ولمن شاء له السعادة فى الدنيا والآخرة من خلقه ؛ والحكمة هى الاهتداء إلى صواب القول ، وخير العمل ، وكسب العلم ، والتوفيق إلى طاعة الله ، وفهم دينه ، والعمل بشريعته ، ولا شك أن من آتاه الله ذلك ، فقد جمع بين سعادتى الدنيا والآخرة ، وأوتى خيراً كثيراً ، وما يتذكر ذلك إلا أصحاب العقول السليمة

٧ - ولقد بيّن الله لكم حلال الإنفاق وحرامه ، والصدقات المقبولة والمردودة ، فكل نفقة أنفقتموها - قليلة أو كثيرة - يعلم الله مقصدكم فيها ، وغرضكم منها ، إن كان فى سبيل الله ، أو فى سبيل الشيطان ، كما يعلم كل نذر نذرتموه ، إن كان فى طاعته أو فى معصيته ، فيثيبكم على ما أنفقتم فى سبيله ، وما نذرتم فى طاعته ، ويعاقبكم على ما أنفقتم فى سبيل الشيطان ، وما نذرتم فى معصية الله ، وليس للظالمين الذين يمنعون الصدقات ، وينفقون

المال فى سبيل الشيطان ، وينذرون النذر فى المعصية ، من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم عقاب الله وعذابه .

٨ — وعليكم فى إظهار صدقاتكم ، وإخفائها ، أن تستهدفوا الخير ، وتتجهوا إلى غاية البر ، فإذا كان فى إظهار صدقاتكم حث لغيركم على أن يتصدق مثلكم ، وإبراء لذمتكم ، وإعلام للناس بأنكم آتيتم الفقراء حقهم فى أموالكم ، وأخرجتم الصدقات من طيبات ما عندكم ، دون أن يكون فى ذلك مظهر للرياء أو المن أو الأذى ، فنعم عملا صدقاتكم الظاهرة المبيَّنة ، أما إذا أخفيتموها إبعاداً لكم عن مظنة الرياء ، أو إبقاء على تعفف الفقراء ، وحفظاً لكرامتهم ، وعدم تأذيهم بظهور احتياجهم إلى صدقاتكم ، ووثقتم من وصولها كاملة إليهم فى خفية وستر ، فإن إخفاءها خير لكم ، لأنه يرفع عنكم مظنة التظاهر ، ولأنها تؤدَّى للفقراء وكرامتُهم مصونة ، فتطيب بها نفوسهم ، ولا تؤذى شعورهم ، والله يغفر لكم من ذنوبكم ، بالصدقات ظاهرة وخفية ، ويكفر بها بعض سيئاتكم ، وهو بما تعملونه من إبداء الصدقات وإخفائها ، خبير بما تنطوى عليه أنفسكم ، عليم بما خفى وما ظهر من أعمالكم .

(٦)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ، لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليس عليك هداهم	لا يجب عليك أن تجعلهم مهتدين . وإنما عليك البلاغ .
يهدى من يشاء	يرشد إلى الإسلام من يريد .
من خير	من مال حلال .
فلأنفسكم	فثوابه عائد على أنفسكم .

الألفاظ	شرحها
وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله	وليست النفقات التى تنفقون إلا طلباً لثواب الله .
يوف إليكم	تُعطوا أجره أضعافاً مضاعفة .
لا تظلمون	لا تُبخسون ولا تنقصون على الإنفاق من ثوابكم شيئاً .
للفقراء	اجعلوا ما تنفقون للفقراء .
أحصروا فى سبيل الله	منعوا من الكسب لاشتغالهم بالجهاد فى سبيل الله .
ضرباً فى الأرض	سعياً فى الأرض لكسب الرزق .
يحسبهم الجاهل أغنياء	يظنهم من يجهل حالهم أنهم مستغنون .
من التعفف	لأجل تعففهم ، وامتناعهم عن سؤال الناس .
تعرفهم بسيماهم	سيماهم : علامتهم ، أى تعرفهم بما يظهر عليهم من اصفرار الوجه ورثاثة الثياب .
إلحافاً	ملحين بشدة فى السؤال .
بالليل والنهار	فى كل وقت .
سرًّا وعلانية	مسرين ومعلنين ، أى فى جميع الأحوال .

مجمل المعنى

١ — لا يجب عليك أيها الرسول أن تجعل الناس مهديين إلى اتباع ما أمروا به من المحاسن والطاعات وكريم الخصال ، وترك ما نهوا عنه من القبائح والمعاصى وسوء الأفعال ، وإنما الواجب عليك أن تبلغهم الأوامر والنواهى ، وترشدهم إلى الخير ، وتحثهم عليه ، وتنهاهم عن الشر ، وتردعهم عنه ، بما أوحينا إليك من الآيات والذكر الحكيم ، أما الهدى فإنه هدى الله يهدى به

من يشاء هدايته ، فيتبع الخير ، ويسلك طريق الحق والرشاد ، ولا يمنع المسلمين إصرار فقراء المشركين على الكفر ، وعدم اهتدائهم إلى الإيمان ، أن يكونوا خيِّرين ، يعطونهم الصدقات ، ويؤتونهم النفقات .

٢ – روى أن أناساً من المسلمين كانت لهم أصهار وأقارب من فقراء المشركين ، فامتنعوا عن أن ينفقوا عليهم ، حتى يحملهم الاحتياج والفقر إلى اعتناق الإسلام ، فكره الله أن يُكْرَهَ إنسان على الدخول فى الإسلام تحت ضغط العوز والفاقة ، كما كره أن يكون اختلاف الدين مقطِّعاً لأواصر التراحم والتعاطف بين بنى الإنسان ، ونزل قوله تعالى : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء » ، أى ليس عليك هدى من خالفك ، حتى تمنعهم الصدقة ، لتحملهم على الدخول فى الإسلام ، والمقصود من جواز إنفاق المسلمين على غير المسلمين ، إنما هو من صدقة التطوع ، وأما الصدقة الواجبة ، فإنما تنفق على المسلمين فقط ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم ، فأردها على فقرائكم » ؛ أى الزكاة الواجبة .

٣ – وأى شىء تنفقوه من مال حلال لنصرة الدين ، أو لمساعدة المحتاجين ، أو لإقامة مشروع للبر والخير ، فأنتم تنفقونه لأنفسكم ، لا ينتفع به غيركم ، فلا تمنوا على من أعطيتموه ، ولا تؤذوه ، ولا تخرجوا نفقتكم من خبيث ما تملكون ، كإعطاء الفقير درهماً زائفاً ، وليست النفقة التى يقبلها الله منكم ، إلا التى تطلبون بها ثواب الله ، وتبتغون بها مرضاته ، فإذا صاحبها منٌّ أو أذى أو رياء ، فلا يقبلها الله منكم ، ولا يثيبكم عليها ؛ وأى عذر لكم فى ألا تنفقوا النفقة الطيبة ، وتتصدقوا بالمال الحلال على أحسن الوجوه وأفضلها ، والله تعالى يوفر لكم عليه الأجر مضاعفاً ،

ويوفيكم من الثواب بأكثر مما أنفقتم ، ولا تبخسون من أجركم شيئاً ، ولا تنقصون من ثوابكم جزءاً ، ولا تظلمون فتيلا ؟

٤ — وقد خص الله الفقراء المجاهدين باستحقاق النفقة قبل غيرهم ، لقوله تعالى : "للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله" أى اجعلوا النفقة أولا للفقراء الذين منعهم الجهاد فى سبيل الله ، من التقلب فى الأرض ، وأقعدهم حبس أنفسهم للقتال ، عن السعى فى طلب الرزق ، وقد رضوا بما هم فيه من الجهد والضنك والحاجة ، وأبت عليهم قناعتهم أن يطلبوا المعونة من أحد ، فانطووْا على أنفسهم ، ولزموا السكوت عن الناس ، وقد حسب من يجهل حالهم ، أن امتناعهم عن السؤال إنما كان عن غنى ، لأن من شأن الغنىّ أن يتعالى عن السؤال ، وأن يتعفف عما فى أيدى الناس ، وإنك لتعرفهم إذا وجهت نظرك إليهم ، وتبينت حقيقة أمرهم ، بسيمى تدل عليهم ، وعلامة تفصح عن حالهم ، من صفرة الوجه ، ورثاثة الثياب ، لا يطلبون من أحد عطاء ، ولا يسألونه نفقة أبداً فى إلحاح أو فى غير إلحاح ، لأن التعفف صفة ثابتة لهم ، والله تعالى عليم بما ينفقه الإنسان من الخير وبمقداره ، والجهات التى يترتب عليها ثوابه .

قصة أهل الصُّفَّة

نزلت هذه فى أصحاب الصفة ، وهم أربعمائة رجل من المهاجرين ، هاجروا إلى المدينة ، ولم يكن لهم فيها مساكن أو عشائر ، أو أزواج أو أولاد ، فأقامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصُّفة : وهى سقيفة فى المسجد ، أمر ببنائها لهم ، فكانوا يستغرقون أوقاتهم فى العبادة ، وحفظ القرآن ، والحديث ، والتفقه فى الدين ، والجهاد ، إذ كانوا يخرجون فى كل سريّة بعثها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ومن كان من المسلمين لديه فضل من طعام أو تمر ، أتاهم به إذا أمسى ، حتى لا يراه أحد ، فيظن به رياء وتظاهراً ، ولا يراهم أحد ، فتتأذى نفوسهم ، ويغض من تعففهم ؛ ولقد وقف رسول الله عليهم يوماً ، فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : «أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه ، راضياً بما فيه ، فإنه من رفقائى فى الجنة » .

٥ — وقد أثنى الله على الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار فى السر والعلانية ، ووعدهم أن يدخر لهم عظيم الأجر والثواب ، وأن يذهب عنهم الحزن على ذهاب الدنيا ، لأنه أعد لهم السعادة والسرور فى الآخرة ، ذلك لأنهم يعمّون جميع أوقاتهم وأحوالهم بالخير والصدقة ، فكلما عرفوا حاجة محتاج ليلا ، سارعوا إلى قضائها ، ولم يؤخروها إلى النهار ، أو نهاراً ، سارعوا إلى قضائها ، ولم يؤخروها إلى الليل ، ويضعون الصدقة حيث تقع موقعاً حسناً من نفوس المتصدَّق عليهم ، سرًّا إن كان السر أحفظ لكرامتهم ، وأصون لماء وجوههم ، وعلانية إن كانت العلانية مما يحفز الناس إلى الصدقات ، ويحثهم على عمل الخيرات ؛ نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، تصدق بأربعين ألف درهم ، عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وعشرة فى السر ، وعشرة فى العلانية .

(٧)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

شرح المفردات

الألفاظ	شرحها
يأكلون	يأخذونه ويكسبونه ويفعلونه .
الربا	معناه فى اللغة : الزيادة ، والربا الحرام المقصود فى الآية : كل قرض يؤخذ به أكثر منه ، أو تجرُّ به منفعة .
لا يقومون	لا يقومون يوم يبعثون من قبورهم .
إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس	إلا قياماً كقيام المصروع ، الذى يضرب به الشيطان ويخبطه فى غير استواء ، فيقوم ويسقط من الجنون .
ذلك بأنهم قالوا . . .	ذلك العقاب بسبب أنهم قالوا : إن البيع يشبه الربا ، فكيف يحل البيع ويحرم الربا ؟
إنما البيع مثل الربا	إنما الربح الذى يحصل من المبيع عند البيع ، زائداً على الثمن الذى اشتُرى به ، مثل الفائدة التى تؤخذ زائدة على المثل فى الربا ، عند حلول الأجل .
وأحل الله البيع	وأحل الله البيع ، لأن فيه فائدة للبائع والمشترى .
وحرم الربا	وحرم الربا ، لأنه متلفة للأموال ، مهلكة للناس .
فمن جاءه موعظة من ربه	فمن بلغه وعظ من الله ، وزجر بالنهى عن الربا .
فانتهى	فامتنع عن الربا .
فله ما سلف	فله ما أخذ من الربا قبل التحريم ، ولا يرد منه شيئاً .
وأمره إلى الله	وأمر الربا قبل التحريم إلى الله فى العفو عنه ، وإسقاط التبعة فيه .
ومن عاد	ومن رجع إلى استحلال الربا وأخذه وفعله .
يمحق الله الربا	يذهب ببركته ، ويهلك المال الذى دخل فيه .

الألفاظ	شرحها
ويربى الصدقات	ينمى ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقات ، ويبارك فيه .
كفّار	عظيم الكفر ، لاستحلاله ما حرم الله من الربا ، وإصراره على تحليل المحرمات .
أثيم	متماد فى الإثم ، بالاستمرار فى أكله ، والانهماك فى ارتكابه .
اتقوا الله	اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ، بتركِكم ما بقى لكم من الربا ، وصفحكم عنه .
وذروا ما بقى من الربا	واتركوا ما بقى لكم عند الناس من بقايا الربا ، ولا تطالبوهم به بعد التحريم .
فإن لم تفعلوا	فإن لم تتقوا الله ، وتنتهوا عن الربا ، وتتركوا بقاياه التى لكم عند الناس .
فأذنوا بحرب من الله ورسوله	فاعلموا أنكم تتعرضون لحرب من الله ورسوله ، وسيحاربانكم ، ويعدانكم من أعدائهما .
وإن تبتم	وإن كففتم وندمتم على الربا .
فلكم رءوس أموالكم	فخذوا أموالكم التى أعطيتموها بلا زيادة عليها .
لا تَظلمون	لا تطلبون من المدينين زيادة على رءوس أموالكم فتظلموهم .
ولا تُظلمون	ولا يظلمكم المدينون بالمماطلة ، أو النقص من رءوس أموالكم .
ذو عسرة	ذو إعسار لا يقدر على أداء الدين .
فنظرة	فإنظار وإمهال وتأخير .
ميسرة	يسار وقدرة على أداء الدين .

شرحها	الألفاظ
وأن تتجاوزوا عن ديونكم على المعسرين ، وتتصدقوا بها ، خير لكم .	وأن تصدقوا خير لكم
احفظوا أنفسكم من عقاب الله يوم الحساب .	واتقوا يوماً
جزاء ما عملت من خير أو شر .	ما كسبت
لا تنقص حسناتهم ، ولا تزاد سيئاتهم .	وهم لا يظلمون

مجمل المعنى

١ – تضمنت هذه الآيات فيما تضمنت أحكام الربا ، وقد كان مباحا فى الجاهلية ، فنزل القرآن بتحريمه ، لأنه كسب لبعض الناس ، وخسران للآخرين ، ولأنه فائدة لا تحصل من عمل أو سعى ، ينتج منه تبادل منفعة بين الناس ، والربا الحرام : هو أن تبيع أو تقرض مالا أو حبوباً أو تمراً ، أو أي شيء ، على أن يرد إليك من جنسه ، أى ذهباً بذهب ، ونقداً بنقد ، وحباً بحب ، وقطناً بقطن ، مع زيادة على المثل ، أو منفعة تعود عليك من هذا القرض ؛ فلو أقرض إنسان آخر مائة جنيه مثلا مدة ستة أشهر ، على أن يردها عند الأجل مائة وعشرة ، أو على أن يردها إليه مائة فقط ، بشرط أن يوظف له ابنه ، أو يرقيه ، أو يساعده لدى الحاكم فى قضاء أمر من الأمور ، أو يعطيه حُجرة من منزله يسكن فيها مدة ، أو يعرّفه بشخص له عنده مصلحة ، فهذا كله ربا حرام .

فإذا اختلفت هذه الأصناف : أى ذهباً بقمح مثلا ، فبيعوا كيف شئتم ، إذا كان يداً بيد ، أى مقايضة من غير نسيئة أو تأخير ؛ وعن أبى سعيد الخدرى قال : جاء بلال بتمر بَرْنِىّ : وهو تمر جيد عذب الحلاوة ، فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أين هذا ؟ فقال بلال : من تمر كان عندنا ردىء ، فبعت منه صاعين بصاع ، لمطعمك يا رسول الله ، فقال عند ذلك : « أوْه ! عين الربا ، لا تفعل ، ولكن إذا أردت أن تشترى التمر الذى تريد ، فبع ما عندك منه بشىء آخر ، ثم اشتر بالثمن التمر الذى تريد » .

٢ – وقد كان من مزاعم العرب فى الجاهلية ، أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرعه ، وأن الجنىَّ يمسه فيختلط عقله ، فلذلك يقال جُن الرجل ، فصور الله حال المتعاملين بالربا حينما يبعثون يوم القيامة ، بصورة بشعة ، يعرفونها فى الدنيا ، وتتمثلها عقولهم مقيتة مخيفة – تلك الصورة هى أن الذين يتعاملون بالربا أخذاً أو إعطاء أو شهادة ، لا يقومون من قبورهم يوم البعث ، إلا فى حال من الصرع والفزع ، يقومون فيسقطون ، وينهضون فيقعون ، ويهمسون ويصرخون ، ويضحكون ويبكون ، كمثل شخص يخبطه الشيطان فى كل جزء من جسمه ، فيصيبه بمس وصرع ، وهذيان وجنون ، فيتحرك فى غير اتزان أو استواء ، ويهرف بما لا يعرف ، ويقول ما لا يعى ؛ وقد جعل الله تلك الحال للمُرْبين يوم القيامة ، لا لاختلال عقولهم ، أو لخبل أصابهم ، ولكنها سيمى لهم يعرفون بها بين أهل الحشر يوم القيامة ، تحقيراً لهم ، وسخرية بهم ، يبعثون وفى بطونهم ما أكلوا من الربا ، فتنتفخ وتثقل ، فلا يقومون إلا وقعوا ، ولا ينهضون إلا سقطوا . وإنما يبعثهم الله بهذه الحال الشنيعة عقاباً لهم ، لأنهم نظموا البيع والربا فى سلك واحد ، فقالوا : كما أنه يجوز بيع سلعة قيمتها خمسون قرشاً بمائة قرش ، كذلك يجوز أن تبيع خمسين قرشاً بمائة قرش ، وهذه دعوى ظاهرة البطلان ، لأن خمسين قرشاً ضائعة لا محالة فى الربا ، أما فى البيع فليست ضائعة ، لأن السلعة قد تسد حاجة عند المشترى ، وقد يرتفع ثمنها إلى ثلاثة أمثاله ؛ ولهذا أحل الله البيع ، لأن فيه فائدة للبائع والمشترى معاً ، وحرم

الربا ، لأنه متلفة للمال ، مَهلكة للناس ! فمن زجر نفسه ، وبلغه وعظ ربه ، فامتنع عن الربا ، فله ما أخذه منه قبل التحريم ، لا يرد منه شيئاً ، وأمْره فى العفو عنه ، وإسقاط التبعة فيه ، والعقاب عليه ، راجع إلى الله ، لأنه هو الذى يعلم : أكان انتهاؤه عن الربا صادراً عن قبول الموعظة ، وصدق النية ، فيعفو عنه ، ويغفر له ، أم كان لغير ذلك ؟ أما الذين يرجعون إلى أكل الربا ، وأخذه واستحلاله ، فهم لا شك من أصحاب النار ، ماكثون فيها ، مقيمون بها .

٣ — والله سبحانه وتعالى ، يمحق الربا ويذهب ببركته ، ويهلك المال الذى دخل فيه ، ولا يقبل من صاحبه صدقة ولا حجًّا ، ولا جهاداً ولا صلة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الربا وإن كثر ، فعاقبته إلى قُلّ » ؛ ويبارك فى المال الذى أخرجت منه الصدقات ، وينميه فى الدنيا ، ويضاعف لصاحبه الثواب فى الآخرة ، وهو جل شأنه لا يرضى عمن استحل الربا ، وقد وصفه بشدة الكفر ، لأنه أحل ما حرم ، ووصفه بالتمادى فى الإثم ، لاستمراره فى أكله ، وانهماكه فى أخذه .

٤ — وقد ادخر الله لعباده المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، واتبعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وهما أشرف العبادات ، وعمودا الدين ، وأقوى أركان الإسلام ، ورأس الأعمال الصالحة ، هذه فى المال ، وتلك فى البدن — ادخر الله لهم ثواباً عنده ، وأذهب عنهم الخوف مما هو آت ، والحزن على ما فات .

٥ — وقد خاطب الله المؤمنين ، مبيّناً لهم أنهم لا يتّصفون حقيقة بالإيمان ، إلا إذا تركوا ما نهاهم الله عنه من الربا ، عن اعتقاد فى قلوبهم ، وخشية من الله ، وأمرهم أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية ، وذلك بترك ما بقى لهم عند الناس من الربا ، الذى فعلوه قبل أن ينزل القرآن بتحريمه عليهم ،

وألا يطالبوهم به ، وأنذرهم وتوعدهم : أنهم إن لم يتقوا الله ، وينتهوا عن الربا ، ويتركوا البقايا التى لهم منه عند الناس ، فليوقنوا أنهم أعداء الله ورسوله ، وليعلموا أنهم فى حرب معهما ، ولا شك أنهم مهزومون ، أما إذا تابوا عن الربا ، وكفوا عن أخذه ، وندموا على فعله ، فلهم الحق فى أن يأخذوا منهم أصل ديونهم ، ورءوس أموالهم ، من غير ربح أو منفعة ، لا يطلبون من المدينين زيادة عليها فيظلموهم ، ولا يماطلهم المدينون أو ينقصون شيئاً من ديونهم فيظلموهم ، والله لا يرضى أن يُظلم أحد من عباده .

ثقيف لا تحارب رسول الله

وكانت ثقيف قد عاهدت النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلموا ، على أن مالهم من الربا على الناس فهو لهم . وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم ، فلما أن جاءت آجال رباهم ، بعثوا إلى مكة للاقتضاء ، وكانت الديون لبنى عبدة من ثقيف ، على بنى المغيرة المخزوميين ، فقال بنو المغيرة : لا نعطى شيئاً ، فإن الربا قد رفع ، ورفعوا أمرهم إلى عتَّاب بن أسيد ، فكتب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... » . الآية . فلما علمت ثقيف بنزول هذه الآية ، كفت عن طلب ما بقى لها من الربا ، وقالت : ما لنا بحرب الله ورسوله يدان .

الربا شر من الخمر

وقد جاء رجل إلى مالك بن أنس ، فقال : يا أبا عبد الله ، إنى رأيت رجلا سكران يتعاقر ، يريد أن يأخذ القمر ، فقلت : امرأتى طالق إن كان

يدخل جوف ابن آدم شرٌ من الخمر ، فهل طلقت امرأتى ؟ فقال مالك : ارجع حتى أنظر فى مسألتك ، فأتاه من الغد ، فقال له : امرأتك طالق ، إنى تصفحت كتاب الله وسنة نبيه ، فلم أر شيئاً شراً من الربا ، لأن الله أذن فيه بالحرب ، فقال للمُرْبين : فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

٦ — وإن وجد غريم من الغرماء معسراً ، لا يستطيع أن يدفع للدائن رأس ماله عند حلول الأجل ، فأمرُه فى ذلك أن يمهل ، ويؤخر اقتضاء دينه ، إلى أن يصبح فى حال من اليسار ، يستطيع معها أداء دينه ، وحينئذ يكون من حق الدائن أن يطالبه بدينه عليه ، ويأخذه منه عن طريق القاضى والحاكم بغير رضاه ، إن ماطل فى الدفع ، وخير لكم أيها الدائنون ، إذا كان غرماؤكم معسرين ، أن تتجاوزوا عن دينهم ، وتتصدقوا به عليهم ، وأنتم تعلمون أن التصدق برأس المال على الغريم المعسر ، خير لكم فى ثواب الله ، وتنمية أموالكم ، فمن الصواب أن تعملوا به ، ويجب أن تقوا نفوسكم عقاب الله يوم الحساب ، حينما ترجعون إليه ، وتقفون بين يديه ، ثم تنال كل نفس جزاءها على ما فعلت فى الدنيا ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لا ظلم لأحد بنقصان حسناته ، أو زيادة سيئاته ، وإنما الجزاء على حسب العمل ، قيل إن قوله تعالى : واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . . : نزلت قبل موت النبى بأيام ، ولم ينزل بعدها شىء ، وهى وعظ للناس ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توضع بين آيات الربا وآيات الدَّين .

(٨)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ، وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ، وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا؛ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ◦ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ، فَإِنْ أَمِنَ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّهُ ،
وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللّٰهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا
مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذا تداينتم	داين بعضكم بعضاً ، فكان أحدكم دائناً والآخر مديناً .
بدين	بدين لكم أو عليكم .
إلى أجل مسمى	إلى وقت معلوم معيّن بالسنة والشهر واليوم .
فاكتبوه	فأثبتوه بالكتابة ، وعينو مقداره وأجله وشهوده ، وجميع صفاته المبيّنة له .
وليكتب بينكم كاتب	ويفرض على من يعرف الكتابة ، ويطلب لها لإثبات الدين ، أن يجيب إذا لم يوجد غيره .
بينكم	كاتب يتوسط بين المتداينين ، ويكتب كلامهم ، ولا يكتفى بكلام أحدهما .
بالعدل	بالحق والعدالة ، فلايكتب لصاحب الحق أكثر من حقه أو أقل .

الألفاظ	شرحها
ولا يأب كاتب أن يكتب	ولا يجوز للكاتب أن يمتنع عن كتابة الدين ، إذا طلب منه فى موضع لا يجد فيه صاحب الدين كاتباً غيره .
كما علمه الله فليكتب	كما أفضل الله عليه فعلمه الكتابة ، لا يأب أن يكتب ، وليُفْضل كما أفضل الله عليه .
وليملل الذى عليه الحق	ولْيُمْلِ المدين على الكاتب مقدار دينه ووقت حلوله ، حتى يقر على نفسه به .
وليتق الله ربه	وليخش الله كل من الكاتب والملى ، لأنه خالقه ومربيه ، فلا يبخس الدين أو يزيد فيه .
ولا يبخس منه شيئاً	ولا ينقص المملى من الدين الذى عليه شيئاً .
سفيهاً	ناقص العقل ، مبذراً ، سيّئ التصرف فى المال ، لا يحسن الأخذ لنفسه ، ولا الإعطاء منها .
أو ضعيفاً	صبياً ، أو شيخاً كبيراً مختلا .
أو لا يستطيع أن يمل هو	أو غير مستطيع أن يملى بنفسه : لخرس ، أو جهل باللغة ، أو ثقل باللسان ، أو مرض .
فليملل وليه	فليمل الذى يلى أمره ، ويقوم مقامه ، من قيّم أو وكيل ، أو مترجم .
بالعدل	من غير نقص أو زيادة .
واستشهدوا شهيدين	واطلبو أن يتحمل الشهادة على ما جرى بينكم من المداينة شاهدان .
من رجالكم	من رجال المسلمين ، إذا كانت الخصومة بين المسلمين ، ويجوز أن يكونا من غير المسلمين ، اذا كانت الخصومة بينهم ، ولا تجوز شهادة الصبيان ، ولا أن تستقل النساء بالشهادة .

الألفاظ	شرحها
فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان	فإن لم يكن الشاهدان رجلين . فليشهد رجل وامرأتان .
ممن ترضون من الشهداء	ممن ترتضون شهادتهم ، لعلمكم بعدالتهم ، وحسن سيرتهم .
أن تضل إحداهما	لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة ، بأن نسيتها كلها ، أو نسيت بعضها .
فتذكر إحداهما الأخرى	فتذكر المرأة التى تعى الشهادة ، وتعرفها المرأة التى ضلتها ونسيتها .
ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا	ولا يمتنع الشهداء إذا دعاهم المتعاقدان أو أحدهما ، لتحملها ، أدائها .
ولا تسأموا أن تكتبوه	ولا تملُّوا لكثرة مداينتكم ، أن تكتبوا عقد الدين وأجله .
صغيراً أو كبيراً	سواء أكان الدين صغيراً أم كبيراً ، والعقد مختصراً أو مطولا .
إلى أجله	إلى الوقت الذى يتفق الدائن والمدين عليه .
ذلكم أقسط عند الله	كتابة الدين صغر أو كبر ، وإملاء المدين على الكاتب ، والإشهاد على الدين ، أعدل وأقوم عند الله .
وأقوم للشهادة	أصح وأحفظ للشهادة ، وأثبت لها ، وأعون على إقامتها .
وأدنى ألا ترتابوا	وأقرب ألا تشكوا فى جنس الدين ومقداره وأجله وشهوده .
إلا أن تكون تجارة حاضرة	إلا أن تتبايعوا بيعاً ناجزاً ، ببدلين حاضرين .

الألفاظ	شرحها
تديرونها بينكم	تتعاطونها يداً بيد .
فليس عليكم جناح ألا تكتبوها	فلا بأس إذا لم تكتبوا ، للبعد عن التنازع والنسيان .
وأشهدوا إذا تبايعتم	إذا تبايعتم هذا التبايع الذى لا تكتبونه ، فأشهدوا عليه ، كما تُشهدون فى المكتوب .
ولا يضار كاتب ولا شهيد	لا يُضرّ الكاتب بألا يعطى أجره ، ولا الشاهد بألا يعطى نفقة مجيئه وانتقاله ، ولا يَضُر الكاتب بكتابة ما لم يمل عليه ، والشاهد بالتحريف فى شهادته .
وإن تفعلوا	وإن يَضُر أو يُضر أحدهما .
فسوق بكم	معصية وخروج عن الطاعة لاحقة بكم .
ويعلمكم الله	ويعلمكم الله الأحكام المتضمنة لحقوقكم .
وإن كنتم على سفر	وإن كنتم مسافرين .
ولم تجدوا كاتباً	ولم تقدروا على أن تجدوا كاتباً تثبتون به دينكم .
فرهان مقبوضة	فاستوثقوا لها برهن يوازى قيمة الدين ، يأخذه الدائن من المدين .
فإن أمن بعضكم بعضاً	فإن ائتمن بعض الدائنين بعض المدينين ، ولم يستوثق منه بكتابة أو رهن
أمانته	دينه ، وسمى أمانة لائتمانه عليه بدون ارتهان أو كتابة .
وليتق الله ربه	وليخش الله ربه وخالقه ، فلا يخون الأمانة ولا يجحد الحق .

الألفاظ	شرحها
ولا تكتموا الشهادة	لا تخفوا أيها الشهود ما علمتموه ، ولا تكتموا أيها المدينين شهادتكم على أنفسكم .
ومن يكتمها فإنه آثم قلبه	ومن يخف الشهادة ويحبسها ، فإن قلبه الذى أخفاها منه يأثم ، ويتمكن فيه الذنب ، وهو أشرف أعضاء الجسم .
لله ما فى السموات وما فى الأرض	الله خالق السموات والأرض وما فيهما ، وهو مالك لما خلقه .

مجمل المعنى

١ — بيَّن الله فى الآيات السابقة تحريم التعامل بالربا ، وأباح للمربين أن يأخذوا رءوس الأموال التى كانت لهم على المدينين قبل التحريم ، إن كان فى فى مقدورهم أداؤها ، فإن كانوا معسرين لا يستطيعون أن يؤدوا رءوس الأموال وقت حلول أجل الدين ، فلهم أن يمهلوا ؛ ويؤخرهم أرباب الدين إلى ميسرة ، وفى هذه الآيات يبين الله حال التعامل بالدَّين ، وهو : كل معاملة يكون أحد القرضين فيها نقداً حاضراً ، والآخر فى الذمة نسيئة .

كتاب الدّين أمر مستحب

٢ — أيها المؤمنون : يأمركم الله أمر ندب واستحباب ، محافظة على مصالحكم ، وصيانة للحقوق بينكم ، أنه إذا داين بعضكم بعضاً بدين ، آخذاً أو معطياً ، إلى وقت مسمى معلوم ، كتوقيته بالسنة والشهر واليوم ، وقيده بالعلامات والدلائل والصفات التى تفيد العلم ، وترفع الجهل به — إذا تداينتم بدين كهذا ، يلزمكم أن تكتبوه ، أى تكتبوا الدين ، ونوعه ومقداره وشهوده ، وأجله الذى سميتموه بينكم ، وعينتموه لاستحقاق الوفاء .

كاتب الدّين لا يكون أحد الغريمين

٢ — ويجب أن يكتب وثيقة الدين كاتب آخر غير الغريمين ، وأن يكتب بالعدل ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا يثبت لصاحب الحق أكثر مما له ، أو أقل مما يستحقه ، ولهذا ينبغى أن يكون موثّق الدين ملماً بكتابة الوثائق ، أميناً عادلا ، ليس فى قلبه ولا قلمه موادّة أو ميل لأحد المتداينين ، ولا يجوز أن يمتنع كاتب الوثائق من الكتابة إذا طلبه صاحب الدين وأعطاه أجره ، ولم يوجد كاتب غيره ، أو وُجد ولكنه غيرُ موثوق به ، وذلك لأن إباءه وامتناعه عن الكتابة يضر بصاحب الدّين ، فليكتب ، ولا يأب أن ينفع الناس بكتابته ، كما نفعه الله بالتعليم ، وليحسن كما أحسن الله إليه ، وليفْضِل على الناس بكتابة ما يطلبون منه كتابته كما أفضل الله عليه بالعلم والمعرفة ، وفى هذا إشارة إلى أن المتعلمين فى الأمة عليهم أن يعلموا الجاهلين .

المدين هو الذى يملى الدين على الكاتب،

ليكون إقرارًا منه على نفسه

٤ — وقد أمر الله أن يملى المدين الذى عليه الحق على الكاتب ، مقدار الدين وأجله ، حتى يكون إقراراً منه على نفسه ، ولأن شهادة الشهود عليه تكون حقيقة لا ريب فيها ، إذا كانت قائمة على إقرار المدين ؛ ولما جعل الله للمدين الحق فى أن يملى هو على الكاتب ، وكان من طبيعة الإنسان أن يدفع الضرر عن نفسه ، ويخفف عنها ما فى ذمته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فقد أمره الله أمر إرشاد وتنبيه ، ووعيد وتخويف ، بأن يتقيه ويخشاه فى الإملاء ، فلا ينقص من الدين الذى يمليه على الكاتب شيئاً ، ولا يحذف من الشروط التى اتفقا عليها فى العقد شرطاً ؛ وإذا كان المدين سفيهاً ناقص العقل مبذراً ، لا يحسن التصرف فى المال ، ولا يعرف كيف يأخذ لنفسه أو يعطى غيره ، أو كان ضعيفاً صبيًّا صغير السن ، أو شيخاً كبيراً أضعفت عقله الشيخوخة ، أو كان غير مستطيع للإملاء بنفسه ، لخرس أو عِيٍّ ، أو جهل باللغة ، أو ثقل باللسان . فليقم بالإملاء عنه الولى ، وهو فى هذه الحالات القيّم أو الأب أو الوصىّ أو الوكيل أو المترجم — إملاء بالعدل ، لا زيادة فيه ولا نقصان

الاستشهاد على الدّين لازم ، للإثبات مع الكتابة

٥ — وقد جعل الله الاستشهاد على المداينة من وسائل التوثيق للحقوق ، وقطع المنازعات ، فأمرنا أمر إرشاد أن نطلب لأداء الشهادة على المداينات وقت إجرائها بيننا شاهدين ، إما أن يكونا رجلين ، أو رجلا وامرأتين من

المسلمين ، الذين نرتضى سيرتهم وأخلاقهم ، ودينهم وعدالتهم ، هذا إذا كانت المداينة بين المسلمين ، أما إذا كان المتداينان ، أو كان الذى عليه الحق غير مسلم ، فتجوز شهادة غير المسلمين ، ولما كانت المرأة سريعة النسيان ، فقد جُعل مع الرجل امرأتان ، مخافة أن تضل إحداهما وتنسى ، فتذكرها الأخرى بما نسيت ؛ ولم تذكر فى القرآن شهادة المرأة إلا فى التبايع والدَّين ، لأن الله قد كثَّر أسباب توثيق الأموال ، لحرص النفوس عليها ، وكثرة المشاحنة والخصومات فيها ، فوثقها تارة بالكتابة والشهادة ، وتارة بالإشهار ، وتارة بالرهن ، وتارة بالضمان ، وأدخل فى جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال ، ولا يجوز أن يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة وقت المداينة ، أو عن إقامتها أمام الحاكم ، إذا ما دعاهم هو أو المتداينان أو أحدهما لإقامتها ، بشرط أن يعطَوْا نفقة الانتقال ، وألا يعطَّلوا عن مهام صالحهم .

التوثيق بكتابة الدَّين مهما كانت قيمته ، خير للمتداينين

٦ — ولكثرة المداينات ، وتعدد المعاملات ، نهاكم الله عن أن تمَلُّوا من كتابة الدين ومقداره وشهوده ، حتى يظل مستقراً فى الذمة ، إلى وقت حلول أجله الذى أقر به المدين على نفسه ، سواء أكان الدين صغيراً أم كبيراً ، وسواء أكان عقد الدين مختصراً أم مطولا ، فإن الكتابة والإشهاد أعدل عند الله ، وأبعد لكم عن الجحود ، والطمع الذى يوقعكم فى ظلم تُعاقبون عليه ، وأصح وأحفظ وأثبت للشهادة ، وأعون على إقامتها ، وأقرب إلى اليقين وعدم الشك فى مقدار الدين وأجله وشهوده ، وقد استثنى من الأمر بالكتابة ، التبايع بتجارة حاضرة ، أى بيع ناجز ببدلين حاضرين ، يديره المتبايعون بينهم ، ويتعاطونه يداً بيد ، فلا بأس إذا لم تكتبوها ، للبعد عن مظنة التنازع والنسيان .

الاستشهاد ضرورى فى التبايع المكتوب وغير المكتوب

٧ — ولما كان الاستشهاد ضرورياً فى إثبات الدين والبيع ، فقد أمر الله به ، للتنبيه على ضرورته فى الدين المكتوب وغير المكتوب ، ولا يصح أن يقع ضرر على الكاتب بعدم إعطائه أجره ، ولا على الشاهد بعدم إعطائه نفقة انتقاله ، كما لا ينبغى أن يقع عليهما إساءة أو أذى من أحد الغريمين ، بسبب الكتابة أو الشهادة ، ولا يصح أيضاً أن يقع ضرر على أحد المتداينين من الكاتب ، بزيادة أو نقص فيما كتب ، أو من الشاهد بتحريف فى الشهادة ، أو بكتمانها ، فإن فعلوا ذلك ، فوقع من أحد المتداينين ضرر على كاتب أو شهيد ، أو وقع من كاتب أو شاهد ضرر على أحد المتداينين ، كان ذلك معصية ، وفسوقاً وخروجاً عن طاعة الله لاحقا بكم ، ويجب عليكم أن تتقوا الله ، لأنه يعلمكم جميع الأحكام المتضمنة لحقوقكم ، والله لا يخفى عليه شىء من أمركم ، لأنه يعلم كل شىء فى الأرض وفى السماء .

الرهن من أنواع الإثبات والتوثيق للديون

٨ — وقد تعرض للمتداينين أعذار مانعة من الكتابة ، فلا يجدون كاتباً يكتب بينهم وثيقة الدين ، كأن يكونوا مسافرين ، أو يكونوا فى قرية ليس فيها ذو معرفة وخبرة ، أو يكون المدين مضطراً لشراء سلعة بدين مؤجل ، والكاتب غير موجود ، وليس لديه من الوقت فسحة ينتظر فيها حضوره ، والأمر فى ذلك أن يستوثق الدائنون لدينهم برهن — أى يعطى المدين الدائن مرهوناً تساوى قيمته قيمة الدين أو أكثر ، ومعنى الرهن : احتباس العين

لدى الدائن، ليستوفى حقه من ثمنها ، أو من ثمن منافعها ، عند تعذر أخذه من الغريم ،وذكر السفر فى قوله : « وإن كنتم على سفر» : أى مسافرين ، إنما هو بيان لحال من أحوال إمكان التوثيق للدين بالارتهان ، وليس السفر شرطاً فى شرعيه الارتهان ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاماً إلى أجل، ورهنه درعاً له من حديد ، وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم تُوُفى ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعاً من شعير لأهله؛ . وإنما نصت الآية على حال السفر ، لأنه كان وقت التنزيل غالبَ الأعذار ، لكثرة الغزو ، والاغتراب فى الجهاد والفتح ، ويدخل فى معناه كل عذر كما بيّنا ؛ والرهن لا يلزم ولا يتم إلا بالقبض ، لصريح قوله تعالى : « فرهان مقبوضة » ، فإن كان المدين أميناً وثقة عند صاحب الدين ، فلم يستوثق منه بكتاب أو رهن ، فعليه أن يؤدى للدائن الذى ائتمنه حقه كاملا ، وقد جعل الله الوفاء بأداء الدين الذى توثق بالأمانة لا بالرهن والكتابة ، واجباً متعلقاً بذمة المدين ، ولم يجعل أمر الوفاء به من حق المدين فقط ، ولكنه جُعل أيضاً حقًّا لله ، وسماه أمانة ، لأن الدائن ائتمن ذمة المدين على ماله ، فلم يطلب منه كتابة أو رهناً ، وأردفه بأمر يتضمن الوعيد والتهديد ، وهو أمره المدين بتقوى الله صاحب الجلال والقهر والغلبة ، ربّه الذى خلقه ورباه ورعاه ، فهو مستحق أن يتقيه ويخشاه ، فلا ينقص من صاحب الحق شيئاً من حقه ، بل يعترف على نفسه بما فى ذمته ، ولا يكتم شيئاً منه ، كما نهى الشهود أن يكتموا الشهادة ، وأن يخفوا شيئاً مما علموه عن الدين ومقداره وأجله ، وتوعد كاتم الشهادة، سواء أكان شاهداً أم مديناً، بإثم يتمكن من قلبه، والقلب أشرف أجزاء الجسم ، وهو مركز الحياة ، وعليه يكون صلاح الجسم وفساده ، وهو موضع الإيمان والجحود ، ومتى أثم القلب ، أثم كل

شيء فى الإنسان ، والله عليم بكل ما يعمله الإنسان من خير أو شر ، فيحاسبه عليه ، وهو جل شأنه خالق السموات والأرض وما فيهما ، ومالك لهما ، وصاحب التصرف المطلق فيما خلق وما ملك ، فهو يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل يبدو للناس ويظهر ، وعلى ما لم يعملوه ، ولكن ثبت فى نفوسهم وعزموا عليه ، وأضمروه وأرادوه ، فيغفر لمن يشاء من أهل طاعته ، ويعذب من يشاء من أهل المعصية ، ويؤاخذ كلا بما كسبت قلوبهم ، والله قادر على كل شيء ، فيحاسب كلاً على ما عمل .

(٩)

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا، فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كل آمن	كلهم آمن ، أى الرسول والمؤمنون .
لا نفرق بين أحد من رسله	يقولون : نؤمن برسل الله جميعاً ، لا نفرق بين واحد والآخر ، بل نؤمن بهم كلهم .
سمعنا	أجبنا قولك ، واعتقدنا وجوب العمل به .

الألفاظ	شرحها
وأطعنا	ونفذنا أمرك ، وعملنا به .
غفرانك	نطلب أن تغفر لنا .
وإليك المصير	إليك المرجع بعد الموت يوم البعث .
إلا وسعها	إلا ما تتسع له طاقتها وقدرتها من الأعمال ، ولا تضيق به ، وتحرج فيه .
لها ما كسبت	تثاب وتنتفع بما كسبت وعملت من خير .
وعليها ما اكتسبت	تعاقب وتضر بما اكتسبت وارتكبت من شر .
لا تؤاخذنا	لا تعاقبنا .
إن نسينا أو أخطأنا	إن تركنا أمراً من أوامرك سهواً أو خطأ .
ولا تحمل علينا إصراً	ولا تلق علينا عبئاً وحملا ثقيلا من التكاليف الشاقة ، التى لا نستطيع أن ننهض بها .
كما حملته على الذين من قبلنا	كما ألقيته وكلفت حمله الأمم التى كانت قبلنا كاليهود .
ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به	ولا تنزل علينا من البلاء والعقوبة والتكاليف الشاقة ، ما لا تفى به طاقتنا البشرية .
واعف عنا	وامح ذنوبنا .
واغفر لنا	واستر عيوبنا ، ولا تفضحنا بالمؤاخذة .
وارحمنا	وتلطف بنا ، وتفضل علينا .
أنت مولانا	أنت سيدنا ونحن عبيدك ، وأنت ناصرنا ومتولى أمورنا .
فانصرنا على القوم الكافرين	فانصرنا ونحن عبادك المؤمنون على ، أعدائك الكافرين .

مجمل المعنى

١ — لما نزل قوله تعالى : «وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله»، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوه ، ثم بركوا على الركب، وقالوا : أى رسول الله ، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق ، كالصلاة والصوم والحج والجهاد، وقد أُنْزِل إليك هذه الآية ولا نطيقها ، أيؤاخذنا الله بكل ما حدَّثت به أنفسنا ؟ فقال رسول الله : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير » . فقرأها القوم ، فنزل قوله تعالى : « آمن الرسول » إلى قوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت » ؛ وهاتان الآيتان هما خاتمتا سورة البقرة .

٢ — آمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل من المؤمنين الذين اتبعوه ، بما أنزل إليه من عند الله من الشرائع والأحكام ، والقصص والمواعظ ، وأحوال الرسل ، والكتب السماويّة ، وآمنوا بالله وحده ، لا شريك له فى الإلهية والمعبودية ، وآمنوا بالملائكة من حيث إنهم عباد مكرمون ، من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل ، بإنزال الكتب وإلقاء الوحى ، وآمنوا بكتب الله ورسله، من حيث إرشادُهما العباد إلى ما شُرع لهم من الدين ، وآمنوا إيماناً بكل نبى من الأنبياء ، من غير تفريق بينهم ، يقولون : آمنا بهم جميعاً ، لا نفرق بينهم فى الإيمان ، بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين ، بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم ، تحقيقاً للحق ، وتخطئة لأهل الكتابين ، حيث أجمعوا على عدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وحيث استقلت اليهود بعدم الإيمان بعيسى عليه السلام ؛ وهذا الإيمان

مندرج فى الإيمان بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن .

٣ — ومن صفات هؤلاء المؤمنين ، أنهم قالوا : سمعنا، أى فهمنا ما جاءنا من الحق ، وتيقنّا صحته ، وأجبنا الدعوة إلى الله ، واعتقدنا وجوب العمل بها ، وقالوا : أطعنا أوامرك يا ربنا ، وعملنا بها ، فنسألك أن تغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا ، وما يصدر منا من تقصير فى مراعاة حقوقك ، لأن مصيرنا ومرجعنا بعد الموت يوم البعث إليك ، لا إلى غيرك ، جل شأنك .

٤ — ولقد أراد الله أن يهوّن الخطب على المؤمنين ، ويخفف الفزع من نفوسهم ، لقوله : « وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ، فأنزل قوله تعالى : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها : لبيان أن المراد بما فى نفوسهم ، هو ما عزموا عليه من السوء ، أى لا يكلف الله نفساً من النفوس إلا ما يتيسر عليها ، ويتسع له طوقها وجهدها ، لأنه تعالى يريد بعباده اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، وأن كل نفس ستجزى بما كسبت ، وما عملت من خير ، وستحاسب على ما اكتسبت ، وما ارتكبت من شر .

٥ — ومن صفات المؤمنين أنهم يدعون الله ، فيقولون : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، أى اعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين ، ولا تؤاخذنا بما صدر منامن تفريط وقلة مبالاة ، وترك أمر من أمورك نسياناً أو خطأ ، ولقد استجاب الله لدعائهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «رفع عن أمتى النسيان والخطأ» ، ويقولون : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » ، أى لا تلق علينا إصراً وعبئاً ثقيلا يحبسنا فى مكاننا ، ولا نستطيع معه حراكاً ، من كبائر الذنوب ، فاعصمنا من اقترافها ، ومن التكاليف الشاقة التى لا نستطيع أن ننهض بها ، كما حملته وألقيته على الذين من قبلنا ، كاليهود الذين كلفتهم قطع موضع النجاسة من الثوب ،

ولم تُتح لهم غسلها وإزالتها بالماء ، وكما فرضت عليهم خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وكما أوجبت عليهم القصاص فى الجنايات ، دون العفو عن الدم وقبول الدية ، وقد عصم الله هذه الأمة من مشاق التكاليف فضلا منه ورحمة ، وأنزل فيهم : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ، ويقولون : « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، فلا تنزل علينا من البلاء والعقوبة والتكاليف الشاقة فوق ما تحتمل طاقتنا البشرية ، واعف عنا ، وامح آثار ذنوبنا ، واغفر لنا ، واستر عيوبنا ، وارحمنا ، وتفضل علينا ، وتلطف بنا ، فإنك مولانا وسيدنا ، ونحن عبيدك وأحباؤك ، وأنت ناصرنا ومتولى أمورنا ، وكان حقاً عليك أن تنصر عبادك المؤمنين ، على القوم الكافرين .

سورة آل عمران

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

الٓمٓ . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ؛ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الـم	يراجع المعنى المقصود بها فى الصفحة ١٢ من تفسير الجزء الأول .
لا إله إلا هو	لا معبود بحق غيره .
القيّوم	الذى لا بدء له ، والقائم بذاته على كل شىء .
الكتاب	القرآن .
بالحق	بالعدل أو بالصدق .
لما بين يديه	لما تقدمه من الكتب السماوية .
عزيز	غالب .

وفد نَجْران

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من نجران ، وكان هذا الوفد يتألف من ستين رجلا ، وعلى رأسهم ثلاثة منهم : أحدهم أمير ، والثانى وزير ، والثالث أسقفٌ ، والأسقف كان حبرهم وإمامهم ، وصاحب مدارسهم ، ودارس كتبهم ، والمتفَقّه فى دينهم .

دخل هذا الوفد على النبي صلى الله عليه وسلم المسجد بعد صلاة العصر ، ثم أخذوا يصلون صلاتهم فى مسجد رسول الله ، فأمر النبى بتركهم يصلون ، ثم قامت مناظرة بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم فى سيدنا عيسى ، وفى أنه ابن الله ، وغير ذلك ، وكان رسول الله يرد عليهم بما يفحمهم ، ولكن قلوبهم كانت مغلقة ، فلم يسلِموا ، فأنزل الله فيهم آيات من أول سورة آل عمران .

المعنى الإجمالى

١ – يختص الله سبحانه وتعالى بالألوهية والوحدانية ، فلا شريك له فى ملكه ، وهو حى دائم البقاء ، متيسِّر له تدبير كل ما أرد ، على الوجه الذى يشاء ، وهى حى دائم الحياة ، لا يجوز عليه الموت الذى يجوز على غيره من خلقه ، ومنهم عيسى عليه السلام ؛ وهو كذلك قائم على كل شىء قياماً دائماً لا زوال معه ، ولا انتقال ، من رزق وتدبير ، وتصريف فى كل ما يشاء من تغيير وتبديل ، ونقص وزيادة .

٢ – والله الذى هذه صفاته ، هو الذى أنزل عليك يا محمد القرآن مُنَجّماً ، وفيه القول الفصل فيما خالفك فيه محاجّوك من وفد نجران ومن غيرهم ،

وما فيه موافق لما جاء فى الكتب التى سبقته ، وأنزلها الله على أنبيائه الذين جاءوا قبلك ، لأن القرآن والكتب السماوية التى سبقته، كلها من عند الله ، فلا بد أن يكون ما فيه موافقاً لما جاء فيها ، قبل أن يدخلها تغيير أو تبديل، ومن هذه الكتب السابقة : التوراة التى أنزلت على موسى ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى ، أنزلهما الله ليهتدىَ الناس بهما ، ويتبينوا الحق من الباطل ، وفى هذه الكتب فرّق الله بين الهدى والضلال ، وفصّل فى المسائل التى يخالف فيها نصارى نجران محمداً ، وهم الذين ينكرون الأدلة على أن الله واحد ، وأنه الإله الذى يعبد دون سواه ، وأن عيسى من عباده ، وليس ابنا له كما يزعمون ؛ هؤلاء الذين يعتقدون ذلك، يعذبهم الله يوم القيامة عذاباً شديداً ، والله عزيز فى سلطانه ، لا يرادّ ولا يحاجّ ، ولا يمانع ولا يعاند ؛ ومن ينكر هذا بعد إقامة الدليل عليه ، فعقابه شديد ، لا يقدر منتقم على مثله .

(٢)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ؛ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا يخفى عليه	لا يغيب عن علمه .
يصوركم	يخلقكم على صورة معينة .
الأرحام	جمع رحم وهو من المرأة المكان الذى يحفظ فيه الجنين، وينمو حتى وقت الوضع .
الحكيم	المتقن لما يريده .

مجمل المعنى

١ — لا يخفى على الله أى شىء ، سواء أكان ذلك فى الأرض أم فى السماء ، فهو مطلع على كفر من كفر ، وإيمان من آمن ، ومجازٍ كلا على عمله وقوله واعتقاده ، ومما لا يخفى عليه ، ما يناقشك فيه أهل نجران نقاش المعاندين المستكبرين المكابرين .

٢ — والله هو الذى يخلق الناس ، ويصورهم فى أرحام أمهاتهم ، على الصورة التى يراها ، ويباين بينهم : ذكورة ، وأنوثة ، ولوناً ؛ وليس عيسى إلا واحداً ممن صوّرهم الله فى أرحام أمهاتهم ، فلا يجوز عليه الألوهية ولا الربوبية ، وليس لله شريك ولا مثيل ، وهو العزيز فى سلطانه ، الذى لا يستطيع أحد أن يخلّص منه من يريد عقابه ، الحكيم فى تدبيره ، المتقن لما يريده .

(٣)

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الكتاب	القرآن .
محكمات	لا تحتمل تأويلا ولا اشتباهاً .
أمّ الكتاب	أصل الكتاب .
وأخر متشابهات	وآيات أخرى تحتمل التأويل والاشتباه من المرجفين .
زيغ	ميل عن الحق .
فيتبعون ما تشابه	فيتعلقون بتأويل الآيات على أوجه ضعيفة .
ابتغاء الفتنة	طلباً لصرف الناس عن دينهم .

الألفاظ	شرحها
وابتغاء تأويله	طلباً للتأويل الذى يريدونه .
والراسخون فى العلم	الذين ثبت علمهم ، وتمكنوا تمكن العارفين .
كل من عند ربنا	المحكم والمتشابه من عند الله الحكيم ، الذى لا يتناقض كلامه .
يذّكر	يتعظ .
أولو الألباب	أصحاب العقول ، وهم الراسخون فى العلم .
لا تُزِغ قلوبنا	لا تملها عن الحق .
رحمة	نعمة بالتوفيق ، والتثبت من الرأى الصواب .
الوهاب	الكثير الهبة .
ليوم لا ريب فيه	ليوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه .
الميعاد	الموعد

مجمل المعنى

١ — آيات القرآن الكريم ، بعضها لا يقبل تأويلا ، ولا يحتمل اشتباهاً ، مهما حاول المرجفون أن يؤولوه ، وأن يثيروا حوله شكوكاً ، وهو المحكم ، وبعضها يمكن التعسف فى فهمه وتأويله ، وتحميله ما ليس مقصوداً منه ، وهو المتشابه ، وكلا النوعين : المحكم والمتشابه ، من عند الله الذي لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

ومن آيات القسم الأول : آيات التحليل والتحريم ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، وآيات القصص وضرب الأمثال ، وآيات الفرائض والحدود ، ونحوها مما كان دليله واضحاً ، وتحصيل العلم به ميسوراً ، وهذه الآيات يضمها معظم

القرآن ، ولذلك عبر الله عنها بأنها : أم الكتاب ، أى معظمه ؛ ومن آيات القسم الثانى ، التى لا يسهل على العقل تحصيل معناها، بل ربما ضاق عليه سبيل فهمها، لما فيها من عموم أو إطلاق مثلا ، أو لأنها تحتمل أكثر من معنى ، الآيات التى ورد فيها ما يسميه علماء الكلام السمعيات .

٢ — المرجفون الحائدون عن الحق ، يبحثون عن الأوجه الضعيفة ، أو التى تجافى الحق ، ويؤولون الآيات تأويلا يؤيدون به باطلهم ، ويتبعونه ، فيضلون غيرهم به ، ويثيرون الشك فى نفوسهم ، فتبدد الشبهاتُ نور إيمانهم ، ويحاولون أن يعرفوا ما لا يدخل فى دائرة علمهم، فلا يعرفون ، لأنه من علم الله ، ولا يعرف علم الله إلا الله ، لا أحد سواه .

٣ — وأهل العلم الحقيقى ، الراسخون فيه ، يؤمنون بالمتشابه إيمانهم بالمحكم ، ويعتقدون أن هذا كله من عند الله، فالذى أراد لهم عِلْمه علموه، والذى لم يُكْشَف لهم عنه، آمنوا بأن الله هو الذى اختص بعلمه وحده من دون خلقه ؛ وكل من المحكم والمتشابه من عند الله ، وهو الذى نزله على نبيه ، ولا يتعظ ويقول فى المتشابه : علمُه عند الله ، إلا أصحاب العقول الراجحة ، والفطن المستنيرة ، والألباب الحكيمة .

٤ — دخل على النبى صلى الله عليه وسلم حُيَىُّ بن أخطب فى جماعة من اليهود ، وقالوا له : بلغنا أنه نزل عليك : الم ، فإن كنت صادقاً فى مقالتك ، فإن مُلك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة ، لأن الألف فى حساب الجمّل واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فنزل : وما يعلم تأويله إلا الله .

٥ — الراسخون فى العلم : المهديُّون ، يدعون الله سبحانه وتعالى ، ويسألونه أن يصرف عنهم ما ابتُلى به الحائدون عن الحق من الحديث فى المتشابه ، على غير معناه ، ومن محاولتهم أن يعلموا ما انفرد الله بعلمه ، وأن يستمر

توفيقهم للإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه ، لأنه هو الذى يمنح عباده التوفيق والسداد ، بالثبات على الدين ، والإيمان به ، وبكتبه ورسله .

٦ – ويقررون أن الله سيجمع الناس يوم القيامة ، لإثابة المطيع ، ومعاقبة العاصى ، فهم يدعونه أن يتوفاهم على الإيمان ، ليدخلهم الجنة كما وعدهم ، وهو لا يخلف الميعاد .

(٤)

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا: فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ. زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ؛ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لن تغني عنهم	لن تدفع عنهم ، ولن تنجيهم .
وقود النار	ما توقد به من حطب ونحوه .

الألفاظ	شرحها
كدأب آل فرعون	كسنّة آل فرعون ، وعاداتهم ، وعملهم ، وتكذيبهم .
ستغلبون وتحشرون	ستغلبون فى الدنيا ، وتعذبون يوم القيامة .
بئس المهاد	بئس الفراش الذى أعد لكم ، أو أعددتموه لأنفسكم ، بسبب كفركم .
فئتين	طائفتين .
مثليهم	ضعف عددهم .
لعبرة لأولى الأبصار	لموعظة للذين يتعظون بما يرون ويتأملون .
زيِّن	حسِّن .
الشهوات	هى انفعالات نفسية ، تشعر الإنسان بالحاجة إلى ما يستلذه من طعام أو شراب أو نحوهما ، مما هو مذكور فى الآية .
القناطير المقنطرة	المال الكثير .
المآب	المرجع .

مجمل المعنى

١ — عذاب الله واقع على الكافرين ، الذين ينكرون الحق بعد أن يتضح لهم ، فينكرون نبوة محمد مثلا ، كما أنكرها وفد نجران ومنافقو العرب واليهود والكفار ، وهؤلاء لا ينجيهم من عذاب الله أموالهم ، ولا أولادهم ، سواء أكان ذلك العقاب واقعاً فى الدنيا أم فى الآخرة ، وهم فى الآخرة حطب النار التى توقد بهم ، تحقيراً لشأنهم ، ومبالغة فى إهانتهم .

٢ — وهؤلاء الكفار الذين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، مثلهم فى ذلك كمثل من سبقوهم ممن كذبوا أنبياءهم الذين أرسلهم الله إليهم ، فعذبهم الله ، ولم تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ؛ فقوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم هود ، وغيرهم — عذبهم الله بسبب كفرهم ، ولم يدفع عنهم مال ولا بنون ، وهكذا كل من أصرّ على الكفر ، واستكبر وعاند ، يعذبه الله عذاباً شديداً .

٣ — انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش يوم بدر ، فلما رجع إلى المدينة جمع اليهود ، وقال لهم : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً ، فقالوا : يا محمد لا تغرنّك نفسك ، إنك قتلت نفراً من قريش ، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تأت مثلنا ، فأنزل الله : « قل للذين كفروا ستُغلبون .... » الآية : أى أخبرهم أنهم سيغلبون فى الدنيا ، وسيُجْمَعون يوم القيامة ، ويساقون إلى جهنم ، وقد أعدّت فراشاً لهم بسوء أعمالهم ، وبئس الفعل فعلهم الذى أدخلهم النار .

٤ — وقل لهم أيضاً : إن من الأدلة على صدق ما أقول ، من أنكم ستغلبون فى الدنيا ، وتحشرون إلى جهنم فى الآخرة ، ما وقع تحت بصركم بين المسلمين وبين مشركى قريش ، وقد كان المسلمون يقاتلون فى طاعة الله ، وعلى دين الله ، وكان الكافرون من قريش يحاربون فى سبيل الشيطان ، وعلى الكفر ، وكان عدد المشركين نحو ضعفى عدد المسلمين ، ومع ذلك فقد اقتضت مشيئة الله أن يتوهم المشركون أن المسلمين مِثْلا عددهم ، ليُلْقىَ فى قلوبهم الرعب ، وقد رأيتم أن الله نصر المسلمين على قلة عددهم ، والله يقوّى بنصره من يشاء ويعينه ؛ وفيما فعله الله من نصر

المسلمين على قلتهم ، وهزيمة الكافرين على كثرتهم — موعظة لمن عقل وتفكر .

٥ — زُين للناس حب ما يشتهون من هذه الأشياء :

(ا) النساء : فهن حبائل الشيطان ، وفتنة الرجال ، والمغريات بقطع الرحم ، والدافعات إلى جلب المال ، من حرام أو حلال .

(ب) والبنين : وهم — وإن كانوا ثمرات القلوب ، وفلذات الأكباد ، وقرة العيون ، مجبنة مبخلة محزنة .

(ح) والذهب والفضة : يغرم الناس بجمعهما ، ويستكثرون منهما .

(د) والخيل المسومة : الخيل الحسان ، المعلمة بعلامات خاصة ، المطهمة ، التي تروع من يراها ، وتخلبه حسناً .

(ه) والأنعام : وهي الضأن ، والمعز ، والبقر ، والإبل .

(و) والحرث : وهو الزرع .

هذه الأشياء التي زينت للناس يتمتعون بها في الدنيا ، والعقلاء هم الذين يتمتعون بها في الحدود المباحة ، وغير العقلاء من الكافرين والمخدوعين يبالغون في صنوف التمتع ، والمرجع الطيب عند الله سبحانه وتعالى في الآخرة .

(٥)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ ، وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أؤنبئكم	أؤخبركم وأعلمكم ؟
بخير من ذلكم	بأفضل مما زيّن لكُم .
للذين اتقوا	للذين خافوا ربهم فأطاعوه .
أزواج مطهّرة	هن نساء الجنة المطهرات من كل رجس أو أذى ، يكون فى نساء الدنيا .
رضوان من الله	رضا من الله .
قنا عذاب النار	احفظنا من عذاب النار ، وادفعه عنا .
الصابرين	الذين يصبرون فى البأساء والضراء وحين البأس .
الصادقين	الذين يصدُقون فى قولهم وفعلهم .

الألفاظ	شرحها
القانتين	المطيعين لله .
المنفقين	الذين يؤدون الزكاة .
الأسحار	جمع سَحَر : وهو الوقت قبيل الصبح .

مجمل المعنى

١ — قل يا محمد للذين زُيِّنَ لهم حب الشهوات من الأشياء التى ذكرت من قبل : أؤعلمكم بخير مما زين لكم فى هذه الدنيا ؟ ثم أخبرهم أنه :

(ا) جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يخلد فيها من يدخلونها ، ولا يدخلها إلا المتقون ، وهذه الجنات فيها مُتعٌ كثيرة ، خير من مُتعِ الدنيا .

(ب) وأزواج مطهرات من كل أذى يعترى النساء فى الدنيا ، كالحيض والنفاس وغيرهما .

(ح) ورضا الله الذى لا يظفر به إلا من يعمل عملا صالحاً ، يستحق عليه دخول الجنة ، والله الذى أعد للمتقين هذا كله ، يعرف من يخافه من عباده ويطيعه ، ويعرف من يفضل ما عنده على ما زين للناس فى الدنيا ، ومن يؤثر ما زيِّن للناس فى الدنيا على ما أعده الله فى الآخرة ، ويجازى كلا على حسب عمله فى الآخرة .

٢ — وهؤلاء المتقون يقولون : يا ربنا ، إننا آمنا بك ، وصدقنا نبيك ، وسمعنا وأطعنا ، فاعف عنا ، وتجاوز عن سيئاتنا ، ونجنا من عذاب النار .

٣ — وهؤلاء المتقون هم :

(ا) الصابرون الذين يصبرون عن الشهوات ، ويصبرون فى البأساء والضراء وحين البأس .

(ب) والصادقون الذين صدقوا فى قولهم وفى فعلهم ، بالعمل بالأوامر ، واجتناب النواهى .

(حـ) والقانتون المطيعون ، الذين لا يترددون ولا يتلكئون .

(د) والمنفقون الذين يؤدون زكاة أموالهم ، فى الحدود التى رسمها الله ، وينفقون شيئاً منها فى وجوه الإنفاق التى بيّنها الله .

(هـ) والمستغفرون فى أوقات السحَر بالصلاة والدعاء .

(٦)

شَهِدَ اللهُ: أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ: أَأَسْلَمْتُمْ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ؟! ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ؟!

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
شهد	علم فبيَّن فقضى وحكم .
بالقسط	بالعدل .
العزيز	الذى لا يغالب .
الحكيم	الذى لا يعدل عن الحق .
الدين	الطاعة .
الإسلام	الإيمان الصحيح والامتثال .
الذين أوتوا الكتاب	اليهود والنصارى .
العلم	الحق الذى لا محيد عنه .
بغياً بينهم	حسداً وحقداً .
بآيات الله	بحججه ودلائله .
حاجُّوك	جادلوك جدال المغالطين والمزورين .
أسلمت وجهى لله	خضعت لله ، وفوضت أمرى إليه ، وأخلصت نفسى له .
سريع الحساب	سريع المحاسبة والمجازاة .
الذين أوتوا الكتاب	هم اليهود والنصارى ، والكتاب : هو التوراة والإنجيل .
والأميين	والذين لا كتاب لهم من مشركى العرب .
فإنما عليك البلاغ	ليس عليك إلا تبليغ الرسالة ، ولن يضرك كفرهم شيئاً .
حبطت أعمالهم	ضاعت ، فلا ثواب لهم .
الذين أوتوا نصيباً من الكتاب	هم أحبار اليهود .

الألفاظ	شرحها
يدعوْن إلى كتاب الله	يطلب منهم الإيمان بالقرآن .
لن تمسنا النار	لن تصيبنا النار .
أياماً معدودات	أياماً قليلة .
وغرهم	وخدعهم .
يفترون	يدّعون يكذبون .
فكيف	فكيف يكون حالهم .
لا ريب فيه	لا شك فيه .
ووفيت كل نفس ما كسبت	ولاقت كل نفس جزاء ما عملت .

حينما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، أتاه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة ، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذى يخرج فى آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم ، عرفاه بصفاته المذكورة فى التوراة ، فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم ، قالا : نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلانى ، فقالا أخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله ، فأنزل الله عليه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط » ، فأسلم الرجلان .

مجمل المعنى

١ — الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، والعلماء من الناس — علموا وبيّنوا وحكموا أن الله واحد ، والله سبحانه وتعالى حين يشهد بذلك عادل بين خلقه ،

فلا شهادة بعد شهادته ، ولا يستحق العبادة غيره ، لأنه هو الواحد الذى لا شريك له ، فلا يمتنع عليه أى شىء يريده ، ولا يختل شىء يدبره ، وفى هذا ردّ على ما يدعيه النصارى من بنوة عيسى ، وعلى ما يدعيه المشركون من وجود الشريك ، وإنما هو واحد ، يشهد بذلك هو وملائكته وعلماء الناس ، فلا يجوز بعد هذا جدل فى وحدانيته .

٢ — إن الطاعة الحقيقية هى طاعة الله ، والانقياد له ، انقياد تذلل وخشوع ، بالألسنة والقلوب ، والذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، كانوا فى أول أمرهم أمناء على دينهم ، فلما مضى بعض الزمن ، وتعلق الناس بالدنيا ، وقعت الفرقة بينهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، وتنكروا لدينهم ، ولم يكن ذلك منهم جهلا بالدين ، ولكن حب السلطان غطى على بصائرهم ، فعمُوا عن حقيقة دينهم ، الذى ينبئهم أن الله واحد ، وأن خاتم الأنبياء سيأتى بعد نبيهم ، وأن الذين ينكرون حجج الله ، وعلامات قدرته ووحدانيته ، ويكفرون به — فإن الله يحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة ، ثم يحاسبهم ويجازيهم .

٣ — إذا جادلك النصارى واليهود مجادلة باطلة ، لا يقصدون فيها إلا المماحكة والمغالطة ، فلا يقتنعون مكابرة وعناداً — فأعرض عنهم ، وفوض أمرك أنت ومن اتبعك إلى الله ، وقل لهؤلاء المجادلين ، سواء أكانوا كتابيين أم غير كتابيين : أسلموا ، فإن أطاعوك وأسلموا ، فقد اهتدَوا ، ورضى الله عنهم ، وإن لم يُسلموا فإنما عليك أن تبلغ ما ينزل عليك ، بمحاولة إقناعهم ، ثم بمجاهدتهم فى الحدود التى يرسمها الله لك ، وهو بعد ذلك عالم بما عليه كل عبد من عبيده .

٤ — جاء جماعة من النبيين إلى بنى إسرائيل ، يدعونهم إلى الله عز وجل ، فقتلوهم ، فقام من بعدهم جماعة من المؤمنين ، يدعونهم إلى الله أيضاً ،

فقتلوهم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق .....» الآية ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لا يكتفون بعدم الإيمان ، والإصرار على الكفر والعصيان ، بل يتجاوزون هذا إلى قتل أنبيائهم ، وقتل وعاظهم ونصحائهم — هؤلاء عذابهم عند الله عظيم ، فقد بطل ثواب أعمالهم فى الدنيا والآخرة : أما فى الدنيا فقد كانوا ضالين فلعنهم الله ، وكشف أسرارهم على لسان أنبيائه والمؤمنين من خلقه ، وأما فى الآخرة فيخلدهم فى عذاب جهنم ، خلوداً لا يأخذ بيدهم فيه أحد ، ولا يخلصهم منه مخلّص .

٥ — وأنكر جماعة من اليهود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وناقشوه فى ذلك ، فحكّم بينه وبينهم التوراة ، وهى كتابهم ، لأن صفته فيها ، فأصروا على إنكارها ، فهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، وعلماً بحقيقة ما جاء فيه ، إذا دعوا إلى تحكيمه رفضوا وأعرضوا ، وانصرفوا عنه مستكبرين معاندين ، قائلين : إنهم لن يصيبهم العذاب إلا أياما قليلة ، مقدار عبادتهم العجل ، مغترّين بما كانوا يختلقون من أكاذيب وأضاليل ، كادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؛ وهؤلاء المعاندون ، ما أعظم ما يلقون يوم القيامة ! وما أشده وأمرّه عليهم ! إنه يوم الحساب ، يوم الثواب والعقاب ، إنهم سيلقون جزاءهم كما يلقى كل جزاءه : إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

(٨)

قُلِ: اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ: تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ؛ بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَىْءٍ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ. قُلْ: إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ. يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ. قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مالك الملك	مالك كل شيء ، تتصرف فى ملكك كما تشاء .
تؤتى	تعطى .
تُعِزّ	تجعله يعلو ويقهر .
تولج الليل فى النهار	تدخل الليل فى النهار ، بنقص ساعات الليل وزيادة ساعات النهار .
وتولج النهار فى الليل	تدخل النهار فى الليل ، بنقص ساعات النهار وزيادة ساعات الليل .
الحى	ما فيه حياة ، من إنسان وحيوان ونبات .
الميت	الأصل الأول كالنطفة ، وهذا الأصل وإن كان فيه حياة ، فهى حياة لا تسبب حركة ، ولا تقدر على كسب مثلا ، فهو كالميت .
وتخرج الميت من الحى	أى أن الأصل الذى تتدرج منه الحياة ، يخرج من الحى كالنطفة من الإنسان .
بغير حساب	من غير أن يعرفه الناس ، قبل أن يحصل فى أيديهم .
أولياء	نصراء .
إلا أن تتقوا منهم تقاة	إلا إذا خفتُموهم على أنفسكم أو أموالكم .
ويحذركم الله نفسه	ويخوفكم سخطه وغضبه .
المصير	المرجع .
أو تبدوه	أو تظهروه .
أمداً بعيداً	مسافة بعيدة .

الألفاظ	شرحها
تحبون الله	تفضلون طاعته .
يحببكم الله	يرضى عنكم .
فإن تولوا	فإن أعرضوا ولم يطيعوا .

ملك فارس والروم

لما فتح الله مكة ، وبشر النبيّ أمته بملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات !! من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟! هم أعز وأمنع من ذلك ؛ ألم تكف محمداً مكة والمدينة ، حتى طمع فى ملك فارس والروم ؟! فنزل : « قل اللهم مالك الملك . . . » الآية .

مجمل المعنى

١ — اللهم : أنت الذى تملك السموات والأرَضين ، وما فيها وما بينها ، وتملك ما وراءهما إن كان وراءهما عوالم أخرى ، وتملك هذا كله ملك القادر المتصرف ، فتمنحه من تشاء من عبادك وتعزه بذلك المنح ، وتحرمه من تشاء ، فتذله بذلك الحرمان ، وكل شىء فى يدك تصرفه على أى وجه تشاء . فأنت قادر لا يعجزك شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٢ — ومن دلائل قدرته سبحانه وتعالى ، أنه يدخل الليل والنهار كلا منهما فى الآخر ، فنجد هذا يطول ، وذاك يقصر ، ثم تدور الأيام دورتها ، ويقصر ما كان يطول ، ويطول ما كان يقصر ، أو يُدخل وقت أحدهما فى وقت الآخر ، فيكون ليلا فى مصر ونهاراً فى أمريكا ، وفى هذا دليل على كُرِيَّة الأرض ، وكذلك يخرج الله من الميت حياً ، ومن الحى

ميتاً ، فالإنسان والحيوان والنبات يخرج كل منها من أصل ، هو نطفة أو بيضة أو بذرة أو نحوها ، والنطفة والبيضة وطَلْع النخلة مثلا ، فى كل منها حياة ، ولكنها حياة كامنة خفية ، ولابد لإخراج النوع الذى تخرجه من تزاوج بين ماءين أو عنصرين ، وإلا فإنها حياة كالعدم ، لا تنتج ولا تحدث نمواً ، فهى والميتة سواء .

والله الذى هذه قدرته ، ليس كثيراً عليه أن يؤتى الملك من يشاء إعزازاً له ، وأن ينزعه ممن يشاء إذلالا له ، وأن يعطى ويحرم ، من غير أن يعرف الناس : أيهم المعطى ، وأيهم المحروم ، إلا بعد أن يقع الإعطاء والحرمان .

٣ — ينهى الله بعد ذلك كله أن يتخذ المؤمنون نصراء لهم من الكافرين ، يفضلونهم على إخوانهم المؤمنين ، ويحذرهم هذا ، ويصف الذى يفعله بأنه ليس من حزب الله ، ولا من أوليائه ، وليس ذلك النهى على إطلاقه ، بل إنه إذا كان من حسن السياسة أن تتخذ لك نصيراً من الكافرين ، بغية الحصول على أمر ينفعك فى دينك أو علمك أو حياتك ، فلا بأس بالاستعانة بهم ، وكذلك إذا كنت تخافهم على نفسك أو مالك أو أمتك ؛ والذين يسرفون فى موالاة الكافرين من غير حاجة إلى تلك الموالاة ، كجلب نفع أو دفع ضرر، يعرضون أنفسهم لغضب الله وسخطه ، ومرجع الكل إليه ، وحسابه عنده .

٤ — الله سبحانه وتعالى عالم بخفايا الأمور ، وما يجرى فى الضمائر والصدور ، لا يغيب عنه شىء ، ولا يخفى عليه ، عالم الغيب والشهادة ، قادر لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٥ — وفى يوم القيامة ، يجد الإنسان أمامه كل ما عمله من خير وشر ، أما الخير فيفرح به ويسر له ، لأنه سيثاب عليه ، وأما الشر فيود أن يباعد الله بينه

وبينه ، وألا يعاقبه عليه ، ومؤاخذة الله شديدة ، وعقابه أليم ، ومع ذلك فهو رءوف رحيم ، ولولا رأفته ورحمته ، وحبه الخير للناس كافة ، لما نهاهم وحذرهم وأنذرهم .

٦ — ومحبة العبد لربه ، تكون بطاعته ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، ومحبة الله لعبده ، تكون بتوفيقه ، وهدايته ، والمغفرة له ، والتجاوز عن ذنبه الذى يتوب عنه ؛ فالذى يحب الله ، يجب عليه أن يطيع نبيه ، فيحبه الله ، ويغفر له ذنبه .

٧ — وإن دُعِيَ الناس إلى طاعة الله ، وطاعة الرسول ، فلم يطيعوا ، وبقوا على كفرهم ، فإن الله لا يرضى فعلهم ، ولا يغفر لهم .

(٨)

إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ: رَبِّ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً، فَتَقَبَّلْ مِنِّي؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ: رَبِّ، إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى؛ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً، قَالَ: يَا مَرْيَمُ، أَنَّى لَكِ هَذَا؟! قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اصطفى	اختار
عمران	عمران الأول أبو موسى وهرون ، أو عمران الثانى أبو مريم ، فهو جد عيسى لأمه .

شرحها	الألفاظ
متسلسل بعضها من بعض .	بعضها من بعض
أم مريم وجدة عيسى .	امرأة عمران
أوجبت ووهبت .	نذرت
أتركه حرًّا لخدمة بيت المقدس .	محرَّراً
أجيرها .	أعيذها
المرجوم ، الملعون ، المطرود .	الرجيم
فتلقاها ربها لقاء طيباً .	فتقبلها ربها بقبول حسن
وأنشأها تنشئة طيبة .	وأنبتها نباتاً حسناً
وجعله ضامناً لها ، راعياً لشئونها .	وكفَّلها زكريا
المكان الذى أقيمت فيه مريم .	المحراب
من أين لك هذا الرزق ؟	أنى لك هذا

السيدة مريم

عمران الثانى رجل من علماء بنى إسرائيل ، حملت زوجته العقيم على كبر ، فنذرت ما فى بطنها من الحمل لخدمة الهيكل ، ظانة أنه سيكون ولداً ، لأن الهيكل لا يقوم بخدمته إلا الذكور ، فلما ولدت وجدت المولود أنثى ، فتحيرت واعتذرت لله من أنها وضعت أنثى ، وسألته أن يحفظها من كل سوء ، وسمتها مريم ، ومعناها : العابدة .

رضى الله عن هذه المولودة ، وأحسن قبولها ، فإنها لم يكن لها كافل يكفلها ، لوفاة أبيها ، فذهبت بها أمها إلى رعاة الهيكل ، فكلهم أحب أن يكفلها ، واختلفوا فيما بينهم ، ثم أجروا قرعة ، فكانت من حظ زوج خالتها ،

وكان اسمه زكريا ، وكان ذلك بأنهم ذهبوا إلى نهر ، وألقوا فيه قداحهم ، فطفا قدح زكريا ، وغرقت قداحهم ، فضمت إليه .

وكان زكريا كلما تردد على مريم وهى فى المحراب ، وجد عندها طعاماً لم يحضره إليها ، ولم يكن الوقت الذى كان يرى فيه هذا الطعام أواناً لظهوره ، فكان يجد فى الصيف فاكهة الشتاء ، ويجد فى الشتاء فاكهة الصيف ، فيعجب لهذا ، ويسألها عن مصدره فتقول : هو من عند الله ، الذى يرزق الناس بلا حساب .

وإن ملائكة الله تعالى كانت تتردد على مريم ، وتخبرها أن الله اصطفاها ، وفضلها على نساء العالمين ، وطهرها من كل رجس ودنس ، وتحثها على أن تستمر فى عبادتها وتوسلها وقنوتها .

وهكذا كانت السيدة مريم أطهر نساء زمانها ، وأبعدهن عن الفحش ، وأقربهن من الله

مجمل المعنى

١ ـ اختار الله آدم ونوحاً عليهما السلام ، ليبلغا رسالته إلى الناس ، واختار آل إبراهيم وآل عمران لهذا الغرض السامى ، ومن آل إبراهيم محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن آل عمران موسى وهارون ، أو عيسى وأمه مريم ، فحملهم رسالته إلى الخلق ، فهم عنده أفضل خلقه جميعاً .

٢ ـ وهؤلاء جميعاً يرجعون إلى أصل واحد ، وتكاثر هذا الأصل بالتوالد والتناسل ، ولكن الله الذى يسمع ما يقولون ، ويعلم ما يفعلون ، يفاضل بينهم ، ويصطفى خيرهم قولا وفعلا .

٣ — ومما سمعه الله وعلمه قول امرأة عمران : يا ربى : إنى وهبت لك هذا الجنين الذى فى بطنى ليخدم فى بيت المقدس ، هبة مطلقة من كل قيد ، لا سلطان لى عليه ، فلا أطالبه بشىء ، ولا أكلفه حاجة لى، وسألتْه أن يستجيب دعاءها ، فهو السامع لقولها ، العالم بنيتها .

٤ — ولما وضعت امرأة عمران طفلها ، وجدته أنثى ، وكان من عادتهم أنهم لا يهبون للهيكل إلا الذكور ، فاغتمت وحارت فى أمرها ، ولكن الله يعلم حسن قصدها ، فلعل فى ذلك خيراً لا تعرفه ، وسراً لا تدركه ، ثم سمتها مريم ، ودعت لها أن يحفظها الله ، ويحفظ ذريتها من الشيطان الملعون ، المطرود من رحمة الله ، إن قَدَّرَ أن يكون لها ذرية .

٥ — قبل الله نذر امرأة عمران ، وإن لم يكن ذكراً ، وأرسلت إلى الهيكل وهى صبية ، ونشأت نشأة طاهرة مباركة ، وكفلها أحد الأحبار ، وهو زكريا ، وتولى تربيتها ورعايتها ، وكان كلما ذهب إليها فى محرابها ليطمئن عليها، وجد عندها طعاماً لا عهد له بوجوده فى ذلك الوقت ، وليس ميسوراً لهم أن يحضروه ، فيسألها عن مصدره ، فتقول : هو من عند الله ، الذى يرزق من يشاء أن يرزقه من غير حساب .

(٩)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ: رَبِّ، هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ: أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، وَسَيِّدًا وَحَصُورًا، وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ: رَبِّ، أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ؟ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. قَالَ: رَبِّ، اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ: آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا، وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من لدنك	من عندك .
ذرّية طيبة	نسلا صالحاً .
المحراب	مقدم المسجد .
بكلمة من الله	بأمر من الله ، وبشارة .
وسيداً	وشريفاً فى قومه .

الألفاظ	شرحها
وحصوراً	ومبالغاً فى حبس النفس ، وحرمانها متع الحياة الدنيا .
أنى يكون لى غلام	أستبعد أن يكون لى ولد .
عاقر	لا تلد .
اجعل لى آية	اجعل لى علامة أعرف بها أن امرأتى حملت .
ألا تكلم الناس	ألا تقدر على تكليمهم .
إلا رمزاً	إلا إشارة بيد أو رأس أو نحوهما .
العشىّ	ما بعد الظهر إلى الغروب .
الإبكار	ما بعد الفجر إلى الضحا .

مولد يحيى

كان زكريا أبو يحيى أحد الأحبار الذين يقومون بخدمة الهيكل ، وهو الذى كفل مريم على ما مرّ ، وكان زوجاً لخالتها ؛ فلما رأى زكريا أن الله أكرم مريم ورزقها من حيث لا تحتسب ، ووسع عليها — طمع فى عفو الله ورضاه وخاصة أنه كان يخاف على بنى إسرائيل من بعده أن يُبْتَلَوْا بمواليه من بعده ، فيسيئوا إليهم ، ويؤذوهم ؛ وموالى زكريا هم أقاربه ، وبنو أعمامه ، فإنه كان يخشى أن يضيعوا دينه من بعده ، ولا سيما أنه كان يرى بعينه إهمالهم شئون دينهم ، وعدم اكتراثهم بأوامر ربهم ، وقسوتهم على المستضعفين من أتباعه .

وعلى الرغم من أنه كبرت سنه ، وشاب رأسه ، وأن امرأته كانت عاقراً لاتلد ، فإنه سأل الله أن يهب له ولداً صالحاً ، ليخرج من الدنيا راضياً ، مطمئناً على قومه من بعده .

وبينما كان يصلي يوماً فى المحراب ، نادته الملائكة ، وأخبرته أن الله استجاب دعاءه وأن زوجته ستحمل ، وستلد ولداً ، وسيسميه يحيى ، وسيكون يحيى هذا من صفاته كذا وكذا ، كما سيأتى .

تعجب زكريا من ذلك ، واستكثر أن يحدث مع ما بلغ من السن ، ومع عقم امرأته ، فقيل له : الله يخلق ما يشاء ، ولأجل أن يطمئن قلبه ، طلب علامة يستدل بها على أن هذا كله سيكون ، فأعلمه الله أن العلامة ، هى أنه سيعجز عن التكلم مع الناس ثلاثة أيام ، ولا يستطيع أن يتفاهم معهم إلا بالإشارة .

مجمل المعنى

١ — لما رأى زكريا إكرام الله لمريم ، دعاه أن يرزقه ذرية طيبة ، فهو مجيب لمن يدعوه .

٢ — نادت الملائكة زكريا حينما كان قائماً فى المحراب للصلاة ، وأخبرته أن الله استجاب لدعائه ، وأنهم يبشرونه بغلام اسمه يحيى ، ويحيى هذا سيؤمن بكتاب الله ، وسيكون رئيساً يسود قومه ويفوقهم فى الشرف ، لا يهم بمعصية ، ومبالغاً فى حصر نفسه ، وحرمانها التمتع بلذات الحياة الدنيا وشهواتها وملاهيها ، فلا يستمتع بالنساء ، ولا بغيرهن من ألوان المُتع ، مع قدرته على ذلك ، وسيكون رسولا إلى قومه ، يعرفهم أمر ربه ونهيه ، وحلاله وحرامه .

٣ — تعجب زكريا من ذلك واستبعده ، لأنه رجل بلغ من الكبر عِتِيًّا ، ولأن امرأته عقيم ، لم تلد أيام شبابها ، فقيل له : هكذا أراد الله ، وهو يفعل ما يشاء .

٤ — سأل الله أن يجعل له علامة يعرف بها أن زوجته حملت ، فأخبره الله أن العلامة التى يعرف بها ذلك ، هى أنه لن يقدر على مخاطبة الناس ، والتفاهم

معهم ، إلا بالإشارة باليد أو العين أو هز الرأس ، أو نحو ذلك ، ويستمر على ذلك ثلاثة أيام ، وفى هذا دليل على قدرة الله الذى استطاع أن يحبس لسانه عن الكلام ، مع قدرته على التكلم .

وأمره الله أن يذكره كثيراً طول هذه الأيام الثلاثة ، ويكثر التسبيح فى الصباح المبكر ، وفى المساء ، لأنه مع عدم قدرته على التحدث إلى الناس ، قادر على العبادة والتسبيح .

(١٠)

وَإذ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : يَا مَرْيَمُ ، إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ، وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ ، اقْنُتِي لِرَبِّكِ ، واسْجُدِي ، وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ : أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمُونَ . إذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : يَا مَرْيَمُ ، إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، اسْمُهُ : الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ : رَبِّ ، أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ ! قَالَ : كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إذَا قَضَى أَمْرًا فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اصطفاك واصطفاك	اختارك ، وخصك بالقبول الحسن فى الهيكل . وهداك وأرسل إليك ملائكته .

الألفاظ	شرحها
اقنتي	استمرى على خضوعك لله ، وداومى على طاعته .
واسجدى	وصلى .
من أنباء الغيب	من قصص السابقين التى لا يعرف حقيقتها أحد .
أقلامهم	قِداحهم للاقتراع فى قصة مريم السابقة .
يختصمون	يتنافسون فى شأن كفالة مريم .
يبشرك بكلمة منه	يبشرك ببشارة ، وهى أن تلدى مولوداً اسمه عيسى .
المسيح	لقب سيدنا عيسى عليه السلام ، وهو من الألقاب الممدوحة ، كالأمين ، والصديق ، والفاروق ، ومعنى المسيح : المبارك .
وجيهاً فى الدنيا	صاحب جاه وقدر فى الدنيا بالنبوة .
والآخرة	وفى الآخرة بالدرجة العالية .
فى المهد	وهو صبى ، حيث لا يمكن مثله أن يتكلم ، والمهد: فراش الصبى .
وكهلا	ورجلا اختلط سواد شعره ببياضه ، والمراد : أن كلامه فى الحالين له قيمته وقدره .
أنّى يكون لى ولد	كيف يكون لى ولد من غير أن أتزوج ؟
ولم يمسسنى بشر	ولم أتزوج .

مولد عيسى عليه السلام

بلغت مريم مبلغ النساء ، وكانت ذات يوم فى محرابها ، فهبط عليها جبريل عليه السلام ، فارتاعت وفزعت ، وظنت أنه بشر يريد بها سوءاً ، فاستعاذت بالله منه ، فأخبرها أن الله تعالى أرسله إليها ، ليبشرها بغلام زكى ، يكون له شأن ،

فاستبعدت ذلك ، لأنها عذراء لم تتزوج ، وهى ناشئة على الطهر والعفاف ، فلم يمسها بشر ، فهوّن جبريل عليها الأمر ، وذكّرها بقدرة الله تعالى ، وأنه قادر على أن يخلق ما يشاء على أى طريقة يشاء ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ثم نفخ فى جيب درعها ، فإذا بها حامل بعيسى ، ثم ولدته على ما سيأتى تفصيله فى آيات أخرى .

مجمل المعنى

١ — بعد أن ذكر الله قصة امرأة عمران ، أخذ يذكر قصة مريم ، بأن الملائكة نزلوا عليها ، وأخبروها أن الله اختارها حين تقبّلها من أمها ، وكان لا يقبل فى الهيكل إلا الصبيان ، وخصها بالكرامة ، ويسّر لها رزقها من غير مسعى ، وطهرها مما يصيب النساء مثيلاتها من المستقذرات ، كالحيض ونحوه ، وخصها أيضاً بالهداية ، وإرسال الملائكة ، ورزقها الولد من غير أب ، وتكلُّم ابنها فى المهد ، مما جعلها وابنها آية للعالمين ، وأمرها الله بالصلاة مع من يصلّون فى بيت المقدس .

٢ — هذا الذى سبق كله من ذكر قصَص زكريا ويحيى ومريم ، من الأمور الغيبية التى لا يعرفها الناس على حقيقتها ، ولكنا عرّفناك بها يا محمد بالوحى صحيحة كما وقعت ، وإلا فمن أين لك معرفة ما جرى من الاقتراع بين الأحبار على كفالة مريم ، حين تخاصموا فيما بينهم ؟ وأراد كل منهم أن يكون كافلا لها .

٣ — وحينما نزلت الملائكة على مريم ، قالت لها : إن الله يُبشرك بأنك ستلدين غلاماً اسمه عيسى ، ولقبه المسيح ، وسيكون عيسى وجيهاً فى الدنيا بالنبوة ، وفى الآخرة بالشفاعة ، وهو قريب من الله ، رفيع الدرجة عنده .

٤ — وعيسى هذا سيكلم الناس وهو طفل، كما يكلمهم وهوكهل، من غير تفاوت بين كلامه فى هاتين الحالتين .

٥ — تعجبت مريم من ذلك ، كما تعجب زكريا من قبل، واستبعدت أن يكون لها ولد ، وهى لم تتزوج ، ولم تخالط رجلا ، فقال لها الملك : هكذا قضى الله الذى يستطيع أن يخلق ما يريد ، وكل شىء يريده لابد أن يقع بمجرد أمره .

(١١)

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ، قَالَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَى، إِنِّي مُتَوَفِّيكَ، وَرَافِعُكَ إِلَيَّ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الكتاب	كتب الله ، أو الكتابة .
والحكمة	والعلم ، وحسن الفهم .
ورسولا	ويجعله رسولا .
بآية من ربكم	بعلامات تدل على صدق نبوتى وهى المعجزات .
كهيئة الطير	على صورة الطير .
بإذن الله	بأمره وقدرته .
الأكمه	الذى ولد أعمى .
الأبرص	الذى به بياض فى جسده من داء البرص .
إن فى ذلك لآية	إن فيما تقدم من المعجزات لدليلا على صدقه ونبوته .
بعض الذى حرم عليكم	بعض ما حرم عليكم فى شريعة موسى عليه السلام .
هذا صراط مستقيم	هذا طريق مستقيم ، يوصل صاحبه إلى الجنة .

الألفاظ	شرحها
أحس عيسى منهم الكفر	علم علم اليقين أنهم مصرون على كفرهم .
الحواريون	هم خاصة الرجل وأصفياؤه وأنصاره ، جمع حوارىّ .
أنصار الله	أعوان نبيه ودينه .
مع الشاهدين	الذين يشهدون لك بالوحدانية .
ومكر الله	أبطل تدبيرهم .
خير الماكرين	أقوى المعاقبين على الكفر .
متوفيك	موفّيك أجلك فى الدنيا ، ومانعك منهم فلا يقتلونك .
ورافعك إلىّ	ورافع قدرك إلى مكان علىّ .
ومطهرك من الذين كفروا	منقذك من جوارهم السيء ، ومن نيتهم الخبيثة .
فوق الذين كفروا	فوق الكفار بالحجة أو بالسيف .
ذلك نتلوه	ما تقدم من أمر عيسى وأمه ، وزكريا ويحيى ، نقصه عليك يا محمد .
الذكر الحكيم	القرآن الكريم .

مجمل المعنى

١ ـ الله سبحانه وتعالى أرسل عيسى بعد أن علمه العلم الصحيح الذى فى التوراة والإنجيل ، ووهب له الفهم والإدراك ، ومما علمه : الحكمة التى عرف بها الحلال والحرام ، وميز بينهما ، كما أنه جعله رسولا إلى بنى إسرائيل .

٢ ـ ثم جرت على يده معجزات خوارق هى :

(ا) أنه صنع من الطين صورة طائر ، ثم نفخ فيه ، فكان طائراً فيه مقومات الحياة

(ب) وأبرأ الأكمه من عماه ، وجعله يبصر .

(ح) وأبرأ الأبرص من برصه ، وكان ذلك مستعصياً

(د) وأحيا الموتى بقدرة الله الذى لا يعجزه شيء

(ه) وأخبرهم بما أكلوا وبما ادخروا ، فكان يقول : يا فلان ، أكلت كذا ، ويا فلان ، أنت مدّخر كذا .

وفى هذا كله دلائل قاطعة لذى القلب السليم ، والعقل الحكيم ، والسريرة النقية ، على نبوته .

٣ — وقال لقومه : جئتكم بهذه الآيات كلها ، وجئتكم مصدقاً لما جاء فى التوراة ، ولأخفف عنكم بعض الحدود الشديدة عليكم ، بتحليل بعض المحرمات كالسمك ، والعمل يوم السبت ، رحمة بكم .

هذه كلها آيات من عند الله ، فاتقوه ، ولا تكذبونى ، ولا تختلفوا علىّ .

٤ — ويدعوهم إلى عبادة الله ، ربهم وربه ، وهذا هو الطريق المستقيم ، الذى يوصل صاحبه إلى الجنة .

٥ — ولما تحقق عيسى عناد قومه ومكابرتهم ، وإصرارهم على الكفر ، أراد أن يميز بينهم أنصاره ، فسأل : من يعيننى على نصرة دين الله ؟ فأجابه أصفياؤه وخلصاؤه ، وكانوا اثنى عشر رجلا : نحن أنصار الله المؤمنين به ، المخلصون لدينه ، فاشهد لنا يوم القيامة ، يوم يشهد الرسل لمن آمنوا بهم .

٦ — وسألوا الله سبحانه وتعالى أن يكتبهم مع الذين شهدوا بوحدانيته ، وأقروا بربوبيته ، واتبعوا رسله .

٧ — هؤلاء اليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى ، أرادوا أن يمكروا به ، ويقتلوه غيلة ، ليتخلصوا منه ، فأفسد الله عليهم مكرهم ، بأن خلص عيسى منهم ،

وأعلى منزلته ورفع شأنه ، والله مجازيهم على مكرهم ، ومؤاخذهم مؤاخذة شديدة على سوء تدبيرهم .

٨ — وكان تدبير الله تعالى أن قال لعيسى عليه السلام : إنى مستوف أجلك ، ومؤخرك إلى الوقت الذى قدرت فيه وفاتك ، ومخلصك من مكر اليهود ، ومحاولة قتلهم إياك ، ورافع قدرك ، ومنجيك من سوء قصدهم ، وشرهم الذى بيتوه لك ، وسيكون لتابعيك الغلبة على الذين كفروا بك إلى يوم القيامة ، بالحجة عند الجدال ، وبالسيف عند القتال ، وكلكم راجعون إلىّ ، فأحكم فيما بينكم من خلاف .

٩ — والحكم يكون بالعذاب الشديد للكافرين ، وبمنح المؤمنين ما يستحقونه من ثواب نظير إيمانهم .

١٠ — هذه الأخبار التى ساقها الله كلها عن عيسى وأمه ، وأم أمه ، وعن زكريا وامرأته ، وابنه يحيى ، وعن اليهود ، والحواريين — يقصها الله عليك يا محمد ، بلسان جبريل ، ليطلع عليها قومك ، للعظة والاعتبار ، ولتكون حجة على وفد نجران[1] ، الذى أتى لمخاصمتك ومحاجّتك ، فأصر واستكبر وعاند ، وكذب بالحق الذى أنزلته عليك .

(١٢)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ: خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ ، فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن مثل عيسى	إن شأن عيسى وحاله فى الولادة من غير أب .
كن	كن بشراً .
الممترين	الشاكّين .
فمن حاجّك فيه	فمن جادلك فى عيسى .
من العلم	من الدلائل الواضحة القوية ، التى يحصل بها العلم .
نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين	نتباهل : نتلاعن ، أى يقول كل منا : لعنة الله على الكاذب منا ومنكم .
إن هذا	إن الذى قصصناه عليك من قصة عيسى .

دعوة وفد نجران إلى المباهلة

قابل وفد نجران النبي صلى الله عليه وسلم، فدعاهم إلى المباهلة: «الملاعنة» بعد المناقشة التي دارت بينه وبينهم، على ما ورد في أول السورة، فقالوا: يا أبا القاسم: دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، وانصرفوا، ثم قال لهم صاحب الرأى فيهم ومستشارهم: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، وما باهَلَ قوم قط نبياً فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتَهلكُنَّ. فإن أبيتم إلا إلْفَ دينكم، فالإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فوادِعوا الرجل. وانصرفوا إلى بلادكم، فأتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد غدا محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشى خلفه، وعلىٌّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمِّنوا. فقال أسقفُ نجران: يا معشر النصارى، إنى لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقَى على وجه الأرض نصرانى، فقالوا: يا أبا القاسم، رأينا ألا نباهلك، فصالحهم النبىّ على ألفَىْ حلة كل سنة: ألف في صَفَر، وألف في رجب.

مجمل المعنى

١ ــ قال وفد نجران لمحمد صلى الله عليه وسلم: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله، فقال محمد: أجل، إنه عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، قالوا له: فهل رأيت مثل عيسى، أو أنبئت به؟ إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيى الموتى، ويبرئُ

الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا ، لكنه الله ؛ يريدون أن عيسى هو الله ، فنزلت الآية : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... » إلى آخر الآية ؛ والمعنى : أن شبه عيسى فى خلقى إياه من غير أب ، كشبه آدم فى خلقى إياه من غير أب ولا أم ، والقادر على الخلق من غير أب ولا أم ، أقدر على الخلق من غير أب فقط ، وبهذا أمرت ، وأمرى إذا قلت لشىء : كن — كان ؛ فقلت لآدم : كن من تراب فكان ، وقلت لعيسى : كن من غير أب فكان ؛ والذى أنبأتك به يا محمد من أمر عيسى ، هو الحق الذى لا مراء فيه .

٢ — وإذا جادلك أحد فى أن عيسى عبد الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فادعه إلى المباهلة : الملاعنة ، وليحضر كل من الطرفين أعز الناس عليه ، وهم أبناؤه ونساؤه ، ليصيبهم من اللعنة مثل الذى يصيبه ، ولعنة الله لا تصيب إلا الكاذبين .

٣ — وإن هذا الذى أخبرتك به من أمر عيسى ، وقصصته عليك ، هو الحق ، فهو عبدى ورسولى ، وهو كلمتى ألقيتها إلى مريم ، وهو روح منى ، فليس ابنا لى كما زعموا ، لأن الله واحد لا شريك له ، وهو الذى تجب عبادته دون سواه ، وهو عزيز فى انتقامه من الذين يعصونه ، ولا يؤمنون بوحدانيته ، حكيم فى تدبيره .

٤ — فإن أصر هؤلاء على عنادهم وكفرهم ، واستمروا على إعراضهم عما جاءك من الحق ، فإن الله عليم بهم وبأعمالهم ، يحصيها عليهم ، ليلقوا عليها جزاءهم .

(١٣)

قُلْ : يٰأَهْلَ الْكِتَابِ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. يٰأَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ، وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ؟! أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟! هٰأَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟! وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ. وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ. يٰأَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ؟! يٰأَهْلَ الْكِتَابِ، لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟! وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا

وَجْهَ النَّهارِ ، واكْفُرُوا آخِرَهُ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، قُلْ : إنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ : إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ . وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . بَلَى ، مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى ، فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يأهل الكتاب	ينادى الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل : اليهود والنصارى .
كملة سواء بيننا وبينكم	كلمة عادلة لا يختلف فيها القرآن ، ولا التوراة ، ولا الإنجيل .
ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله	ولا يدين بعضنا لبعض بالتعظيم والطاعة فى المعصية ، والتحليل والتحريم .

الألفاظ	شرحها
فإن تولوا	فإن أعرضوا عن التوجيه .
اشهدوا بأنا مسلمون	اعترفوا بأنا مسلمون من دونكم .
تحاجّون	تجادلون ، وحاججته : جادلته .
أفلا تعقلون	أفلا تفهمون المسائل الواضحة ، حتى لا تجادلوا فيها؟
فيما لكم به علم	فيما ورد فى التوراة والإنجيل .
حنيفاً	متبعاً أمر الله ، ملتزماً طريق الهدى .
إن أولى الناس بإبراهيم	إن أقرب الناس من إبراهيم ، وأخصهم به .
وهذا النبىّ	المراد به : محمد عليه الصلاة والسلام .
ولىّ المؤمنين	ناصرهم ، وآخذ بيدهم
من أهل الكتاب	من اليهود .
بآيات الله	بالتوراة والإنجيل ، والمراد : كفرهم بنبوة محمد ، مع ثبوت ذلك فيهما .
لم تلبسون الحق بالباطل	لم تخلطون الإيمان بموسى وعيسى ، بالكفر بمحمد ؟
وتكتمون الحق	وتخفون ما ورد من صفات محمد فى التوراة والإنجيل .
وجه النهار	أول النهار .
واكفروا آخره	واكفروا فى آخره .
ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم	ولا تظهروا إيمانكم إلا لأهل دينكم ، فلا يعرفه المسلمون ولا المشركون ، وهو من كلام اليهود .
واسع عليم	واسع الرحمة ، عليم بالمصلحة .
برحمته	بالإسلام أو النبوة .

الألفاظ	شرحها
إلا مادمت عليه قائماً	إلا مدة دوامك قائماً على طلبه ، ملازماً له ليؤديه .
ليس علينا فى الأميين سبيل	ليس علينا ذنب إذا لم تؤدِّ حقوق الأميين ، وهم الذين ليسوا من أهل الكتاب .
ويقولون على الله الكذب	ويفترون على الله أن إباحة أكل حق الأميين وارد فى كتابهم .
بلى	عليهم إثم ، وهذا إثبات لما أرادوا نفيه عنهم .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لليهود والنصارى : تعالوا إلى كلمة عادلة نتبعها جميعاً ، لا يختلف فيها كتاب من الكتب المنزلة عن غيره ، بل نجد الدعوة إليها واضحة فى التوراة والإنجيل والقرآن جميعاً، وتلك الكلمة العادلة، تنحصر فى أننا نعترف بوحدانية الله سبحانه وتعالى، فلا نقول : عزير ابن الله، ولا نقول : المسيح ابن الله ، ولا نشرك معه أحداً غيره فى الألوهية ، ولا يدين بعضنا لبعض بالتعظيم الموهم التأليه ، ولا فى تحليل وتحريم على ما يشتهون ، وإذا لم يستمع هؤلاء لنصحك ، ولم يستجيبوا لدعوتك، فقل لهم أنت ومن معك من المؤمنين : اشهدوا علينا بأنا مسلمون ، وأننا دخلنا فيما دعوناكم إليه ، فأعرضتم عنه .

٢ — زعم اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم ، وزعم النصارى أنه كان على دينهم ، وتخاصموا فى ذلك ، والله يتعجب من تخاصمهم فى شىء

واضح البطلان ، لأن اليهودية والنصرانية لم تكونا إلا بعد وفاة إبراهيم بزمان ، (تراجع الفقرة السابعة من الصفحة ١٠٣ من تفسير الجزء الأول) .

٣ — إذا جاز لكم أن تحاجوا فيما تعلمونه من أمر دينكم ، وتدّعون أن ما تذهبون إليه وارد فى كتابكم — فكيف تحاجون فى شىء لا علم لكم به ، ولم يرد فى كتبكم ، ولم تأتكم به أنبياؤكم ، ومنه مسألة إبراهيم ، والله هو الذى يعلم كل شىء ، أما علمكم أنتم فمحصور فيما تعلمون .

٤ — أكد الله تكذيبهم فيما زعم كل من الفريقين ، من أن إبراهيم كان على دينه ، بأن صرح بأن إبراهيم ما كان يهودياً ، وما كان نصرانياً ، وما كان مشركاً يعبد الأصنام والأوثان، ولكنه كان حنيفاً متبعاً أمر الله، وله مطيعاً خاشعاً .

٥ — وإن أحق الناس بنصرة إبراهيم ، وأقربهم إليه ، وأحقهم به ، هم الذين اتبعوا دينه : فوحدوا الله ، وأخلصوا له الدين ، وتمسكوا بشريعته ، وإن أحق الناس بنصرته أيضاً، محمد ومن آمن به ، والله ناصرهم .

٦ — تمنى جماعة من أهل الكتاب : يهود ونصارى — أن يصدوكم عن الإسلام ، ويردوكم عنه إلى الكفر الذى هم عليه ، فيكون فى ذلك هلاككم على الضلال ، وعذابكم فى الآخرة ، وهم إذ يتمنون ذلك لكم ، يضلون أنفسهم وأتباعهم وأشياعهم ، ويتسببون لهم فى الهلاك على الضلال ، وفى عذاب الآخرة ، ولكنهم لا يحسون عاقبة ما يفعلون .

٧ — وإنه لمما يدعو إلى العجب، أن هؤلاء اليهود والنصارى، يكفرون بما جاء فى كتبهم على لسان أنبيائهم ، مع علمهم أنه حق ، فقد ذكرت هذه الكتب نبوة محمد ، وأخبرت به وبرسالته ، وهم قرءوا هذا وعرفوه ، ولكنهم أنكروه .

٨ — والعجب أيضاً أنهم يخلطون الحق بالباطل ، ويغيرون فى كتابهم ، ويخفون ما ورد فيه من صفة محمد ، وهم يعلمون أنهم إنما يخالفون ضمائرهم ، وأنهم يفعلون ذلك عناداً واستكباراً .

٩ — قال بعض الأحبار لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن محمداً نبي صادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا ، وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمداً كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا ، فهو أصدق إلينا من دينكم ، فيشكون ، أو يشك ضعاف الإيمان منهم ، ويرتدون عن الإسلام .

لذلك أنزل الله : « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار . . . » الآية ، أى أظهروا أنكم صدقتم محمداً ، ليعلم أتباعه أنكم آمنتم ، ثم ارجعوا عن إيمانكم ، ليعلم أتباعه أنكم وجدتم دينكم خيراً من دينه ، فيشكوا فى إيمانهم ، وتتزلزل عقيدتهم ، ويرجعوا عن دينهم .

١٠ — واخفوا فى أنفسكم ما تحققتموه من صدق محمد ورسالته ، ولا تظهروا أحداً من المشركين ولا من المسلمين على ما جاء فى كتابكم ، من أن المسلمين سيحاجّونكم يوم القيامة عند الله ، وتظهر حجتهم على حجتكم ، وإن كان لابد من إفشائه ، فأفشوه بين أشياعكم ، ومن اتبع دينكم ، وإنكم إن أعلمتم المسلمين زادوا ثباتاً على إسلامهم ، ولم يزعزع عقيدتهم ما تفعله ، من الإيمان أول النهار ، والرجوع آخره ، وإن أعلمتم المشركين سارعوا إلى الدخول فى الإسلام .

وعلى الرغم من تلك الحيل التى يحولون بها بين الناس وبين الإسلام ، فإن الله إذا أراد لأحد هداية هداه وهم راغمون ، وهو صاحب الفضل ،

ومانح التوفيق من يشاء ، وهو واسع الرحمة ، عليم بكل شىء ، وهو يختص من يشاء بالإسلام والقرآن والنبوة ، وفضلُه على خلقه عظيم .

١١– اشترى اليهود من آخرين منهم فى الجاهليه أشياء ، وأجّلوا ثمنها إلى حين ، وهؤلاء الدائنون دخلوا فى الإسلام ، وطلبوا من اليهود ثمن بيوعهم ، فقال لهم اليهود : ليس لكم عندنا شىء ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادّعوا أنهم وجدوا فى التوراة أن من كان له عندهم دين ، وغيّر دِينه ، سقط دَينه ، وهم بهذا يفترون على الله الكذب ، وهم يعلمون أنه كذب وبهتان .

١٢– ومع ذلك فإن من بنى إسرائيل أمناء ، يحافظون على الأمانة ، ويؤدونها مهما عظمت ، ومنهم الخونة الفجرة ، الذين يخونون الأمانة ، ولا يؤدونها مهما تفهت ، ويضطر الذى يستأمنهم أن يطالبهم بحقه بمختلف الوسائل ، فهو يلح فى الطلب ، ويوسط الناس ، ويهدد ، ويصانع ، ويقاضى ، حتى يسترد حقه ، وهذا الذى عليه بنو إسرائيل عليه كثير من الناس فى كل زمان ومكان ، ومن كل جنس ودين ، فيجب أن يكون المسلمون كلهم من الصنف الأول ، الذى يحفظ الحقوق ، ويرد الأمانات ، وكان اليهودى الذى لم يردّ ما عليه لزميله بعد إسلامه ، يرى أن ذلك من حقه ، ومن تعاليم دينه ، وبإرشاد نبيه وكتابه ، وهذا كله افتراء وكذب ، وهم يعلمون أنه افتراء وكذب على الله .

١٣– وإذا كان الأمر على غير ما يزعم هؤلاء الخائنون ، فإن الله يحب المتقين الذين يتقونه ويخافونه ، ويوفون بعهده ، ومن عهده أداء الأمانات ، ورد الحقوق إلى أصحابها .

(١٤)

إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً، أُولٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ؛ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ: كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ، وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا؛ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟! وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ: لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا: أَقْرَرْنَا؛ قَالَ: فَاشْهَدُوا، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. أَفَغَيْرَ

دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟ ! قُلْ : آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يشترون	يستبدلون .
بعهد الله	بما عاهدوا الله عليه ، من الإيمان بالنبى، الذى جاء نعته فى كتابهم .
وأيمانهم	وبما حلفوا به .
ثمناً قليلا	متاعاً تافهاً من متاع الدنيا .
لا خلاق لهم	لا نصيب لهم .
ولا يزكيهم	ولا يثنى عليهم .
يلوون ألسنتهم	لا ينطقون نطقاً صحيحاً ، ويحرّفون الكلمات .
الكتاب	التوراة .
الحكم	الحكمة .

الألفاظ	شرحها
ربّانيين	منسوبين إلى الرب ، متشددين فى الاستمساك بدينه ، علماء تعملون بعلمكم ، وتعلمونه الناس .
ميثاق النبيين	عهد النبيين .
لما آتيتكم	للذى آتيتكموه .
رسول مصدق لما معكم	رسول مصدق بما أتيتم به ، والمراد به : محمد .
لتؤمنن به	لتؤمنن بالرسول .
وأخذتم على ذلكم إصرى	قبلتم عهدى .
فاشهدوا	فليشهد بعضكم على بعض .
تولى بعد ذلك	نقض العهد بعد قبوله .
الفاسقون	العاصون المتمردون من الكفار .
طوعاً	طائعين بعد الاقتناع .
وكرهاً	مرغمين بعد الجهاد بالسيف ، أو بعد التهديد الشديد ، أو عند دنو الخطر برؤية علامات العذاب الذى سينزل بهم ، كنتق الجبل ، وإطباق البحر .
الأسباط	أبناء يعقوب عليه السلام الاثنى عشر .
من ربهم	من عند ربهم .
مسلمون	مخلصون موحدون منقادون .
من الخاسرين	من الضالّين الذين سيعذبون فى جهنم .

بين الأشعث ورجل من اليهود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ، ليقتطع بها مال امرئ مسلم — لقى الله وهو عليه غضبان » ، فقال الأشعث بن قيس : فىَّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لك بيّنة ؟ قلت : لا ، قال لليهودى : احلف . قلت : إذن يحلف فيذهب بمالى ، فأنزل الله تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا ... » الآية .

مجمل المعنى

١ — الذين يتركون الله وميثاقه الذى جاء فى الكتب السماوية ، التى تبشر بمحمد رسولا ، وتأمر باتباعه ، ويحلفون الأيمان الكاذبة ، يستحلون بها أموال غيرهم التى يؤتمنون عليها — لا يطهرهم الله من دنس ذنوبهم ، ويعذبهم عذاباً شديداً .

٢ — وإن من أهل الكتاب — وهم اليهود الذين كانوا يسكنون فى ضواحى المدينة ، على عهد النبى صلى الله عليه وسلم — جماعة يحركون ألسنتهم ، ويلوونها عند النطق بالألفاظ — فيسمع السامع ألفاظاً غير واردة ، ويظن أنها هى الواردة ، وأنها كلام الله الذى أنزله على نبيه ، وما هى كذلك — ويفعلون هذا إيهاماً للناس ، وتضليلا لهم ، وبحثاً عن المنافع الدنيوية ، وهم بذلك يكذبون على الله ، والله يعلم أنهم كاذبون ، وسيجازيهم على كذبهم .

٣ — لا يجوز لواحد من البشر ينزل الله عليه كتابه ، ويعلمه الحكمة ، ويجعله نبياً ، أن يدعو الناس ليعبدوه من دون الله ، ودعوتُه الناس لعبادته ، لا تتفق مع ما آتاه الله ، ولكن الذى يتفق معه ، أن يدعو إلى التوحيد ، وإلى تحصيل الحكمة والعلم ، وإلى تقوى الله ، حتى يكون منهم قادة صالحون ، وولاة عادلون ، يقومون على أمور الناس ويصلحونها ، ولهم فى الكتاب المنزل — إذا قرءوه وتدارسوه وعلموه — ما يجعلهم كذلك ، وهذا هو الذى أراده النبى صلى الله عليه وسلم ، حينما اجتمع عنده اليهود ونصارى نجران ، ودعاهم إلى الإسلام ، فقال اليهود : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل نصرانى من أهل نجران : أو ذاك تريد منا يا محمد ، وإليه تدعونا ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى ، ولا بذلك أمرنى ، ونزل بعد هذا : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم . . . » الآية .

٤ — ولا يجوز لنبىّ أيضاً أن يأمر قومه أن يعبدوا الملائكة والنبيين ، فإنه إن فعل كان داعياً إلى الكفر بعد الإسلام ، ومحمد لا يحدث منه ذلك أبداً .

٥ — أخذ الله عهداً على الأنبياء السابقين فيما آتاهم من كتاب وحكمة ، أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بمحمد ، وأن يؤمن أتباعهم به وينصروه ، فقد جاء نعته فى كتبهم ، وهو قد جاء برسالة مؤكدة لرسالات السابقين ، ولما جاء فى كتبهم ، وهؤلاء الأنبياء ، وعلماء أممهم العادلون ، أقروا ، وحملوا العهد والميثاق ، وأمرهم الله أن يشهد بعضهم على بعض ، وملائكته شهود عليهم ، وهو شاهد أيضاً ، ونعم الشهيد .

٦ – والذين يُعرضون بعد ذلك ، وينقضون العهد والميثاق – يعتبرون عصاة مذنبين ، خارجين عن دين الله وطاعته .

٧ – يأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، أتطلبون ديناً غير دين الله ، وتلتمسون طاعة غير طاعة الله ؟ وهو الذى خضع له من فى السموات ومن فى الأرض ، وعبدوه ووحدوه طائعين مقتنعين ، كالملائكة والأنبياء والمرسلين ، أو كارهين كالذين يعبدون معه غيره ، فإنهم مع هذا الإشراك مستسلمون له ، يعترفون بأنهم لا يستطيعون دفع قضائه وقدره ، أو كارهين فلم يؤمنوا إلا خوفاً من المجاهدة بالسيف ، أو بعد المجاهدة والهزيمة .

٨ – فإن ابتغوا بعد هذا ألا يؤمنوا بالله ، فقل لهم : نحن آمنا بالله ، ولا نعبد ربّاً سواه ، وآمنّا بالقرآن ، وآمنّا بما أوحى الله إلى إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق ، وابنه يعقوب ، وبما أنزل على أولاد يعقوب ، ولم يكن إيماننا بهؤلاء فحسب ، بل آمنا أيضاً بما أنزل على موسى وعيسى من الكتب والوحى ، وبما أنزل على النبيين جميعاً من عند الله ، نؤمن بهذا كله من غير تفريق ، فلا نصدق بعضاً ونكذب بعضاً ، كما يفعل غيرنا من اليهود والنصارى ، ونحن منقادون بالطاعة لله ، مقرون له بالوحدانية .

٩ – ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ، ويعتنقه ، فلن يقبل الله منه ذلك ، وهو خاسر فى الدنيا والآخرة .

(١٥)

كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؟! وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. خَالِدِينَ فِيهَا، لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، وَلَاهُمْ يُنْظَرُونَ. إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كفروا بعد إيمانهم	ارتدوا عن الإسلام .
الرسول	محمداً عليه الصلاة والسلام .

الألفاظ	شرحها
حق	نبي مرسل .
البينات	الدلائل والمعجزات .
الظالمين	المرتدين ، لأن فى ارتدادهم ظلماً لأنفسهم .
فيها	فى اللعنة .
ولا هم ينظرون	ولا هم يمهلون ، ولا يؤخرون . ولا يؤجلون
لن تقبل توبتهم	لن تقبل عند الموت توبتهم .
ملء الأرض	ما يملؤها
لن تنالوا البر	لن تنالوا ثواب الله .
حتى تنفقوا	حتى تتصدقوا .

قصة الحارث الأنصارى

أسلم الحارث الأنصارى ، ثم ارتد عن الإسلام ، ولحق بالمشركين ، ثم ندم على ارتداده ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لى من توبة ؟ فنزل قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ... » إلى : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فإن الله غفور رحيم » ، فحمل رجل من قومه الآيات إليه ، وقرأها عليه ، فقال الحارث : إنك — والله — ما علمت لصدوق ، ثم رجع الحارث إلى الإسلام ، وحسن إسلامه .

مجمل المعنى

١ – لا يوفق الله إلى الصواب الذين يكفرون به وبرسوله وبكتابه بعد إسلامهم ، وبعد شهادتهم أن الرسول حق ، وأن كل ما جاء به صدق ، وأنه قد تضافرت على صدقه الأدلة الساطعة ، والمعجزات المفحمة ، والله لا يهدى هؤلاء لأنهم ظلمة ، استبدلوا بالحق باطلا ، واختاروا الكفر ، وتركوا الإيمان .

٢ – وهؤلاء الناس ، جزاؤهم أن عليهم أجمعين غضب الله ولعنة ملائكته والمؤمنين من عباده جميعاً .

٣ – وستظل عقوبة الله ولعنته وغضبه ، وكذلك لعنة ملائكته والمؤمنين من عباده ، تنصب عليهم ، لا تخف عنهم ، ولا يمهلون لمعذرة أو نحوها .

٤ – أما الذين يتوبون بعد ارتدادهم ، ويعودون إلى إسلامهم ، ويعملون الأعمال الصالحة ، فإن الله يستر عليهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويرفع عنهم عذابهم يوم القيامة ، إذا ماتوا على التوبة .

٥ – وإن اليهود الذين آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ولم يؤمنوا به ، ثم ازدادوا كفراً حين كفروا بمحمد ولم يؤمنوا به – لن تقبل توبتهم إذا لجئوا إليها عند غرغرة الموت ، فإنهم ضالون ، مصرون على ضلالهم ، ولم ينتبهوا من غفلتهم إلا حين أدركهم الموت .

٦ – وهؤلاء الذين كفروا وأنكروا نبوة محمد ، وماتوا على كفرهم – لو حاولوا أن يفدوا أنفسهم مما يقع عليهم من عذاب بأغلى ما يستطيعون ، لما قبل الله منهم الفدية ، ولو كان الواحد منهم يملك ذهباً يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها ،

وهؤلاء لهم فى الآخرة عذاب شديد موجع ، وليس لهم قريب يحميهم ، ولا صديق ينصرهم ، أو يدفع عنهم .

٧ — وأنتم أيها المؤمنون ، لن تصلوا إلى ثواب الله ، وجزيل عطاياه ، والتمتع بجنته ، إلا إذا كنتم تتصدقون مما تحبون ، ومن أعز ما تقتنون ، وأجمل ما تشتهون ، وأغلى ما تريدونه لأنفسكم ؛ فلا تخصوها به ، ولكن ينبغى أن تشركوا فيه غيركم ، ممن يكون فى حاجة إليه ؛ ويدخل فى ذلك الإنفاق فى سبيل الله ، وكل شىء ينفق على هذا الوجه ، يعلمه الله ويثيب عليه .

١٩٥٣/٤٠٢٥

[illegible]

[illegible]

٢ — وهؤلاء الناس ، جزاؤهم أن عليهم [illegible] غضب الله ولعنة الملائكة والناس [illegible] جميعاً .

٣ — ويستمر [illegible] الله [illegible] ، [illegible] ، لا [illegible] ، ولا يمهلون [illegible] .

٤ — أما الذين يتوبون بعد ارتدادهم ، ويرجعون إلى إسلامهم ، ويعملون الأعمال الصالحة ، فإن الله يستر عليهم ، [illegible] ، ويرفع عنهم عذابهم يوم القيامة ، إذا صدقوا في التوبة .

٥ — وإن اليهود الذين آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفراً [illegible] كفروا بمحمد ولم يؤمنوا به — لن تقبل توبتهم إذا تابوا عند حضرة الموت ، فإنهم الضالون ، [illegible] ، ولم يتوبوا من قلوبهم إلا حين أدركهم الموت .

٦ — وهؤلاء الذين كفروا وأنكروا نبوة محمد ، وماتوا على كفرهم — لن يستطيعوا أن يفتدوا أنفسهم [illegible] من عذاب [illegible] ، ولو كان الواحد منهم يملك [illegible] الأرض من مشرقها إلى مغربها ،

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ : صَدَقَ اللهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لبني إسرائيل	لولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام .
فمن افترى على الله الكذب	فمن كذب على الله ، باختلاق ما لم يقله .
من بعد ذلك	من بعد مجيئه بالتوراة ، وبحثكم فيها عما حرم وما لم يحرم .
الظالمون	المكابرون المعاندون
ملة إبراهيم	دين إبراهيم ، وهي ملة الإسلام .
حنيفاً	بعيداً عن الأديان الباطلة .

قصة إسرائيل ولحم الإبل

(ا) أخذ النَّسَا — وهو عرق يمتد من الورك إلى الكعب ، ويحدث آلاماً شديدة — يعقوب عليه السلام ، واشتد عليه حتى كان لا يثبت الليل من وجعه ، وكان يُسْمَعُ له زُقاء كصياح الدِّيَكة ، فحلف إن شفاه الله ليُحَرِّمَنَّ على نفسه كل عرق ، وليحرمن على نفسه أحب الأطعمة إليه ، وهى لحمُ الإبل ، وليحرمن على نفسه أحب الأشربة إليه ، وهى لبنُ الإبل — فحرم ولدُ يعقوب على أنفسهم ما حرمه أبوهم على نفسه .

(ب) وجاءت عصابة من اليهود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا أبا القاسم ، أخبرنا ، أىُّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنْشُدُكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل « يعقوب » مرض مرضاً شديداً ، فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً : لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على نفسه أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحبُّ الطعام إليه لُحْمانَ الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم .

(حـ) فأخذ اليهود يعترضون على محمد ، أن يأكل لحوم الإبل ، ويشرب ألبانها ، ثم يزعم بعد ذلك أنه على دين إبراهيم ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : كان ذلك حلالا لإبراهيم ، فنحن نحله ؛ فقال اليهود : إنها لم تزل محرمة فى ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ، فنزل فى هذه الآيات تكذيب لهم .

مجمل المعنى

١ — جميع الأطعمة كانت حلالا لبنى يعقوب عليه السلام ، فلما حرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، تبعه ولده فى تحريمها على أنفسهم ، وكان ذلك التحريم قبل مجىء موسى عليه السلام ، وقبل نزول التوراة ، فحرمها اليهود على أنفسهم ، وزعموا أن تحريمها عليهم نزل فى التوراة ، فأحالهم النبى صلى الله عليه وسلم على التوراة ليأتوا بموضع التحريم فيها ، إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، محقين فيما يدعون .

٢ — والذين يكذبون على الله أيا كانوا ، بعد أن ثبت أن التوراة ليس فيها تحريم لما يزعمون تحريمه ، هم المكابرون المعاندون ، الذين تؤدى بهم مكابرتهم وعنادهم ، إلى البقاء على الكفر .

٣ — قل يا محمد : إن الله صادق فيما أخبر به ، من أن الطعام كلّه كان حلالا لبنى إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، من غير أن يحرّمه الله عليه ، ولم ينزل تحريمه فى التوراة كما تزعمون ، أما وقد ثبت صدق الله فيما أخبر به ، فيجب عليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم الحنيفية السمحة الحقة ، التى تتفق مع دين الإسلام ، ولا تتفق مع ما عليه الآن اليهود ولا النصارى ولا المشركون .

قصة إسرائيل ولحم الإبل

(ا) أخذ النَّسَا — وهو عرق يمتد من الورك إلى الكعب ، ويحدث آلاماً شديدة — يعقوب عليه السلام ، واشتد عليه حتى كان لا يثبت الليل من وجعه ، وكان يُسْمَع له زُقَاء كصياح الدِّيَكة ، فحلف إن شفاه الله ليُحَرِّمَنَّ على نفسه كل عرق ، وليحرمن على نفسه أحب الأطعمة إليه ، وهى لحمُ الإبل ، وليحرمن على نفسه أحب الأشربة إليه ، وهى لبنُ الإبل — فحرم ولدُ يعقوب على أنفسهم ما حرمه أبوهم على نفسه .

(ب) وجاءت عصابة من اليهود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يا أبا القاسم ، أخبرنا ، أىُّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنْشُدُكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل « يعقوب » مرض مرضاً شديداً ، فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً : لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن على نفسه أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحبُّ الطعام إليه لُحْمانَ الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم .

(حـ) فأخذ اليهود يعترضون على محمد ، أن يأكل لحوم الإبل ، ويشرب ألبانها ، ثم يزعم بعد ذلك أنه على دين إبراهيم ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : كان ذلك حلالا لإبراهيم ، فنحن نحله ؛ فقال اليهود : إنها لم تزل محرمة فى ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام ، فنزل فى هذه الآيات تكذيب لهم .

مجمل المعنى

١ — جميع الأطعمة كانت حلالا لبنى يعقوب عليه السلام ، فلما حرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، تبعه ولده فى تحريمها على أنفسهم ، وكان ذلك التحريم قبل مجىء موسى عليه السلام ، وقبل نزول التوراة ، فحرمها اليهود على أنفسهم ، وزعموا أن تحريمها عليهم نزل فى التوراة ، فأحالهم النبى صلى الله عليه وسلم على التوراة ليأتوا بموضع التحريم فيها ، إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، محقين فيما يدعون .

٢ — والذين يكذبون على الله أيا كانوا ، بعد أن ثبت أن التوراة ليس فيها تحريم لما يزعمون تحريمه ، هم المكابرون المعاندون ، الذين تؤدى بهم مكابرتهم وعنادهم ، إلى البقاء على الكفر .

٣ — قل يا محمد : إن الله صادق فيما أخبر به ، من أن الطعام كلّه كان حلالا لبنى إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، من غير أن يحرّمه الله عليه ، ولم ينزل تحريمه فى التوراة كما تزعمون ، أما وقد ثبت صدق الله فيما أخبر به ، فيجب عليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم الحنيفية السمحة الحقة ، التى تتفق مع دين الإسلام ، ولا تتفق مع ما عليه الآن اليهود ولا النصارى ولا المشركون .

(٢)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَهُدًى لِلعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وضع للناس	جُعل متعبَّداً لهم .
للذى ببكة	لهو الكعبة التى بمكة ، حيث يزدحم الناس لطوافهم وحجهم وعمرتهم .
مباركاً	كثير الخيرات .
فيه آيات بينات	فيه علامات واضحات .
ولله على الناس	وفُرض على الناس لله .
ومن كفر	ومن أنكر فرضية الحج .
غنى عن العالمين	مستغن عنهم وعن طاعتهم .

مجمل المعنى

١ — إن أول بيت جعل متعبَّداً لعبادة الله وحده على وجه الأرض ، هو البيت الحرام فى مكة ، وقد جعله الله مباركاً ، لكثرة ما يصيب المتعبِّد فيه من الخير والثواب ، وغفران الذنوب ، وجُعل فيه الهداية للناس .

٢ — فى هذا البيت علامات بينات ، ودلائلُ واضحات ؛ منها : مَقام إبراهيم ، والمَشْعَرُ الحرام ، وأمن من يدخله ، وحمايته ما دام فيه ، والحجَر الأسود ، والحطيم ، والصَّفا والمروة ؛ وقد فرض الله على مستطيع الحج أن يحج إلى البيت الحرام ، والاستطاعة حدودها : الزاد ، والراحلة ، وتوافر وسائل النقل ونفقاتها ، والصحة والأمن ؛ وأما الذين يَظلون على كفرهم وعنادهم ، وإنكارهم فريضةَ الحج ، فإن الله غنى عنهم وعن طاعتهم ، هم وغيرهم ، فلا حاجة به إلى أحد ، وكذلك من توافرت له أسبابُه ، ولم يعترف بأن ذلك فرض يجب عليه أداؤه ، كان حكمه حكم الكافر ، والله غنى عنه ، وعن حجه ، وعن العالمين جميعاً .

(٣)

قُلْ : يَأَهْلَ الْكِتَابِ ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ؟ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ : يَأَهْلَ الْكِتَابِ ، لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ ، وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

تفرَّقُوا ، وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ : فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ، فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أهل الكتاب	كل ذى دين ، وله كتاب سماوى .
لم تصدون عن سبيل الله	لم تحولون بين المؤمنين ، وبين الإيمان ؟
تبغونها عوجاً	تطلبون لسبيل الله الميل والاعوجاج والضلال .
وأنتم شهداء	وأنتم تشهدون على أن الدين الذى تصدون عنه حق ، كما ورد فى كتابكم .
آيات الله	القرآن .
وفيكم رسولُه	وبين أظهركم نبيّه محمد .
ومن يعتصم بالله	ومن يستمسك بدين الله .
هُدِىَ إلى صراط مستقيم	أرشِد إلى دين قويم .

الألفاظ	شرحها
حقَّ تُقاتِه	حق تقواه ، بالشكر والطاعة والذكر .
واعتصموا بحبل الله	واستمسكوا بدين الله وقرآنه .
ولا تفرَّقوا	ولا تفعلوا ما يكون سبباً فى الفُرقة ، وزوال الاجتماع .
على شفا حفرة من النار	على حرف حفرة من النار — والمراد على أبواب جهنم — بكفركم .
فأنقذكم منها	فخلصكم منها بالإيمان .
يبين الله لكم آياته	يوضح لكم قرآنه .
لعلكم تهتدون	لتكونوا على رجاء الهداية إلى ما فيه ثوابكم ونعيمكم .
المعروف	ما يأمر به الكتاب والسنة ، وهو كل ما يستحسن شرعاً وعقلاً .
المنكر	ما ينهى عنه الكتاب والسنة ، وهو كل ما يستقبح شرعاً وعقلاً .
تفرَّقوا واختلفوا	هم اليهود والنصارى ، وقعت الفرقة بينهم لتعاديهم ، واختلفوا فى الدين ، فكفر بعضهم بعضاً .
البينات	الأدلة التى تجمع كلمتهم على دين واحد ، وهو الإسلام .
اسودَّت وجوههم	اغتموا فاغبر لون وجوههم ، وتبدلت صورهم .
ابيضت وجوههم	استبشروا ، وتهللت وجوههم .
ففى رحمة الله	ففى ثوابه ونعيمه الخالد .
خالدون	باقون دائمون ، لا يجوز عليهم موت ولا فناء .
للعالمين	لعباده جميعاً .

خُدعة يهودية

كان شاس بن قيس اليهودى ، شديدَ الحقد على المسلمين ، كثيرَ الحسد لهم ؛ مرّ يوماً على نفر من الأوس والخزرج ، وكانوا قد أسلموا ، وحَسُنَ إسلامهم ، فى مجلس جَمَعَهم وهم يتحدثون ؛ فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية .

فقال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة — وهى أم الأوس والخزرج— بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم — إذا اجتمع ملؤهم بها — من قرار ، فأمر فتًى شابًّا من اليهود — وكان معه— فقال : اعمِد إليهم ، فاجلس معهم ، وذكِّرْهم ما كان بينهم من إحن وأحقاد وحروب ، وأنشدْهم بعض ما كان يهجو به بعضهم بعضاً من الأشعار ، ففعل ؛ فتكلم كل من الفريقين ، وذكر ما كان له ، وتحركت فى صدورهم بذور العداوات القديمة ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان : أوسىّ وخزرجىّ ؛ وقال أحدهم لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جَذَعة : (كأول ما ابتدأت) ، وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا ، السلاحَ السلاحَ ؛ واجتمع الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، وانضمت الخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه ، حتى جاءهم ، ووقف بين الصفين وقال : يا معشر المسلمين : الله الله ! ! أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهرُكم ، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟ ! فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيدٌ من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ،

وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ورد الله كيد عدوه شاس بن قيس فى نحره ، وأنزل فيه : « يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ما تعملون . . . » إلى آخر الآيات .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه محمداً أن يسأل أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكل من له دين سماوى ، عن سبب كفرهم بما أنزل الله عليهم من كتب ، فإن كل من كفر بمحمد ، فهو كافر بكتابه ، لأن محمداً جاءت صفته والإخبار عن رسالته فى تلك الكتب ، كالتوراة والإنجيل ، فإنكار كل منهم لها ، خروج على دينه ، ولا سيما أنهم يعلمون حقيقة ما يجحدون ، والله مطلع على كفرهم ، ومجازيهم عليه .

٢ — وأن يسألهم : ما سبب محاولتكم إضلالَ غيركم ، والصد عن سبيل الله والإيمان به ، والنيل من الإسلام ، بالتعمية على الناس ، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها السبيل الحق ، وأن الذى يصد عنها ضال ، عليه غضب الله ، وهو ليس بغافل عما تعملون ؟

٣ — نهى الله المسلمين عن اتباع المفسدين ، الذين يحاولون إيقاع الفتنة بينهم ، وحذّرهم الإصغاء إليهم ، لأن اتّباعهم فيه ارتداد عن الإسلام ، ورجوع إلى الكفر .

٤ — ثم استبعد الله أن يرتد المسلمون عن إسلامهم ، وهم يسمعون القرآن يتلى عليهم ، ورسول الله بين ظهرانَيْهم ، وكل من يتمسك بدين الله ويعتصم

بطاعته — فهو مهدىٌّ ، لا تؤثر فيه غواية الغاوين ، ولا تزلزل عقيدته محاولات الضالين ، الحاسدين الخاسرين .

٥ — ينصح الله للذين آمنوا أن يتقوا الله حق تقواه ، بأن يطيعوه فلا يعصوه ، وأن يذكروه ، فلا ينسَوْه، وأن يشكروه فلا يكفروه، وألا يموتوا إلا على الإسلام ، وعلى التمسك به .

٦ — وأمَرَهم أن يستمسكوا بدين الله الذى أمرهم به ، وعهودهم التى عهد إليهم فى كتابه ، وأن يدخلوا فى الجماعة ، وأن يَشُدَّ بعضهم أزْرَ بعض ، وأن تسود بينهم الألفة ، وأن يسلموا أمرهم إلى الله ، وينعموا النظر فيما أنعم به عليهم من الألفة والاجتماع على الإسلام ، بعد أن كانوا متعادين، يقتل بعضهم بعضاً لأوهى الأسباب ، متناحرين بسبب العصبية الحمقاء ، التى كانت مسيطرة عليهم ، يخاف بعضهم بعضاً ، فليس بينهم من يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه ، فصار أبناء العمومة : الأوس والخزرج إخواناً بالإسلام ، بعد أن كانوا على وشك أن يتردوا فى هاوية جهنم بسبب كفرهم ؛ وبمثل هذا الذى بينه الله لكم — مما كان يريده بكم أعداؤكم من اليهود ، ومما كان بينكم فى الجاهلية — يعرِّفكم الله مواضع نعمه عليكم ، لتهتدوا إلى سبيل الرشاد .

٧ — ويأمر الله أفراد هذه الأمة ، أو يأمر علماءها ، أن يأمروا الناس بالمعروف ، وينهَوْهم عن المنكر ، فى حدود ما رسم الكتاب والسنة ، وتواضع عليه علماء المسلمين ، والذين يفعلون ذلك هم خلفاء الله فى أرضه ، وخلفاء رسوله فى أمته ، وخلفاء كتابه فى دينه .

٨ - ويحذر الله المسلمين أن يتفرقوا ، أو يختلف بعضهم مع بعض فى أمور دينهم ، كما تفرق اليهود والنصارى ، وكما اختلفوا ، بعد أن قامت الأدلة القوية التى تجمعهم على دين واحد ، هو دين الإسلام ، ومثل هؤلاء لهم عند الله عذاب عظيم يوم القيامة .

٩ - يوم القيامة يبيضُ وجه المؤمن استبشاراً ، ويفيض نضارة وإشراقاً ، ويسودُّ وجه الكافر ويتربدُ عبوساً وإظلاماً ، ويقال للذين اسودت وجوههم وهم الكفار : أأنتم كفرتم بعد إيمانكم ، فقد كنتم تعترفون بما فى كتبكم من بعث محمد ، فلما بعث أنكرتم عليه رسالته ، وكفرتم به ، أو أأنتم ارتددتم بعد الإيمان ، أو نافقتم فأظهرتم غير ما أبطنتم ؟ فجزاؤكم اليوم العذاب الشديد ، بسبب هذا الكفر ، ويقال للذين ابيضت وجوههم ، وهم المؤمنون : أنتم خالدون فى جنة الله ، ودار كرامته .

١٠ - آيات القرآن هذه ، وما تضمنته من وعد ووعيد وغير ذلك ، ينزلها الله عليك يا محمد ، على لسان جبريل عليه السلام - كلها حق وصدق ، والله لن يعذب أحداً من عباده من غير أن يرتكب ذنباً يستوجب عذابه .

١١ - والله سبحانه وتعالى واسع القدرة ، له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، ومرجع كل شىء إليه ، فالكل عباده وخلقه ، فلن يظلم أحداً منهم ، صالحاً كان أو غير صالح ، محسناً أو غير محسن ، ويلقى كلٌ جزاءه على قدر استحقاقه .

(٤)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . لَيْسُوا سَوَاءً . مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ، يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ . مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ، أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْـلِمُونَ

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كنتم خير أمة	المراد : المهاجرون ومن صنع مثل صنيعهم .
أخرجت للناس	أظهِرت للناس .
تأمرون بالمعروف	تدعون إلى الإسلام وطاعة الرسول .
وتنهون عن المنكر	وتدعون إلى ترك الكفر ، وكل أمر محرّم .
وتؤمنون بالله	وتستمرون على إيمانكم بالله .
ولو آمن أهل الكتاب	ولو آمن جميع أهل الكتاب.
إلا أذى	إلا ضرراً لا يتعدى طعناً فى الدين ، أو تهديداً ، أو نحوهما .
يولوكم الأدبار	يعودوا منهزمين ، من غير أن يأسِروا منكم أو يقتلوا .
ثم لا ينصرون	ثم لا يُمْنَعون منكم بقوتهم ، أو بمعاونة غيرهم .
ضربت عليهم الذلة	قدر على اليهود أن يكونوا أذلاء فى الأرض .
أينما ثقفوا	فى أى مكان وُجدوا .
إلا بحبل من الله	إلا إذا كانوا مستمسكين بدين الله .
وحبل من الناس	وميثاق بينهم وبين الناس ، بعهد أو ذمة .

الألفاظ	شرحها
وباءوا بغضب من الله	واستوجبوا غضب الله لسوء فعلهم .
وضربت عليهم المسكنة	وقدر عليهم أن يخافوا الفقر دائماً ، وإن كانوا على غنى .
ذلك بأنهم	سبب ذلك أنهم .
وكانوا يعتدون	وكان يتعدون حدود الله ، ولا يقفون عندها .
ليسوا سواء	ليس أهل الكتاب فى درجة واحدة .
أمة قائمة	جماعة على دين صحيح ، واستقامة ، فدخلوا فى الإسلام .
يتلون آيات الله	يقرءون القرآن .
آناء الليل	فى ساعات الليل وأوقاته .
ويسارعون فى الخيرات	ويبادرون إلى عمل الخير .
من الصالحين	من المسلمين الذين صلحت أحوالهم ، ورضى الله عنهم .
فلن يكفروه	فلن يحرموا ثوابه .
من الله	من عذاب الله وعقابه .
فيها صرّ	فيها برد شديد .
حرث قوم	زرع قوم .
ظلموا أنفسهم	ظلموها بالكفر .

مجمل المعنى

١ — الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صنع مثل صنيعهم من المسلمين ، كالأنصار وغيرهم ، ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً — هم

خير الأمم فى زمانهم ، وأمثلهم طريقة فى الأمر بالمعروف ، بالدعوة إلى الإسلام ، وفى النهى عن المنكر ، والتنفير من الكفر ، وفى أنهم يستجيبون للدعوة استجابة سريعة ، مقتنعين بما فيها من خير ، وفى أنهم يؤمنون بالله ، ويخلصون له التوحيد والعبادة ؛ فلو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا بما جاء به محمد ، لكان ذلك خيراً لهم فى الدنيا والآخرة ، ولكن الذين آمنوا منهم قليلون ، والذين ظلوا خارجين على الطاعة كثيرون .

٢ — وهؤلاء الفاسقون يحاولون الإضرار بكم ، ولكنهم على كثرتهم ، لن يتجاوز إضرارهم أن يقولوا : عزير ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، وأن يحتالوا عليكم لإضلالكم ، ومع ذلك ، فإن كان فى هذا ضرر عليكم ، فإنه واقع بهم ؛ وهؤلاء اليهود والنصارى ، إن يقعْ بينكم وبينهم قتال ، ينهزموا ، ويستدبروكم هرباً منكم ، والله لن ينصرهم عليكم ، لكفرهم وإيمانكم .

٣ — اليهود والذين كذبوا محمداً ، كتبت عليهم الذلة أينما كانوا من الأرض ، وفى أى مكان كانوا من بقاعها ، من بلاد المسلمين والمشركين ، فلا يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فى بلاد المسلمين أو فى جوارهم ، إلا أن يكون بينهم وبين المسلمين عهد ؛ واستحقوا غضب الله عليهم ، بإلزامهم الذل فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، وخوف الفاقة والفقر ، وإن كانوا ذوى مال ، وذلك كله بسبب كفرهم بآيات الله ، الدالة على صدق أنبيائه ، وبسبب قتلهم الأنبياء بغير حق ظلماً وعدواناً ، وقد أخبرنا الله ما فعله ويفعله بهم فى الدنيا والآخرة بسبب عصيانهم ، ليكون لنا فى ذلك عبرة وعظة .

٤ — أسلم عبد الله بن سلام ، وجماعة من اليهود ، وحسن إسلامهم ، فقال

أحبار اليهود والكافرون منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم ، وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب . . . » إلى قوله : « وأولئك من الصالحين ».

والمعنى : لا يستوى المؤمنون والفاسقون من أهل الكتاب ، فإن منهم جماعة استقاموا على الهدى ، وآمنوا بالله ورسوله ، وقرءوا كتابه ، واتعظوا به ، وعملوا بما فيه ، لأنهم قرءوه قراءة تدبر وتفكر وخشوع ، فى ساعات الليل التى يخلص فيها القلب ، ويصفو الذهن ، وآمنوا باليوم الآخر ، وأمروا بالإيمان ، ودعوا إليه ، ونهوا عن الكفر ، وحذروا الوقوع فيه ، وسارعوا إلى عمل الخير ، خشية أن يفوتهم إذا تأنوا — هذا الفريق من أهل الكتاب فى عداد الصالحين ، المرضىّ عنهم .

٥ — وكل ما يقدِّم من عمل الخير ، فإن الله سيثيب عليه مقدِّمه ، من غير أن ينقصه شيئاً من حقه ، وهو عالم بخلوص النيات ، ومجاز عليها .

٦ — والأمة الفاسقة العاصية من أهل الكتاب ، لن تنفعهم أموالهم التى جمعوها فى الدنيا واكتنزوها ، ولن ينفعهم أولادهم الذين قاموا على تربيتهم ، ولن يدفعوا عنهم شيئاً من عذاب الله ، الذى سيصيبهم يوم القيامة ، فهم مخلدون فى جهنم ، لا يخرجون منها أبداً .

٧ — الكافرون الذين ينفقون من أموالهم فى الحياة الدنيا ، ويعطونها تقرباً إلى إلى الله — وهم ينكرون وحدانيته — على أمل أنها تنفعهم يوم القيامة ، يُبْعثون يوم القيامة ، ويتبدد أملهم هذا ، إذ يجدون ما أنفقوه لا فائدة لهم منه ، فيخيب أملهم ، ويبطل رجاؤهم — مثل هؤلاء الكافرين ، كمثل صاحب زرع ، أمَّل إدراكه ، ورجا رَيْعَه ، وانتظر فائدته ونفعه ، فظلم صاحبُ الزرع نفسَه بعصيان الله ، وأصابه من الحسرة ما أصابه ،

فلا هو أرضى ربَّه ، ولا هو انتفع بزرعه ؛ وإحباطُ الله سبحانه وتعالى أعمالَ هؤلاء الكافرين ، ليس فيه ظلم لهم ، ولا تجنٍّ عليهم ، لأن صدقاتِهم لم تكن منهم ، وهم مؤمنون موحدون ، ولكنها كانت منهم ، وهم مخالفون مشركون ، وقد نُصحوا فلم ينتصحوا ، فهم الذين ظلموا أنفسهم لأنهم عملوا — مختارين — الأعمال التى أوردتهم جهنم .

(٥)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بطانة	أصفياء أخصاء .
من دونكم	من غير المسلمين .
لا يألونكم خبالا	لا يقصرون فى إفسادكم ، وإفساد دينكم ودنياكم .

الألفاظ	شرحها
ودُّوا ما عنتم	تمنَّوا أن يضروكم ضرراً بليغاً فى أنفسكم ، وفى دينكم ودنياكم .
بدت البغضاء من أفواههم	ظهر فى كلامهم شدة كرههم لكم .
وما تخفى صدورهم أكبر	والبغض الذى يضمرونه فى نفوسهم ، أكبر مما يظهر على ألسنتهم .
بيَّنا لكم الآيات	أوضحنا لكم الأسباب التى توجب عليكم الاستعانة بإخوانكم فى الدين دون غيرهم .
وتؤمنون بالكتاب كله	وتؤمنون بكل ما جاء فى الكتب السماوية ، ومنها كتابهم .
قالوا : آمنا	أظهروا لكم أنهم يؤمنون بأن الله واحد .
وإذا خَلَوْا	وإذا انفرد بعضهم ببعض بعيداً عنكم .
موتوا بغيظكم	دعاء عليهم أن يبقَوا على غيظهم حتى يموتوا .
إن الله عليم بذات الصدور	إن الله عليم بحقيقة ما فى النفوس ، ويعرف ما فى صدوركم من غِلٍّ وحقد على المؤمنين .
إن تمسسكم حسنة تسؤهم	إن يصيبكم خير يحزنهم .
لا يضركم كيدهم شيئاً	لا يؤذكم مكرهم .
إن الله بما يعملون محيط	إن الله عالم بما يعملون فى عداوتكم .

مجمل المعنى

١ — كان رجال من المسلمين يوادّون رجالا من اليهود والمنافقين ويواصلونهم ، لما كان بينهم من أسباب فى الجاهلية قبل الإسلام ، فنهاهم الله عن ذلك

بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم... » إلى قوله : « إن الله بما يعملون محيط » ؛ فالله سبحانه وتعالى ينهى المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم أولياء وأصفياء من أهل دين غير دينهم ، ويؤثروهم على إخوانهم المسلمين بالمودة والصداقة ، لأنهم لا يدعون فرصة يستطيعون فيها إفسادكم ، فى أنفسكم وأموالكم ودينكم ، إلا انتهزوها ، ويتمنون أن يضروكم ضرراً بليغاً فى هذا كله ، وأن يسوءوكم ، ولا يسروكم ، وإنهم لشدة كراهيتهم إياكم ، لا يستطيعون إخفاء ما فى نفوسهم ، ولكنهم بدافع لا شعورىّ ، تنطق ألسنتهم بما ينم عن شديد بغضهم ، وسوء قصدهم ، وإن صدورهم وقلوبهم لتخفى من الحقد عليكم ، والكره لكم ، أضعاف ما يبدو من ألسنتهم ، وقد أثبت الله بالدليل موقفهم منكم ، لعلكم تحذرونهم ، ولا تأمنونهم ، ولا تطمئنون إليهم .

٢ – أنتم تحبون هؤلاء الكفار وتوادُّونهم وتواصلونهم ، ولكنهم لا يحبونكم ، ويتمنون لكم الشر والضرر ، مع أنكم آمنتم بالكتب السماوية ، ومنها كتابهم ، فكان يجب عليهم أن يقدروا ذلك منكم ، ويبادلوكم ودًّا بود ، وإخلاصاً بإخلاص ، ولكنهم إذا قابلوكم صانعوكم ، وأظهروا لكم إيمانهم ، واعترافهم بوحدانية الله ، وإذا افترقوا عنكم ، وخلا بعضهم إلى بعض بعيداً عنكم ، عضُّوا أطرف أصابعهم غيظاً منكم ، وكرهاً لكم .

٣ – إن تنالوا خيراً بتعاونكم أو انتصاركم ، أو دخول الناس فى دينكم ، أو تصبكم نعمة – يحزنهم ذلك ويؤلمهم ، ويشعلْ نار الحقد فى قلوبهم ، وإن لحقكم ضرر فى أى أمر من الأمور – يسرهم ذلك ، وينعشهم ويبهجهم ، ولكن المسلمين إذا صبروا على ما عسى أن يصيبهم ، وصبروا على محاولة أعدائهم الإضرار بهم ، واتقوا الله فى كل ما يعملون ،

وأخذوا حذرهم من هؤلاء الأعداء — فإن مكايدهم إياكم لن تؤذيكم ، ولن تضركم ، والله عالم بما يعملون فى معاداة المسلمين .

قصة أحد

الآيات التى فى سورة آل عمران من أول قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » — تشير إلى الأحداث التى وقعت فى غزوة أُحُد : لذلك آثرنا أن نذكر قصة هذه الغزوة كاملة ، ثم نحيل على ما نذكره فى أثناء التفسير .

وقعت غزوة أحد فى شوال ، من السنة الثالثة للهجرة ، وهى غزوة كان فيها امتحان للمسلمين ، وابتلاء لهم ، وفيها كانت مواقف للمسلمين ، ومواقف للمنافقين ، وفيها كانت دلائل للنبوة ، وتأييد لمحمد صلى الله عليه وسلم فى نواح مختلفة .

وسببها أنه لما عاد المشركون من « بدر » إلى مكة ، بعد أن هزمهم المسلمون ، وجدوا التجارة التى أقبل بها أبو سفيان من الشام موقوفة فى دار الندوة ، لم يتصرفوا فيها ، ولم يوزعوا مالها على أصحابه ، فرأى أصحاب التجارة أن يتبرعوا بها لتجهيز جيش لقتال محمد وأصحابه . وباعوا العير ، وكانت مكونة من ألف بعير ، وسلع قيمتها خمسون ألف دينار ، فأقبل الناس على شرائها ، وأغلَوْا ثمنها ، حتى كان ما قيمته دينار ، يباع بدينارين .

ثم بعثوا وفوداً منهم إلى العرب يَستنفِرونهم ، فألّبوهم على محمد وأصحابه ، وجهزوا جيشاً كثيفاً لغزوه هو ومن اتبعه فى المدينة ، وكان الجيش ثلاثة آلاف رجل ، ومائتى فرس ، وثلاثة آلاف بعير ، وخرج خمس عشرة ظعينة ، (الظعينة :

المرأة فى هودجها) ، وبعض نساء مكة ، يبكين قتلى بدر ، وينُحن عليهم ، ثم سار الجميع نحو المدينة .

كتب العباس بن عبد المطلب عم محمد صلى الله عليه وسلم كتاباً إليه ، يخبره فيه بذلك ، ثم شاع الخبر بين اليهود والمنافقين .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العيون ، وبث الأرصاد ، فعرف أنهم نزلوا فى أُحد ، على خمسة أميال من المدينة ، ثم أرعوا إبلهم آثار الحرث والزرع حول المدينة ، فلم يتركوا خضراء ، وانتهى إليه عددهم وعُدَدهم ، فقال لمن أخبروه : لا تذكروا من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول ، وبك أصول ، ولعله كان يريد بذلك الكتمان ألا يشيع بين أصحابه ذلك ، فتفتر عزائمهم .

وباتت وجوه الأوس والخزرج عليهم السلاح ، بباب النبى صلى الله عليه وسلم ، خشية أن يهجم المشركون على المدينة ، ويفاجئوه بسوء .

ورأى صلى الله عليه وسلم فى منامه رؤيا ، فلما أصبح ، خطب فى الناس ، وكان مما قاله : أيها الناس ، إنى رأيت فى منامى رؤيا : رأيت كأنى فى درع حصينة ، ورأيت كأن سيفى ذا الفَقار انقصم : تكسر من عند ظُبَتِه « حده » . ورأيت بقراً تُذبَح ، ورأيت كأنى مردِف كبشاً . فقال الناس : يا رسول الله ، فما أوّلتها ؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفى من عند ظبته ، فمصيبته فى نفسى ، وأما البقر المذبح فقتلى من أصحابى ، وأما أنى مردِف كبشاً . فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

وهنا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدى رأيه فى قوله : فامكثوا فيها ، ولكنه مع ذلك آثر أن يستطلع رأى أصحابه ، فقال : أشيروا علىّ ، وكان أول من وافقه على رأيه فى عدم الخروج من المدينة للقاء قريش فى ظاهرها — هو

عبد الله بن أبيّ ، وتابعه بعض أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، فوافقهم النبي ، ابتداء ، ثم قال : امكثوا فى المدينة ، واجعلوا النساء والذرارىّ فى الآكام : «البيوت المرتفعة» ، فإن دُخل علينا قاتلناهم فى الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، ورُموا من فوق الصياصى : «الحصون»

لم يطمئن إلى هذا الرأى فتيانٌ أحداث ، لم يكن لهم شرف المشاركة فى بدر ، وهم يحبون لقاء العدو ، ويرجون الاستشهاد فى سبيل الله ، فقالوا : اخرج بنا إلى عدوّنا ، وقال بعض الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم ، جُبْناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنتَ يوم بدر فى ثلثمائة رجل ، فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم نفر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا ، قال هؤلاء الناس ذلك ، وألحوا فيه ، ولبسوا السلاح ، ورسول الله كاره ، فحلف أحدهم ألا يطعم اليوم طعاماً حتى يجالدهم بسيفه خارج المدينة ؛ فلما أبوا إلا ذلك ، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأيهم ، وأمرهم بالجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح بعض الناس بالخروج إلى العدو ، ولكن كثيراً منهم كرهوا هذا الخروج ، وعتبوا على إخوانهم أن استكرهوا النبي على الخروج ، وطلبوا إليهم أن يردوا الأمر إليه ، وما يأمرهم يفعلونه ، وبينما هم فى جدالهم ، خرج عليهم رسول الله وقد لبس لَأْمَتَهُ : «درعه» ، فقالوا : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، فقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبىّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم .

عقد النبي بعد ذلك ثلاثة ألوية : لواء للأوس ، ولواء للخزرج ، ولواء للمهاجرين ، وخرج فى جيشه للقاء الكفار ، حتى إذا وصل إلى مكان من

الطريق سمع جلبة وضجيجاً ، فالتفت فإذا حُلَفاء عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن معه من اليهود يرجعون ، وكان قد عرض عليه صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يستعينوا بحلفائهم من اليهود فأبى ، وقال : لا نَستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا .

وبقي المؤمنون وعددهم سبعمائة ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف من القرشيين ، كلهم موتور .

التقى الجيشان ، ونظم النبي جيشه ، وبوأه مقاعده ، وجعل أحُداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، ومشى على رجليه يسوى الصفوف . ثم خطبهم خطبة نصحهم فيها أن يوطّنوا أنفسهم على الصبر واليقين ، والجد والنشاط ، وأن يتجنبوا التنازع والخلاف ، لأن الله لا يعطى النصر والظفر مع الخلاف .

نشبت الحرب بين الفريقين ، وبدأت بالمبارزة ، فقتل علىّ طلحة بن أبي طلحة كبشِ الكتيبة ، وسارت نساء قريش أمام الجيش يضربن بالدّفوف والغرابيل ، ثم يرجعن وراء الصفوف عند التحام الجيشين ، حتى إذا رأين فاراً عيّرنه ، وذكّرنه قتلى بدر ، وأنشدن الأناشيد . وتقدم صلى الله عليه وسلم إلى الرُّماة ، وقال لهم : احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نُؤتَى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا عنه ، وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم ، فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل ، فلا تُعينونا ، ولا تدفعوا عنا ، اللهم إنى أشهدك عليهم ، وارشقوا خيلهم بالنّبل ، فإن الخيل لا تُقْدِم على النبل .

حَمى الوطيس ، وحَمَى الرماة ظهور المسلمين ، ورشقوا خيل المشركين بالنبل فولت هوارب ، وشد المسلمون على كتائب المشركين ، فجعلوا يضربون ، حتى اختلّت صفوفهم ، ولما قُتِل صاحبُ لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة تبعه أولاده الأربعة ، الذين تناوبوا اللواء واحداً بعد واحد ، فنذرت أمهم وكانت مع نساء المشركين ، لتشربن الخمر فى قِحْفِ رأس عاصم بن ثابت ، لأنه قتل اثنين من ولدها ، والقِحف : العظم الذى فوق الدماغ .

قالوا : وما ظفَّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى موطن قط ، ما ظفَّره وأصحابه يوم أحد ، حتى عصوا الرسول ، وتنازعوا فى الأمر .

وذلك أن المشركين انكشفوا ، وولوا منهزمين لا يلوون على شىء ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفوف والفرح ، ولكن المسلمين أصابهم بعد ذلك ما أصابهم بسبب الرماة ، فإن المشركين لما انهزموا ، وتبعهم المسلمون ، يضعون السلاح فيهم حيث يشاءون ، ووقعوا على عسكرهم ينهبونه ويغتنمونه — قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون ها هنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا واغنموا مع إخوانكم ؛ فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكم : احموا ظهورنا ، ولا تبرحوا مكانكم ، وإذا رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن غنمنا فلا تَشركونا ، واحموا ظهورنا ؟ فقال الآخرون : لم يُرِد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل المشركين ، وانطلقوا فلم يبق منهم مع أميرهم إلا دون العشرة ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون .

وبينما كان المسلمون مشغولين بجمع الغنائم ، دهمتهم خيول المشركين وفرسانها ، ووضعوا سيوفهم فى أعناق المسلمين ، وقتلوا فيهم تقتيلا ذريعاً ، وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وتركوا ما نهبوا ، وخلَّوْا من أسروا ، وشاع بينهم أن محمداً قد مات ، واختلط المسلمون ، وصاروا يقتلون ، ويضرب بعضهم بعضاً من العجلة والدهش .

تفرق المسلمون عن رسول الله ، وساءهم ما أشاعه المسلمون عن موته ، ثم لم يلبثوا أن علموا أنه ما زال ينافح ، وينافح معه قلة من أصحابه ، كان يدعوهم إليه ، ثم انطلق إلى الشِّعب فى جماعة من أصحابه ، وليس لهم لواء قائم ، والمشركون فى سعة الوادى يقبلون ويدبرون ، يلتفون ويفترقون ، فلا يرون أحداً يردهم ، أو يعترض سبيلهم .

وأصيب النبى فى هذه الغزوة ، وكسرت رَباعيته ، ودَميت شفتاه ، وشُج فى وجنتيه ، حتى غاب حلق المِغْفَر فى وجنته ، وأصيبت ركبتاه ، والمِغْفَر : زرد من الدرع ، يلبس تحت القلنسوة ، ويغطى أكثر الوجه .

وكان سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنه يغسل الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسمعه يقول : كيف يُفْلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل ، فأنزل الله : « ليس لك من الأمر شىء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون » .

وكان فى جيش المسلمين نساء مسلمات ، عددهن أربعَ عشرة امرأة ، منهن فاطمة وعائشة وأم أيمن ، وكن يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، فهن خارجات لخدمة الجيش ، لا لتشجيعه على الظلم والبغى ، كما فعلت نساء قريش ، وإن من نساء المسلمين من قاتلت فى ذلك اليوم ، ودافعت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وتلك هى أم عُمارة ، نسيبةُ بنت كعب النجارية ، فقد خرجت يوم أحد هى وزوجها وابناها ، ومعها قربة لتسق الجرحى ، فقاتلت ، وأبلت بلاء حسناً ، حتى جرحت اثنى عشر جرحاً ، بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، فقد كانت بين يدى رسول الله هى وزوجها وابناها يذبون عنه ، فلما انهزم المسلمون ، جعلت تباشر القتال ، وتذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ، وترمى بالقوس ، فلما أقبل ابن قَمِئة يريد رسول الله اعترضته ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيها بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هى ضربات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَمَقام نسيبة بنت كعب اليوم ، خير من مقام فلان وفلان ، ثم قال : ما التفتّ يميناً ولا شمالا ، إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

وكانت هند بنت عتبة أول من مثّل بقتلى المسلمين ، وأمرت نساء المشركين

أن يمثلن بهم ، فجدعن أنوفهم وآذانهم ، وجعلت لنفسها منها قلائد وأقراطاً .

وطلع رسول الله بعد ذلك هو والذين ثبتوا معه على أصحابه فى الشعب ، فلما رأوه سُرّوا ،حتى لكأنهم لم تصبهم مصيبة فى أنفسهم ، وبينما هم على ذلك رد المشركون عليهم ؛ فلم يشعر المسلمون إلا وهم فوقهم ، فندب النبى أصحابه لقتالهم ، فحملوا عليهم فانكشفوا ، وكان رسول الله يتلو : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين »، ثم ألقى الله النعاس على المسلمين فناموا ، ثم هبّوا من نومهم ، كأن لم تصبهم قبل ذلك نكبة .

وقال أحد المسلمين : ولو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، فأنزل الله : « إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غمّاً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنة : نعاساً ، يغشى طائفة منكم ، وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسُهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

ولما تحاجز الجيشان ، جرت مناظرة بين عمر وأبى سفيان ، تأكد منها المشركون أن محمداً ما زال حيّاً ، ثم عادوا إلى مكة .

وشُغل رسول الله بدفن أصحابه ، فلما فرغ من دفنهم عاد إلى المدينة .

أما موقف المنافقين ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقد كان موقف شماتة وسرور بما أصاب المسلمين ، وأظهروا أقبح القول ، وأدلّه على شماتة حمقاء ، وكذلك كان موقف اليهود ، فقد اتهموا محمداً بأنه طالب مُلك ، لأنه أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه ، وما أصيب كذلك نبى قط ، فأراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن يقتل من يُظهر الشماتة من اليهود والمنافقين ، فنهاه النبى عن ذلك ، وقال له : ياعمر ، إن الله مظهر دينه ، ومُعِزٌّ نبيه ، ولليهود ذمة ، فلا أقتلهم ، قال عمر : فهؤلاء المنافقون ؟ قال : أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، قال علىّ : يا رسول الله ، إنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة ، فقال : نُهيتُ عن قتل من قال : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يا بن الخطاب : إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم ، حتى نتسلم الركن .

وهذا دليل أى دليل على تسامح النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود والمنافقين ، وحسن سياسته معهم .

(٦)

وَإذ غدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ تُبوِّئُ الْمُؤْمِنينَ مَقاعِدَ لِلقِتَالِ ، وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ . إذ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أنْ تفشَلا ، وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللهِ فَليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأنتُمْ أذِلَّةٌ ، فَاتقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ : ألَنْ يَكفِيَكُمْ أنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى ، إنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أوْ يَكْبِتَهُمْ ، فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ، أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإنَّهُمْ ظَالِمُونَ . وَلِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإذ غدوت	وإذ خرجت غدوة فى أول النهار .
تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال	تنزلهم وترتبهم فى أماكنهم من الجيش ، للمحاربة يوم أحد .
سميع عليم	يسمع أقوالكم ، ويعلم نياتكم ، وما يجرى فى صدوركم .
طائفتان	حيّان من الأنصار ، وهما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس .
وأنتم أذلة	وأنتم فى قلة عدد وعُدَد .
فاتقوا الله	فخافوا الله ، واثبتوا مع رسوله .
بلى	نعم ، يكفيكم الإمداد .
إن تصبروا	إن تصبروا على القتال ولا تيئسوا .
وتتقوا	وتبتعدوا عن الخلاف .
ويأتوكم من فورهم هذا	ويأتوكم الآن من غير ريث ولا تمهل .
مسوّمين	معلّمين .
إلا بشرى لكم	إلا بشارة لكم ، وعلامة على أنكم منتصرون .
وما النصر إلا من عند الله	وما يؤدى إلى النصر إلا توفيق الله .
العزيز	الذى لا يغالب .
الحكيم	الذى يضع النصر حيث يجب أن يوضع ، ويضع الهزيمة حيث يجب أن توضع .

الألفاظ	شرحها
ليقطع طرفاً من الذين كفروا	لينقص عددهم بإهلاك طائفة منهم بالقتل ؛ أو أخذهم فى الأسر .
أو يكبتهم	أو يخزيهم ويذلهم بالهزيمة وعارها .
فينقلبوا خائبين	فيرجعوا منهزمين لم ينالوا شيئاً مما راموه .
فإنهم ظالمون	فإنهم مستحقون العذاب إن لم يتوبوا .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد حين خرجت صباحاً من عند أهلك ، ترتب جيشك يوم أُحُد ، والله يسمع ما تقوله ، ويقوله أصحابك ، عالم بما يشيرون عليك به .

٢ — وعالم بما حدث من بنى سلمة ، وبنى حارثة ، حين كانا لا يريدان أن يخرجا إلى أُحُد ، واستولى عليهما الخوف والرعب ، جُبْنا عن ملاقاة المشركين ، ولكن ما لهاتين الطائفتين يصيبهما ما أصابهما من الجبن والفزع والذعر ، مع أن الله سبحانه وتعالى وليهما وناصرهما ؟ والمؤمنون يتوكلون عليه ، ويفوضون أمرهم إليه ، فيجبرهم وينصرهم .

٣ — والله سبحانه وتعالى نصركم فى غزوة بدر ، وكانت بينكم وبين المشركين ، قبل أحد ، نصركم الله فى هذه الغزوة ، مع ما كنتم عليه من قلة العدد ، والسلاح ، والمئونة ، فكانت حالتكم حالة ذلة وقلة وانكسار .

فقد ندب رسول الله أصحابه للخروج إلى عير قريش ، حين انصرفت من الشام إلى مكة ، وخرج معه أكثر من ثلثمائة رجل ، وكانوا يتعاقبون على سبعين بعيراً ، أما عير قريش فكان فيه ألف بعير ، تحمل

أموالا عظاماً ، ومتاجر قيمتها خمسون ألف دينار ؛ انتظر النبيّ رجعة العير من الشام ، فلما علم بذلك أبو سفيان ، وكان على العير ، أرسل إلى قريش من يخبرها أن محمداً قد عرض للعير ، فنفرت قريش فى تسعمائة وخمسين رجلا .

أما أبو سفيان فإنه سار بالعير على ساحل البحر الأحمر ، ونجا من محمد وأصحابه .

وأما قريش فإنها أبت أن ترجع من غير أن تلاقى محمداً .

وإذ كان محمد صلى الله عليه وسلم بالقرب من بدر ، أتاه الخبر بمسير قريش إليها ، فاستشار الناس ، فأشار عليه أكثرهم بالمسير ، فقال : سيروا على بركة الله ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ، ثم أراهم مصارعهم يومئذ ، فما عدا كل رجل مصرعه .

نزل النبي أدنى بدر ، فأرسل جماعة يتحسّسون الماء ، فوجدوا إبل قريش وبعض رجالهم يحملون ماء ، فأخذوهم ، ما عدا من أفلت منهم ، وعرف صلى الله عليه وسلم من السقائين خبر قريش ، وقال لقومه : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، ثم نزل على أدنى ماء من قريش ليشرب ولا يشربوا ، ثم قامت الحرب بين الفريقين ، وانهزم المشركون ؛ فاشكروا الله على نعمه ، وروضوا أنفسكم على التقوى ، وتذليلُ النفس سبيل إلى شكر الله .

٤ — وفى الوقت الذى كنت فيه تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، كنت تقول لهم : أليس يكفيكم أن يساعدكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، بل إنكم إن صبرتم واتقيتم ، وخرجتم إلى الأعداء من فوركم — يمدكم بخمسة

آلاف من الملائكة ، ولكنهم لم يصبروا كما أمرهم ، فلم يمدهم الله بثلاثة آلاف ، ولا بخمسة آلاف ، ولا نفهم من الإمداد بالملائكة أن الله ينزل الملائكة حقيقة ، وينضمون إلى جيش المسلمين ، ويحاربون فى صفوفهم بالسيوف والرماح ، ولكنا نفهم أن الله يمدُّهم بمعنى يقويهم ، ويشجعهم ، ويبعث فيهم روحاً معنوية ، ويطمئن نفوسهم بأن النصر معقود لهم ما صبروا ، وما أطاعوا نبى الله محمداً فيما يأمر به وينهى عنه .

٥ — وما جعل الله هذا الإمداد المعنوى الروحانى إلا بشرى لكم بالنصر ، ولتطمئن قلوبكم لوقوعه ، فلا تجزع ولا يستولى عليها الرعب ، من كثرة عدد الأعداء ، وتوافر سلاحه ، وتيسر زاده ؛ واعلموا أنكم إن نصرتم ، فإن الله هو ناصركم ، فلستم أنتم ولا الملائكة ، ولا أى أحد يستطيع أن يجلب النصر ، ولكن الله العزيز القوى ، الذى لا يمتنع عليه شىء ، الحكيم الذى يدبر الأمر خير تدبير ، هو وحده الذى ينصركم ، وينصر أولياءه دائماً ، إن عاجلا أو آجلا .

٦ — وينصركم الله سبحانه وتعالى فى بدر أو غير بدر ، ولا يتأتى ذلك النصر إلا بإهلاك جانب من الكفار ، ونقص عددهم ، وإضعافهم بقتل بعض وأسر بعض ، والذى ينجو من القتل أو الأسر يلحقه عار الهزيمة ، وخزى الانكسار ، وخيبة المنقلَب .

٧ — ومع ذلك ، فإنه يجوز أن يتوب الله على من ينجو منهم من القتل ، ويتفضل عليه بنعمة الإسلام ، فإن لم يكن له فى الإسلام نصيب ، وظل على كفره ، فالله معذبه ، وهو مستحق ذلك ، لأنه ظلم نفسه ، وأنت يا محمد ليس لك شىء من أمر هؤلاء ، فإنما أنت رسول الله إليهم ، وعليك أن تبلغهم ، وتحذرهم ، وتنذرهم ، فإن أسلموا سرك إسلامهم ،

وإن لم يسلموا فسينتقم الله لك منهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم َهمّ أن يدعو على أهل أحد من الكفار ، فلما نزلت هذه الآية ، علم أن منهم من سيسلم ، ويحسن إسلامه ، وقد حدث هذا ، فأسلم منهم خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهما .

٨ — والله له ملك ما فى السموات وما فى الأرض ، يتصرف فيه كما يشاء ، فيغفر لمن يريد أن يغفر له ، ويعذب من يشاء أن يعذبه ، وهو وحده الذى يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه ، والرحيم بالمذنبين فى تأجيل العقوبة ، فإن منهم من سيتوب .

(٧)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللهَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ، فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
لا يكن للرجل دين ، فإذا حل الأجل أخر وزاد فيه .	لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة
تصوير لسعتها .	عرضها السموات والأرض
فى حالة اليسر والعسر ، والمراد : جميع الأحوال .	فى السراء والضراء
والذين امتلأت قلوبهم غيظاً ، وأمسكوا عليه بالصبر .	والكاظمين الغيظ
والذين لا يؤاخذون من يجنى عليهم ، مع قدرتهم على المؤاخذة .	والعافين عن الناس
فعلة قبيحة قبحاً متجاوزاً حده .	فاحشة
ظلموها بفعل ما يعاقب عليه .	ظلموا أنفسهم
فتابوا توبة نصوحاً .	فاستغفروا لذنوبهم
ولم يصمموا على الاستمرار فى فعلهم القبيح .	ولم يصرّوا على ما فعلوا
وهم يعلمون أنهم فعلوا سيئاً ، ويعرفون أنهم لا يغفر لهم إلا ربهم .	وهم يعلمون
ونعم ما يجازِى به الله العاملين ، والجزاء : هو أن يغفر لهم ، ويدخلهم الجنة .	ونعم أجر العاملين
قد مضت من قبلكم أمم ، وكان لهم حوادث وأخبار .	قد خلت من قبلكم سنن
كل ما قدمنا لكم ذكره .	هذا
وهداية وإرشاد .	وهدى
وموضع عبرة .	وموعظة

مجمل المعنى

١ — نهى الله عن أكل الربا فى الإسلام ، كما كان يؤكل فى الجاهلية ، وعن التعامل به ، وقد سبق ذلك فى الصفحة ٤٠ من تفسير الجزء الثالث ، وكان بعض العرب يبيع إلى أجل ، فإذا حل الأجل ، ولم يستطع المشترى أو المقترض السداد ، زاد الدين للتأجيل ، ويتكرر هذا ، فيتضاعف المال ، ويزيد الدَّين، وتصير الزيادة أضعافاً مضاعفة ، فخافوا الله واتقوه ، لعلكم تنجون من عذابه ، وتنالون ما ترغبون فيه من ثوابه .

٢ — واتقوا النار التى تعذَّبون بها ، بسبب أكلكم الربا أضعافاً مضاعفة : وبسبب غيره مما ترتكبون من المعاصى ، وهذه النار هيأها الله لمن كفروا به ، وتركوا طاعته .

٣ — وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه ، من أكل الربا ، ومن ارتكاب غيره من المعاصى ، وأطيعوا الرسول كذلك فيما أمركم به ، لترحموا يوم القيامة : ولا تعذَّبوا ، ولا تخالفوه مخالفتكم إياه يوم أحد ، فقد كانت نتيجة هذه المخالفة ما أصابكم من هزيمة .

٤ — وسارعوا إلى عمل ما يستر عليكم ذنوبكم ، وإلى جنة واسعة فسيحة ، كأقصى ما نتصوره من الاتساع والانفساح ، وهذه الجنة أعدها الله سبحانه وتعالى للمتقين ، الذين أطاعوا فيما أمروا ، وانتهوا عما نهوا ، فلم يتعدوا حقاً ، ولم يهملوا واجباً .

٥ — والذين أعدت لهم الجنة ، هم : الذين ينفقون أموالهم فى حالتى السعة والضيق ، والرخاء والشدة ، والذين امتلأت نفوسهم غيظاً ، ومع ذلك يصفحون عن الناس إذا أذنبوا ، وكانوا هم قادرين على رد الإساءة

بمثلها . ولكنهم فضلوا العفو ، والله سبحانه وتعالى يحب كل محسن تصدر هذه الأعمال الطيبة منه ، ويدخله الجنة التى أعدها له .

٦ — وأعدت هذه النار أيضاً للذين يرتكبون الفاحشة ، ويعملون الأعمال القبيحة التى نهى الله عنها ، وللذين فعلوا بأنفسهم غير ما كان يجب أن يفعلوه ، كأن يرتكبوا من المعاصى ما أوجب الله عليه العقوبة — هؤلاء فعلوا مافعلوا ، ثم ذكروا أن الله يرصُدهم ، وأنه سيعذبهم ، فتابوا وأنابوا ، واستغفروا ، وسألوا الله أن يصفح عنهم ، إذ لا أحد يملك العفو غيره ، ولم يصروا على ارتكاب هذه الذنوب ، وإنما هى توبة نصوح ، وهذا فضل كبير من الله عليهم ، تسعهم رحمته التى وسعت كل شىء .

وقد نزلت فى رجل تمّار ، أتته امرأة حسناء ، تبتاع منه تمراً ، فضمها إلى صدره وقبلها ، فندم على ذلك ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له ، وفى هذا حضٌ للناس على التوبة ، وفتح لباب الأمل فى رضا الله .

٧ — وهؤلاء المتقون الذين ذكروا ، جزاؤهم عند الله يوم القيامة ، أنهم يغفر الله لهم ذنوبهم ، ويدخلهم جنات تجرى المياه خلال أشجارها ، ويقيمون فيها إقامة أبدية دائمة ، وهذه الجنات التى وصفها الله تعالى ، خير جزاء للعاملين .

٨ — مضت أمم قبلكم كعاد وثمود ، وكان لكل أمة مع نبيها قصة ، فآمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، والكافرون أمهلهم الله ، ونبّههم إلى سوء العقبى ، ثم عاقبهم ، وأخذهم أخذاً شديداً ، وهذه عاقبة كل من يكذبون نبيهم ، فلا يحزنكم أن الكفار أصابكم منهم ما أصابكم يوم أحد ، فستنصرون عليهم ، والعاقبة لكم .

٩ — هذا الذى ذكره الله من قبل ، من تذكير وتحذير ، وإغراء وتنفير ، وضرب المثل بالأمم السابقة ، ساقه ليجعل فيه هداية وعبرة ، وذكرى للذين يتقون الله .

(٨)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ؟ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، كِتَابًا مُؤَجَّلًا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ . وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ

يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تهنوا	ولا تضعفوا عن الجهاد بسبب ما لحقكم من الهزيمة .
ولا تحزنوا	ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من الغنيمة ، ولا بسبب قتل من قُتل ، وجرح من جُرح يوم أحد .
وأنتم الأعلون	وأنتم أعلى من أعدائكم ، بسبب ما أحرزتم من النصر فى بدر ، وبسبب ما تحرزون فى المستقبل ، ولأن جهادكم لله ، وجهادهم للشيطان ، ولأن مصيركم الجنة ، ومصيرهم النار .
إن كنتم مؤمنين	إن بقيتم على إيمانكم .
إن يمسسكم قرح	إن تصبكم جروح تؤلمكم .
فقد مس القوم قرح مثله	فقد أصاب الكافرين فى بدر مثل الذى أصابكم فى أحد .
نداولها	نصرفها ونقلبها بين بؤس ونعيم ، وإعطاء وحرمان .
ويتخذ منكم شهداء	ويكرم بعضكم بعضاً بالشهادة .

الألفاظ	شرحها
لا يحب الظالمين	لا يحب الذين لا يثبتون على الإيمان، من المنافقين وغيرهم .
ويمحق	ويبيد ويهلك .
أم حسبتم	لا تحسبوا ، أو أحسبتم ؟
تمنون الموت	تتمنون أن تخرجوا للقتال لتستشهدوا ، والمراد : الذين ألحوا على النبي أن يخرج من المدينة إلى أحد .
رأيتموه وأنتم تنظرون	رأيتم الموت بأعينكم ، حين كنتم تنظرون إلى إخوانكم وهم يقتلون فى أحد .
قد خلت	قد مضت .
انقلبتم على أعقابكم	ارتددتم ، ووليتم منهزمين .
وما كان	وما جاز .
بإذن الله	بعلم الله .
كتاباً مؤجلا	كتب الموت على كل نفس كتاباً موقوتاً ، بأجل محدود ، لا تعجِّله الحرب ، ولا تؤخِّره السلم .
ومن يرد ثواب الدنيا	ومن يرد بقتاله الحصول على الغنيمة .
ومن يرد ثواب الآخرة	ومن يرد بقتاله نصرة الدين ، وثواب الله يوم القيامة .
وكأين من نبيّ	وكثير من الأنبياء .
ربيون	أتباع كثيرون ، عملوا على نصرة الرب .
فما وهنوا	فما ضعفت عزائمهم عند قتل نبيهم ، أو لقتل من قتل منهم .

الألفاظ	شرحها
وما ضعفوا	وما أصابهم ضعف بعده .
وما استكانوا	وما خضعوا لعدوهم ، وذلوا له ، لما أصابهم .
وإسرافنا فى أمرنا	وتجاوزنا الحد ، وإفراطنا ، والذنوب الكثيرة التى فعلناها .
وثبّت أقدامنا	واجعلنا ثابتين فى الجهاد .
فآتاهم الله ثواب الدنيا	فأعطاهم الله جزاءهم فى الدنيا بالنصر ، وأخذ الغنيمة .
وحسن ثواب الآخرة	الجنة .

مجمل المعنى

١ — يا أصحاب محمد ، لا تضعفوا بسبب ما لحقكم من الهزيمة فى أحد ، بقتل من قتل ، وجرح من جرح ، ولا تحزنوا على ما لحقكم من المصيبة ، ولما فاتكم من الغنيمة ، فأنتم ظهرتم عليهم فيما مضى فى غزوة بدر ، وستظهرون عليهم فيما يأتى ، بالنصر ونشر الدين ، إن ثبتّم على إيمانكم ؛ وفى هذا تعزية كريمة من الله للنبي وأصحابه ، وتبديد لليأس الذى أصاب بعضهم ، وحث لهم على استئناف الجهاد فى سبيل الدعوة .

٢ — وإن كان قد قُتل بعضكم فى غزوة أحد ، فقد قُتِل من أعدائكم فى غزوة بدر ، وإن كنتم أصِبتم بالقروح ، وتألمتم من الجروح ، فى غزوة أحد ، فقد أصيب الكفار بمثل ما أصبتم به فى غزوة بدر ، والأيام دول : فيوم لنا ويوم علينا ، ويوم نُساء ويوم نسر ، فالحرب سِجال ، والفرق

بينكم وبينهم ، أن قتلاكم فى الجنة ، وقتلاهم فى النار ، والله يميِّز بذلك المؤمنين منكم من المنافقين الذين يراءون ، ويكرّم الشهداء منكم ، وهو لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم ، وبعدم ثباتهم على الإيمان به .

٣ — وليطهر وليخلّص الذين آمنوا ، ويختبرهم بالابتلاء ، ويمتحن صبرهم ويعينهم ، ويهلك الكافرين بالإبادة والإفناء .

٤ — يا أصحاب محمد ، أظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن يتبين المخلص فى جهاده فى سبيلى ، الصابر عند البأس واشتداد الكرب على ما يناله ، من قتل أو أذى ؟

٥ — لقد كنتم تتمنون الموت شهداء كما استُشهد قبلكم بعض محاربى بدر ، وتدفعون نبيكم إلى الخروج إلى أحد ، وكان ذلك على غير ما يرى ، وقد رأيتم ما كنتم تتمنون من الموت ، ووقع تحت أعينكم .

٦ — حين أشاع المشركون أن محمداً قد قُتِل فى أحد ، أصاب بعض المسلمين فزع شديد ، ووجد المنافقون مجالا لإضعاف الروح المعنوية بينهم ، ففرَّ من فر ، وثبت من ثبت ، فبين الله لهم أن محمداً رسول كغيره من الرسل الذين سبقوه ، عمله الدعوة إلى توحيد الله ، وعبادته ، وإلى التصديق بما جاء به رسله ، فلما استوفى هؤلاء الرسل السابقون آجالهم ، ماتوا كما يموت الناس ، ولما كان محمد واحداً منهم ، فإنه يجرى عليه ما جرى عليهم ، وإذا استوفى أجله يموت كما ماتوا ، وكما يموت الناس ، ثم عاتب الله أصحاب نبيه عتاباً مرًّا على فرارهم ، إذ كيف يسوغ لهم أن ينقلبوا على أعقابهم ، ويفروا من الجهاد ، ويرتدوا إذا مات ؟ والذى ينقلب على عقبيه ، ويفر من الجهاد ويرتد — فإن عمله هذا لن يؤثر فى عزة الله

وعظمته وسلطانه ، والله سيثيب من شكره على توفيقه وهدايته ، وثباته على دينه ، واستقامته على مبدئه ، عاش محمد أو مات .

٧ — لا يموت محمد ولا غيره من الناس إلا بعد أن يستوفى أجله المكتوب ، لا يستقدم عنه ساعة ، ولا يستأخر عنه لحظة ، فلا الإقدام يقرب الآجال ، ولا الإحجام يؤخرها ، فالذى يبتغى الحياة الدنيا ، ويريد شيئاً من أعراضها ، ويؤثر ذلك على ما عند الله ، يعطيه الله منها أيام حياته ما قَسَمَ له من رزق ، ويحرمه ثوابه وإحسانه ، والذى يبتغى الحياة الآخرة ، ويريد نعيم الجنة ، ويؤثر ذلك على زخرف الدنيا الزائل ، يعطيه الله منها ، ولا يحرمه نصيبه من الدنيا ، وسيثيب الله من شكر له إحسانه ، بتوفيقه وهدايته .

٨ — وكثير من الأنبياء السابقين ، قاتل معهم كثير من أصحابهم ، وأصفيائهم وخلصائهم ، وصبروا على لأواء الحرب وشدتها ، وما فترت همتهم لما أصابهم من جراح ، ولا جَبنوا لقتل بعضهم ، ولا ضعفوا حينما قتل أنبياؤهم ، ولا ذلوا واستسلموا لعدوهم ، بالمداهنة والمصانعة ، أو الارتداد ، ولكنهم صبروا على قضاء الله ، والله يحب الصابرين أمثالهم ، وفى ذلك تقريع شديد لمن تزلزل إيمانه فى غزوة أحد ، حينما أشاع المرجفون أن محمداً قد قتل .

٩ — هؤلاء الرِّبِّيُّون الذين قاتلوا مع أنبيائهم ، لم يكن لهم قول حين قتل أنبياؤهم ، إلا الاستغفار من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وما يكونون قد تجاوزوا حدودهم فيه ، وسؤال الله أن يلهمهم الصبر ، وأن يثبِّت أقدامهم فى ساحة القتال ، حتى ينتصروا على أعدائهم الكافرين .

١٠ — أعطى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين ثبتوا على الإيمان بعد مقتل أنبيائهم ،

وصبروا وجاهدوا عدو الله وعدوهم ، ثواباً فى الدنيا بالنصر على أعدائهم ، والتمكن منهم ، وثواباً فى الآخرة ، هو الجنة والخلود فيها ، وهو خير ثواب عند الله ، فعل الله لهم ذلك ، بسبب إحسانهم بعد قتل نبيهم ، فأحبهم الله .

(٩)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً : نُعَاسًا ، يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ

الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا
هَا هُنَا ، قُلْ : لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ
مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا
مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي
وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِنْ
مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
يرجعوكم إلى الشرك .	يردوكم على أعقابكم
بل الله ناصركم .	بل الله مولاكم
سنقذف فى قلوب المشركين الخوف .	سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب
بسبب إشراكهم بالله .	بما أشركوا بالله
الذى لم يُقم له حجة .	ما لم ينزل به سلطاناً
ومرجعهم .	ومأواهم
وبئس مكاناً يقيم فيه الكافرون .	وبئس مثوى الظالمين
حقق الله ما وعدكم به من النصر .	صدقكم الله وعده
تقتلونهم قتلا شديداً بأمره وتقديره .	تحسونهم بإذنه
جبنتم وأحجمتم .	فشلتم
واختلفتم .	وتنازعتم
وخالفتم نبيكم بترككم أماكنكم .	وعصيتم
هم الرماة الذين تركوا أماكنهم طلباً للغنيمة .	منكم من يريد الدنيا
هم الذين ثبتوا من الرماة فى أماكنهم .	ومنكم من يريد الآخرة
كف معونته عنكم ، اختباراً لكم .	صرفكم عنهم ليبتليكم
تذهبون بعيداً ، وتمعنون فى الفرار ولا تلتفتون .	تُصعدون ولا تلوون
فى جماعتكم المتأخرة .	فى أخراكم
فجازاكم غماً بغم ، وحزناً بحزن .	فأثابكم غماً بغم
عالم بعملكم .	خبير بما تعملون

الألفاظ	شرحها
أمَنَة	أمنا .
يغشى طائفة منكم	يصيب جماعة منكم ،
وطائفة قد أهمتهم أنفسهم	وجماعة لا يهمهم دين ولا نبيّ ، وإنما يهمهم أنفسهم ، ومصالحهم الشخصية .
ظن الجاهلية	ظن أهلِ الجاهلية ، أهل الشرك بالله .
هل لنا من الأمر من شيء	هل لنا شيء من نصر الله ؟
إن الأمر كله لله	إن النصر لله ولأوليائه .
إلى مضاجعهم	إلى مصارعهم ، ولم تنفعهم إقامتهم بالمدينة .
وليبتلى الله ما فى صدوركم	وليمتحن الله ما فى قلوب المؤمنين من الإخلاص لله ولرسوله .
وليمحص ما فى قلوبكم	وليبين ما فى قلوبكم .
والله عليم بذات الصدور	والله عليم بما تخفيه النفوس من خير وشر .
تولَّوا	انهزموا وفرّوا .
يوم التقى الجمعان	يوم التقى الجيشان فى أحد .
استزلهم الشيطان	دعاهم الشيطان إلى الزَّلل .
حليم	لا يعجل بالعقوبة .
ضربوا فى الأرض	سافروا فيها للتجارة وغيرها .
غزى	غزاة .
ليجعل ذلك حسرة	ليجعل قولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا : ندامة فى قلوبهم .

مجمل المعنى

١ — يحذر الله المؤمنين أن يطيعوا الكافرين من مشركى العرب ، وممن لم يؤمنوا من اليهود والنصارى ، لأن فى طاعتهم خطراً على إسلام من أسلم ، فإنه قد يرتد عن دينه ، فيعود إلى الضلال والخسران .

٢ — والله سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أموركم ، وينصركم على أعدائكم ، ويحفظكم إن بقيتم على طاعتكم .

٣ — بعد أن انتهت غزوة أحد ، رحل أبو سفيان وقومه إلى مكة ، فلما كانوا ببعض الطريق ، ندموا على رحيلهم ، وقالوا : بئس ما صنعنا : قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ! ! ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ، ألقى الله الرعب فى قلوبهم ، بسبب شركهم به ، وعبادة غيره معه ، مما لم يقم على ألوهيته دليل ، ومثل هؤلاء مصيرهم جهنم ، وبئس المصير الذى يصيرون إليه .

٤ — استوقف النبى صلى الله عليه وسلم الرماة فى غزوة أحد ، فى أصل الجبل ، وفى وجوه خيل المشركين ، وقال لهم : اثبتوا مكانكم ، ولا تبرحوا وإن رأيتمونا قد هزمناهم ، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتُّم فى مكانكم ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير ، فلما انتصر المسلمون أول الأمر ، وجالوا فى جوف عسكر المشركين ينتهبونه ، أسرع الرماة — إلا قليلا — إلى مشاركة زملائهم على نحو ما مر فى قصة أحد ، فى الصفحة (٢٤) من تفسير هذا الجزء .

من ذلك نرى أن الرسول وعدهم النصر إذا ثبت الرماة فى أماكنهم ، فلما لم يثبتوا لم ينصروا ، وبذلك يكون الله سبحانه صدق وعده حين

قتلتموهم بإذنه وقضائه ، وانتصرتم عليهم أول الأمر ، فلما اختلفتم فيما أمر الله به على لسانه نبيه من الثبات ، وعدم مبارحة المكان الذى أعد لكم ، فبعضكم رأى أن يبقى — وهو قليل — وبعضكم رأى ألا يبقى — وهو كثير — لما حدث هذا بعد أن وصلتم إلى ما أحببتم من النصر ، هزِمتم ؛ فالذين خالفوا وتركوا أماكنهم ، أرادوا الدنيا بالمسارعة إلى انتهاب عسكر المشركين ، والذين أطاعوا وثبتوا فى أماكنهم ، أرادوا الآخرة ، وبعد أن أراكم الله ما تحبون من النصر ، ردكم عنهم بالهزيمة اختباراً لكم ، والله لم يعاقبكم على مخالفتكم نبيكم أيها الرماة ، ولكنه عفا عنكم ، وتجاوز عن مخالفتكم ، والله صاحب فضل على المؤمنين دائماً ، بالعفو عنهم ، وبالغفران لهم .

٥ — عفا الله عنكم أيها المؤمنون ، وغفر لكم ، فى الوقت الذى كنتم فيه تتفرقون فى الشعاب ، وتصعَّدون فى الجبل ، لا تعرّجون على شىء ، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض ، ولا تستجيبون لدعاء النبى ، حين كان يدعوكم للعودة ، والتئام الشمل وجمع الصفوف ، وذلك أنه لما أخل الرماة بموقفهم ، ودخلت خيل المشركين عليهم ، وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً ، وشاع فى الناس أن محمداً قُتل ، تفرقوا ، ولكن لم يلبث الرسول أن ظهر بين سعد ابن معاذ ، وسعد بن عبادة ، ففرح من رآه من المسلمين ، حتى لكأنهم لم يصبهم شىء ، وكان رسول الله ينادى : أى عبادَ الله ، ارجعوا . وقد جازاهم الله غماً على غم ، فلم ينتهوا من غم القتل والجرح والهزيمة ، حتى شاعت قالة السوء فيهم : إن محمداً قد قتل ، فضاقت الدنيا فى أعينهم ، ولاذوا بالفرار فى الوهاد والنجاد ، وإنما فعل الله ذلك بكم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر بالغنيمة ، ولا على ما أصابكم من الهزيمة ، وهو عالم ما كان من موقفكم فى الحرب ، وموقفكم من نصيحة نبيكم .

٦ — حينما همت قريش بالعودة إلى مكة بعد أحُد ، واعدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنهم سيلقونه على بدر فى العام القابل، ولكن المسلمين خشُوا أن يكون ذلك خدعة منهم ، وتخوفوا أن يتجهوا إلى المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا، وقال له : انظر ، فإن رأيتهم قعدوا على أثقالهم، وجَنّبوا خيولهم ، فإن القوم راحلون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم وجنّبوا أثقالهم، فإن القوم يقصدون المدينة، فاتقوا الله أيها المجاهدون واصبروا ، فلما أبصرهم الرجل قعدوا على الأثقال سراعاً عجالا ، نادى بأعلى صوته برحيلهم ، فكان المسلمون إذ ذاك فريقين : فريقاً مؤمناً خالص الإيمان ، أنزل الله السكينة على قلبه ، وأخذه النوم ، حتى لكان الرجل منهم يسقط سيفه من يده ، فلا يحس أنه سقط ، وفريقاً منافقاً ، لم يطمئن قلبه بالإيمان ، فلا همّ له إلا نفسه ، فهو من الخوف فى خوف ، ومن حرصه على الحياة فى قلق ، وهؤلاء طار النوم عن أعينهم ، فظنوا بالله الظنون الآثمة الكاذبة ، التى تشبه ظنون أهل الجاهلية المشركين المكذبين ، فلا يصدقون أن الله ناصر نبيه ، وآخذ بيده ، ويقفون أذلاء ، يقولون : ليس لنا من الأمر شىء، لأنه لو كان لنا من الأمر شىء لما قتلنا المشركون هنا ، فأمر النبى بعد أن وقفه الله على نيتهم ، أن يقول لهم : إن الأمر كله لله ، ولو أن الأمر بيدنا ، ما خرجنا لنلقى مصارعنا ، ولو أنكم بقيتم فى بيوتكم ، لخرج الذين قدّر الله عليهم أن يقتلوا إلى مصارعهم ، حيث يصرعون ، وكأن الله يجعل خروجكم إلى مصارعكم ، ليختبر ما فى صدوركم من الشك، وليظهر حقيقتكم للمؤمنين، فيقفوا على حقيقتكم ، ويتبينوا ما فى قلوبكم بالنسبة لله ولرسوله وللمؤمنين ، من العداوة التى تخفونها فى صدوركم ، والله عليم بخفيات النيات من خير وشر ، وإيمان وكفر ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٧ — إن الذين فروا من الحرب يوم التقى جيش المسلمين وجيش المشركين ، فى أحُد ، هم الذين وسوس لهم الشيطان ، وزين لهم الفرار ، ودعاهم إلى مواطن الزلل ببعض ما ارتكبوا من الذنوب ، هؤلاء عفا الله عنهم ، وتجاوز عن ذنوبهم ، فهو من شأنه أن يستر ذنوب المؤمنين التائبين ، وألا يعجل بمؤاخذة المذنبين منهم .

٨ — ينهى الله المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين ، مثل عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، الذين قالوا لإخوانهم فى النسب أو النفاق حين خرجوا من أوطانهم لتجارة أو غزو وماتوا : لو كانوا عندنا ماكثين ، لما أصابهم الموت بسبب السفر ، ولما أصابهم القتل بسبب الحرب ؛ يأمر الله المؤمنين أن يصونوا قلوبهم أن تكون مثل قلوب هؤلاء المنافقين ، لتتمكن منهم وحدهم الحسرة بسبب ما يرون فى الدنيا ، وما يقع عليهم من العذاب فى الآخرة ، وليعلموا أن الأعمار بيد الله ، فلا تطيلها الإقامة ، ولا يقصرها السفر ولا الحرب ، والله مجاز كلا بعمله .

٩ — الله هو الذى يحيى ويميت ، والآجال لا تطول ولا تقصر بالقعود أو الخروج ، والمجاهد فى سبيل الله له المغفرة والرحمة ، وإن موتاً فى سبيل الله ، وقتلا فى إعلاء دين الله ، خير من الدنيا وما فيها ، فلا يجوز التقاعد عن الجهاد .

١٠ — واعلموا أيها المؤمنون، أن مرجعكم إلى الله ، سواء أمتم على فراشكم ، أم انتهت آجالكم فى سفركم ، أم قتلتم مجاهدين فى سبيل الله ، ففضلوا ما يقربكم منه ومن جنته ، وهو الجهاد فى سبيله .

(١٠)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ، وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ؟ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فبما رحمة من الله	فبسبب رحمة من الله — وما : زائدة .
فظًّا غليظ القلب	جافياً قاسياً ، متجهّم الوجه ، لا تعطف ولا تلين .

الألفاظ	شرحها
لا نفضُّوا من حولك	لتفرقوا عنك ، ولم يبق معك أحد .
فاعف عنهم	فسامحهم .
واستغفر لهم	واسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم .
وشاورهم فى الأمر	واستشرهم فى أمور الحرب ، ما لم تكن وحياً .
عزمت	صممت على شىء .
فتوكل على الله	فامض فى أمرك ، متوكلا على الله .
المتوكلين	المعتمدين على الله .
فلا غالب لكم	فلا يستطيع أحد أن يغلبكم .
فن ذا الذى ينصركم من بعده	لا أحد يستطيع أن ينصركم ، إذا خذلكم الله .
فليتوكل المؤمنون	فليفوضوا أمرهم إلى الله .
أن يغل	أن يجور فى القسمة ، بأن يقسم بعضاً ، ويترك بعضاً ، أو يَخُص نفسه بشىء فوق نصيبه ، أو يكتم شيئاً مادّيًّا أو أدبيًّا .
توفى كل نفس ما كسبت	تعطى جزاءها وافياً .
رضوان الله	رضا الله
باء بسخط من الله	رجع بغضب من الله .
وبئس المصير	وبئس المرجع .
هم درجات	هم متفاوتون فى المنزلة .
بصير بما يعملون	عالم بأعمالهم .

مجمل المعنى

١ – لِينُكَ لقومك ، وعطفك عليهم ، وتلطفك بهم ، ورفقك لهم ، بسبب رحمة من الله لك ولهم ، لأنك لو كنت رجلا قاسياً غليظ القلب ، متجهم الوجه ، لتفرقوا عنك وتركوك ؛ وأمر الله محمداً أن يعامل قومه على النحو الآتى :

ا : أن يعفو عمن تبدر منه إساءة أو شبهها .

ب : وأن يستغفر لمن يرتكب ما يستوجب الغفران .

حـ : وأن يشاورهم فى أموره ، ما لم ينزل وحى ، والشورى : أمر تقرره الشريعة الإسلامية ، وتدعو إليه ، لما فيها من فائدة تعود على الفرد والمجتمع .

فإذا استشرت فى أمر ، وقلبت مع أمنائك الرأى على وجوهه كلها ، حتى بان لك الصحيح الواضح ، فاعتمد على الله ، وامض فيما عزمت عليه ، والله يحب الذين يعتمدون عليه ، ويأخذ بيدهم ؛ وقد شاور النبىّ أصحابه فى أحُد ، ونفّذ ما أشار به أكثرهم ، مع أنهم كانوا على غير رأيه ، ومع ذلك وعدهم الله النصر ما ثبتوا ، فخالفوا فهُزِموا .

٢ – اعتمدوا على الله ، فإنه إن نصركم فلن يستطيع أحد كائناً من كان أن يخذلكم ، وإن خذلكم ، ولم يعنكم ، فلن يستطيع أحد كائناً من كان أن ينصركم ، والمؤمنون المخلصون فى إيمانهم ، يعتمدون على الله ، فينصرهم الله .

٣ – بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم طلائع فى بعض غزواته ، ثم غنم قبل مجيئهم ، فقسم للناس ، ولم يقسم للطلائع ، فأخبره الله تعالى أنه لا يجوز لنبىّ أن يقسم لبعض ، ويترك بعضاً ، وأن الذى يغل شيئاً ، فيختص به

نفسه ، أو يختص به بعض المستحقين دون بعض ، يأتى يوم القيامة حاملا ما غلَّه على ظهره ورقبته ، وتعطَى كل نفس جزاء ما كسبت ، ولا تظلَم شيئاً .

٤ — ليس الذى يعمل ما يُرضى الله ، فينال رضاه ، كمن يعمل ما يسخطه ، فيناله غضبه وعذابه ، ويدخل جهنم ، وبئس المصير الذى يصير إليه .

٥ — والذين يعملون ما يرضى الله ، والذين يعملون ما يسخطه ، فى درجتين مختلفتين ، متمايزتين عند الله ، فذاك له الكرامة والثواب الجزيل ، وهذا له النار والعذاب الأليم .

(١١)

لقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إذ بعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ، وَإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ : فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
منّ الله على المؤمنين	تفضل الله على المؤمنين من غير دعوة منهم .
من أنفسهم	من جنسهم .
يتلو عليهم آياته	يقرأ عليهم قرآنه .
ويزكيهم	ويطهرهم من كفرهم وذنوبهم ، بإيمانهم ودخولهم فى الطاعات .
ويعلمهم الكتاب	ويفهمهم معانى القرآن .
والحكمة	والسنة التى سنها الله لهم.
وإن كانوا من قبل	وإنهم كانوا من قبل ذلك .
لفى ضلال مبين	لفى جهالة جهلاء ، وحيرة عمياء .
أصابتكم مصيبة	أصابكم قتل سبعين يوم أحد .
أصبتم مثليها	قتلتم سبعين وأسرتم سبعين يوم بدر
أنى هذا	من أين أصابنا هذا ؟
هو من عند أنفسكم	أنتم سبب الهزيمة ، لمخالفتكم النصيحة .
يوم التقى الجمعان	يوم التقى جمعكم وجمع المشركين بأحُد .
فبإذن الله	فبعلم الله وبقضائه وقدره .
قاتلوا فى سبيل الله	قاتلوا قتال المجاهدين .
أو ادفعوا	قاتلوا قتال المدافعين عن أنفسهم ، ولو بمجرد وجودكم هذا .
لو نعلم قتالا لاتبعناكم	لو نعرف أنكم تحاربون حقًّا لحاربنا معكم .

الألفاظ	شرحها
والله أعلم بما يكتمون	والله عالم ما يضمرونه فى أنفسهم من النفاق .
الذين قالوا لإخوانهم	هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه .
فادرءوا	فادفعوا .

مجمل المعنى

١ — تفضل الله على المؤمنين ، بأن أرسل إليهم من غير طلب منهم ، رسولا من جنسهم من بنى إسماعيل ، فهو آدمى مثلهم ، يتكلم كما يتكلمون ، وهو من عامتهم ، يطمئنون إليه ، وينصتون له ، حين يتلو عليهم آيات القرآن بلسانهم ، فيفهمونها ، فيتعظون بها ، وينتقلون من حالة الكفر إلى حالة الإيمان ، ويخرجون من الذنوب ، ويدخلون فى الطاعات ، ويعرفون من السنن ما كانوا يجهلون ، فتستنير عقولهم ، وتنكشف بصائرهم ، بعد أن كانوا فى جهالة جهلاء ، وحيرة عمياء ، تظهر لهم عندما يفكرون بعقولهم ، ويتدبرون بأفهامهم .

٢ — يا عجبا كل العجب ! حين تقع عليكم المصيبة فى أحُد بقتل سبعين منكم ، تستعجبون من ذلك ، فى حين أنكم فى بدر ، نصركم الله ، وأصبتم عدوكم بمثلىْ ما أصابكم ، فقد قتلتم منه سبعين ، وأسرتم سبعين ، على ضعفكم وقوته ، وقلتكم وكثرته ، ولو أنكم رجعتم إلى أنفسكم ، لعرفتم أنكم أنتم السبب فى هذه المصيبة ، فقد تخاذل بعضكم ، وهو عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، وغادر الرماة أماكنهم ، وخالفوا النصيحة ،

فكانت الهزيمة ، فلم العجب ، وأنتم تعرفون السبب ؟ والله قادر على كل شيء : من عفو وعقوبة ، وتفضل وانتقام ، وغير ذلك .

٣ — والذى أصابكم يوم أحد ، حين التقى الجمعان : جيشكم وجيش المشركين ، وتحارب الجيشان ، فقتل من قتل ، وجُرح من جُرح ، إنما هو بتقدير الله وقضائه ، ليميز المؤمنين من المنافقين ، والمنافقون الذين أراد الله أن يميزهم من المؤمنين ، هم عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن اتبعه ، حين انخزلوا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد خروجهم معه يوم أحُد ، فقال لهم المسلمون : تعالوا قاتلوا المشركين معنا ، دفاعاً عن أنفسكم ، كما نـدافع عن أنفسنا ، أو ابقـوا معنا من غير أن تقاتلوا ، فنكثر بكم ، فيرتاع العدو لكثرتنا ، فتتضاءل روحه المعنوية ، فيرتد عنا ، فلم يزيدوا على أن قالوا للمسلمين : لو نعرف أنكم ستحاربون حقـًا ، أو أن لهذه الحرب وجهاً من الحق ، أو حسن الترتيب ، لقاتلنا معكم ، ولكن يمكن ألا يكون بينكم وبين المشركين قتال ، وإن كان ولا بد من القتال ، فنحن معكم عليهم ، ولكن يجب أن يكون على غير هذه الصورة ، وقد أبدينا لكم رأينا ، أننا نبقى فى المدينة ، ولا نخرج إليهم ؛ وبكلامهم هذا يظهر كذبهم ونفاقهم ، وما كانوا يخفونه فى أنفسهم ، من عداوة النبيّ وأصحابه ، وبذلك يظهر انطواء قلوبهم على الكفر ، وبعدها من الإيمان ، ويتبين ذلك من أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بعد أن خرج من المدينة فى نحو ألف من أصحابه ، انخزل عنهم عبد الله بن أبيّ بثلث الناس ، وقال : أطاع الغلمان فخرج وعصانى ، والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ !

فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق ، فلما اتبعهم

عبد الله بن عمرو بن حَرام أخو بنى سَلَمة يقول : ياقوم : أذكّركم الله ألا تخذلوا نبيكم وقومكم — قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم — قال : أبْعَدَكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله عنكم نبيه .

٤ — وليعلم الله هؤلاء المنافقين الذين قالوا لإخوانهم من المسلمين الذين ظلوا مع الرسول ، وحاربوا المشركين يوم أحد : لو أنهم أطاعونا فى عدم الخروج من المدينة ، أو انسحبوا معنا يوم انسحبنا ، لما قتل أحد منهم ، فقال الله لرسوله : قل لهم : إذا كنتم صادقين فيما تقولونه ، وهو أنهم لو اتبعوكم ما قتلوا — فادفعوا عن أنفسكم الموت — وهذا غير ممكن ، لأنكم ميتون لا محالة .

(١٢)

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، أَنْ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . اَلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . اَلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تحسبن	ولا تظنن .
قتلوا فى سبيل الله	استُشهدوا فى حرب ، مدافعين عن دين الله .
عند ربهم	قريبون منه ، فهم فى أعلى المنازل .
بما آتاهم الله	بسبب ما أنعم الله به عليهم ، وهو الاستشهاد ، والحياة ، والرزق بعد القتل .
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم	ويسرون بالمجاهدين الذين لم يُستشهدوا ، فلم ينالوا ما نالوا .
أن لا خوف عليهم	بشر الذين استشهدوا بأن الذين لم يُستشهدوا من المجاهدين ، لهم جزاؤهم عند الله .
القَرْح	الجَرْح .
قال لهم الناس	المراد : نُعَيم بن مسعود ومن عاونه من عبد القيس.
إن الناس	المراد : أبو سفيان ومن معه .
فاخشوهم	فخافوهم .
فزادهم إيماناً	زادهم ما سمعوه من التخويف والتثبيط يقيناً ، وتمسكاً بدينهم .
حسبنا الله	كافينا الله .
ونعم الوكيل	ونعم الموكول إليه أمرنا .

الألفاظ	شرحها
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل	فرجعوا موفورين غانمين سالمين ، مرهوبين منعمين
لم يمسسهم سوء	لم يصبهم ما يضرهم من شر أعدائهم .
واتبعوا رضوان الله	وساروا على ما يرضى الله ، فلم يجبنوا عن عدوهم ، وخرجوا إليه على الرغم من المثبِّطين لهم ، كنُعيم ابن مسعود .
والله ذو فضل عظيم	والله صاحب فضل ، بما أنعم عليهم من توفيق أوليائه أتباعه .

قصة جابر بن عبد الله بن عمرو

قال جابر بن عبد الله : لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا جابر ، مالى أراك منكَّساً مهتماً ؟ فقلت يا رسول الله : استُشهد أبى ، وترك عيالا ، وعليه دين ، فقال : ألا أبشرك بما قابل الله عز وجل به أباك ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً : أى مواجهة ليس بينه وبين الله حجاب ولا رسول ، وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وقال له : يا عبدى ، تمنَّ أعطك ، قال : يا رب ، فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال : يا رب ، فأبَلِّغ مَن ورائى ، فأنزل الله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء . . . . »

مجمل المعنى

١ — ولا تظنن أن الذين قتلوا مستشهدين فى حرب من أجل دين الله أمواتاً ، ولكنهم فى منزلة رفيعة عند الله ، تحيا أرواحهم حياة طيبة ، ويرزقهم الله فى الدنيا حسن الذكر ، وفى الآخرة النعيم المقيم .

٢ — وهم فرحون مسرورون بما خصهم الله به من الكرامة ، وبما حباهم من فضل الاستشهاد ، الذى رتب عليه الثواب الجزيل ، والذكر الخالد ، والحياة الدائمة السعيدة فى كنف الله ، وهم فرحون مسرورون أيضاً بما وعد الله الذين لم يُسْتَشْهَدوا معهم ، واستمروا من بعدهم على جهادهم ، تحت راية رسول الله ، وفى سبيل إعزاز دين الله — فرحون بهم ، لأنهم أمنوا عقاب الله ، وتأكدوا أن لهم من نعيمه نصيب المجاهدين ، ولا يحزنون على ما يتركون فى الدنيا من نعيم زائل ، ومجد ضائع ، لأن ما عند الله خير وأبقى .

٣ — يفرحون بما حباهم الله من نعم كريمة ، أجلّها نعمة الاستشهاد ، والحياة والرزق بعد القتل ، وبما أسبغ عليهم من ثواب على ما قدموا من طاعات ، وكل ذلك عند الله لا يضيعه ، ولا يبطل جزاءه .

٤ — وهؤلاء المؤمنون الذين لن يضيع الله أجرهم ، هم الذين استجابوا لله ورسوله ، من بعد ما أصابهم من الجراح فى أثناء القتال ؛ للذين يحسنون من هؤلاء ويخافون الله : بتأدية الفرائض ، والتزام حدود الأوامر والنواهى ، أجر عظيم ، وثواب جزيل من الله ، وهو كافيهم ووليهم الذى لا ولىّ ولا كافل مثله ، والمعنىّ بهؤلاء ، الذين خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم .

غزوة حمراء الأسد ، أو بَدْر الآخرة

فى اليوم التالى لغزوة أحد ، أتى عبدُ الله بن عمرو بن عوف المزنى ، إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأخبره أنه رأى قريشاً يتشاورون ، ليرجعوا ، حتى يستأصلوا من بقى ، وبعضهم يأبى عليهم ذلك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذكر لهما ذلك ، فقالا : يارسول الله ، اطلُب العدوّ ، حتى لا يقتحموا على الذرّية ، فلما أصبح النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر بلالا فنادى : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال أمس ، فخرجوا جميعاً ، وكلهم جريح .

خرج الرسول ومن معه من جرحى أحد ، حتى عسكر بحمراء الأسد ، (وهو موضع على ثمانية أميال من المدينة) ، وكان التمر عامّةَ زادِه هو ورجاله ، وكان يأمر فى النهار بجمع الحطب ، فإذا أمسوا أمر بأن توقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً ، فأوقدوا خمسمائة نار ، رؤيت من مكان بعيد ، وذهب ذكر معسكر المسلمين ونيرانهم فى كل وجه ، فلما رأى ذلك أبو سفيان ورجاله ، أجمعوا على الرجوع ، ولا سيما بعد أن علموا أن محمداً وأصحابه يتحرقون عليهم مثل النيران ، وظنوا أنهم كثير لامتداد نيرانهم ، فانصرفوا سراعاً ، خائفين من مهاجمة المسلمين .

وكان أبو سفيان بعث إلى محمد نفراً من عبد القيس ، وعلى رأسهم نُعَيم بن مسعود —ولم يكن أسلم— يُعلمه أن قريشاً أجمعت الرجعة إليه بجيش لا قِبَلَ لجيش من العرب بمواجهته ، فلما أُخبر هذا ، قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونزل فى خبر نفر عبد القيس : « الذين قال لهم الناس . . . » .

٥ — هؤلاء الذين استجابوا لله ولرسول الله ، وخرجوا لحمراء الأسد ، وهم

مثخنون بجراحهم ، صرف الله عنهم عدوهم ، وعادوا إلى المدينة ، بثواب كتبه الله لهم ، وبعافية من الله وسلام ، لأنهم لم يلقوا العدو ، وربحوا من تجارتهم مع من تاجروا معهم ، مدة الأيام الثمانية التى أقاموها ، فلم يصبهم سوء من قريب أو بعيد ، ولم يلحقهم أذى ، ولم يقتل أحد ، وهم بخروجهم هذا أرضوا الله ، والله ذو إحسان عليهم ، بتنجيتهم وتخليصهم من عدوهم ، وصرفه عنهم ، ونعم الله وأفضاله الكثيرة ليست مقصورة عليهم ، ولكنها تعم جميع خلقه .

٦ — والذى حدث إنما هو من شيطان المنافقين نُعيم بن مسعود ، فهو يخوفكم حشد الكافرين من شياطين الإنس ، وعلى رأسهم أبو سفيان ، وكانت نتيجة ذلك التخويف أنكم ازددتم إيماناً على إيمانكم ، وازددتم ثقة بالله فوق ثقتكم ، وتوكلتم على الله ، وفوضتم إليه أموركم . وتسمى هذه الغزوة أيضاً غزوة بدر الآخرة .

(١٣)

وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً ، يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسارعون فى الكفر	يظاهرون عليك ، ويصرون على كفرهم .
لن يضروا الله شيئاً	لن ينقصوا من ملكه وسلطانه شيئاً ، ولن يضروا أولياءه بسبب تخليهم عنهم .

الألفاظ	شرحها
حظاً	نصيباً .
اشتروا الكفر بالإيمان	فضلوا الكفر على الإيمان .
نملى لهم	نطيل فى أعمارهم ونمهلهم .
ليذر	ليترك .
ليطلعكم على الغيب	ليعلمكم ما سيقع فى المستقبل .
يجتبى	يختار .
فآمنوا بالله ورسله	فصدقوا ما جاءت به الرسل ، ولا تتطلعوا إلى ما وراء هذا .

مجمل المعنى

١ — حرص النبى صلى الله عليه وسلم على صالح قومه ، وصالح دعوته ، جعله يبتئس ويحزن ، حينما يرى أهل الكتاب ينفرون منه ، ولا يؤمنون به ، مع أن صفته فى كتابهم ، وكان يبتئس ويحزن حين يرى قومه من قريش لا يؤمنون به ، ويظاهرون عليه ، ويحاربونه ، ويبتئس ويحزن حين يرى بعض الذين أسلموا يرتدون عن الإسلام ، أو ينافقون ، فلما رأى الله تعالى ذلك ، أمره ألا يشغل باله بهؤلاء ، وألا يحزن عليهم ، فإنهم إن يكفروا فلن ينقصوا شيئاً من سلطان الله وملكه ، ولن يضروا من يؤمن من عباده ، فإيمانهم لهم ، وكفرهم عليهم ، وعذابهم يوم القيامة شديد ، وهو عذاب النار .

٢ — وهؤلاء الكفار ، إذا طالت أعمارهم ، ومد الله لهم فيها ، فإن ذلك ليس

من صالحهم ، فإن طول العمر تكثر فيه السيئات ، فيعظم العذاب يوم القيامة .

٣ — والله سبحانه وتعالى لا يترك المؤمنين لا يتميزون عن غيرهم من الكافرين والمنافقين ، ولكنه يميزهم منهم بالمحن والابتلاء ، فيستبين الخبيث من الطيب ، والفاسد من الصالح ، والكافر من المؤمن ، والمنافق من المخلص ، والله عالم بكل واحد من هؤلاء علماً اختص به دون غيره ، ولا يُطلع على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول يختاره الله ، ثم يبلغ رسوله عن طريق وحيه ، فيعرف المؤمن المخلص ، ويعرف الكافر المعاند ، ويعرف المنافق المرائي ، كذلك يأمرنا الله أن نصدق بالله ورسله ، ونترك ما وراء هذا ، فلا شأن لنا به ، وكل من يفعل هذا ، له ثواب عظيم عند الله .

(١٤)

وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ، قُلْ : قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ،

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ : لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بما آتاهم الله من فضله	بما أعطاهم الله تفضلا منه .
هو شر لهم	البخل وبال عليهم .
سيطوقون ما بخلوا به	سيجعل الذى بخلوا به طوقاً فى أعناقهم .
ولله ميراث السموات والأرض	ولله ملك ما فى السموات والأرض ، مما يتوارث .
سنكتب ما قالوا	سنسجل عليهم قولهم ، حتى يأتى وقت الحساب .
عذاب الحريق	عذاب جهنم الشديد المحرق .

الألفاظ	شرحها
بما قدمت أيديكم	بسبب ما فعلتم من المعاصى .
ليس بظلام للعبيد	لا يظلم أحداً ، فلا يعاقب من غير ذنب .
عهد إلينا	أمرنا وأوصانا .
ألا نؤمن لرسول	ألا نصدق رسولا .
بقربان	القربان : ما يتقرب به العبد إلى ربه .
بالبينات	بالحجج الدالة على صدق النبوة ، والمعجزات التى لا يستطيع أن يأتيها بَشَر .
والزُّبر	الزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب ، كصحف إبراهيم .
والكتاب المنير	والتوراة والإنجيل .
فمن زحزح عن النار	فمن نُحّى عن النار وأبعد عنها .
فقد فاز	فقد نجا وظفر برضا الله .
متاع الغرور	متاع الخداع الزائل .
لتُبْلَون	لتُختبرن بالمصائب .
فإن ذلك من عزم الأمور	فإن الصبر والتقوى مما يجب العزم عليه .
وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب	واذكر وقت أخذ الله العهد على اليهود .
فنبذوه وراء ظهورهم	فتركوا أمر الله وضيعوه ، ونقضوا عهده .
واشتروا به ثمناً قليلا	واشتروا بالكتمان وعدم الإظهار شيئاً تافهاً ، وهو عَرَضُ الدنيا .
فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب	فلا تظنن أنهم يفوزون بالنجاة من عذاب الله .

مجمل المعنى

١ — ولا تظنن يا محمد ، أن بخل الباخلين بما رزقهم الله فى الدنيا ، من علم أو مال ، فلا ينفقون من علمهم على من يريد أن يتعلم ، ولا ينفقون من مالهم فى وجوه الإنفاق التى حددها الله — خير لهم عند الله يوم القيامة ، وإنما هو شر لهم ، ووبال عليهم ، ويلزمهم إثمه يوم القيامة ، فيعاقبون عليه بعد موتهم ، ويزول عنهم ما بخلوا به ، ويصبح ميراثه لله الدائم الأزلى الأبدى ، المحيط علمه بكل شىء .

قصة فِنْحاص

لقى أبو بكر رضى الله عنه ناساً من اليهود ، قد اجتمعوا حول فنحاص ، سيد بنى قَيْنُقاع ، وكبير علمائهم وأحبارهم ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، وأقرض الله قرضاً حسناً ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة ، قال فنحاص : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنىّ ، ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيًّا عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر ، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم ، لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، انظر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : ما حملك على ما صنعت ؟

فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيماً : زعم أن الله فقير وهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبتُ لله مما قال ، فضربت وجهه ، فأنكر ذلك فنحاص ، وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداًّ عليه ، وتصديقاً لأبي بكر : «لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء .... »

٢ — والمعنى أن الله تعالى سمع اليهودى الذى ينسب إلى الله الفقر ، وينسُب إلى نفسه الغنى ، وسيسجل عليه وعلى أمثاله من اليهود الذين عاصروا محمداً والذين سبقوه ، كل ما فعلوه من سوء ، ومنه هذا الإفك والبهتان ، ومنه ما فعله اليهود السابقون من قتلهم أنبياء الله ، وقد انتهى هذا إلى فنحاص وقومه ، فرضوا عنه واستجازوه ؛ هؤلاء السابقون واللاحقون جميعاً ، يقول الله لهم يوم القيامة : ذوقوا عذاب نار محرقة ملتهبة .

٣ — ذوقوا هذا العذاب بسبب ما فعلتم فى الدنيا من تكذيب ، وإنكار للحق ، وافتراء على الله ، وغير ذلك ، وهذا جزاء وفاق لكم ، من الله الذى لا يظلم أحداً من خلقه .

٤ — ومن مفتريات هؤلاء اليهود التى سمعها الله وأخبر عنها ، قول من يقولون : إن الله أوصانا ألا نصدق رسولا فيما يقول ، إلا إذا جاء بقربان يقرِّبه إلى الله ، دليلا على صدقه ، فإذا أكلت النار القربان آمنا به وصدقناه ، فيأمر الله رسوله أن يقول لهم : قد جاء من قبلى رسل تقوم على أيديهم الأدلة القاطعة على صدقهم ، ومنها القرابين التى أكلتها النار ، ولكنكم مع ذلك استعليتم واستكبرتم ، وظللتم على إصراركم وكفركم ، بل تعديتم

ذلك إلى قتلهم ، وأنتم الآن فيما تطلبون من القربان، تهزلون كما يهزل من قبلكم ، وسنذكر شيئاً عن هذا القربان فى تفسير الجزء الخامس ، عند شرح قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً » .

٥ — فلا تجزع يا محمد على أن يكذبك هؤلاء المكذبون جميعاً ، ولا يحزنك ما يفترونه عليك ، ولا يهولنك ما ينسبونه إلىّ مما ليس من صفاتى ، فقد كذب أسلافهم رسلا قبلك أرسلتهم إليهم ، وبين يديهم الأدلة القاطعة على صدقهم ، والكتب المضيئة بنور اليقين ، فحرفوها وبدلوها ، وأساءوا إلى رسلهم .

٦ — واعلم أن مصير هؤلاء المفترين إلى الموت ، ومرجعهم إلىّ ، ويوم القيامة تستوفى كل نفس ما عملت من خير وشر ، فالذين يبتعدون عن النار هم الفائزون الذين يدخلون الجنة ، والذين اغتروا بالدنيا ، وآثروا متاعها القليل ، هم المعذّبون فى نار جهنم ، لأنهم خدعوا بزائف تافه .

قصة كَعْبِ بن الأشرف

كعب هذا يهودى ، كان يحرض المشركين على المؤمنين عامة ، وعلى النبىّ خاصة ، وكان شاعراً ، فهجا محمداً وأصحابه ، وشبب بنساء المسلمين ، فأجمعوا على قتله ، فانطلق إليه خمسة نفر من الأنصار ، وأتوه فى مجلس قومه ، فلما رآهم ذعر منهم ، وأنكر مجيئهم ، فلما أنس إليهم ، قالوا : جئناك لحاجة ، فقال : فليَدْنُ إلىّ بعضكم ، فليحدّثنى بحاجته ، فجاءه رجل منهم ، وقال : جئناك لنرهنك أدراعاً عندنا ، لنستنفق ما نأخذه ، فقال : والله لئن فعلتم لقد جُهدتم منذ نزل بكم هذا الرجل ، ثم واعدوه أن يأتوه عشاء فى داره ، حين يهدأ الناس ، فلما كان العشاء أتوه ونادوه ، فقالت امرأته : ما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشىء

مما نحبه ، قال : إنهم حدثونى بحديثهم وشأنهم ، وأشرف عليهم وكلمهم ، فطلبوا منه أن يبيعهم تمراً ، فقال : أترهنونى أبناءكم ؟ فقالوا : إنا نستحيى أن تعيَّر أبناؤنا ، فيقال : هذا رهينة وَسْق : (حمل بعير) ، وهذا رهينة وسقين . فقال : أترهنونى نساءكم ؟ قالوا : أنت أجمل الناس ولا نأمنك ، وأى امرأة تمتنع منك لجمالك ؟ ولكنا نرهنُـك سلاحنا ، فقد علمتَ حاجتنا إلى السلاح اليوم ؛ فقال : ائتونى بسلاحكم ، واحملوا ما شئتم ، قالوا : فانزل إلينا نأخذْ عليك ، وتأخذْ علينا ، فذهب ينزل ، فتعلقت به امرأته ، وقالت : أرسل إلى أمثالهم من قومك ، يكونوا معك ، قال : لو وجدنى هؤلاء نائماً ما أيقظونى ، قالت : فكلمهم من فوق البيت فأبى عليها ، ونزل إليهم يفوح ريحه ، قالوا : ما هذا الريح يا كعب ؟ قال : هذا عِطر أم فلان « يعنى امرأته » ، فدنا إليه بعضهم يشم رائحته ، ثم اعتنقه ، وقال : اقتلوا عدو الله ، فضربه واحد منهم فى خاصرته ، وعلاه آخر بالسيف ، فقتلوه ، ثم رجعوا ، فأصبح اليهود مذعورين ، فجاءوا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : قتل سيدنا غيلة ، فذكرهم رسول الله صنيعه ، وما كان يحض عليهم ، ويحرض على قتالهم ، ويؤذيهم ، ثم دعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم صلحاً ، فكتبوه ، وفى كلام كعب نزل قوله تعالى : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب . . . . . . »

٧ — يقول الله للمسلمين : إنه سيختبرهم بشدائد فى أنفسهم وأموالهم وأقاربهم وأهل دينهم ، بالقتل والتعذيب ، ونقص المال ، ليعرف مبلغ صبرهم على ما يصيبهم بسبب دينهم ، وهذه الشدائد ، هى أنهم سيسمعون من غير المسلمين : يهوداً كانوا أو نصارى أو مشركين ما يؤذيهم ، فاليهود يقولون : عزير ابن الله ، إن الله فقير ونحن أغنياء ، يد الله مغلولة ، والنصارى يقولون : المسيح ابن الله ، والمشركون يرمونكم ويرمون النبىّ بأشياء

كثيرة ، فإن تصبروا على أذاهم ، وتتقوا الله بتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإن ذلك يرضى الله ، لأنه مما أمر به .

٨ — واذكر يا محمد أن الله قد أخذ على اليهود والنصارى عهداً أن يبينوا للناس ما فى كتابهم ، مما أنزله الله على موسى عليه السلام ، وألا يكتموا ما فيه من صفتك ورسالتك ، والدعوة إلى الإيمان بك ، فتركوا أمر الله ، ونقضوا عهد الله ، وأخفى رؤساؤهم ما يعرفونه من وصفك وصدقك ، والدعوة إلى الإيمان بك ، واستبدلوا بهذا الأمر العظيم شيئاً خسيساً تافهاً من عـرَض هذه الدنيا ، وهو حب الرياسة ، وفرض الإتاوة ، فبئس العرض هذا .

٩ — هؤلاء الذين يفرحون بما فعلوا من إيثار الدنيا ، وطلب السلامة ، والذين يحبون أن تثنى عليهم بما لم يعملوه ، وأن ينالوا خيراً لم يقدموا له أسبابه ، لا تظنن أنهم ناجون من العذاب ، ولكنهم سيدخلون جهنم ، ويلقون جزاءهم ، لا فرق فى ذلك بين يهودى ، ونصرانى ، ومنافق .

١٠ — ورد الله بعد ذلك على الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، بأن من له ملك السموات والأرض لا يكون فقيراً ، وبأنه قادر على تعجيل عقوبتكم ، وعقوبة أمثالكم ، ولكنه يؤجل ذلك لحكمة يريدها ، سبحانه وتعالى ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير .

(١٥)

إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ ! فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ، وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ . لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ . لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ . وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، خَاشِعِينَ لِلهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَـٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واختلاف الليل والنهار	اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، وتعاقبهما .
لأولى الألباب	للذين يستعملون عقولهم فى التأمل والتفكر .
قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم	فى كل حالاتهم .
ما خلقت هذا باطلا	ما خلقت هذا العالم عبثاً وهزلا ولعباً .
سبحانك	تنزيهاً لك عن كل ما لا يليق بك .
قنا عذاب النار	احفظنا وأجرنا من عذاب النار .
فقد أخزيته	فقد أذللته ، وأهنته وفضحته .

الألفاظ	شرحها
سمعنا منادياً	المنادى : هو محمد عليه السلام ، ومن وسائل مناداته القرآن .
فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا	فاستر علينا خطايانا ، ولا تفضحنا بها ، بمعاقبتك إيانا عليها .
وتوفنا مع الأبرار	واقبضنا إليك فى عداد الصالحين ، وهو جمع بَر ، مثل رب وأرباب .
وآتنا ما وعدتنا	وأعطنا ما وعدتنا .
على رسلك	على ألسنة رسلك .
ولا تخزنا	ولا تفضحنا بالعذاب .
فاستجاب لهم ربهم	فأجابهم ربهم إلى ما دَعَوا .
لأكفرن عنهم سيئاتهم	لأسترن عليهم ذنوبهم ، ولأمحونها عنهم .
حسن الثواب	حسن الجزاء .
لا يغرنك	لا يخدعنك .
تقلب الذين كفروا	تصرفهم فى الأرض ، وضربهم فيها ، بتجاراتهم وأموالهم .
متاع قليل	هذه متعة قصيرة ، تنتهى بانتهاء آجالهم فى الدنيا ، ثم يخلدون فى جهنم .
وبئس المهاد	وما أسوأ فراشهم ومضجعهم الذى ينتهون إليه !
نزلا من عند الله	انزالا من الله لهم فيها ، وثواباً لهم على ما قدّموا من التقوى .
وما عند الله خير للأبرار	ثواب الله للمتقين ، خير لهم مما يكسبه غيرهم من تصرفهم فى الدنيا .

الألفاظ	شرحها
وإن من أهل الكتاب	وإن من المؤمنين بالتوراة والإنجيل .
لمن يؤمن بالله	لمن يقر بوحدانية الله ، فلا يقول : عزيزٌ ابن الله ، ولا يقول : المسيح ابن الله .
وما أنزل إليكم	وهو القرآن .
وما أنزل إليهم	وهو التوراة والإنجيل .
إن الله سريع الحساب	لا يخفى عليه شيء ، فيعلم الشيء قبل وقوعه ، فيجازى عليه ، من غير عدٍّ ولا إحصاء ولا غير ذلك ، مما يترتب عليه الإبطاء .
اصبروا	اصبروا على ما تلقون فى الدنيا من عنت ، وحبس النفس عن الشهوات ، وتحملها مشقات الطاعات .
صابروا	اثبتوا على قتال أعدائكم فى الجهاد .
ورابطوا	استعدوا بعتادكم فى الثغور ، وكل مكان مخوف .
واتقوا الله	واحذروا أن تخالفوا أوامره ، وتفعلوا نواهيه .
لعلكم تفلحون	لتفلحوا ، فتبقوا فى نعيم دائم .

مجمل المعنى

١ — يوجه الله سبحانه وتعالى نظر الناس إلى التدبر فيما خلق ، ليعرفوا أنه منزه عن كل ما يصفه به الجهال من الفقر ، واتخاذ الابن ، ونحو ذلك ، فيدعوهم إلى التأمل فى خلق السموات والأرض وما فيهما من تنظيم خاص ،

يكفل لهم أن يحيوا ويعيشوا ، ويدعوهم إلى التأمل فى تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما طولا وقصراً ، ليتمكنوا من الضرب فى الأرض ، وتدبير المعاش ، وفى هذا كله دليل واضح أمام العقلاء ، على قدرة الله ، وغناه ، ووحدانيته .

٢ — ودليل واضح أيضاً للذين يتقون الله فى جميع حالاتهم ، ويذكرونه دائماً ، فحيثما يتلفتوا أو يتوجهوا ، لا تقع أعينهم إلا على شيء يدل على قدرة الله ، فيتفكروا ويعتبروا ، ويقولوا : يا ربنا ، إنك لم تخلق هذا العالم عبثاً ولا لعباً ولا لهواً ، وإنما خلقته لأمر عظيم أردته . من ثواب المطيع وعقاب العاصى ، فتنزيهاً لك من أن تخلق شيئاً لعباً ولهواً ، أجرنا من عذاب النار الذى أعددته للعقاب .

٣ — لأن الذى تدخله النار تكون غاضباً عليه لسوء فعله ، وأردت له الخزى والعار والفضيحة ، لما ظلم نفسه فى الدنيا ، فلا ناصر له ينصره يوم القيامة ، ويدفع عنه العقاب ، وينقذه من العذاب .

٤ — ربنا ، إننا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان بك ، والإقرار بوحدانيتك ، فصدقناه ، فاستر علينا ذنوبنا ، ولا تفضحنا بها بمعاقبتنا عليها ، واحشرنا مع الأبرار المطيعين .

٥ — ربنا ، وأعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، بالكشف عن ذنوبنا التى حدثت منا ، فقد وعدت أن تعز أولياءك ، وأنت لا تخلف الميعاد .

٦ — أجاب الله هؤلاء الداعين إلى ما دعوا إليه ، وأعلمهم أن كل من يعمل خيراً يلقى خيراً ، لا فرق فى ذلك بين ذكر وأنثى ، وكان النساء أصابهن بعض القلق ، لأن الرجال يذكرون ولا تذكر النساء فى الهجرة ، فقالت

أم سلمة للرسول : يا رسول الله ، لا أسمع الله يذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » .

٧ - فالذين تركوا أهلهم وعشيرتهم من الكفار ، وضحوا بعاطفة القرابة ، وهاجروا من أجل الدين ، وتحملوا المشاق فى الله ولله ، والذين أرغمهم الكفار على الخروج من وطنهم ، لأنهم آمنوا بمحمد ، فكان إيمانهم سبباً فى إيذائهم ، بترك الوطن والولد والمال والبيت ، والذين قاتلوا فى سبيل الله ، فقتلوا وقتلوا - هؤلاء جميعاً ، جزاؤهم عند الله أنه يكفر عنهم سيئاتهم ، ويستر عليهم ذنوبهم ، ويدخلهم جنات فيها أنواع من النعيم ، ليس لها نظير فى الدنيا ، ويخلدون فى هذه الجنات ، جزاء لهم على ما قدموا لأنفسهم من خير ، ولدين الله من نصر وإعزاز ، والله عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوف النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٨ - يا محمد ، لا يخدعنك ما ترى عليه هؤلاء الكفار من تصرف فى البلاد ، وتقلب هنا وهناك ، بتجاراتهم وأموالهم ونَعَمِهم وشائهم ، فإنهم يتمتعون بهذه الأشياء تمتعاً قصير الأجل ثم يموتون ، فكأنهم لم يتمتعوا ، وبعد ذلك يصيرون بسبب كفرهم إلى فراش مؤلم خبيث ، هو جهنم ، فهو أسوأ مصير أداهم إليه كفرهم ، واغترارهم بالدنيا .

٩ - أما الذين خافوا الله واتقوه وأطاعوه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه - فإن لهم الجنات التى سبق وصفها ، ينزلهم الله فيها إكراماً لهم ، والذى عند الله للأبرار المطيعين خير مما كان عند الكافرين من نعيم الدنيا .

قصة أصحمة بن بجر

استغفر النبي صلى الله عليه وسلم لأصحمة «وهو نجاشيّ الحبشة»، حين بلغه موته، وقال: اخرجوا فصلُّوا على أخ لكم، وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات، ثم قال: هذا النجاشي أصحمة، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلى على علْج نصرانى لم يره قط؟؟ فأنزل الله: «وإن من أهل الكتاب....»

١٠ – تجدون من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، من يؤمنون بالله، ويوحدونه، ويعترفون بالقرآن، ويقرُّون بما جاء فى التوراة والإنجيل، من وصف محمد، والتبشير برسالته. يفعلون ذلك خاضعين لله بالطاعة، ولا يحرفون ما أنزل عليهم فى كتبهم، ولا يخفونه، ولا يبدلونه، للوصول إلى غرض من أغراض الدنيا التافهة الزائلة، هؤلاء جزاؤهم عند الله، وأجرهم عليه، وثوابهم مدخر لهم يوم القيامة، يقدمه إليهم كاملا غير منقوص.

١١ – يدعو الله المؤمنين أن يصبروا على ما يلقون من عنَت بسبب الدين، فلا يؤثر فى إيمانهم ما يلقون من مشقات فى أداء الطاعات، ولا ما يصادفهم من بؤس وشدة، وفقر وحرمان، وتشريد، وقتل، وأن يصبروا على قتال الكفار وأهل الضلال، وأن يُعدوا أنفسهم دائماً لمجاهدة العدو، وبما يحتاجون إليه من معدات حربية مناسبة لزمانهم، وأن يخافوا الله، ويحذروه، ليفوزوا بالنعيم المقيم فى الآخرة.

سورة النساء

نزلت بالمدينة ، وآياتها ١٧٦ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

يٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ،
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً .
وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلاَ
تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً . وَإِنْ
خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ
النِّسَاءِ : مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ، وَآتُوا النِّسَاءَ
صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً ، فَكُلُوهُ
هَنِيئاً مَرِيئاً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خلقكم من نفس واحدة	خلقكم من شخص واحد هو آدم .
بث منهما	نشر من آدم وحواء .
تساءلون به	يسأل به بعضكم بعضاً ، فيقول : أسألك بالله مثلا .
والأرحام	وصلوا الأقارب .
رقيباً	مراقباً أعمالكم ، فيجازيكم عليها .
اليتامى	جمع يتيم ، وهو من مات أبوه ، والمراد : ما كانوا عليه قبل بلوغ الرشد .
الخبيث	الحرام .
بالطيب	بالحلال .
ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم	ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم ظلماً وجوراً .
حوباً كبيراً	ذنباً وظلماً فاحشاً .
ألا تقسطوا	ألا تعدلوا .
فانكحوا	فتزوجوا .
ألا تعدلوا	ألا تقيموا العدل بينهن فى النفقة وتوزيع الوقت .
أو ما ملكت أيمانكم	أو اقتصروا على ما ملكتموه من الإماء .
أدنى	أقرب .
ألا تعولوا	ألا تجوروا وتظلموا .

الألفاظ	شرحها
صدقاتهن	مهورهن .
نحلة	فريضة عن طيب نفس .
فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً	فإن طابت نفوسهن عن التنازل عن شيء من المهر لكم .
فكلوه هنيئاً مريئاً	فخذوه وأنفقوه حلالا طيباً .

مجمل المعنى

١ – يأيها الناس ، احذروا ربكم فى أن تخالفوه فيما أمركم به ، أو نهاكم عنه ، فيحل عليكم من عقوبته ما لا طاقة لكم به ، فقد تفضل عليكم بقدرته القاهرة ، ونعمته الباهرة ، بأن أنشأكم من شخص واحد ، وهو أبوكم آدم عليه السلام ، وخلق منه زوجته حواء ليسكن إليها ، وأوجد منهما عدداً كبيراً من بنين وبنات ، انتشروا فى الأرض فعمروها ، وهو الذى تذكرونه وتقصدونه حين يسأل بعضكم بعضاً عند الاستعطاف ، فيقول أحدكم للآخر : أسألك بالله ، أو ناشدتك الله ، أو نحو ذلك ، فجدير بكم أن تتقوه حق تقاته ، لربوبيته وخلقه إياكم خلقاً بديعاً ، وصلوا الأقارب . واشملوهم بعطفكم ، ودوام الألفة والمودة فيما بينكم وبينهم ، إن الله محص عليكم أعمالكم ، مطلع على سركم ونجواكم .

٢ – ويأيها الأوصياء والأولياء على اليتامى ، أعطوهم أموالهم إذا بلغوا الحُلُم ، وأونس منهم الرشد ، والمقدرة على إدارة أموالهم . إن كنتم ممن يتقون الله ، ولا تأخذوا حين وصايتكم أو ولايتكم عليهم الجيد من أموالهم ، والخيار

من منازلهم وأرضهم وزراعتهم ، وتستبدلون بها الحقير الخسيس من أموالكم ، ولا تخلطوا أموالهم بأموالكم ، رغبة فى أن تخفوا ما تضمونه إلى حَوْزتكم ، فتسلبوا اليتيم أمواله ، وتنهبوها بطغيانكم وسوء نياتكم ، فإن هذا الأكل ذنب عظيم ، وظلم كبير .

٣ — وكان بعض الأوصياء أو الأولياء يكون عنده العدد الكثير من النساء ، ويتولى أمر الأيتام ، فإذا أنفق ماله على نفسه وزوجاته ، ولم يبق له مال ، وصار محتاجاً ، امتدت يده إلى من يلى أمورهم من اليتامى ، فنزل قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى . . . . » ، والمعنى : إن خفتم عدم العدل فى أموال اليتامى ، باضطراركم إلى الاستعانة بأموالهم على معايشكم ، فقد حظرْتُ عليكم ألا تتزوجوا أكثر من أربع ، ممن تستطيبهن نفوسكم ، ويحل لكم التزوج بهن ، فإن خفتم عدم العدل فى الأربع أو الثلاث أو الاثنتين ، فى النفقة أو قسمة أوقاتكم بينهن قسمة عادلة ، فاكتفوا بواحدة ، فذلك أقرب إلى ألا تجوروا أو تظلموا ، فكأن الله تعالى يخوف من الإكثار من الزوجات ، لما عساه أن يقع من التعدى على أموال اليتيم ، أو عدم العدل بين النساء — أو اكتفوا بما ملكت أيمانكم من الإماء ، إذ ليس لهن مهما تعددن ما للزوجات من حقوق ، وأعطوا النساء مهورهن فريضة عن طيب نفس ، فإن طابت نفوسهن أيها الأزواج عن شىء من المهر ، فتنازلن عنه لكم ، فخذوه حلالا طيباً .

(٢)

وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَابْتَلُوا الْيَتَامَى ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً . لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ، نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
السفهاء	جمع سفيه ، وهو المبذر المتلاف ، الذى يستحق الحجر عليه ، لسوء تصرفه .
أموالكم	الأموال التى تقومون على صيانتها وتدبيرها ، حين تكونون أولياء أو أوصياء .
وارزقوهم فيها واكسوهم	اجعلوا فيها قدراً لمن تحت إشرافكم ، فى مسكنه ومطعمه ومشربه .
قولوا لهم قولا معروفاً	عِدُوهم عِدَةً جميلة ، بإعطائهم أموالهم حين يبلغون رشدهم .
ابتلوا اليتامى	اختبروا من لكم الإشراف عليهم من اليتامى ، بتمكينهم من بعض التصرفات .
بلغوا النكاح	وصلوا إلى سن البلوغ .
آنستم منهم رشداً	وجدتم وأبصرتم منهم صلاحاً لإدارة أموالهم ، واستقامة فى سيرهم .
وبداراً أن يكبروا	مبادرين إلى الانتفاع بها ، مخافة أن يكبروا ، فيأخذوا أموالهم .
فليأكل بالمعروف	فليأخذ من مال اليتيم بقدر أجره فحسب .
فأشهدوا عليهم	اتخذوا شهداء عليهم ، بأنهم تسلموا أموالهم .
حسيباً	شهيداً محاسباً .
فارزقوهم منه	أعطوهم شيئاً من المال قبل القسمة .

الألفاظ	شرحها
قولا معروفاً	قولا جميلا بالاعتذار إليهم ، إن كان ما يعطون قليلا .
من خلفهم	من بعدهم .
فليتقوا الله	فليخافوا الله فى أموال اليتامى ، وليفعلوا ما يحبون فعله مع ذراريهم .
سديداً	صواباً .
يأكلون فى بطونهم ناراً	يأكلون فى بطونهم ما يدخلهم النار .
وسيصلون سعيرا	وسيذوقون ناراً حامية يوم القيامة .

فى هذه الآيات رجوع إلى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى ، وتفصيل لما أجمل فيما سبق .

مجمل المعنى

١ — ولا تعطوا أيها الأوصياء والأولياء السفهاء من اليتامى ، الأموال التى تحت تصرفكم ، وكلفتم القيام عليها ، لئلا يسيئوا التصرف فيها ، ويضيّعوها فى غير وجوهها ، وأنفقوا عليهم منها فى مساكنهم ومطاعمهم وملابسهم ، ونموا أموالهم ، وثمروها فى أعمال مضمونة الربح ، حتى تكون نفقاتهم من الأرباح ، لا من رأس المال ، وعِدوهم عِدة جميلة تطيب بها نفوسهم ، بأن أموالهم ستئول إليهم ، حين يثبتون أنهم قادرون على حسن التصرف فيها .

٢ — واختبروا اليتامى قبل بلوغهم ، بتتبع أحوالهم ، واستقصاء تصرفاتهم ، بأن تدفعوا لهم قدراً قليلا من المال ، لاختبار تصرفهم فيه ، فإن بلغوا حد البلوغ ، واستكملوا سن الرشد ، واتضح أنهم قادرون على إدارة أموالهم إدارة حسنة رشيدة ، فبادروا بدفع أموالهم إليهم ، ولا تأكلوا أيها الأولياء والأوصياء أموالهم ، بإسرافكم فيما يتجاوز حقكم فى نظير إدارتها ، أو بالمبادرة إلى اغتيال شيء منها، مخافة أن يكبروا ، فيغلُّوا أيديكم عن التصرف فيها ، ومن كان غنياً فليعفّ عن أموال اليتامى ، فلا يتناول أجراً على إدارتها، ومن كان فقيراً فليأخذ منها بمقدار أجره الذى يستحقه فحسب ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم بعد بلوغهم ، فأشهدوا عليهم أنهم تسلموها ، وبرئت ذمتكم منها ، فإن ذلك أبعد عن التهمة ، وأنفى للخصومة — وكفى الله حافظاً وشاهداً على أعمال خلقه ، محاسباً لهم على تصرفهم .

٣ — وكان العرب فى الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذُبُّ عن الحوزة ، وحدث أن أوس بن ثابت مات عن زوجة وثلاث بنات ، فأخذ ابنا عمه ميراثه كله ، حسب سنة الجاهلية ، فجاءت الزوجة إلى رسول الله ، فشكت إليه ، فقال لها : ارجعى حتى أنظر ما يوحى به الله، فنزل قوله تعالى : « للرجال نصيب ..... » الآية، فبعث إلى ابنى عم أوس ، وقال لهما : لا تحركا من مال أوس شيئاً ، فإن الله قد جعل للنساء نصيباً ولم يبينه، فلما نزل قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم . . . . » ، وزّع الميراث على حسب ما أمر الله به ، والمعنى : أن كلا من الرجال والنساء ، لهم نصيب مما ترك آباؤهم وأقرباؤهم الذين يرثونهم ، لافرق بين ذكر وأنثى من حيث الاستحقاقُ فى الميراث ، فلكل نصيب مفروض له ، سواء أكان الميراث قليلا أم كثيراً .

٤ — وإذا شهد قسمةَ الميراث ذوو القرابة ممن لا يرثون ، واليتامى والمساكين من الأجانب ، فيحسن أن يعطيهم الورثة شيئاً من الميراث تصدُّقاً عليهم ، وتطييباً لقلوبهم ، وأن يقولوا لهم قولا جميلا ، فلا يغلظوا فى القول لهم ، ولا يظهروا استياءهم من حضورهم ، ولا يشعروهم أنهم يَمُنُّون عليهم ، بل يعتذرون إليهم إن كان ما يُعطونه قليلا .

٥ — وعلى الأوصياء والأولياء أن يتقوا الله فى أموال اليتامى ، بأن يفعلوا معهم ما يحبون أن يفعل غيرهم مع ذراريهم الضعاف بعد وفاتهم ، فيشفقوا عليهم شفقتهم على أبنائهم ، ويحبوا لهم ما يحبون لأولادهم ، ويقولوا لهم مثل ما يقولون لذراريهم ، من قول سديد ، ونصح وإرشاد ، ويعاملوهم بالرفق وحسن الأدب ، وألا يتصرفوا فى أموالهم تصرفاً يضُرّ بها ، وألا يحملهم الطمع على أكل شىء منها بدون حق ، فإن الذين ينتهزون فرصة ضعف اليتامى ، فيأكلون شيئاً من أموالهم ، إنما يأكلون فى بطونهم ما يؤدى بهم إلى نار جهنم ، يُلْقَوْن فيها ، ويقاسون حرها ولهيبها .

(٣)

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ، لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً .

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ، وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ

دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ . تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ ، فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ، وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يوصيكم الله	يأمركم الله ويفرض عليكم .
حظ	نصيب .
كلالة	من لا والد له ولا ولد .
حدود الله	أحكام شرائعه .

فى هذه الآيات تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان . . . . . »

مجمل المعنى

١ — يأمر الله فى شأن الميراث عند وفاة المورث ، أن يكون توزيعه على النحو الآتى ، بعد قضاء ما على المتوفَّى من دين ، وتنفيذ ما أوصى به ، بشرط ألا يتجاوز ثلث ما يبقى — وهذا التوزيع قد فرضه الله علينا ، وسوَّى

فيه بين الآباء والأبناء على حسب الأحكام التى بيّنها ، إذ ليس يعلم أيهم أقرب لنا نفعاً : آلأصول أم الفروع ؟ غير المولى جل شأنه ، العليم بمصالحنا ، الحكيم فيما يقضى ويقدّر ، فيجب أن نطيعه ، ونعمل بما أمر به ، فإنه أعلم بوجه الحكمة فيما قدره ودبره ، ويكون التوزيع على النحو الآتى ، بشرط ألا يكون هناك مانع من قتل ، أو اختلاف دين ، أو رق :

(ا) أن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين ، فإذا اجتمع ولد وابنتان ، وليس للمتوفى وارث غيرهم ، أخذ الولد نصف المال ، وأخذت الابنتان النصف الباقى ، وإذا ترك المتوفى ولداً وبنتاً ، أخذ الولد الثلثين ، وأخذت البنت الثلث الباقى .

(ب) وإن كان الورثة من النساء فقط ، وكن اثنتين أو فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك المورّث ، وحكم الأختين مستفاد من نصيبهما المذكور فى آخر سورة النساء ، فى تفسير الجزء الخامس ، وإذا كان نصيب الأختين الثلثين ، فالابنتان أولى ، لأن البنت أمس رحماً من الأخت ، ولأن البنت تستحق الثلث مع أخيها الواحد ، فمع الأنثى أختها أولى .

(حـ) وإن ترك المتوفّى ابنة واحدة ، ليس لها أخ ولا أخت ، فلها النصف .

(د) وإن ترك المتوفى أبوين فلكل واحد منهما السدس مما ترك ابنهما ، إن كان له ولد ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو أكثر ، وولد الولد كالولد ، فيوزّع الباقى عليهم بعد نصيب الأبوين ، فإن لم يكن للمتوفى ولد ، وورثه أبواه ، فللأم الثلث ، والباقى للأب ، وهنا تفصيل يؤخذ من كتب الفقه .

(ه) فإن كان للمتوفى إخوة من الذكور أو الإناث فلأمه السدس ، والباقى للأب ، ولا شىء للأخوة ، لاحتياج الأب إلى الإنفاق على أبنائه إخوة المتوفى .

(و) وأن يكون للزوج نصف ميراث الزوجة إن لم يكن لها ولد من زوجها ، أو من زوج سابق عليه ، فإن كان للزوجة ولد أخذ الزوج الربع ، ولولد الولد هذا الحكم .

(ز) وأن يكون للزوجة أو الزوجات مهما تعددن ربع ميراث الزوج . إن يكن له ولد ، فإن كان للزوج ولد منهن أو من غيرهن ، فلهن الثمن ، وولد الولد فى هذا الحكم كالولد .

(ح) ومن توفى وليس له والد ولا ولد ، وله أخ أو أخت من أم ، فلكل واحد منهما السدس مما ترك .

(ط) وإن كان الإخوة والأخوات لأم أكثر من واحد ، فهم شركاء فى الثلث ، يستوى المذكر والمؤنث فى النصيب بلا فارق .

٢ - أوصى الله بهذا وصية يجب العمل بها ، والله عليم بأحوال خلقه ، حليم لا يعجل بعقوبته لمن خالفه ، وهذه الأحكام شرائع الله التى حدّها لعباده ، ليعملوا بها ولا يتعدّوها ، فمن يطع الله ورسوله فيما حكم به ، يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يخلد فيها أبداً ، وذلك هو الفوز العظيم ، وجاءت : « خالدين » بصيغة الجمع ، مراعاة لمعنى : « مَن » ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ، يدخله ناراً خالداً فيها ، وله عذاب مهين ، وجاءت : « خالداً » فى الآية بصيغة المفرد ، مراعاة للفظ : « من ».

(٤)

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيماً . إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ،

أَتأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ؟

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الفاحشة	ما اشتد قبحه ، واستعملت فى الزنى لأنه أقبح الفضائح ، وهو المراد هنا .
استشهدوا عليهن أربعة منكم	اطلبوا شهادة أربعة من رجالكم العدول الأحرار .
فأمسكوهن فى البيوت	احبسوهن فى البيوت ، وامنعوهن من مخالطة الرجال .
سبيلا	طريقاً إلى الخروج من البيوت .
اللذان يأتيانها منكم	اللذان يأتيان الفاحشة من غير المتزوجين .
فآذوهما	عيروهما ووبخوهما بقوارص الكلام .
أعرضوا عنهما	اتركوا إيذاءهما ، واصفحوا عنهما .
إنما التوبة على الله	إنما التوبة التى كتب الله على نفسه قبولها تفضلا منه .
يعملون السوء بجهالة	يرتكبون المعصية صغيرة أو كبيرة ، جهلا بما تؤدى إليه من عقوبة .
من قريب	بعد زمن قريب من ارتكابها ، أو قبل نزول الموت وظهور علاماته .

شرحها	الألفاظ
أعددنا وهيأنا .	أعتدنا
أن ترثوا ذوات النساء وأشخاصهن .	أن ترثوا النساء
تمنعوهن من التزوج بغيركم ، بحبسهن فى بيوتكم .	تعضلوهن
لتستردوا بعض ما أعطيتموهن من المهر .	لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن
بذنب عظيم لا خفاء فيه ، من زنى ، أو نشوز ، أو سوء عشرة .	بفاحشة مبينة
مالا كثيراً .	قنطاراً
ظلماً .	بهتاناً
اتصل بعضكم ببعض اتصال مباشرة .	أفضى بعضكم إلى بعض
عهداً وثيقاً ، وهو أمر الله ، بإمساكهن بمعروف ، أو تسريحهن بإحسان .	ميثاقاً غليظاً

وضع الإسلام فى أول أمره أحكاماً للردع ، والزجر عما كان يحدث فى الجاهلية ، فلما تغلغل الدين فى قلوب المسلمين ، وتمكن من نفوسهم ، وأعرضوا عن شوائب الجاهلية ، وزهدوا فيها ، عُدِّلت هذه الأحكام بما يناسب حالتهم أو ألغيت ؛ (تراجع الصفحة ٨٢ وما بعدها ، من تفسير الجزء الأول) ، والآيتان من قوله : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » ، إلى قوله : « تواباً رحيماً » ، من الآيات التى نسخت ، واستبدل بأحكامها غيرها .

مجمل المعنى

١ - واللاتى يزنين من نسائكم وهن ذوات أزواج ، فاستشهدوا عليهن بما اقترفن من الزنى أربعة من رجالكم المسلمين الأحرار العدول ، فإن شهدوا عليهن شهادة صريحة بالزنى ، فاحبسوهن فى البيوت حتى توافيهن منيتهن ، أو يجعل الله لهن مخرجاً من الحبس ، بما يشرعه الله من الحد لهن ، ورجم المتزوجين بالحجارة ؛ وقد نسخ هذا الحكم بما نزل فى سورة النور ، من قوله : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ، ويطبق هذا الحكم عليهما إن كانا غير متزوجين ، فإن كانا متزوجين رُجما .

٢ - واللذان يأتيان هذه الفاحشة من الرجال والنساء غير المتزوجين ، فآذوهما بالتعيير والتوبيخ بقوارص الكلام ، فإن تابا وأصلحا أعمالهما ، وندما على ما فعلا ، فكفُّوا عنهما الأذى ، إن الله تواب يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، رحيم بهم ، وقد قدمنا أن هذا الحكم قد نسخ بما نزل فى سورة النور ، وسنأتى على هذا الحكم فى تفسير الجزء الثامن عشر إن شاء الله .

٣ - إنما يكون قبول التوبة من الله للذين يرتكبون المعاصى ، جاهلين ما تجر إليه من سخط الله وغضبه ، فإذا أدركوا بعد ارتكابها بوقت قريب أنهم أخطئوا بعصيان ربهم ، وندموا على ما فعلوا ، وعزموا على ألا يعودوا ، فأولئك يتوب الله عليهم ، ويغفر لهم زلتهم ، والله عليم بحسن نيتهم وإخلاصهم فى التوبة ، حكيم فى تصرفه ، لا يعاقب التائب النادم على على ما اقترف من إثم ؛ وليست التوبة للذين يرتكبون الذنوب والمعاصى ، حتى إذا أدرك أنه فى حالة الاحتضار ، وانقطع حبل رجائه فى الحياة ،

قال — عندما أحس ما هو فيه من دنو أجله — : إنى تبت الآن ، فتوبته لا تنفعه ، ولا تقبل منه ، كما أنها لا تقبل من الفَسَقَة الكفَرَة عند معاينة العذاب يوم القيامة ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، أولئك أعد الله لهم عذاباً مؤلماً موجعاً ، ومد بعضهم التوبة إلى ما قبل ظهور أمارات الموت .

٤ — وكان الرجل فى الجاهلية إذا مات ، ألقى أحد أقربائه ، أو أصدقائه ثوبه على امرأة المتوفَّى ، وقال : أنا أحق بها ، ثم إن شاء تزوجها بغير مهر ، وإن شاء زوَّجها غيره ، وأخذ مهرها لنفسه ، وكذلك كان الرجل يحبس على نفسه زوجاته ، من غير حاجة له إليهن ، رغبة فى أن يخلعن أنفسهن منه ، برد المهر أو بعضه إليه ، فنهى الله عن ذلك بقوله : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن . . . . » ، والمعنى : يأيها المؤمنون ، لا يحل لكم أن تأخذوا نساء موتاكم على سبيل الإرث ، فتتزوجوهن كارهات ، أو تُزوجوهن مكرهات ، ولا أن تمنعوا زوجاتكم من التزوج بغيركم ، حين ترغبون عنهن ، بإمساكهن ، لا لرغبتكم فيهن ، ولكن للإضرار بهن ، حتى يفتدين منكم أنفسهن ، برد مهورهن إليكم ، إلا أن يأتين بفاحشة ظاهرة بينة ، كسوء العشرة ، أو عدم العفة ، أو بذاءة اللسان ، أو النشوز ، فلكم حينئذ أن تضاروهن وتضيقوا عليهن ، حتى يفتدين أنفسهن برد ما أخذن من المهور أو بعضها ، وعاشروهن بالإنصاف فى الفعل ، والإجمال فى القول ، والقيام بالنفقة والصلة الزوجية ، فإن كرهتموهن فاصبروا ، ولا تفارقوهن ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله لكم فيه خيراً كثيراً ، فتعود الألفة والمودة ، ويرزقكم منهن ولداً صالحاً ، فكثيراً ما يكره الإنسان ما هو أجدى نفعاً ، وأوفر خيراً ، وقد يحب ما لا نفع فيه ولا جدوى .

(٥)

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ، إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا ، وَسَاءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تنكحوا	ولا تتزوجوا .
ما قد سلف	ما قد تقدم فى جاهليتكم .
مقتاً	ممقوتاً ، والمقت : أشد البغض .

الألفاظ	شرحها
ساء سبيلا	بئس الطريق طريقه .
أمهاتكم اللاتى أرضعنكم	الأمهات بسبب الرضاع .
أخواتكم من الرضاعة	بنات المرضِع لأنهن بمثابة الأخوات .
ربائبكم اللاتى فى حجوركم	جمع ربيبة : وهى بنت زوجة الرجل من غيره ، تتربى فى كنفه غالباً ، وسميت ربيبة : لأنها لرجل يربيها مع أولاده .
حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم	زوجات الأبناء من الأصلاب ، لا الأبناء بالتبنى .

مجمل المعنى

١ — بعد أن بيَّن الله كيفية معاملة الزوجات ، ونبَّه على الحالة البغيضة التى كانت فاشية فى العرب ، وهو إرث النساء وعضلهن ، شرع يبين من يحرُم على الرجل التزوج بهن من النساء وهن :

(ا) من باشرها الأب بعقد أو غيره ، أو عقد عليها ولم يدخل بها ، على خلاف فيه . فقد كان الرجل فى الجاهلية إذا مات عن امرأته ، كان ابنه أحق بها إن شاء ، إن لم تكن أمه ، أو يزوجها من شاء ، واسم الأب ينتظم الجد وإن علا ، ولكن ماسلف فلا مؤاخذة عليه ، وهذا الزواج يسمى زواج المقت ، وهو قبيح ممقوت ، لأن زوجة الأب بمثابة الأم ، فبئس السبيل سبيله

(ب) والأمهات : وتشمل الجدات من قبل الأب والأم .

(حـ) والبنات : وتشمل بنات الأبناء وبنات البنات وإن نزلن .

(د) والأخوات : سواء أكن شقيقات ، أم أخوات لأب ، أم أخوات لأم .

(هـ — و و) والعمات والخالات ، ويلحق بهن بنات الأجداد والجدات وإن علون ، وكذا عمة الجد وخالته ، وعمة الجدة وخالتها .

(ز — و ح) وبنات الأخ وبنات الأخت ، ويدخل فيهن من تناسل منهن من البنات .

(ط) والأمهات بسبب الرضاع ، فإذا أرضعت امرأة طفلا حرمت عليه ، لأنها بمثابة أمه ، وأمهات الرضاع هن اللائى أرضعن الرجل وهو طفل ، ما لا يقل عن خمس رضعات ، قبل استكماله حولين ، ولم يفرق بعضهن بين قليل الرضاع وكثيره ، ولو مصة .

(ى) والأخوات من الرضاعة ، ويلحق بهن أخت المرضعة لأنها خالته ، وأمها لأنها جدته ، ، وأخت زوجها لأنها عمته ، وأم زوجها لأنها جدته ، وبنات بنيها وبناتها لأنهن بنات إخوته وأخواته .

(ك) وأمهات النساء وإن علون — اللاتى دخل بهن — فالدخول بالأمهات يحرم على الزوج بناتهن ، أما مجرد العقد فلا يحرم ، ومجرد العقد على البنات يحرم الأمهات .

(ل) والربيبة : وهى بنت زوجة الرجل من غيره ، إذا دخل بأمها ، فإن لم يدخل بأمها جاز أن يتزوج بابنتها ، وحينئذ تحرم عليه أم الربيبة حرمة أبدية ، وقَيْدُ بقاء الربائب فى حجر الزوج غير ملزم ، وإنما ذكر لأن الربائب يُقمن غالباً مع أمهاتهن فى كنف

أزواجهن ، فالأزواج يربونهن كما يربون أبناءهم ، وربَّ وربّى بمعنى واحد .

(م) وزوجات الأبناء الذين من صلب الرجل ، ويخرج بهذا القيد أبناؤه بالتبنى ، فيجوز له الزواج بزوجاتهم من بعدهم .

(ن) والجمع بين الأختين من النسب أو الرضاع ، ويلحق بهذا الجمعُ بين الزوجة وبين عمتها أو خالتها ، واستثنى الله ما قد سلف زمن الجاهلية ، من مخالفة ما سبق بيانه ، فلا إثم على من وقع فيه ، إن الله كثير المغفرة لما سبق قبل التحريم ، رحيم بعباده .

(س) وذوات الأزواج من النساء قبل انفصالهن من أزواجهن ،وانقضاء عدتهن ، وقد ذكرنا هؤلاء هنا ، وإن كان حكمهن فى أول تفسير الجزء الخامس ، ليكون حكم التحريم شاملا .

ومما تقدم يتضح أن المحرمات بسبب النسب سبع وهن : الأمهات ، والبنات ، والأخوات ، والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ؛ والمحرمات بالصهر والرضاع سبع ، وهن : الأمهات من الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة ، وأمهات النساء ، والربائب ، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين ، وزوجات الآباء ، ويتبقى بعد ذلك ذوات الأزواج ، فالمحرمات من النساء خمس عشرة .

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً . يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
المحصنات	ذوات الأزواج الحرائر .
إلا ما ملكت أيمانكم	إلا ما ملكتموهن من الإماء ، بالسَّبى فى الحرب أو بالشراء .
كتابَ الله عليكم	فرَض الله عليكم تحريمهن فرضاً .
أن تبتغوا بأموالكم	أن تطلبوا النساء بأموالكم بمهر أو شراء .
محصِنين غير مُسافِحين	متزوّجين غير زانين ، والسفاح : الزنى .
فما استمتعتم به منهن	من تمتعتم بمعاشرتهن من النساء .
أجورهن	مهورهن .
فيما تراضيتم به من بعد الفريضة	فيما تراضيتم عليه مع زوجاتكم ، من إبرائكم من المهور المفروضة ، أو زيادتها أو نقصها .
طولا	سَعة وغِنى .
المحصنات	الحرائر .
فمما ملكت أيمانكم	فممّن يملكها غيركم من الإماء .
فتياتِكم المؤمنات	إمائكم المؤمنات .
بعضكم من بعض	أنتم والإماء من أصل واحد وهو آدم ، فلا تستنكفوا منهن .

شرحها	الألفاظ
بإذن أربابهن : سادتهن .	بإذن أهلهن
من غير مَطْل أو نقص .	بالمعروف
عفيفات غير زانيات .	محصنات غير مسافِحات
ولا متخذات أخلاء يباشرونهن سراً .	ولا متَّخِذات أخدان
تزوجن .	أحصِن
الحدّ .	العذاب
زواج الإماء عند عدم السعة والغنى .	ذلك
لمن خاف الوقوع فى معصية الزنى .	لمن خشى العَنَت
صبركم عن زواج الإماء خير ، لئلا تصير أولادكم أرقاء لأربابهن .	وأن تصبروا خير لكم
مناهج من تقدم من ذوى الرشد .	سُنن الذين من قبلكم
يعفو عما سلف منكم فى جاهليتكم .	ويتوب عليكم
يطلبون لذات الدنيا ، وشهوات أنفسهم .	يتَّبعون الشَّهوات
تعدلوا عن الطاعة بارتكاب المعاصى عدولا كبيراً .	تميلوا ميلا عظيماً
خلق الإنسان لا يستطيع الصبر على الشهوات .	خُلق الإنسان ضعيفاً

مجمل المعنى

١ — حرّم الله فيمن حرّم ممن ذكرناهن فى آخر تفسير الجزء الرابع ، ذواتِ الأزواج من النساء قبل طلاقهن ، وانقضاء عِدّتهن ، واستثنى الإماء اللاتى صرن ملك اليمين بالسّبى فى حرب الكفار ، أو الشراء ، وإن كن ذواتِ أزواج ، بعد انقضاء عِدّتهن بحَيْضة واحدة ، فيباح لأربابهن

معاشرتهن ؛ وهؤلاء النساء الحرائر ذوات الأزواج ، ومن سبق ذكرهن فى آخر تفسير الجزء الرابع ، فرَض الله عليكم تحريمهن فرضاً ، وأحل لكم غيرَهن : أحلّ لكم أن تستعملوا أموالكم فى مباشرة الحرائر أو الإماء، على أن تكونوا متزوّجين بهن لا زُناة ، فمن تمتّعتم بمباشرتهن من النساء ، فأعطوهنّ مهورهنّ عطاء مفروضاً عليكم ، ولا حرَج عليكم أيها الأزواج إن أدركتكم عُسْرة ، بعد أن فرضتم لنسائكم مهراً على أنفسكم ، وتراضيتم معهن ، من إبرائكم من المهر ، أو تأخيره أو نقصه ، فإن ذلك سائغ عند التراضى ، إن الله كان عليماً بمصالح عباده ، حكيماً فيما دبَّره وشَرعه من الأحكام .

٢ — ومن لم يستطع منكم غِنى يبلغ به أن يتزوج الحرائر ، وعجزت قدرتُه عن أداء المهر، وخاف أن تغلبه شهوتُه فيَزْنى ، فله أن يتزوج أمَةً يملكها غيرُه ، على أن تكون مؤمنة، ويكفى ظاهر الإيمان فى الأمَة ، فالسَّرائر لا يعلمها إلا المولى جلّ وعلا ، ولا يستنكف عن التزوّج بالأمَة ، فإنه والأمَة من أصل واحد ، وهو آدم عليه السلام، فهما فى الإنسانية سواء ، غير أن الله فضّل بعض الناس على بعض فى الأحوال الاجتماعية ، بشرط أن يتمّ الزواج برضا مالك الأمَة ، ويكون أولادها منه أرِقَّاء لسيِّدها، وبشرط أن يؤدِّى للأمَة المهر المناسب لها، المتَّفق عليه ، من غير مَطْل ولا نقص ، على أن تكون هذه الإماء عفيفات ، غيرَ مجاهرات بالزنى ، وليس لهن أخلاء يزنون بهن سراً ، ولقد كان فى الجاهلية الزوانى من الإماء يزنين علنا ، ولهن رايات منصوبات تدل عليهن ، وأجورُهن لسادتهن ، كما كان يفعل عبد الله بن أبىّ المنافق ، وسيأتى تفصيل ذلك فى تفسير سورة النُّور ، إن شاء الله .

٣ — فإذا تزوجت الأمَة بكم ، وارتكبت الزّنى بعد الزواج ، فعليها من الحدّ

نصف ما على الحرائر الأبكار من حدّ ، فيُجلَدْن خمسين جَلدة ، وتزوُّجُ الأمَة عند عدم الغنى والسَّعة ، والقدرة على مهر الحرّة ، إنما يكون لمن خاف الزلل بارتكاب الزنى ، أما التقىُّ قوىّ الإرادة ، القادر على كبح جماح نفسه ، فلا يجوز له أن يتزوج الأمَة ، وكذلك من كان يملك مهر الحرّة ، وعلى كل حال ، فالصبر على العُزبة خير من زواج الأمَة ، لأنه يُفضى إلى أن يكون الولد رقيقاً كما قدّمنا ، والله غفور لمن لم يصبر وتزوّج أمَة ، رحيم بأن رخّص لنا فى زواج الأمَة المؤمنة عند الضرورة .

٤ — يريد الله أن يبين لكم الحلال والحرام ، وما خَفِىَ عليكم مما فيه مصالحُكم ، ويَهْدِيَكم إلى مناهج من تقدّم من ذوى الرَّشَد ، وطرائق من كان قبلكم من الأنبياء ، فيما أحله الله وحرّمه ، لتتبعوهم فتنأوا عن المعاصى ، ويرجعَ بكم إلى طاعته فى ذلك ، وتركِ ما كنتم تأتون من الآثام فى جاهليتكم ، ويتجاوزَ عمّا اقترفتموه ، بتوبتكم عمّا سلف من قبيح أعمالكم ، والله عليم بكم ، حكيم فيما يدبّره لكم .

٥ — والله يريد أن يرجع بكم إلى طاعته ، والإنابة إليه ، ليعفو عما سلف من آثامكم ، من زواج حلائل أبنائكم وآبائكم ، وغير ذلك مما كنتم تستحلُّونه أيام جاهليّتكم ، ويُريد الذين يطلبون لذات الدنيا ، وشهواتِ أنفسهم الأمّارة بالسوء ، أن تميلوا عن الحقّ والطاعة ، فيما يأمر الله به وينهى عنه من المحرّمات ، ميلا عظيماً ، باستحلالهم المحرّمات بالزنى ، أو زواج بنات الأخ وبنات الأخت ، كما يفعل اليهود ، كما أن الله يريد أن يُيَسِّر لكم أحكام الشرائع ، بأن أباح لكم زواج الأمَة مثلا عند الضرورة ، ولكن الإنسان خلق ضعيفاً ، لا يصبر عن الشَّهوات ، ولا يتحمل مشاقّ الطاعات .

(٢)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً . وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً . الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً

مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بالباطل	بما هو حرام فى الشرع ، كالربا والغصب والقمار .
ولا تقتلوا أنفسكم	لا تفعلوا ما يؤدّى إلى قتل أنفسكم .
عُدواناً وظلماً	متجاوزاً الحلالَ إلى الحرام .
كبائر ما تُنْهَوْنَ عنه	كبائر الذنوب ، كالقتل والزنى .
نكفر عنكم سيئاتكم	نغفر لكم صغائر ذنوبكم ، ونمحها عنكم .
مُدخلا كريماً	مُدخلا حسنا ، وهو الجنة .
لكل جعلنا مَوَالى	لكل وارث جعلنا ورَثة .
الذين عَقَدت أيمانكم	الذين أكّدت أقسامكم مع الحلفاء الذين عاهدتموهم فى الجاهلية ، على النصرة والإرث .
نصيبهم	حظّهم من الميراث ، وهو السدس .
الرجال قوّامون على النساء	لهم الرياسة عليهنّ ، يقومون عليهن كما يقوم الوالى على الرعية .
قانتات	مطيعات لله ، قائمات بحقوق أزواجهن .
حافظات للغيب	حافظات لحقوق أزواجهن عليهن فى غيابهم .
بما حفظ الله	بسبب الذى حفظ الله لهنّ على الزوج ، من المهر والنفقة .
نُشوزهن	عصيانهن ، وخروجهن على طاعة أزواجهن .
واهجروهن فى المضاجع	واعتزلوا فراشهن .

الألفاظ	شرحها
اضربوهن	اضربوهن ضرباً غير موجع ، بما لا يُدمى ولا يكسر .
فلا تبغُوا عليهن سبيلا	فلا تطلبوا طريقاً إلى إيذائهن .
شقاق بينهما	خلافاً بين الزوجين .

مجمل المعنى

١ — أراد الله أن ينظّم أحوال المؤمنين الاجتماعية ، بإيضاح طريقة التعامل فيما بينهم ، وبيان بعض المحرمات المتعلقة بالأنفس والمال ، فنهى أن يأخذ أحدهم أموال الآخر بما لم يبحه الشرع ، كالرّبا والغصب ، والسّرقة والقمار ، ما لم يكن التصرُّف فى الأموال حاصلا فى تجارة ، وصادراً عن تراضى المتعاقدين ، ونهى الله عن ارتكاب ما يؤدّى إلى قتل النفس : كالتردّى من جبل شاهق ، كما يفعل بعض اليابانيين ، ومخالطة المرضى بأمراض معدية ، من غير تحرّز ، والله رحيم بعباده ، ينهاكم عما يُعرّضكم للأذى فى الأموال والأنفس ، ومن يفعل ما نُهى عنه ، ويأت ما أُمِرَ بتركه ، فسوف نُذيقه جهنم ، يصلاها مذموماً مدحوراً .

٢ — إن تجتنبوا أيها المؤمنون كبائر الذنوب ، وهى التى نهاكم الله ورسوله عن ارتكابها ، كالزنى والشرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التى حرّم الله قتلها إلا بالحق ، وعقوق الوالدين ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزّحف ، وقذفِ المحصَنات الغافلات المؤمنات ، نغفر لكم صغائر ذنوبكم ، ونمحُها عنكم .

٣ — وقالت النساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، يَغْزُو الرجال ولا نَغْزُو ، وإن لنا نصفَ الميراث ، ودِدنا لو أن الله أباح لنا الغزو ، فنصيب من الأجر مثل ما يصيب الرجال ، وإنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصفَ ما على الرجال ، كما لنا الميراث على النصف ، فأنزل الله قوله : « ولا تتمنوا ما فضّل الله ... » ، وجَعَل الحكم عامًّا للرجال والنساء ، منعاً لما ينشأ من التباغض والتحاسد ، والمعنى : لا تتمنوا ما أعطاه الله بعضكم ، وميّزه عليكم من المال والفضل ، لأن هذا يؤدى إلى عدم القناعة ، والرّضا بما قدّره الله ، وما قسمه الحكيم الخبير ، فقد اقتضت إرادة الله أن يكون لكل فريق نصيب معين من الرزق ، قدره الله على حسب مشيئته : للرجال ثواب مما اكتسبوا بسبب أعمالهم فى الجهاد وغيره ، وللنساء نصيب مما اكتسبن بسبب طاعة أزواجهن ، وحفظِ حقوق أزواجهن عليهن ، واسألوا الله أن يعطيكم ما تحتاجون إليه فى حياتكم الدنيوية ، وأن يغفر لكم خطاياكم فى حياتكم الأخروية ، إن الله يعلم ما يستحقه كل إنسان ، فيعطيه عن علم وتبيان .

٤ — ولكل إنسان موروث جعلنا ورثة ، يعطَوْن مما تركه ، وهم الوالدان والأقربون ، وجعلنا نصيباً من الميراث لمن أكدت أيمانكم الحِلْفَ بينكم وبينهم ، وهم من يُسمَّون موالى ، فلقد كان الرجل فى الجاهلية يعاهد رجلا آخر ، فيقول له : دَمى دَمُك ، وهَدَمى هدمُك ، وترثنى وأرثك ، وتنصرنى وأنصرك ؛ من الهَدَم : وهو المنزل ، أى منزلى منزلك ، ويكون لكل منهما السدس فى ميراث الآخر ، ثم يُقَسَّم الميراث بعد ذلك ، وقد أقرّ الإسلام هذا بقوله : فآتوهم نصيبهم ؛ ثم نُسخ بما فُرض للأقرباء وذوى الأرحام ، إن الله لم يزَل عالماً بجلىّ الأشياء وخَفيِّها ، مجازياً من يُعطى ومن يمنع ، الجزاء الذى يستحقه .

٥ — وحدث أن امرأة نَشَزَت على زوجها ، فلطمها ، فذهبت مع أبيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكا أبوها ما حصل لابنته ، فقال عليه الصلاة والسلام : لتقتصَّ من زوجها ، فانصرفت المرأة مع أبيها لتقتصَّ من زوجها ، فنادى رسول الله أنِ ارجعا ، فهذا جبريل قد أتاني ، فأنزل الله قوله : الرِّجال قوَّامون على النساء . . . . ، فقال عليه الصلاة والسلام : «أردت أمراً وأراد الله أمراً ، والذى أراده الله خير» ، ونزل قوله : « ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه» ، والمعنى : الرجال قوَّامون على نسائهم ، يقومون على رعايتهم ، قيام الوالى على رعيته ، بالأمر والنهى ، بسبب تفضيله سبحانه وتعالى الرجال بكمال العقل ، وحسن التدبير ، ومزيد القوَّة فى الأعمال ، ولذلك خُصُّوا بالنبوَّة والإمامة ، والشهادة فى القضايا ، فلا يخلو عُنصرُهم منها ، كما خُصُّوا بالجهاد وصلاة الجمعة ، وزيادة الميراث ، وبسبب ما أنفقوا من أموالهم فى المهر والنفقة على زوجاتهم . فالصالحات من الزوجات مطيعات حافظات لحقوق أزواجهن فى غيابهم فى النفس والمال ، فى نظير الذى حفظ الله لهن على الرجال من المهر والنفقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « خير النساء التى إذا نظرتَ إليها سرَّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » .

٦ — واللاتى تخشَوْن عصيانهن من النساء ، وترفُّعهن عن مطاوعة أزواجهن ، فانصحوهن أولا ، فإن لم يُجْدِ النصح فاعتزلوا فراشهن إلى فراش آخر ، فإن أبَيْن إلا الاستمرار على العصيان ، فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح ، فإن أطعنكم فلا تطلبوا عليهن سبيلا إلى الإيذاء ، أو التوبيخ ، واجعلوا ما كان منهن كأنه لم يكن ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، إن الله كان علياً كبيراً ، فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتم نساءكم ، وإذا

كان الله مع علو شأنه ، وعظيم قدرته ، يعفو عن سيئاتكم ، ويتجاوز عن ذنوبكم ، فأنتم أحق بالعفو عن زوجاتكم .

٧ — وإن خشيتم استفحال الخلاف بين الزّوجين ، فابعثوا أيها الحكام إليهما على سبيل الاستحباب لإصلاح ذات البين ، رجلا عَدلا يَصلُح للاحتكام إليه من أقارب الزوج ، وآخرَ من أقاربها ، فإن الأقارب أعرف بمواطن الداء ، وأطلب للتوفيق ووصف الدواء ، فإن قصد الحكَمان بحسن سعيهما التوفيق بينهما ، وحسم الخلاف ، فالله كفيل أن يوفّق بين الزوجين ، إن الله عليم بكل شيء ، خبير بالظواهر والبواطن ، قادر على أن يزُيل الشقاق ، ويعيد الوفاق .

(٣)

وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا . وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ؟ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً . إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً . فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاَءِ شَهِيدًا ؟ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا

مَا تقولونَ ، وَلاَ جُنُبًا إلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ، أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا تُشركوا به شيئاً	لا تُشركوا بعبادة الله شيئاً من صنم أو غيره .
وبالوالدين إحساناً	وأحسنوا بوالديكم إحساناً ، ببرّهما وطاعتهما .
الجار ذى القربى	الجار القريب منك فى جوار مسكنك .
الجار الجنب	الجار البعيد عن مسكنك .
الصاحب بالجنب	الصاحب الذى فى جنبك ، فى سفر أو عمل أو علم ، أو صناعة أو وظيفة .
ابن السبيل	المنقطع عن أهله وأقربائه فى السفر ، لتجارة أو طلب علم ، ولا مال معه .
ما ملكت أيمانكم	الأرقاء من إماء وعبيد .
مختالا فخوراً	متكبراً متفاخراً على الناس ، بما أوتى من علم أو مال أو جاه .
أعتدنا	أعددنا وهيّأنا .
رئاء الناس	ليرُوا الناس أنهم ينفقون تظاهراً .

الألفاظ	شرحها
قريناً	مقارناً ومصاحباً .
فساء قريناً	فبئس القرين .
مثقال ذرة	وزن ذرّة ، وهى ما يتطاير فى الهواء ، إذا وضع الإنسان يده فى التراب ثم نفخها.
فكيف إذا جئنا	فكيف يكون الحال إذا جئنا يوم القيامة ؟
بشهيد	بشاهد من الأنبياء يشهد على أعمالهم ، حين كان بينهم .
لو تسوى بهم الأرض	لو يُدفنون فيُهالُ التراب عليهم ، فتسوَّى بهم الأرض .
ولا يكتمون الله حديثاً	ولا يقدرون على كتمان ما فعلوه ، لأن جوارحَهم تشهد عليهم .
إلا عابرى سبيل	إلا فى حال السفر عند فقد الماء .
جاء أحد منكم من الغائط	أحدث بخروج شىء من أحد السبيلين ، والغائط : المكان المعَدُّ لقضاء الحاجة .
لامستم النساء	باشرتم النساء .
فتيمَّموا	فاقصدوا .
صعيداً طيباً	تراباً طاهراً .

مجمل المعنى

١ — خُصُّوا الله الواحد الأحد، الفرد الصَّمد، الذى لم يلد ولم يولد، بالعبادة له وحده، ولا تُشركوا به شيئاً من إنسان أو صنم ، ولا تنسبوا إليه ابناً أو بنتاً،

وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، ببرّهما وطاعتهما ، ولين الجانب لهما ، وأحسنوا إلى ذوى القربى ، وإلى اليتامى والمساكين ، وإلى الجار القريب من مساكنكم ، وإلى الجار الأجنبى البعيد عن منازلكم ، وقدّره بعضهم بأربعين داراً من كل ناحية ، سواء أكان كل منهما مشتركاً معكم فى الدين والقرابة أم لا ، فمهما اختلفت الوشائج بين الجيران نسباً أو ديناً ، فللجوار حقوق تجب مراعاتها ، كذلك يكون الإحسان إلى الرفيق الذى يكون فى جنبك فى سفر أو صناعة ، أو عمل أو وظيفة أو تعلّم ، وإلى المنقطع عن أهله فى سفر لطلب العلم أو التجارة ، وانقطعت الصِّلات بينه وبين أهله وقرابته ، بسبب الحروب أو نحوها ، ويشمل هذا من يقابلك فى الطريق ، ويسألك عن شارع أو منزل تعرفه ، وإلى ما تملكه من العبيد والإماء ، إن الله لا يحبّ المتكبر الذى يأنف من أقاربه وجيرانه وأصحابه ، المتعالى عليهم ، الذى لا يحسن معاشرتهم ، والفخور على الناس بنسبه ، أو بما أوتى من علم أو مال .

٢ — الذين يبخلون بمالهم ، فلا يشتركون فى الأعمال التى تفيد أمّتهم أو المجتمع الإنسانى ، ولا يتبرعون للجمعيات الخيرية ، ولا يساعدون فى إنشاء المستشفيات والملاجئ والأساطيل لبلادهم ، ويذيعون بين الناس الدعوة إلى كف اليد عن الإسهام فيها ، ويكتمون ما منحهم الله من العلم والمال ، فهم جديرون بكل ملامة وتعنيف ، لأنهم كفروا بنعمة الله عليهم ، وكان الأجدر بهم أن يشكروها بالإحسان ، لا بالبخل والضَّنّ ، ومن كفر بنعمة الله ، فقد أعد له عذاباً يجمع بين الإهانة والذلّ يوم القيامة ، كما أهان نعمته بالبخل والكتمان .

٣ — والذين يُنفقون أموالهم رياء ونفاقاً ، لا يقصدون من بذل المال إلا أن يراهم الناس ، أو يقرءوا عنهم فيما تَرْويه الصحف ، فيُعظّموا قدرهم ، ويحمدوا

فعلهم ، وقد يبخلون على أقاربهم ، بل على أسرهم ، لأنهم لا يرَوْن فى الإنفاق عليهم التظاهر الذى يبتغونه ، فهم يؤثرون التقرب والزُّلفى إلى الناس ، على التقرب والزلفى إلى الله ، مثل هؤلاء لا يؤمنون إيماناً صادقاً بالله ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ، لتحرَّوْا بالإنفاق رضاالله الذى يُثيبهم على أعمالهم يوم القيامة ، لكن زيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فحملهم على سلوك هذا المسلك المعيب ، هؤلاء قرناء الشيطان ، ومن يتخذ الشيطان له قريناً ، يعمل ما يوسوس إليه به ، باء بالحسرة والندامة ، فإنه بئس القرين .

٤ — وأى ضرر عليهم لو آمنوا بالله إيماناً صادقاً ، وآمنوا بأن الإنفاق فى سبيل الخير ابتغاء وجه الله ورضوانه وثوابه ، ينفعهم فى اليوم الآخر ، وأنفقوا مما رزقهم الله حبًّا فى الخير ، وقصداً إلى بذل المعروف ، وإغاثة الملهوف ، بدون جلبة ولا ضوضاء ؟ فلو أخلصوا النية لما فاتتهم المنفعة التى يبتغونها فى الدنيا ، من حُبِّ الناس ، والتنويه بشأنهم ، ولفازوا بسعادة العقبى فى الدار الآخرة ، وكان الله عليماً بما ينفقون ، فيجازيهم على الإحسان إحساناً ، فإنه لا يظلم أحداً شيئاً مهما كان ضئيلا ، ولو كان وزن ذرّة ، وإن يكُ وزن الذرّة حسنة يضاعف له أجرها ، من عشر إلى سبعمائة ، ويعط صاحبها من عنده مع المضاعفة على سبيل التفضُّل عطاء جزيلا .

٥ — وبعد أن ذكر الله أنه لا يَضيع عنده عمل عامل مهما كان قليلا ، بيّن أن أعمال كل أمة تعرض على نبيها يوم القيامة ، لا فرق بين اليهود والنصارى ، وسائر أتباع الأنبياء ، فمن شهد لهم نبيهم أنهم اتبعوا ما جاء به ، وأذعنوا لما أمر به أو نهى عنه ، فهم الناجون المستحقون لرضا الله ،

ومن شهد لهم نبيهم بأنهم كانوا طغاة متمردين ، أشراراً فاسدين مفسدين ، فهمُ الذين يستحقون سُخط الله وغضبه ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيشهد هو وأمتُه على صدق ما شهد به الأنبياء ، وإبلاغهم ما كلفوا تبليغه إلى أممهم ، استناداً إلى ما ذُكر فى القرآن الكريم ، كما يشهد رسول الله على أمته بما شهد به الأنبياء على أممهم ، يؤيد هذا قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » ؛ (تراجع الصفحة السادسة من تفسير الجزء الثانى) ، حينئذ لا يقدر من جمعوا بين الكفر والعصيان ، على كتمان ما اقترفوه من الآثام ، لأن جوارحهم تشهد عليهم بما كانوا يعملون ، فيوَدُّون أن لو كانوا أمواتاً فى باطن الثرى ، يُهال عليهم التراب ، وتسوَّى بهم الأرض .

٦ — وحدث أن عبد الرحمن بن عوف أقام مأدُبة ، ودعا إليها نفراً من الصحابة ، حين كانت الخمر مباحة ، فأكلوا وشربوا حتى ثمِلوا ، وجاء وقت صلاة المغرب ، فأمَّهم واحد منهم ، وهو سكران ، فقرأ : قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون » . والمعنى : يأيها المؤمنون ، لا تُصَلوا وأنتم سُكارى حتى تصحوا وتفقهوا ما تقولون ، ولا تصلُّوا وأنتم جنب ، إلا بعد أن تغتسلوا ، ما عدا المسافر فله حكم سيذكر فيما سيأتى ؛ فإن كنتم مرضى مرضاً يضره الماء ، كجَرح أو قروح أو جُدَرى ، ويخشى من استعمال الماء ضرر محقق ، أو كنتم مسافرين ، أو خرج منكم شىء من أحد السَّبيلين ، وأردتم الصلاة ، أو باشرتم النساء ولم تجدوا ماء ، بعد أن حاولتم الحصول عليه ، أو كان الماء الذى معكم قليلا ، وكنتم فى أشد الحاجة إليه ، فاقصدوا تراباً طاهراً ، فاضربوه ضربتين ،

وامسحوا بما علّق بأيديكم منهما وجوهكم وأيديكم مع المرفقين ، ولو ضرب المتيمّم على حجر أملس ، ولم يعلق بيديه شيء من التراب ، أجزأه عند أبي حنيفة ؛ ويوجب بعض الأئمة أن يعلق بالأيدي شيء من التراب ؛ ويكون التيمم للصلاة بعد دخول الوقت عند اليأس من الماء ، إن الله كان عفواً غفورا ، فلذا يسّر الأمر علينا ، ورخّص لنا أن نتيمم .

(٤)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ، يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ؟ وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً . مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا ، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا ، لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ . فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا ، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً . إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ؟ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً . انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ، فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ؟ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نصيباً من الكتاب	حظًّا يسيراً من العلم بالتوراة ، وهم أحبار اليهود .
يشترون الضلالة	يفضّلون الضّلالة على الهداية .
تضِلُّوا السبيل	تُخطئوا طريق الحق ، لتكونوا مثلهم .
كفى بالله وليًّا	كفى الله حافظاً لكم منهم .
من الذين هادوا يحرفون الكلم	من اليهود طائفة يحرّفون ما أنزل الله من التوراة .
اسمع غير مسمع	اسمع ، لا جعلك الله تسمع .
راعنا	دعاء على النبيّ ، وهي كلمة سبٍّ بالعبرانية .

شرحها	الألفاظ
يلوُون ألسنتهم عن الوجه الصحيح ، لِصرْف الكلام إلى السبّ .	ليّاً بألسنتهم
انتظرنا وراقبنا .	انظُرْنا
أعْدَل .	أقْوَم
طردهم الله من رحمته بسبب كفرهم .	لعنهم الله بكفرهم
نغير معالمها .	نَطْمِس وجوها
نغير ملامح وجوهكم ، ونردّها خاسئة خاسرة .	فنرُدّها إلى أدبارها
نجعلهم كالقِرَدة فى عدم الإدراك ، كما فعلنا بأصحاب السبت ، وسنذكر خبرهم	نلعنهم كما لعَنّا أصحاب السبت
وكان قضاء الله لابُدّ نازلا .	وكان أمرُ الله مفعولا
ما سوى ذلك .	ما دون ذلك
اختلق أقبح المعاصى .	افترى إثماً عظيماً
ينسُبُون إلى أنفسهم أنهم مبرءون من كل عيب .	يزَكون أنفسهم
قدر ما يكون فى شَقّ النّواة	فتيلا
اسم صنم ، وشاع استعماله فى كلّ ما عُبِد من دون الله .	الجِبْت
الباطل ، والشيطان .	الطاغوت
نُقْرة فى طرف النواة .	نقيراً
أعرض عنه .	صدّ عنه
ناراً ملتهبة .	سعيراً

مجمل المعنى

١ – بعد أن ذكر الله فى هذه السورة أنواعاً كثيرة من التكاليف والأحكام الشرعية ، بيَّن هنا أحوال أعداء الدين ، فحذَّر المسلمين كيدهم ، إذ كان فى اليهود طائفة يَبْذُلون جهدهم فى إذكاء نار الشر بين المسلمين ، وعلى رأسهم أحبارُهم ، والمعنى : ألم ينته إلى علمك يا محمد هذا الأمر العجيب ، عن أحبار اليهود الذين أوتوا قَدراً من التوراة ، يعرفون منه ما يدلّ على نعتك فيها ؟ فهم يؤثرون الضلالة على الهداية حسداً لك ، وتكبراً عن اتباعك ، ولا يكتفون بضلالهم ، بل يريدون منك وممن اتبعك من المؤمنين أن تَضلُّوا الصراط المستقيم ، الموصَّل إلى الحقّ والهدى ، كما ضلّوا ، والله أعلم منكم بأعدائكم ، وقد بيّنا لكم أعداءكم لتحذروهم ، وكفاكم الله حافظاً لكم من مكايدهم ، وكفاكم به نصيراً فى كل المواطن ، فلا تبالوا بأعدائكم ، فإنى كفيل أن أكفيكم مكرهم وشرهم .

٢ – من اليهود طائفة يحرّفون التوراة عن الوضع الذى أنزله الله ، بإزالة الكلم الذى فيها ، وإثبات غيره ، ويُؤوّلون ما فيها على ما يشتهون ، ويميلون به إلى غير ما قصده الله ، ومن مظاهر خبثهم ومكرهم : أنهم يقولون لك تظاهراً بطاعتك : سمعنا قولك ، ويقولون فى أنفسهم : عَصَينا أمرك ، ويقولون لك : اسمع غير مسمَع ، وهو كلام يحتمل الخير ، على معنى : اسمع غير مُسمَعٍ مكروهاً ، ويحتمل الشر على معنى : اسمع لا جعلك الله تسمع ، وهو ما يقصدونه استهزاء بك ، ودعاء عليك ، ويقولون لك راعنا ، وهى كلمة تحتمل الخير ، على معنى : راقِبنا وانظُرْنا نكلّمْك ، وتحتمل الشر ، على وصفك بالرعونة والطيش ، أو بإجرائها مجرى كلمة

عبرانية ، وهى : راعينا ، وهم يريدون المعنى الثانى للشتم والسب ، أو يريدون : يا راعينا ، أى يا من كنت نرعى أغنامنا ، للتحقير والإهانة ، وإنما يُقدمون على ذلك للطعن فى الدين ، فيقولون لأصحابهم : إننا نشتمه ولا يفهم ما نقول ، ولو كان نبياً لعرف ما نقصد ، فأظهر الله خبث طويتهم ، بانقلاب ما ظنوه طعناً فى الدين ، دليلا قاطعاً على صحته ، بإخبار الرسول بفساد نيتهم ، فلو أنهم قالوا : سمعنا وأطعنا لعلمهم بصدقك ، واسمع فقط ، ولم يقرنوها بغير مُسْمَع ، وانظرنا حتى نتفهم قولك كما يقول المسلمون ، بدل راعنا ، لكان ذلك خيراً لهم ، وأعدل ، وأصوب ، ولكن الله أبعدهم عن رحمته بسبب كفرهم ، فلا يؤمن منهم إلا القليل ، كعبد الله بن سلام .

٣ — يأهل الكتاب من اليهود ، آمنوا بالقرآن الذى أنزلناه على محمد ، مصدّقاً لما معكم من التوراة ، من قبل أن نعاقبكم شر عقاب ، بتغيير ملامح وجُوهكم ، فنسلب منها وجاهتها ومنظرها ، ونكسوها الذل والصَّغار ، ونردّها خاسئة خاسرة ، بصَمّ آذانكم عن سماع الحق ، وعَمَى أبصاركم عن رؤية آياتنا الدالة على قدرتنا ، أو نطردُكم من رحمتنا ، ونعاملكم كما عاملنا من كان قبلكم من اليهود حين خالفوا أمرنا ، فاصطادوا السمك فى يوم راحتهم وهو يوم السبت ، وكنا قد نهيناهم عن الصيد فيه ابتلاء واختباراً ، فعصوا أمرنا ، (تراجع الصفحة ٥٦ الفقرة الرابعة من تفسير الجزء الأول) وكان حكمنا وقضاؤنا فيمن سلف منهم نافذاً ؛ أما ما هددناهم به ، فلم نُنفّذه لإسلام بعضهم ، كعبد الله بن سلام وأصحابه .

٤ — ولما كان تحريف اليهود للتوراة ، أفضى إلى إثبات نصوص لم ترِد فيها عند نزولها ، فقد أدّى ذلك بهم إلى مغالاتهم فى إجلال الأحبار وتمجيدهم ، باتخاذهم أرباباً من دون الله ، وقد بيَّن الله أن أمثال هؤلاء الذين أشركوا

بالله ما لم ينزل به سلطاناً . لا يمكن أن يعفو عنهم ، فهو لا يغفر الإشراك به ، لأنه غاية ما تهبط إليه العقول البشرية ، ولأنه أقصى مراتب الجحود والكفران بواهب النعم ، ويغفر ما سوى ذلك لمن يشاء ، تفضلا منه وإحساناً ، فإن شاء أدخله الجنة بغير حساب ، وإن شاء عذّب من المؤمنين من يستحق العذاب على ما اقترف ، ثم أدخله الجنة ، ومن يشرك بالله فقد ارتكب ذنباً يتضاءل معه كل ذنب ، ويصغُر بجانبه كل إثم ، واستحق الخلود فى النار يَصْلَى نارها ، ويذوق عذابها .

٥ — وكان اليهود يفاخرون مشركى العرب بنسبهم ودينهم ، ويُسمُّون أنفسهم شعبَ الله المختار ، ويقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويزعمون أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، ويقولون : لن تمسَّنا النار إلا أياماً قليلة ، بمقدار الأيام التى عبد فيها آباؤنا العجل ، يريدون بهذا تزكية أنفسهم ، واعتزازهم بدينهم ، فأنزل الله فيهم : « ألم تر إلى الذين يزكُّون أنفسهم . . . » ، والمعنى : ألم ينته إلى علمك يا محمد هذا النبأ العجيب ، وهو أن اليهود يزعمون أنهم مُطهَّرون من الذنوب ، مبرَّءون من الآثام ؟ فردّ الله عليهم بأنه ليست العبرة بتزكية الإنسان نفسه ، وإنما العبرة بتزكية الله إياه ، والله لا ينقُص جزاء عمل عامل مهما كان ضئيلا ، فسواء أزكَّوْا أنفسهم أم لم يزُكوها ، فذلك لا يجديهم نفعاً ، ومقتضى هذا أن مدح الإنسان نفسه بما ليس فيها ، أو تجاوزه الحد فى مدح غيره ملقاً ونفاقاً ، يعد إثماً عظيماً .

٦ — وحدث أنه بعد غزوة أحُد ، التى انتصرت فيها قريش ، خرج كعب بن الأشرف وحُيىّ بن أخطب فى سبعين رجلا من اليهود إلى مكة ، ليحالفوا قريشاً على رسول الله ومن تبعه من المسلمين ، ولم يبالوا أن ينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ، فنزل كعب على أبى سفيان ، فأكرم

مثواه ، وتفرق اليهود على دور قريش ، فقال أهل مكة لكعب : إنكم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، وإنا لنخشى أن تكونوا قد قدمتم إلينا لتمكروا بنا ، فإن أردتَ أن تحالفنا أنت وقومك ، فاسجُد لهذا الصنم وآمِن به ، ففعل كعب ، ثم قال : يأهل مكة : ليجئ منا ثلاثون ومنكم ثلاثون ، فنُلصِق أكبادنا بالكعبة ، ونعاهد ربَّ البيت على أن نتعاون على قتال محمد ، ففعلوا ذلك ، فقال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب ، وتعلم أنا أميُّون ، لا نعلم مما تقرأ شيئاً ، فأيُّنا أهدى طريقاً ، وأقربُ إلى الحق ؟ أنحن أم محمد ؟ فقال كعب : اعرضوا عليَّ دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحرُ للحُجَّاج الناقة العظيمة السَّنام ، ونسقيهم اللبن ، ونَقْرِي الضيف ، ونفُكُّ العانى ، ونصِل الرَّحم ، ونعمُرُ بيت ربِّنا ، ونطوف به ، ونحن أهلُ الحرَم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطعَ الرَّحِم ، وفارق الحرَم ، وديننا القديم ، ودين محمد الحديث ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ، فأنزل الله قوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت . . . » ، والمعنى : ألم ينته إلى علمك يا محمد هذا الحادث الغريب ، وهو أن اليهود الذين أوتوا نصيباً من التوراة ، يُؤمنون بالأصنام ، ويؤيدون باطل قريش فى عبادتها ، ويقولون لهم : أنتم أقوم ديناً ، وأرشد طريقاً ، ممن آمن بمحمد ؟ أولئك هم الذين طردهم الله من رحمته ، ومن طرده الله من رحمته ، فلن تجد له يا محمد ناصراً يمنعه من عذاب الله .

٧ — ثم شرع الله يعدد آثامهم وذنوبهم ، على أسلوب استفهامى ، للإنكار والتوبيخ ، فقال : ألهؤلاء اليهود حظ من المُلك ، فاقتنوا الأموال والقصور والبساتين ؟ ولو كان لهم نصيب من المُلك ، لسلكوا فيه طريق

البخل والأَثَرَة والشحّ ، وضَنُّوا حتى بما يساوى نُقْرَةً فى ظهر نواة ، وحرَصوا على أن يمنعوا الناس أدنى نفع وأحقرَه ، لأنه يشُقُّ عليهم أن ينتفع منهم أحد من غيرهم ، فكيف لا يشقُّ عليهم أن يظهر نبىٌ من العرب ، ويتَّسعَ نفوذه ، حتى يخضع له بنو إسرائيل ، وتلك شِنْشِنة اليهود منذ خلق الله إسرائيل إلى اليوم ، على أنهم قد جمعوا إلى البخل رذيلة من أقبح الرذائل ، وهى الحسد على أن آتى الله محمداً النبوة والنَّصر والعزَّة ، وهو ليس من بنى إسرائيل ، فإن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فهم مسرفون فى الخطأ ، فليس ذلك بدعاً ، فلقد آتينا الأنبياء من ذرِّية إبراهيم التوراة والإنجيل ، وعلمّناهم الأسرار المودعة فيهما بحكمتنا ، وأعطيناهم مع هذا ملكاً عظيماً ، كما فعلنا مع يوسف وداود وسليمان ، فليس عجيباً أن يُؤتَى محمد كما أوتى الأنبياء من قبله ، فمن آل إبراهيم من آمن بما أنزلنا على الأنبياء من ذريته ، ومنهم من أعرض عنه كما فعلتم أيها اليهود ، ولم يؤدِّ هذا الإعراض إلى توهين أمر الرسل ، وكفى بجهنم ناراً مستعرة لمن أعرض ، وآثر إرضاء حقده وحسده ، وعاند وكابر ، فاستحق النّكال ، وبئس المصير .

(٥)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا . إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ؟ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ

اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ، رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ : إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نصليهم ناراً	نُدخلهم ناراً يذوقون حرَّها وسعيرها .
نَضِجت جلودهم	احترقت وتهرَّأت وتلاشت .
أزواج مطهرة	زوجات مبرَّأة من كل دنس ، مطهَّرة مما يمنع مباشرتهن .
ظِلًّا ظليلا	ظِلًّا دائماً وارفاً .
نِعِمَّا يعظكم به	نعم النصح ما يعظكم الله به .
أُولى الأمر	أصحاب الأمر ، وهم الوُلاة والحكام.
تنازعتم	اختلفتم .
فردّوه إلى الله	فارجعوا فيه إلى كتاب الله .
والرّسول	وارجعوا إلى الرسول فى حياته ، وإلى سنّته بعد مماته.
أحسن تأويلا	أحسن تأويلا من تأويلاتكم ، وخيرٌ مآلا وعاقبة .

الألفاظ	شرحها
أن يتحاكموا إلى الطاغوت	أن يتحاكموا إلى الطاغية ، وهو كعبُ بن الأشرف .
أمِروا أن يكفروا به	أمروا ألا يصدقوا مَن هو ممعن فى الطغيان .
يصدُّون عنك صدوداً	يُعرضون عنك إلى غيرك إعراضاً .
مصيبة	نكبة وعقوبة .
إن أردنا إلا إحساناً	ما أردنا بالاحتكام إلى غيرك ، إلا صلحاً بين المتخاصمين .
يعلم الله ما فى قلوبهم	يعلم الله ما يُبطنون من النِّفاق .
عِظْهم	انصح لهم ، وخوِّفهم عذاب الله .
قل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً	قل لهم فى شأن أنفسهم قولا مؤثِّراً زاجراً ، يبلغ أثرُه إلى قلوبهم .

مجمل المعنى

١ — لما بيَّن الله فى الآيات السابقة أن بعض آل إبراهيم آمن بما أنزِل على الأنبياء منهم ، ومنهم من أعرض ، وتوعَّد من أعرض بسعير جهنم ، فصَّل هنا هذا الوعيد بما يؤول إليه حال الكفار فى هذا السعير ، وبدء الآية بالذين كفروا بآيات الله ، يشعر بأن هذا العذاب ليس خاصًّا بالكفار من اليهود ، وإنما هو عام ، يشمل من يكفرون بآيات الله المنزّلة على رسله ، وبالمعجزات التى أيدهم بها ، سواء أكان ذلك فى الماضى أم فى الحال ، فهؤلاء الكفار سوف يدخلون النار ، ويعذَّبون فيها عذاباً أليماً ، فكلما احترقت جلودهم ، وتهرَّأت وتلاشت ، أعيد ذلك الجلد على صورة أخرى ، ليعود إليه إحساسه ، ويدوم تذوُّقهم للعذاب مع الإيلام ،

دواماً غير منقطع ، إن الله لا يزال عزيزاً لا يمتنع عليه ما يريده ، حكيماً فى تدبيره وتقديره ، وتعذيب من يعذبه على وَفق حكمته .

٢ — وعقّب الله بيان سوء حال الكافرين ، ببيان حُسْنِ مآل المؤمنين ، ليكون العبد راهباً راغباً ، والمؤمنون هم جميع من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن آمن من أمم الأنبياء قبله ، فهؤلاء الذين آمنوا إيماناً صادقاً ، وقرنوا إيمانهم الصادق بالعمل الصالح ، سيُدخلهم الله تعالى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يخلّدون فيها أبداً ، ولهم فيها أزواج مُطهّرة من الحيض والنّفاس ، وسائر المعايب والأدناس ، ومن الأخلاق الدنيئة ، والطباع الرديئة ، كما يستمتعون بظلّ سَجْسَج ، لا حرّ فيه ولا برد ، فيظلّون فى نعيم ، دائم وعز مقيم .

٣ — ولما فتح المسلمون مكة ، دعا رسول الله عثمان بن أبى طلحة ، وطلب منه مفتاح الكعبة ، فلما بسط يده إلى رسول الله بالمفتاح ، قام العباسُ عمّ النبىّ ، وقال : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، اجعله لى مع السقاية — وهى سقىُ الحُجّاج بمكة — فكفّ عثمان بن أبى طلحة يده بالمفتاح ، فقال رسول الله : أرِنى المفتاح يا عثمان ، فبسط يده ليُعطيه المفتاح ، فكرّر العباس قوله ، وكرر عثمان كف يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عثمان ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فأعطنى المفتاح ، فقال عثمان : هاك المفتاح بأمانة الله تعالى ، فأخذ رسول الله المفتاح ففتح الكعبة ، وصلى ركعتين ، وأخرج منها مقام إبراهيم ، وهو الحجَر الذى كان يقوم عليه إبراهيم ، حين ارتفع البناء ، (تراجع الصفحة ٩٦ ، الفقرة الثانية من تفسير الجزء الأول) ، ثم خرج رسول الله فطاف بالكعبة ، ثم أنزل الله عليه قوله : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، فدعا عثمان بن أبى طلحة ، فأعطاه المفتاح ، وقال : خذوا يا آل طلحة

المفتاح ، فأنتم سَدَنة الكعبة — خدمتها — لا ينتزعها منكم إلا ظالم ، ودفع عثمان المفتاح عند دنوّ أجله إلى أخيه شَيْبة بن أبى طلحة ، فهو فى يد ولده إلى اليوم ، هذا هو سبب النزول ، وخصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ ، فالله يأمرنا فى هذه الآية أن نتحلى بخُلقين كريمين ، فيهما صلاح المجتمع فى الدنيا ، ورضا الله يوم القيامة :

ا — الخُلُق الأول : ردّ الأمانات إلى أصحابها ، فإذا أودع أحد آخر مالا أو شيئاً آخر ، وجب على المودَع عنده أن يحافظ على الوديعة ، وأن يردّها إلى المودِع عند طلبها ، ويندرج تحت هذا وُلاة الأمر ، فعليهم أن يقوموا برعاية شئون الرَّعية ، لأنها أمانة فى أعناقهم ، وأن يعملوا على تنفيذ ما يوجبُه الدّين والشريعة ، فيُوَلُّوا المناصب من يستحقها ، ولا ينفقوا الأموال إلا فى الأمور النافعة المفيدة ، وقد حَثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمانة فى مواطن كثيرة فى أحاديثه ، حتى لقد نفى الإيمان عمن لا أمانة له ، فقال : « أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تَخُن من خانك » ؛ والأمانة حق على المكلَّف ، يجب عليه أداؤه . فالعالم يجب عليه أن يؤدّى أمانة العلم للناس ، والطبيب يجب عليه أن يكون أميناً فى مهنته لمن يعالجه ، والمعلم يجب عليه أن يكون أميناً فى تعليم تلاميذه ، وتنشئتهم على الأخلاق الكريمة ، والطباع الحميدة .

ب — الخُلُق الثانى : العدل فى الأحكام ، فالله سبحانه وتعالى جعل مصالح الناس أمانة فى يد القضاة ، فيجب عليهم أن يتحرَّوُا العدل فيما يُصدرونه من أحكام ، وأن يسوُّوا بينهم فيما يبدو على وجوههم ، وفى مجلس قضائهم ، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفهم ، أو ييئس ضعيف من عدلهم ، والعدل أساس الملك ، فعلى من يقضى بين

الناس أن يتفهَّم الدعوى فى رفق وأناة ، وأن يبتعد عن الهوى ، والميل إلى أحد الخصمين .

إن الله عليم بخفايا قلوبكم ، يعظكم إلى ما فيه صلاحكم، ونعمت العظة عظةٌ يرشدكم فيها إلى أداء الأمانات إلى أهلها ، والحُكم بين الناس بالعدل والقسطاس ، وهو سميع لما تقولون وتنطقون ، وتعملون فى مراعاة أماناتكم وعهودكم وأحكامكم ، بصير بما تفعلون فيما اؤتمنتم عليه من حقوق الناس ، وما تقضون به من عدل أو جَوْر ، لا يخفى عليه شىء من ذلك .

٤ — ولما تقدم الله إلى الولاة ، فأمرهم بأداء الأمانات والعدل فى الأحكام ، تقدم إلى الرعيّة ، فأمر بطاعته أولا ، ثم بطاعة رسوله ثانياً ، ثم بطاعة ولاتهم ثالثاً ، ويندرج فى الأخير الخلفاء والسلاطين ، والقضاة ، والأئمة ، والأمراء ، والرؤساء ، والزعماء ، وأهل الحلّ والعقد من المؤمنين ، فأما طاعة الله فبامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأما طاعة الرسول ففيما يأمر به وينهى عنه ، امتثالا لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسولُ فخُذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأما طاعة أولى الأمر ففيما ليس فيه معصية للخالق ، فإذا أمروا بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة ، فمتى أصدر أولو الأمر أمراً ليس فيه معصية للخالق ، بعد أن يتشاوروا ويتفقوا عليه ، وجب اتّباعه .

٥ — فإن اختلفتم أيها المؤمنون من أمراء ورعية فى أمر من أمور الدين ، فارجعوا إلى كتاب الله ، وإلى رسول الله فى حياته ، وإلى سنّته بعد مماته ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك الرجوع إلى الله ورسوله خير لكم من التنازع ، وأعدل من تأويلكم فيما اختلفتم فيه ، وأحسن عاقبة ومآلا .

٦ — وخاصم رجل من المنافقين يسمَّى بشْراً ، آخر يهوديًّا ، فدعاه اليهودى إلى الاحتكام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما اشتهر عنه من النزاهة والعدل ، ودعاه المنافق إلى الاحتكام إلى كعب بن الأشرف ، لِمَا اشتَهر عن اليهود من قبول الرُّشا ؛ وأخيراً احتكما إلى رسول الله ، فقضى لليهودىّ ، فلم يرض المنافق وقال : لا أرضى ، انطلق بنا إلى أبى بكر ، فحكم لليهودىّ ، فلم يَرْضَ المنافق ، وقال : نتحاكم إلى عمر بن الخطاب ، فلما ذهبا إليه ، قال اليهودى لعمر : إنا صرنا إلى رسول الله ، ثم إلى أبى بكر ، فلم يرض هذا حكمهما ، فقال عمر للمنافق : أكذلك هو ؟ قال : نعم ، فقال عمر : رُوَيْدَكُمَا حتى أخرج إليكما ، فدخل عمر فتقلَّد سيفه ، ثم خرج فضرب عنق المنافق ، ثم قال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ، وقضاء صاحبه ، فنزل قوله : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . . . . » ، وأخبر جبريل رسول الله أن عمر قد فرَّق بين الحق والباطل ، فسمَّى الفاروق .

والمعنى : ألم ينته إلى علمك يا محمد ، خبر من يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن الذى أنزل إليك ، وبالتوراة التى أنزلت على موسى قبلك ؟ فالعجيب من أمرهم أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغية : كعب بن الأشرف ، وقد أُمِروا أن يكفروا بمن هو مسرف فى طغيانه ، ولا يوالوه ، إذ قلنا : « ولقد بعثنا فى كل أمَّة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ، فكيف يتحاكمون إلى هذا الطاغوت ؟ ولكن الشيطان الذى يدعو إلى الفساد والشر ، يريد أن يضلَّهم بوسوسته ضلالا بعيد الأثر .

٧ — وإذا قيل لمن يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك : تعالَوْا نتحاكم إلى ما أنزل الله فى القرآن ، وإلى الرسول المبعوث للحكم بما فيه ، رأيت المنافقين يُعرضون عن التحاكم إليك إعراضاً شديداً لا مبرر له ،

فكيف يكون حالهم ، إذا أصابتهم نكبة تُظهر نفاقهم ، وتفضحُ أمرهم ، بسبب ما ارتكبوا من الآثام ، ثم جاءوك معتذرين ، يحلفون بالله : ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحساناً إلى المتخاصمين ، وتوفيقاً بينهما ، ولم نقصد عدم الرضا بحكمك ، فلا تؤاخذْنا بما فعل أخونا من الاحتكام إلى أبي بكر وعمر من بعدك ، ولكن الله يعلم ما فى طويّتهم ، وخبث نيّتهم وكذبهم ، فذكر أنه يعلم ما فى قلوبهم من الميل إلى الشَّغَب ، وإثارة الفتن ، ونصب المكايد ، فأمرَ رسوله أن يعرض عن قبول عذرهم ، وعن مطالبتهم بدم القتيل الذى قتله عمر ، وأن ينصح لهم بالكفّ عن النفاق ، وأن يقول لهم قولا مؤثراً فى أنفسهم ، يستشعرون منه التهديد والاستئصال ، ويبلُغُ من نفوسهم الأثر الذى يريده .

(٦)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ، لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً . فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً . وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ : أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ، مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً . وَإِذَنْ لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً ، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً . وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، خُذُوا حِذْرَكُمْ ، فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً . وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ

مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ، فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذ ظلموا أنفسهم	حين ظلموا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله .
فلا وربِّك	فوربِّك ، ولا زائدة لتأكيد القسم ، مثل : لا أقسم بيوم القيامة .
شَجَرَ بينهم	تشاجروا فيه فيما بينهم .
حَرَجاً	ضيقاً وشكّاً .
أشدَّ تثبيتاً	أشدَّ تحقيقاً لإيمانهم .
الصِّدِّيقين	أفاضل أصحاب الأنبياء ، كأبي بكر .
الشهداء	القتلى فى سبيل الله .
وحَسُنَ أولئك رفيقاً	وما أحسن أن يكون هؤلاء رفقاء فى الجنة !
خُذوا حِذْرَكم	احذروا أعداءكم ، بالاستعداد وأخذ الأهبة .
انفِروا ثُبات	اخرُجوا لملاقاة الأعداء متفرِّقين : سَرِيَّةً بعد أخرى
لمن لَيُبَطِّئَنَّ	لمن لَيَتَثَبَّطَنَّ ويتأخرَنَّ عن القتال
فضل من الله	انتصار بفتح أو غنائم .

فى بعض هذه الآيات استطراد إلى حال المنافقين ، بشأن قصة اليهودىِّ والمنافق ، اللذَين تحاكما إلى رسول الله ، فقضى بينهما ، وجعل بعضُهم

سبب نزول قوله تعالى : فلا وربك لايؤمنون : ماحدث بين الزبير والأنصارىّ ، على أنه إن كان سببُ النزول قصة اليهودى والمنافق ، فليس هناك مانع من أن تتناول بعمومها القصتين معاً ، وقصة الزُّبَيْر والأنصارىّ ، أنهما تخاصما فى مَسيل من الماء ، كان كلاهما يَسقى نخلَهُ منه ، فقال الأنصارىّ للزُّبَيْر : سرِّح الماء يمرّ إلى نخلى ، فأبى الزُّبَيْر إلا أن يبدأ بإرواء نخله ، فاحتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله : اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الأنصارىُّ ، وقال لرسول الله : أراك تحابى ابن عمتك ، فتلوّن وجه رسول الله ، ثم قال : اسقِ يا زُبَيْر ، ثم احبس الماء حتى يبلغ الجَدْر (وهو ما رُفعَ حول الزراعة كالجدار) ، ثم أرسل الماء إلى جارك ، أراد رسول الله السَّعة للزُّبَيْر والأنصارىّ ، فلما أحفظه الأنصارىُّ ، قضى بأن يستوفى الزُّبير حقه ؛ وقد اعتذر الأنصارىُّ عن زلته ، فأقال النبىُّ عثرته ، لحُسْنِ نيَّته .

مجمل المعنى

١ — ليس عجيباً أن يكون القضاء فى الخصومات ، مرجعه إلى محمد ، لأنه رسول الله إلى الناس ، يتحدث بما يأمره به ، ولم يرسل الله رسولا إلا أوجب على من أرسله إليهم أن يكونوا مطيعين له ، ممتثلين لما أمر به أو نَهَى عنه ، فطاعته طاعة لله ، ومعصيته معصية لله ، فإذا كان عمر قد قَتل المنافق لأنه لم يُطع رسول الله ، ولم يرض بحكمه ، فهو كافر يستحق القتل بسوء نيَّته ، وفساد عقيدته ، ولو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان ، وتعريضها لعذاب الله يوم القيامة ، جاءوك تائبين معتذرين عما فرط منهم ، فطلبوا من الله أن يغفر لهم ، وندموا على ما فعلوا ، وطلب

الرسول لهم من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ، ويُقيل عثرتهم ، لوجدوا الله قابلا توبتهم ، متفضلا بالتجاوز عن ذنوبهم ، بواسع رحمته .

٢ — فوربِّك يا محمد ، إن من يتخاصمون ، لا يطمئنون إلى إقامة العدل ، حتى يجعلوك حكماً فيما يتشاجرون ويختلفون فيما بينهم فيه ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم ضيقاً ولا شكّاً فيما قضيت به ، وينقادوا لحكمك ، ويذعنوا لقضائك ظاهراً وباطناً ، وإذا كان قد صدر من الأنصاريّ ما صدر ، فقد كانت زلةً اعتذر عنها ، وندم على ما قاله .

٣ — ولو أنا فرضنا وأوجبنا على المنافقين ما أوجبناه على المسلمين ، من الخروج للجهاد الذى يتعرضون فيه للقتل ، ومن الهجرة بترك الديار والأوطان ، ما فعلوا ما يؤمرون به : لضعف إيمانهم ، ولم يُطعْ إلا القليلُ منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ، من متابعة رسول الله وطاعته ، لكان ذلك خيراً لهم فى عاجلهم وآجلهم ، وحفظِ مصالحهم ، وأشد تثبيتاً لإيمانهم بالدين الحق ، لأن الامتثال للوعظ والإرشاد يقوى الإيمان ويثبِّته ، وإذن لآتيناهم من عندنا أجراً عظيماً ، بإدخالهم الجنة التى أعدت للمتقين ، ولهديناهم إلى الصراط المستقيم ، وهو طريق العمل الصالح إلى مرضاة الله .

٤ — وحدث أن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتاه يوماً ، وقد تغير وجهه ، ونَحَلَ جسمه ، فسأله الرسول عن حاله ، فقال : ما بى من وجع ، غير أنى إذا لم أرَكَ اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرتُ الآخرة ، فخفت ألا أراك هناك ، لأنى عرفت أنك تُرفع إلى مقام النبيين ، وإن أدخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، فذاك حين لا أراك أبداً ، فنزل قوله : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع النبيين . . . » ، والمعنى : ومن يطع الله والرسول فيما أمرا به ونهيا عنه ،

فأولئك يكونون فى الجنة مع أكرم الخلائق ، وأعظمهم قدراً ، من النبيين الذين بلغوا غاية الكمال ، والصدِّيقين وهم أفاضل أصحاب الأنبياء ، الذين بالغوا فى الفناء فى حبهم لهم ، والإخلاص إليهم ، والتصديق بهم ، والشهداء الذين أدت بهم طاعتهم ، وجِدُّهم فى الجهاد ، إلى بذل مُهَجِهم فى إعلاء كلمة الله ، والصالحين ، الذين صرفوا أعمارهم وأموالهم فى مرضاة الله ، وأحْسِنْ بهؤلاء أن يكونوا رفقاء للإنسان فى الجنة ، يستمتع برؤيتهم وزيارتهم ، وإن كانوا فى درجة أعلى من درجته ! ذلك الفضلُ من الله ، يتفضل به عليهم ، وكفى بالله عليماً بمن أطاعه ، وبَذَل جهده فى مرضاته ، فيجازيه يوم القيامة الجزاء الأوفى .

٥ — يأيها المؤمنون تيقَّظوا واستعدُّوا لأعدائكم ، باتّخاذ الأهبة للقائهم ، من سلاح وعتاد ، فانهضوا لمقاتلتهم ، واخرجوا إلى الجهاد ، إما جماعات من السَّرَايا يتلو بعضها بعضاً ، وإما كوكبةً واحدة ، بقلوب متحدة ، تحت راية واحدة ، واعلموا أن منكم منافقين يتظاهرون بالإيمان ، كعبد الله بن أبىّ وأصحابه ، يبطِّئُون بكم عن الجهاد ويتثاقلون ، ويثبِّطون ويتخلّفون ، فإن أصابتكم مصيبة : كقتلٍ أو هزيمة ، قال هذا الفريق المثبِّط فى غبطة وسرور : لقد أنعم الله علىّ إذ لم أكن حاضراً مع المجاهدين ، فلو كنت معهم لأصابنى ما أصابهم من البلاء والشدّة ، ولئن أصابكم فضل من الله : كفتْح أو إصابة غنائم ، لَيَتَحَسَّرَنّ على تخلّفه ، وليقولنّ ، كأنه لا صلة تجمعكم به ، وكأنه لا همّ له إلا مجرد المشاركة فى الغنائم : يا ليتنى كنت مع المجاهدين ، فآخذَ عطائى معهم ، وأفوزَ بنصيب وافر .

(٧)

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً . وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ؟ اَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ، وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ

مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَا لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ؟ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يَشْرُونَ	يبيعون .
والمستضعفين	وتخليص المستضعفين .
من هذه القرية	من مكة .
الطاغوت	ما عُبِد من دون الله .
أولياء الشيطان	أنصار الشيطان .
كُفُّوا أيديكم	امتنعوا عن قتال الكفار .
كُتِبَ عليهم القتال	فُرِض عليهم القتال .
يخشَوْن الناس	يخشَوْن قتال كفار مكة .
لولا أخّرتنا	هلا أخّرتنا .
متاع الدّنيا	ما يستمتع به الإنسان فى الدّنيا .
فتيلا	ما يكون فى شقّ النّواة .
بُرُوج مشيدة	حصون مرتفعة .

شرحها	الألفاظ
إن تصب اليهود سَعة وخِصْب . وإن تصب اليهود بَليَّة وجَدب . هذه السيئة بسبب شؤمك .	إن تُصبهم حسنة وإن تصبهم سيئة هذه من عندك

مجمل المعنى

١ — فليقاتل فى إعلاء كلمة الله المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب ثوابه ، الذين يبيعون دنياهم بشراء أخراهم ، ولا يلتفت أحد منهم إلى تثبيط الكافرين والمنافقين عن القتال ، ومن يقاتل فى سبيل الله ، سواء أغُلب أم غلَب ، فله أجر عظيم عند الله ، وعليه أن يثبُتَ فى المعركة إلى نهايتها ، حتى يُعزّه الله ويكرمه ، إما بالاستشهاد ، وإما بالظفَر .

٢ — وأى عذر لكم أيها المؤمنون يدعوكم إلى الامتناع عن القتال فى سبيل الله ، وفى سبيل تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان ، الذين حبَسهم الكفار عن الهجرة من مكة إلى المدينة ، وآذَوْهم واستذلّوهم ؟ فكان هؤلاء المستضعفون يجأرون بالدعاء إلى الله ، يقولون : ربنا استجب دعاءنا فى إخراجنا من مكة التى ظلمَنا أهلوها ، واجعل لنا من عندك وليًّا يتولّى أمورنا ، وخلّصنا من استبداد الظالمين بنا ، واجعل لنا من عندك نصيراً يردُّ عنا ظلمهم ، وينصرنا عليهم ، وقد استجاب الله دعاءهم ، بأن يسّر لهم الخروج إلى المدينة ، وجعل لمن بقى منهم بمكة خير ولىّ وناصر ، ففتح رسول الله مكة ، فتولاّهم ونصرهم ، ثم استعمل عليهم عتّاب بن أسيد ، فحماهم وأنصف مظلومهم من ظلم الظالمين ، حتى صاروا أعز أهلها .

٣ — وأراد الله أن يرغّب المؤمنين فى الجهاد ، ويشجعهم عليه ، فذكر أن المؤمنين يقاتلون فى سبيل إعزاز الإسلام ، ودفع أذى المشركين عنهم ، أما الكافرون فإنهم يقاتلون فى سبيل المحافظة على الطواغيت التى يحرضهم الشيطان على عبادتها من دون الله ، فقاتلوا يا أولياء الله الكفارَ أنصارَ الشيطان ، تنتصروا عليهم بقوة إيمانكم ، وحسن يقينكم ، إن كيد الشيطان للمؤمنين بالنسبة إلى قدرة الله ضعيف واهٍ ، فلا تخافوا أولياءه ، فإن اعتمادهم عليه إنما هو اعتماد على أضعف شىء وأوهنه .

٤ — وكان عبد الله بن عوف ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبى وقّاص ، وغيرهم ، يلقَوْن من المشركين أذى كبيراً وهم بمكة قبل الهجرة ، فيشكون إلى رسول الله ، يقولون له : ائذن لنا يا رسول الله فى قتال هؤلاء الكفار ، فإنهم قد آذوْنا ، فكان الرسول يقول لهم : كُفُّوا أيديكم ، وأمسكوا عن القتال ، فإنى لم أومَرْ به ، وإنما أمرت بالعفو ، والمعنى : أنه لمما يدعو إلى العجب ، أن الذين قلت لهم بمكة : كُفُّوا أيديكم عن مقابلة اعتداء الكفار بمثله ، واشتَغلوا بما أمرتم به ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الصدقات ، وكانوا حِراصاً على الاستئذان فى قتال الكفار بمكة ، لما فُرِض عليهم قتال المشركين ، وأمروا به بعد الهجرة ، إذا فريق منهم يخشون قتال الكفار ، كما يخشون نزول بأس الله بهم ، بل إن خشيتهم الكفار أشد أثراً فى نفوسهم من خشية الله ، وقالوا — جزعاً مما يتعرضون له من الهلاك — : ربّنا ، لمَ فرضت علينا القتال فى هذا الوقت؟ هلاَّ أخرّْتنا إلى وقت قريب ، فقل لهم يا محمد — ترهيباً لهم فيما يؤمّلون من القعود عن القتال — : إن جميع ما يستمتع به الإنسان فى هذه الدنيا صائر إلى الزوال ، وآئل إلى الفناء ، وهو هين حقير ، بالنسبة إلى ما فى الآخرة ؛ وثوابُ الله فيها ، المنوط بتنفيذ

أمر الله ، خيرٌ من متاع الدنيا لمن اتقى عقاب الله بترك معصيته ، وإنكم لا تُبخَسون أدنى شيء من ثواب أعمالكم ، مهما يكن ضئيلا ، فجاهدوا ، فأينما تكونوا : فى سِلْم أو حرب ، يدركْكُم الموت ، ولو كنتم فى حصون مَنيعة ، وفى هذا المعنى يقول زهير بن أبى سُلمى فى معلّقته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يَرْقَ أسباب السماء بِسُلَّمِ

٥ — ولما قدم رسول الله إلى المدينة مهاجراً ، بسط الله الرزق لسكانها ، ولكن اليهود والمنافقين لما عادوه ، وابتغوا الفتنة بين المسلمين ، وأذاعوا الشائعات السيئة ، أمسك الله عنهم بعض الإمساك ، وأرجَفُوا بقولهم : ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا ، مذ قَدِم علينا هذا الرجل ، ونسوا ما أغدقه الله عليهم بسببه بعد قدومه ، فنزل : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله . . . » ، والمعنى : أن هؤلاء اليهود ، إن يُصبهم خِصب ونعمة وسعة ، يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تُصبهم بليّة من جَدْب وقحط وغلاء أسعار ، نسبوا هذه البلية إلى رسول الله ، وقالوا هذه يا محمد بسبب شؤمك ؛ وليس هذا غريباً على اليهود ، فقديماً كانوا فى زمن موسى — وهو الذى خلّصهم من ظلم فرعون — إذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تُصبهم سيئة ، يَطّيّروا بموسى ومن معه ، فهذا دأبهم وعادتهم ، ينكرون الجميل ، ويتعامَوْن عن المعروف ، فقل لهم يا محمد : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِر حسب إرادته ، وهو المتصرف وحده فى شئون عباده ، فماذا أصاب عقول هؤلاء اليهود والمنافقين ؟ وما لهم يتغابَوْن ، ولا يكادون يفقهون أحسن الحديث الذى أنزله الله ، وهو القرآن الكريم ؟ إذ لو عقَلوه لعلموا أن الله وحده هو القابض الباسط ، فإن أصاب الإنسان خير ونعمة فمن الله ، تفضلا منه وإحساناً ، وإن أصابته

بليّة فمن نفسه ، لأنه ارتكب من المعاصى ما يستوجبها ؛ ولا ينافى هذا قوله فى موضع آخر : قل كلٌّ من عند الله ، فإن الكل من عنده إيجاداً وإيصالا ، غير أن الحسَنة إحسان وامتنان ، والسيئةَ مجازاة وانتقام ، وأرسلناك يا محمد للناس كافّة رسولا تبلغهم عنّى ، وكفى الله شاهداً على رسالتك ، وتبليغ دعوتك ، بتأييدك بالمعجزات الدالة على صدقك .

(٨)

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . وَيَقُولُونَ : طَاعَةٌ ، فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا . فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا . مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا . وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ،

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً . اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ؟

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ويقولون : طاعة	ويقولون : لك منا طاعة يا محمد .
برزوا من عندك	خرجوا من عندك .
بيّت طائفة منهم	أضمرت طائفة منهم .
يتدبّرون القرآن	يتأمّلون فى أساليبه ومعانيه وغيرهما .
إذا جاءهم أمر	إذا بلغهم خبر عن سرَايا الرسول .
أذاعوا به	أذاعوه وأفشَوْه ونشروه .
لو رَدُّوه إلى الرسول	لو سكتوا عنه حتى يخبر به الرسول .
يستنبطونه منهم	يتتبعونه ويطلبون العلم به من الرسول وأولى الأمر .
لا تكلَّف إلا نفسَك	قاتل ولو وحدك ، ولا تهتم بمن تخلّف عنك .
حرّض المؤمنين	حُثّهم على القتال .
بأس الذين كفروا	قوة الكافرين فى الحرب .
والله أشد بأساً	والله أشد صولة وسلطاناً .
تنكيلا	تعذيباً بجعلهم عبرة لغيرهم .
شفاعة حسنة	شفاعة يقصد بها وجه الله والحق .

الألفاظ	شرحها
نصيب منها	نصيب من أجرها .
كِفْل منها	نصيب من وزرها .
مُقِيتاً	مقتدراً .
رُدُّوها	قولوا مثلها .
حسيباً	مجازياً .

مجمل المعنى

١ — لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحبَّني فقد أحبَّ الله ، ومن أطاعني فقد أطاع الله ، قال المنافقون : لقد قارَف محمد الشِّرْك وهو ينهى عنه ، ما يريد إلا أن نتخذه ربًّا ، كما اتخذت النصارى عيسى ربًّا ، فنزل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، والمعنى : من يُطع الرسول المؤيد منا بالمعجزات الدّالّة على صدقه ، فقد أطاع الله ، وعَمِل بما أمر به ، ومن أعرض عن طاعتك يا محمد ، فما أرسلناك عليهم حفيظاً تُحصى عليهم أعمالهم ، وتحاسبهم عليها ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، ونزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال .

٢ — ويقول المنافقون إذا جاءوك ، أو أمرتهم أمراً : لك منا طاعة ، وامتثال لأمرك ، فإذا خرجوا من عندك ، زوّرت طائفة منهم ما قلت ، وبدّلت ما أظهرتْه لك من القول ، فهي تعلن الطاعة نهاراً ، وتدبّر غير ما تعلن ليلا ، والله يُثْبت ما يقولون في صحائفهم ، ليجازيَهم على نفاقهم وافترائهم يوم القيامة ، ويفضحهم في الدنيا بما يُبيِّنه في كتابه ، فأعرض عنهم ،

ولا تبال أمرهم ، ولا يحزُنك قولهم، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا ، تفوّض إليه أمرك ، فيكفيك مَضَرّتهم ، وينتقم لك منهم .

٣ — أفلا يتأمّلون فى القرآن ، ويُنعِمون النظر فيه ، ويتبصرون فى أسلوبه ومعانيه ، وأوامره ونواهيه ، ولو كان من كلام البشر كما يزعم الكفار ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً: من حيث تناقضُ معانيه، وتفاوت نظمه وأسلوبه، بأن يكون بعضه فصيحاً ، وبعضه ركيكاً ، يسهل الإتيان بمثله ، ومن حيث مطابقةُ بعض أخباره للواقع دون بعض ، ومن حيث صلاحية بعض أحكامه للزمان والمكان دون بعض .

٤ — وكان بعض المسلمين إذا بلغهم خبر عن سَرِيّة(١) أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزو أو نحوه ، وعلموا أن هذه السرية قد أمنت من أعدائها وانتصرت عليهم ، أو خيف عليها منهم ، أفشَوْا ما علموه ، وانطلق لسانهم بالكلام فيه ، خفّةً وطيشاً ، فيتأذى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يليق بالدَّهماء أن يُذيعوا أخبار الحرب وأسرارَها، ويخوضوا فى أمورها وسياستها ، فإن الحرب خُدْعة ، ويجب ترك شئونها للرؤساء والقادة ، ولو سكتوا ولم يذيعوا ما علموه ، ولم يحدّثوا به أحداً ، حتى يكون رسول الله وأولو الأمر من أهل الرأى والمشورة من كبار الصحابة ، هم الذين يُذيعون ما يرون إذاعته، لعَلِم تلك الأخبار من يبحثون عنها ، ويهمهم أمرُها ، من مصادرها الصحيحة، ولولا تفضل الله عليكم أيها المسلمون بالعفو عنكم ، ورحمتُه بما هداكم إليه من طاعته ، لاتّبعتم وسوسة الشيطان، فأفسدتم على الأمة سياستها ، وخرجتم عن حدود

(١) جماعة من المسلمين كان يرسلهم رسول الله لمقاتلة قريش ومناوشتهم ، فى أثناء ترددهم بين مكة والجهات الأخرى ، كالشام والطائف للتجارة ، وجمعها سرايا ، وكان النبى يرأس بنفسه بعض السرايا .

الدّين ، إلا قليلا منكم من أصحاب البصائر النافذة ، والعقول الراجحة .

٥ — ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الخروج فى غزوة بدر الصغرى فى شعبان ، سنة أربع من الهجرة ، تحت إمرته ، وكانت هذه الغزوة بعد غزوة بدر الكبرى ، التى كانت فى رمضان ، فى السنة الثانية للهجرة ، وغزوة أحد ، التى كانت فى شوال ، فى السنة الثالثة للهجرة ، وكان رسول الله قد تواعد مع أبى سفيان على اللقاء ببدر ، فكره بعض المسلمين الخروج للقتال ، وتثاقلوا : فنزل قوله تعالى : « فقاتل فى سبيل الله ، لا تكلّف إلا نفسك . . . » ، فخرج فى سبعين رجلا ، وأقام ببدر ثمانىَ ليال ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة ، حتى نزل مجنّة من ناحية مَرّ الظّهْران ، ثم بدا له أن يرجع . فقال : يا معشر قريش إنه لا يُصْلحكم إلا عام خصيب تَرْعَوْن فيه الشجَر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جَدْب ، وإنى راجع فارجعوا ، ثم عاد رسول الله ومن معه إلى المدينة سالمين ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، ومعنى الآية : فقاتل فى سبيل الله يا محمد ، ولا تهتم بمن يثبّط أو يخالف ، ولو كنت وحدك ، فإن الله ناصرك ، لا تكلّف إلا نفسك ، وتقدّم للجهاد وإن لم يساعدك أحد ، عسى الله أن يكُفّ عنك بأس كفار قريش ، والله أشد منهم صولة وسلطاناً ، وأشدُّ عقوبة تجعلهم عبرة لغيرهم ، وقد كفّ الله بأس الكفار عن المسلمين فعلا ، بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، ونكول أبى سفيان عن لقاء المسلمين كما ذكرنا ، مع أنه هو الذى نادى عند انصرافه من أحُد : يا محمد ، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن شاء الله تعالى ، (تراجع صفحة ٧١ من تفسير الجزء الرابع عند قوله : الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . . .) .

٦ — من يشفع شفاعة حسنة ، يراعى فيها إيصالُ حق مسلم إليه ، أو دفعْ ضر عنه ، أو جلب منفعة إليه ، من غير أن يحيق بغيره ضرر من جرّائها ، ابتغاء وجه الله ، يكن له نصيب من ثوابها . ومن الشفاعة الحسنة : السعى فى الصلح بين الناس ، ومن يشفع شفاعة سيئة ، كالشفاعة فى حد من حدود الله ، أو أن يكون السببُ فيها الوصول إلى غرض دنىء ، يكن له نصيب من الوزر بسببها ، وكان الله على كل شىء مقتدراً ، فيجازى كل إنسان على عمله .

٧ — ومن الآداب التى تزيد المحبة بين الناس التحية ، فإذا قابلنا أحداً من أصحابنا أو أقاربنا ، أو جيراننا ، أو أهل الخير والصلاح منا ، فمن الأدب الذى يستحسنه الشرع ، أن نلقاه بالتحية ، لتصفو القلوب ، وتعظم المودّة ، والمستحسن فى رد التحية أن يكون الردّ بأحسن منها ، وتحية الإسلام : السلام ، قال تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » ، فإذا قال المحيِّى : السلام عليكم ، قال من يردّ عليه : وعليكم السّلام ورحمة الله ، وإذا قال المحيِّى : السلام عليكم ورحمة الله ، فمن المستحسن أن يقول من يردّ عليه : وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته ، فإذا لم يرد المحيَّا الزيادة على تحية المحيِّى أو لم يكن هناك موضع للزيادة ، فينبغى أن تُرَدَّ التحية بمثلها ، لا بأقل منها ؛ والردّ واجب وجوب كفاية ، فإذا رد أحد من جماعة أجزأ عنهم ، ويسلم الرّاكب على الماشى ، والصغيرُ على الكبير ، والقائم على القاعد ، والقليل على الكثير ، ولا يجوز السلام فى أثناء خطبة الجمعة ، ولا فى أثناء قراءة القرآن ، ولا فى الحمّام ، ولا فى أثناء قضاء الحاجة ، والله مطّلع على أعمال العباد وأقوالهم ، فيحاسب كلاً منهم على حسب ما يستحق .

٨ — الله واحد لا شريك له ، وهو القاهر فوق عباده ، يضع الموازين العادلة ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، ويُحشر جميع الخلائق فيه ، وكان ذلك حتماً مقضياً ، لا شك فيه ولا مراء ، أنبأنا به المولى جل وعلا فيما أنزله على رسوله من الذكر الحكيم ، ومن أصدق من الله قيلا .

(٩)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ، فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ، فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فما لكم فى المنافقين فئتين ؟	لماذا صرتم فى شأن المنافقين فريقين مختلفين ؟
أركسهم بما كسبوا	ردّهم إلى حكم الكفار بسبب ارتدادهم .
أولياء	أنصاراً وأعواناً وأصدقاء .
حتى يهاجروا فى سبيل الله	حتى تتحققوا صدق إيمانهم ، بهجرتهم إلى المدينة ، فى سبيل إعلاء دين الله .
يَصِلون	يلجئون .
حَصِرت صدورهم	ضاقت صدورهم .
لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم	لقوّى قلوبهم فقاتلوكم ، ولكنّه لم يشأ .
السَّلَمَ	الصلح والاستسلام والانقياد .
يريدون أن يأمنوكم	يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإسلام .
ويأمنوا قومهم	ويأمنوا قومهم ، بإعلان الكفر .
رُدُّوا إلى الفتنة	دُعُوا إلى الشرك .
أُرْكِسوا فيها	وقَعُوا أكبر وقوع فى الفتنة .
فإن لم يعتزلوكم	فإن لم يتركوا قتالكم .
ثقِفتموهم	وجدتموهم .
سلطاناً مبيناً	حجة واضحة .

مجمل المعنى

١ — خرج جماعة من مكة إلى المدينة وأسلموا ، ثم استأذنوا الرسول فى الرجوع إلى مكة ، ليأتوا ببضائع لهم كانت فى مكة يتجرون فيها ، فعادوا إلى مكة ،

وارتدوا عن الإسلام ، وجاء خبرهم إلى المدينة ، فاختلف المسلمون فى أمرهم ، ففريق يقول : هم منافقون يستحقون القتل ، وفريق دعا إلى التريّث فى أمرهم ، فأنزل الله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين . . : » ، والمعنى : ما لكم أيها المسلمون فريقين مختلفين فى أمر هؤلاء المنافقين ، وقد ردّهم الله إلى حكم الكفار ، بعد أن ارتدوا وتحوّلوا إلى المشركين ؟ أيريد الداعى إلى التريث فى أمرهم ، بعد أن ثبت ارتدادهم ، أن يحاول المحال ، بأن يهدى من قضت مشيئة الله أن يَضِلَّ عن الحق ، لعدم صدق إيمانه ؟ ومن قضى الله بإضلاله لما اقترف من المعاصى ، فلن يستطيع أحد أن يجد له سبيلا إلى الهداية .

٢ — لقد تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا كما كفروا ، حتى تكونوا أنتم وهم سواء فى الكفر والضلال ، فلا تتخذوا منهم أصدقاء وأنصاراً ، وإن تظاهروا بالإيمان ، إلا بعد أن تتحققوا من إيمانهم بهجرتهم إلى المدينة ، فى سبيل إعلاء دين الله ، لا لغرض آخر من أغراض الدنيا ، فإن أعرضوا عن الهجرة ، والإيمان الصادق الذى لا يشوبه غرض ولا رياء ، فخذوهم أسرى ، واقتلوهم حين تظفرون بهم ، فى أى مكان وجدتموهم ، فى حل أو حرَم ، ولا تتخذوا منهم معيناً ولا ناصراً .

٣ — إلا الذين يلجئون إلى قوم عاهدوكم على عدم محاربتكم — كقبيلة خُزاعة — أو الذين جاءوكم يعلنون حيادهم ، والكفَّ عن قتالكم وقتال قومهم ، ضيِّقة صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم — وهم بنو مُدلج — فلا تتعرضوا لهم بما يسوءهم ؛ ولو شاء الله لسلّطهم عليكم ، فقوّى قلوبهم ، وأزال الرعب من نفوسهم ، فلقَاتلوكم ، ولم يكفّوا عنكم ، ولكنه لم يشأ ، وألقى الرعب فى قلوبهم منكم ، فإن لم يقاتلوكم ، ولم

يتعرّضوا لكم ، واستسلموا وانقادوا إليكم ، فلا تتخذوا أية وسيلة لمعاداتهم .

٤ — ستجدون آخرين من الكفار مرائين مرتدّين ، لا يطلبون إلا سلامة أبدانهم ، والاطمئنان على أموالهم ، يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان عندكم ، ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر لهم ، كلما دُعوا إلى الشرك أو إلى قتالكم ، عادوا إلى طبيعتهم من النفاق والغدر ، وانقلبوا عليكم أشدّ انقلاب ، فإن لم يعتزلوكم بترك قتالكم ، ولم يُلقوا إليكم زمام مسالمتهم بالصفة التى تثقون بها ، ولم يكفّوا عن قتالكم ، فخذوهم أسرى ، واقتلوهم فى أى مكان وجدتموهم فيه ، وأولئكم المنافقون الغادرون ، جعلنا لكم عليهم برهاناً بيّناً ، وحجة واضحة ، على التعرض لهم بالسَّبْى والقتل ، لظهور عداوتهم ، ووضوح كفرهم وغدرهم ، وهذا يقتضى أنهم إذا اعتزلوا قتال المسلمين وصالحوهم ، وكفّوا أيديهم عن قتالهم ، لم يجز قتالهم ولا قتلهم ، لأنهم يدخلون تحت حكم قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرّوهم وتقْسطوا إليهم » .

(١٠)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً . وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَعَنَهُ ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأ	ما ينبغي أن يحدث من المؤمن قتل لأخيه المؤمن بغير حق .
فتحرير رقبة مؤمنة	فعليه عتق عبد أو أمة من المؤمنين ، يكون المعتَقُ بعدها حراً .
دية	مال يعطيه القاتل لأهل القتيل ، بدل إزهاق النفس .

شرحها	الألفاظ
إلا أن يتنازل أهل القتيل عن الدية .	إلا أن يَصَّدَّقوا
معاهَدة .	ميثاق
فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها .	فمن لم يجد

بعد أن بيّن الله أحكام قتل المنافقين ، وأحكامَ الذين يعاهدون المسلمين على السَّلم ، وأحكام أهل الغدر والخداع ، ناسب أن يعقِّب هذه الأحكام بأحكام قتل من لا يحل قتله ، من مؤمن ومعاهد وذمى ، خطأ كان القتل أو عمداً ، وحدث أن كان عيّاش بن أبي ربيعة ، أخو أبي جهل وأخيه الحارث لأمهما ، أسلم وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتاقت أمه إليه ، ورغبت في لقائه ، وحلَفت ألا يُظلِّها سقف بيت حتى تراه ، فسار أبو جهل وأخوه الحارث حتى قَدِما المدينة ، وأخبرا عياشاً بما لقيت أمّه ، وسألاه أن يرجع معهما إلى مكة ، وأعطياه موثقاً ، أن يُخَلِّيا سبيله ، بعد أن تراه أمه ، فلما خرجا من المدينة ، عمدا إلى أخيهما عيّاش فشدَّا وثاقه ، وجلَدَاه نحو مائة جلدة ، وأعانهما عليه رجل من كنانة ، فحلف عياش ليقتُلَنَّ الكناني إن قدَر عليه ، وقدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى مكة ، وحبسا عياشاً ، فلم يزل محبوساً حتى فتحت مكة ، فأطلق من حبسه ، ولقى عيّاش الكناني — وكان قد أسلم — ولم يعلم عيّاش بإسلامه ، فضربه حتى قتله ، فنزل قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ . . . . » .

مجمل المعنى

١ — لا ينبغي ولا يليق بالمؤمن أن يقتل مؤمناً بغير حق يستوجب القتل ، ولكن قد يقع القتل خطأ ، فإن أراد القاتل رمْيَ صيد أو هدف ، فأصاب مؤمناً ،

أو ضربه بما لا يَقتُل عادة ، كأنْ ضربه باليد أو بعصاً ، أو خرج من مُسدسه رصاصة من غير قصد ، فأصابت من مؤمن مقتلا — فإن حصل شيء من هذا روعيت الأحكام الآتية :

ا — إن كان القتل فى دار الإسلام ، فكفّارته عتق عبد مؤمن ، أو أمَة مؤمنة ، من الرِّق ، وتأديةُ ديةٍ تُسلم إلى أهل المقتول ، يقتسمونها كما يقتسمون الميراث ، تطييباً لقلوبهم ، وتعويضاً عمّا فاتهم من النفقة التى حرموها بقتل المقتول .

ب — وإن كان المقتول فى دار كفار محاربين ، وقد أسلم وآثر الإقامة مع قومه ، كأنْ خرج يرعى غنمه فقُتل ، فكفارته عتق عبد مؤمن ، أو أمَة مؤمنة ، من الرّق ، ولا تدفع دية لأهل المقتول ، لأن دفع الدية لأهل المقتول فى دار الكفار ، يعينهم على عداوة المسلمين ، ويقويهم ، ويشد أزرهم .

حـ — وإن كان المقتول من قوم من الكفار ، بينهم وبين المسلمين معاهدة على السِّلم ، أو كانوا من أهل الذمّة ، فكفّارته كما تقدم فى حرف ا ، لكن لا يأخذ الدية إلا أهله من المسلمين إن وجدوا ، إذ لا يرث الكافر المسلم .

والديَة : مائة من الإبل ، أو قيمتها وهى ألف دينار ذهباً ، أو اثنا عشر ألف درهم فضة ، ودية اليهودى والنّصرانى ثلث دية المؤمن ، وديَة المجوسى ثلثا عُشْر دية المسلم (٦ $\frac{2}{3}$ ٪) ، ولأهل المقتول أن يَعفوا عن القاتل ، ويتنازلوا باختيارهم عن الدية ، فمن لم يجد رقبة مؤمنة يحررها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، لا فاصل بين أيامهما ، فإن أفطر بين أيامهما بغير عذر شرعى ،

استأنف الصيام من أوله ، وذلك لأجل أن يستحقّ توبة الله عليه ، وكان الله عليماً بحال خلقه ، حكيماً فيما دبّره بشأنهم .

٢ — أما القتل العمد فلا كفّارة له ، فمن يقتل مؤمناً متعمّداً ، بأداة من شأنها في الغالب أن تقتل ، فجزاؤه جهنم ، يظل فيها أمداً بعيداً ، ويغضب الله عليه ، ويبعده من رحمته ، ولا يقبل توبته ، ويعذّبه عذاباً عظيماً .

(١١)

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ : لَسْتَ مُؤْمِنًا ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ ، فَتَبَيَّنُوا ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً ، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ضربتم فى سبيل الله	سافرتم وذهبتم للغزو .
فتبينّوا	فتريثوا فيما يصدر منكم ، ولا تعجلوا .
ألقى إليكم السلام	حياكم تحية الإسلام .

شرحها	الألفاظ
متاع الدنيا من الغنائم .	عَرَض الحياة الدنيا
كنتم أول ما اعتنقتم الإسلام تُخفون إسلامكم .	كنتم من قبل
القاعدون عن الجهاد من المؤمنين .	القاعدون من المؤمنين
سوى من منعته علة عن الجهاد .	غير أولى الضرر
وكلاًّ وعد الله الجنة .	وكُلاًّ وعَد الله الحسنى

مجمل المعنى

١ — بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيَّة عليها أسامة بن زيد إلى بنى ضَمرة ، فلقى رجلا منهم يقال له : مِرْداس ، ومعه غُنَيْمة وجمل أحمر ، فأوى مرداسٌ إلى كهف فى جبل ، ووضع فيه غُنَيمته ، وتبعه أسامة ومن معه ، فلما وصلوا إلى الكهف أقبل عليهم مِرداس ، فقال لهم : السلام عليكم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فشدّ عليه أسامةُ فقتله ، واستاق غُنيمته وجمله ، وكان أسامة يحبُّ إذا بعثه النبىّ لأمر أن يُثْنَى عليه خيراً ، ويسأل عنه أصحابه ، فلما رجع هو ومن معه ، لم يسأل الرسول أصحابه عنه ، كما كان ينتظر ، فقصّ من كان معه على الرسول ما حدث ، وهو معرض عنهم ، فلما أكثروا عليه ، رفع رأسه إلى أسامة ، وقال له : كيف أنت ولا إله إلا الله ؟ فقال أسامة : يا رسول الله ، إنما قالها متعوّذاً ، حتى لا نصيبه بسوء ، فقال عليه الصلاة والسلام مؤنِّباً : هلاّ كشفت عن قلبه فنظرت إليه ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله . . . » ، والمعنى : يأيها الذين

آمنوا إذا خرجتم للغزو ، فتبيّنوا حقيقة ما تأتون وما تذرون ، ولا تعجلوا فيما تفعلون من غير رويّة ولاتدبر ، فلا تقولوا لمن حيّاكم تحية الإسلام للدلالة على إسلامه ، والبرهنة على أنه من أهل ملتكم : لست مؤمناً ، فتقتلونه طلباً لعرض من أعراض الدنيا الزائلة ، فإن عند الله مغانم كثيرة يُغنّمكموها ، فالتمسوها عنده ، ولا ترتابوا فى إسلام من أعلن إليكم إسلامه ، وتظنوا أنه غير مسلم ، فقد كنتم أول ما اعتنقتم الإسلام تخفون إيمانكم عن المشركين ، وأنتم مقيمون بينهم ، من غير أن يتعرّض أحد للكشف عن ضمائركم وقلوبكم ، فمنّ الله عليكم بإشهار إيمانكم ، وإعزاز دينكم ، وأعلنتم الإسلام بعد أن كنتم تكتمونه ، فافعلوا بمن يدخلون فى دين الإسلام ما كنتم تودّون أن يفعله المشركون بكم ، ولاتبادروا إلى قتل من يعلنون إسلامهم ، لمجرد الظنّ أنهم نطقوا بالشهادتين اتّقاء وخوفاً ، إن الله كان خبيراً بأعمالكم الظاهرة والباطنة ، يجازيكم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٢ — وحدث أن كان زيد بن ثابت يكتب بين يدى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى كتِف : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » ، وكان عبد الله بن أمّ مكتوم ابن خال السيدة خديجة حاضراً ، فقال : يا رسول الله ، قد أنزل الله فى فضل الجهاد ما أنزل ، وأنا رجل ضرير ، فهل لى من رُخصة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا أدرى ، قال زيد بن ثابت — وكان قلمى رطباً لم يجف — : فنزل الوحى على الرسول ، فوقعت فخِذُه على فخِذى ، حتى خشيت أن ترُضّها : (تدقها) ، ثم سُرّى عنه ، فقال : اكتب يا زيد : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين . غير أولى الضرر » ، والمعنى : لا يستوى فى الأجر عند

الله من قعدوا عن الجهاد من غير عِلَّة ، ومن جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير عِلّة درجة ، وكِلاً الفريقين ، وعده الله الجنّة لحسن عقيدته ، وخلوص نيته ، والتفاوت فقط فى الأجر والثواب ، فأعطى الله المجاهدين أجراً عظيماً ، يتمثل فى رفع منازلهم فى الكرامة ، ومغفرة ذنوبهم ، ورحمة يخصهم بها الرحمن ، فضلاً منه وإحساناً ، وكان الله غفوراً لمن ينصره فيما عسى أن يفرُط منه ، رحيما بأهل طاعته .

(١٢)

إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ، قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً، ولاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَإذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ، إنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن الذين توفاهم الملائكة	إن الذين يستوفون آجالهم ، وتقبض الملائكة أرواحهم .
ظالمي أنفسهم	وقد ظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله ، لتركهم الهجرةَ لنُصرة الرسول .
قالوا	قال لهم الملائكة موبِّخين .
فيم كنتم	فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟
مُراغماً	مُتحوَّلا ، ومُهاجَراً ، ومذهباً .
يُدركْه الموت	يَمتْ فى طريق هجرته .
تقصُروا من الصلاة	تصلُّوا الركعات الأربع ركعتين .
يفتنكم الذين كفروا	ينالكم الكفار بمكروه .

مجمل المعنى

١ — لما بيَّن الله حال المؤمنين القاعدين عن الجهاد ، عقبه بحال القاعدين عن الهجرة ، وكان جماعة بمكة قد أسلموا ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انقسم من بَقِىَ منهم بمكة فريقين :

ا — فريقاً كره أن يهاجر ، وآثر البقاء بمكة مع قدرته على الهجرة ، لضعف إيمانه ، ولما له من مصالح دنيويَّة بمكة .

ب — وفريقاً كان مستضعفاً مضطهداً ، لا قوة له ، وليس له أولياء يحمونه ، وهو مع منْعه من الهجرة قسْراً ضعيف فقير ، ويُلحق بهذا الفريق : النساء والصِّبيان .

أما الفريق الأول ، فقد بيَّن الله أنهم حين يستوفون آجالهم ، وتقبض الملائكة أرواحهم ، يذكّرونهم بأنهم ظلموا أنفسهم ، بتعريضها لعذاب الله يوم القيامة ، لقعودهم عن الهجرة التى أوجبها الله عليهم ، ونكوصهم عن نُصرة الرسول وتأييده ، وإقامتهم بدار الكفر ، مع قدرتهم على الهجرة ، يقول الملائكة لهم توبيخاً لهم : فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ فيجيبون معتذرين عن تقصيرهم ، ملتمسين لأنفسهم معذرةً ضعيفة وحجةً واهية : كنا مستضعفين فى الأرض ، يستضعفنا أهل الشرك فى أرضنا وبلادنا ، بقوّتهم وكثرة عددهم ، ويمنعوننا من اتباع رسول الله ، فيقول لهم الملائكة : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتخرجوا من أرضكم ، وتفارقوا أهل الشرك ، وتحرَّروا أنفسكم من رق الذُّل ؟ فهؤلاء مصيرهم فى الآخرة جهنم ، وبئس المصير مسكناً ومأوى .

وأما الفريق الثانى من المستضعفين حقيقة من رجال ونساء وصبيان ، وهم الذين عجزوا عن الهجرة لوقوف الكفار فى سبيلهم ، أو للعسرة وقلّة الحيلة ، أو جهل الطريق من دار الشرك إلى دار الإسلام ، ولو خرجوا لهلكوا لقلّة الزاد وعدم الراحلة ، فهؤلاء لعلّ الله أن يعفوَ عنهم ، ويتفضّل بالصفح عنهم ، إذ لم يمكثوا بمكة اختياراً ، ولا إيثاراً لدار الكفر على دار الإسلام ، وإنما للعجز الذى هم فيه عن النُّقلة ، وكان الله عفوًّا عن عباده ، ذا صَفْحٍ ومغفرة لذنوبهم .

٢ — ومن يهاجر فى سبيل إعلاء دين الله ، يجد فى الأرض مكاناً يتحول إليه ،

ومستوطَناً يلجأ إليه ، ومتسعاً يتخلّص فيه مما كان يلقاه من ضيق بين المشركين ، وذلّهم وهوانهم ، وكان جُندبُ بن صخرة قد بلغه وهو بمكة قوله تعالى : « إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . . . » ، فقال لبنيه — وكان شيخاً كبيراً مريضاً — : احملونى ، فإنى لست من المستضعفين ، ولا أبيت بمكة بعد أن علمت ما علمت ، فحملوه على سرير ، فلما بلغ التنعيم — وهو موضع على بعد فرسخين من مكة — أشرف على الموت ، فأخذ يصفق بيمينه على شماله ، ويقول : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ، ثم مات ، فلما علم بأمره الصحابة فى المدينة ، قالوا : ليته مات بالمدينة، فنزل قوله: « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . . » ، والمعنى : ومن يخرج من داره ، مؤثراً الهجرة لنصرة دين الله ونصرة رسوله ، فمات فى طريقه قبل أن يبلغ مقصده ، فقد وجب وثبت أجره ومثوبته على الله ، وكان الله كثير المغفرة والرحمة له .

٣ — وإذا سافرتم سفراً طويلا مقداره نحو ٨١ من الكيلومترات ، فلا إثم عليكم أن تجعلوا بعض صلواتكم قصيرة ، بترك بعض ركعاتها ، فتكون الصلاة الرباعية ثنائية ، إن خفتم أن ينالكم الكفار بمكروه أو أذى ، إن الكافرين كانوا لكم أعداء سافرى العداوة ؛ وليس قوله : « إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، شرطاً مقيّداً فى قَصْر الصلاة ، وإنما هو إشارة إلى سبب النزول ، فقد كان صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فصلى الظّهر مع أصحابه ، فقال المشركون : قد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلاّ شددتم عليهم ، فقال قائل منهم : إن لهم صلاة أخرى مثلَها ، فأنزل الله بين الصلاتين : « وإذا ضربتم فى الأرض » : إلى قوله : « كتاباً موقوتاً » ، فشميات

الآياتُ صلاة السفر ، وصلاةَ الخوف الآتى بيانُها ، وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يَقْصُر الرباعية من حين يخرج مسافراً ، إلى أن يرجع إلى المدينة ، بل لم يثبت أنه أتم الرباعية فى سفرة أو غزوة ، وكان يقول : « إن الله يحب أن تُؤتَى رُخَصُه ، كما تُؤتى عزائمه » .

(١٣)

وَإذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ ، أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى ، أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالاَ يَرْجُونَ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيما .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإذا كنت فيهم	وإذا كنت يا محمد حاضراً مع المسلمين ، وأنتم على أهبة للقاء العدو .
فلتقم طائفة منهم معك	فلتؤدّ الصلاة معك طائفة ، ولتقم الأخرى على الحراسة .
فإذا سجدوا	فإذا صلّت الطائفة الأولى .
فليكونوا من ورائكم	فلتكن الطائفة الأخرى تحمى ظهوركم .
يميلون عليكم ميلة واحدة	يحملون عليكم حملة واحدة .
أن تضعوا أسلحتكم	ألاّ تحملوا أسلحتكم .
وعلى جُنوبكم	مضطجعين .
كتاباً موقوتاً	فريضة لها وقت معيّن .
ولا تهنوا	ولا تضعفوا أو تتوانوا .
فى ابتغاء القوم	فى طلب الكفار .
تألمون	تجدون ألم الجراح .
ترجون من الله ما لا يرجون	ترجون من الله بإظهار الإسلام ، ما لا يخطر ببال الكفار .

فى هذه الآية كيفية صلاة الخوف ، وهى الصلاة التى تؤدّى فى أثناء المعارك حين يكون كل من الفريقين على أهبة واستعداد للهجوم .

مجمل المعنى

١ — وإذا كنت يا محمد حاضراً مع المؤمنين المجاهدين ، فصَلِّ صلاة الخوف على النحو الآتى ، وليقتد بك من الأئمة غيرك ، فإذا أقيمت الصلاة انقسم المسلمون المحاربون طائفتين : طائفة تؤدى الصلاة معك ، وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدوّ للحراسة ، لما عساه أن يقع من هجوم مفاجيء ، على أن تحمل الطائفتان أسلحتهم ، فإذا صلَّت الطائفة الأولى معك ، وقفت الطائفة الأخرى لحماية ظهور المصلين ، فمتى صلَّيت بالطائفة الأولى ركعة ، وقمت للركعة الثانية ، وقَفَتْ تنتظر حتى تُتم الطائفة الأولى صلاتها ، وتحُلّ محل الطائفة الأخرى للحراسة ، ثم تأتى الطائفة التى لم تصلِّ ، فتتم بهم الركعة الثانية ، فإذا سلَّمت قاموا حتى يتموا صلاتهم ، وليأخذ الجميع حذرهم وأسلحتهم ، خشية مباغتة الأعداء لهم ، فإنهم يتمنَّوْن أن تغفُلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم ، حين أدائكم الصلاة ، فيحملون عليكم حملة واحدة ، وقد رخَّصنا لكم ألاّ تحملوا أسلحتكم ، إذا حصل لكم من حملها أذى ، بسبب مطر أو مرض ، على أن تكونوا شديدى الحذر واليقظة ، لئلا يروا منكم غِرَّة فيفجئوكم ، إن الله وعد المؤمنين بالنصر على الكفار ، بعد أخذ الأمر بالحذَر وحسن التدبير .

٢ — فإذا أدتم أداء الصلاة ، وقد التقى الجمعان ، واشتدت المعركة ، فصلُّوا كيفما كنتُم : قياماً تضربون بسيوفكم ، وتطعنون برماحكم ، وقعوداً تصوِّبون نبالكم ، وترمون الأعداء بسهامكم ، ومضطجعين إذا خادعتم العدوّ ، أو أثخنتم بالجراح ، فإذا اطمأنت نفوسكم بما حصل لكم من

الأمن ، وزال عنكم الخوف من لقاء العدو ، فأدُّوا الصلاة تامة الأركان ، وافية الشروط ، إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضاً محدَّدَ الأوقات ، لا يجوز تأخيرها عن وقتها .

٣ — وأراد رسول الله أن يبعث طائفة من المسلمين ، بعد أن اجتمع شملُهم . فى طلب أبى سفيان وأصحابه فى غزوة أحُد ، فشكوا إليه ما بهم من جِراحات ، فنزل قوله : ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، والمعنى : لا تضعفوا ولا تتوانَوْا فى طلب الكفار لتقاتلوهم ، فإن كنتم تجدون ألماً من الجراح التى أصابتكم ، فليس ما نالكم من الآلام مقصوراً عليكم ، بل هو مشترَك بينكم وبينهم ، وأنتم أوْلى بالصبر ، فإنكم ترجون من الله ما لا يخطر لهم ببال ، من إظهار دينكم الحق على سائر الأديان كلها ، (راجع الصفحة ٤٦ من تفسير الجزء الرابع ، والصفحة ٥٢ من تفسير هذ الجزء) . وكان الله عليماً بأحوالكم وضمائركم ، حكيماً فيما يأمر به وينهى عنه .

(١٤)

إنَّا أنْزَلنا إليكَ الكِتابَ بالحقِّ ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أراكَ اللهُ ، وَلا تَكُنْ لِلخائِنينَ خَصِيماً . وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، إنَّ اللهَ كانَ غفوراً رحيماً . وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذينَ يَخْتانُونَ أنْفُسَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خوَّاناً أثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ، إذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضَى مِنَ القَوْلِ ، وَكانَ اللهُ بما يَعْمَلونَ مُحِيطاً . هاأنْتُمْ هؤلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا ، فمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يومَ القِيامَةِ ، أمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ؟ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ، وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً فإنَّما يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ، وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْ إثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ، فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وإثْماً مُبِيناً ، وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أنْ يُضِلُّوكَ ، وَما يُضِلُّونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ ، وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
للخائنين خصيما	لأجل الخائنين مخاصماً ومدافعاً عنهم .
استغفر الله	اطلب من الله مغفرته مما هممت به .
يختانون أنفسهم	يخونون أنفسهم بارتكاب المعاصى ، لأن وبالها عائد عليهم .
أثيما	منهمكاً فى الإثم .
وهو معهم	وهو يعلم سرّهم ونجواهم .
يُبيّتون	يُضمرون ويُدبّرون .
وكيلا	موكّلا يدافع عنهم .
بهتاناً	كذباً فظيعاً .
همّت طائفة منهم	عزمت جماعة ممن ينحازون إلى طُعْمة .
أن يُضِلّوك	أن يُضِلّوك عن القضاء الحق .

قصّة طُعْمة

استودع يهودىٌّ طُعمة بن أبَيْرِق — وكان أنصاريّاً مسلماً — درعاً ، وذهب اليهودى مع طُعمة إلى داره ، فحفر لها اليهودى الأرض ، ودفن درعه فيها ، ولكن طعمة غدر باليهودى ، فاستخرج الدّرع واغتصبها ، فلما جاء اليهودى يطلب درعه ، أنكرها طعمة ، وحلف أنه ما أخذها ، فانطلق اليهودى إلى أناس من عشيرته ، وقال لهم : انطلقوا معى إلى دار طُعمة ، فإنى أعرف موضع الدرع ،

فلما علم بذلك طعمة ، ألقى الدرع فى دار جاره أبى مُليك الأنصارى ، فلما جاء اليهود يطلبون الدرع فى موضعها ولم يجدوها ، تسابُّوا مع طُعمة ، ونَفَرٍ ممن كان معه ، فقال طعمة : أتخوّنوننى ؟ فهاهى ذى دارى ، فابحثوا عن الدرع فى كل مكان فيها ، فلما أشرفوا على دار أبى مليك ، إذا بالدرع فيها ، فقال طعمة : أخذها أبو مليك ، ودافع نفر من الأنصار عن طُعمة ، فقال طعمة : انطلقوا معى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يبرئنى ، ويكذّب اليهودى ، فى أنه استودعنى درعه ، فأتوا رسول الله ، فهمّ أن يبرئه ، بما بدا له من ظواهر حاله ، وشهادة بعض الأنصار له ، فأنزل الله عليه قوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ... » ، إلى قوله : « وكان فضل الله عليك عظيماً » ، فلما فضح الله طُعمة بما أنزل من القرآن ، هرب إلى مكة ، وارتد عن الإسلام ، وأقام بها ، ثم سطا على منزل للحجّاج بن عِلاَط ، فنقبه ، وأراد أن يسرقه ، فسمع الحجاج خشخشة فى بيته ، وقعقعة جلود كانت عنده ، فنظر فإذا به يرى طُعمة ، فلما أصبح أذاع أمر طعمة بين أهل مكة ، فأخرجوه منها ، فلقى ركباً من قُضاعة ، فعرض عليهم أن يحملوه ، فقالوا : منقطعٌ وابن سبيل ، فحملوه معهم ، فلما جنّ الليل ، عدا عليهم فسرقهم ، ثم انطلق ، فجدُّوا فى طلبه حتى أدركوه ، فقذفوه بالحجارة حتى مات .

مجمل المعنى

١ — إنا أنزلنا إليك القرآن يا محمد ، لتحكم بالحق بين الناس : بَرِّهم وفاجرهم ، بما أعلمك الله فيه ، ولا تكن للخائنين كطُعمة وأمثاله ، مخاصماً ، ومدافعاً عنهم ، واستغفر الله مما هممت به من الدفاع عنه وتبرئته ، لما سمعته ممن يناضلون عنه ، إن الله كان غفوراً رحيماً لمن يستغفره ، ولا تدافع عن الذين

يخونون بارتكاب المعاصي ، كطعمة وأمثاله ، ممن شاركوه فى الإثم والمعصية بدفاعهم عنه ، فإن وبال خيانتهم عائد عليهم ، إن الله لا يحب من كان مصراً على الخيانة ، منهمكاً فى ارتكاب الإثم .

٢ — يستحيى طعمة ومن لَفَّ لَفَّهُ من الناس حياء وخجلا ، خوف سوء السمعة بارتكاب السرقة ، ولا يستحيون من الله ، وهو أحق أن يُستحيا منه ، ويخاف عقابه ، وهو المطَّلع على سرهم ونجواهم فيما يضمرون ، ويدبّرون ما لا يرضى من القول ، من رمى البرىء بجريرة المجرم ، وشهادة الزور ، والحلف الكاذب على نفى السرقة ، وكان الله بما يعملون محيطاً ، عليماً بكل ما فعلوه ، لا يعزب عنه شيء .

٣ — هأنتم هؤلاء يا أنصار طعمة ، دافعتم عن طعمة وذويه فى الحياة الدنيا ، وبذلتم جهدكم فى الدفاع عنهم ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله ، إذا أمر بإلقائهم فى النار ، وتعذيبهم فيها ؟ أم من يكون وكيلا عنهم ، يذبّ عنهم ، ويحميهم من عذابه ؟

٤ — ومن يعمل عملا قبيحاً يسوء به غيره ، أو يظلم نفسه بارتكاب عمل قبيح مقصور عليه ، لا يتعدى أذاه إلى غيره ، ثم يستغفر الله ، ويتُبْ عما جناه ، يجد الله غفوراً لمذنوبه ، متفضلا عليه برحمته .

٥ — ومن يقترف إثماً ، فإنما يجنى على نفسه ، لأن وباله عائد عليه ، وكان الله عليماً بما فعله ، حكيماً فى مجازاته .

٦ — ومن يرتكب ذنباً صغيراً أو كبيراً ، ثم يُسْنِدْ ما ارتكب إلى برىء ، كما فعل طُعمة مع جاره أبى مُلَيك ، فقد تحمَّل برميْه البرىء بما ارتكب ، وتبرئة نفسه المجرمة ، كذباً فظيعاً ، وذنباً عظيماً بيِّناً ، باتهام غيره زوراً ، لتبرئة نفسه .

٧ — ولولا فضل الله عليك يا محمد ، بإعلان أمر طعمة ، بما أوحيناه إليك ، ورحمتُه الواسعة بما عصمناك من الخطأ ، لهمَّت طائفة من أنصار طعمة ، المنحازون إليه ، أن يضلُّوك عن القضاء بالعدل والإنصاف ، بإلباسهم الباطل ثوب الحق ، وما يُضلُّون إلا أنفسهم ، لأن أمرهم سيفتضح وينكشف ، وما يصيبونك بشيء من الضَّرر ، لأن الله يعصمك من الزَّيْغ فى الأحكام .

٨ — وأنزل الله عليك القرآن وما فيه من الأحكام ، وعلَّمك ما لم تكن تعلمه من أمور الدين ، وخفايا الأمور ، وضمائر الصدور ، فردَّ كيد المضلِّين فى نحورهم ، وكان فضل الله عليك بالنبوّة عظيماً ، إذ لا فضل أعظم منها .

(١٥)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ، إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللهُ ، وَقَالَ : لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا . وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ؟

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نجواهم	تحدث الجماعة الذين يتسارُّون من أصحاب طعمة .
يشاقق الرسول	يخالف الرسول ويُعاده .
نُوَلِّه ما تولى	نُخَلِّ بينه وبين ما اختاره .
ضلالا بعيداً	ضلالا بعيداً عن الحق .
إن يدعون من دونه إلا إناثاً	ما يعبدون من دون الله إلا إناثاً ، كاللَّات والعُزَّى ومَناة .
شيطاناً مريداً	شيطاناً متمرداً على الله ، وهو إبليس .
وقال	وقال الشيطان .
نصيباً مفروضاً	قدراً معيناً من الناس . وحصة مقطوعة منهم ، فأدعوهم إلى طاعتى .
فليبتِّكُنَّ آذان الأنعام	فليستأصلُن آذان الأنعام ، أو يشقِّقُنَّها .
فليغيِّرُنَّ خلق الله	فليغيرن خلقة الله عن وجهها .
وليًّا	نصيراً يطيعه ، ويعمل بما يوسوس فى صدره .
غروراً	باطلا .
محيصاً	مهرباً ومخلصاً .
قيلا	قولا .

مجمل المعنى

١ — لا خير فى كثير من المتناجين اللذين يتسارُّون فيما بينهم من أصحاب طعمة ، رغبةً فى أن يساعدوه على تبرئته . ما عدا من أمَرَ منهم بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، والمراد بالأمر هنا فعله . وهذه الثلاثة جمعت أو كادت تجمع كل أنواع الخير :

ا — أما الصدقة فقد نوّه الله بشأنها فى عدة مواضع من كتابه ، وجعل إخفاءها خيراً من إظهارها ، وجعل من مبطلاتها المنّ على المتصدق ، أو إيذاءه برمى الصدقة فى وجهه مثلا .

ب — وأما المعروف فهو أكرم الفضائل . وإن من المعروف أن يلقى الإنسان أخاه بوجه طلق . وقد قال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العُرْف بين الله والناس

حـ — والإصلاح بين الناس : التأليف بينهم بالمودة إذا تفاسدوا ، والتقريب بينهم إذا تباعدوا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضلَ من الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين »

وهذه الأنواع الثلاثة من الطاعات ، إنما يستحق ثواب الله عليها ، من أتى بها طلباً لمرضاته ، فإذا أتى بها للرياء والشهرة ، انقلب خيرها شرًّا .

٢ — ومن يخالف الرسول فيما جاء به من الحق ، من بعد ما تبين له الهدى بالأدلة القاطعة ، والمعجزات الساطعة ، الدالة على صدقه ، ويتَّبعْ طريقاً غير طريق المؤمنين ، من عقيدة وعمل وطاعة ، نُخَلِّ بينه وبين ما اختاره فى الدنيا ، ثم نأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فندخله جهنم

يصلاها مذموماً مدحوراً ، وبئس المصير مصيرُه ، وتدل هذه الآية ، على أن إجماع المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمر فى أى عصر حجة ، ومخالفته حرام .

٣ — وجاء شيخ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال له : إنى شيخ منهمك فى الذنوب ، غير أنى لم أشرك بالله شيئاً ، منذ عرفته وآمنت به ، ولم أتخذ من دونه وليًّا ، ولم أرتكب المعاصى جراءة على الله ، وما توهمت طرفة عين أنى أعجِزُ الله هرَباً ، وإنى لنادم تائب ، فما ترى حالى عند الله ؟ فنزل قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به . . . . » ، وقد تقدم شرح هذا فى الصفحة ١٦ من هذا الجزء ، فمن اتخذ لله شريكاً من صنم أو غيره ، فقد ضل ضلالا بعيداً عن الحق ، وانحرف عن طريق الهداية ، لأن الشِّرك أعظم أنواع الضلالات ، وأبعدها عن الصواب ، وهؤلاء الذين يشركون بالله غيره فى العبادة ، ما يدعون من غير الله فى إشراكهم ، إلا أصناماً يسمونها تسمية الأنثى ، فيطلقون عليها اللات والعُزَّى ومناة ، ويضعون عليها الحلى وأنواع الزينة ، وإن كان بعضها يسمى بأسماء الذكور ، كهُبَل ، وودّ ، وسُوَاع .

٤ — هؤلاء المشركون ، ما يدعون بعبادتهم تلك الأوثان ، إلا الشيطان المتمرد الملعون ، الخارج عن طاعة الله ، المطرود من رحمته ، وهو إبليس ، فهو الذى أغراهم بعبادتها ، وقال حين طرده الله من الجنة : لأتخذنّ من عبادك قدراً معيناً مفروضاً ، أقتطعه منهم ، فأستخلصهم بغوايتى ، وأضلُّهم بوسوستى ، وهم الكفرة والعُصاة ، فهو بهذا قد جمع بين التمرّد واللعنة ، وهذا القول الدال على فرط عدوانه لبنى آدم ، يريد به الانتقام من أبيهم فى أولاده ، فموالاةُ منْ هذا شأنه ، إمعان فى الضلال ، فكيف

الحال بعبادته ؟ وهذا الفريق الذى يصغى إلى وسوسة إبليس ، هو الذى يقول الله فيهم : « ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنَّه فاتبعوه » ، وقد ادعى إبليس أنه سيحاول محاولات أخرى مع بنى آدم ، مقسماً أنه سيَبْلغها وهى :

ا — الإضلال عن الحق ، والإبعاد عن طريق الهدى ، ونظيره قوله تعالى حكاية عن إبليس : « لأقْعُدنَّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم » .

ب — وأنه يمنّيهم الأمانىَّ الباطلة ، بطول البقاء فى الدنيا ، وأنه ليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ، لينغمسوا فى الشهوات ، وينتهزوا كل فرصة للعبث والفساد .

حـ — وحملُهم على تحليل ما حرمه الله ، باستئصال آذان الأنعام أو شقّها ، كما كانت العرب تفعل فى الجاهلية ، من شقّ أذن الناقة أو قطعها ، إذا ولدت خمسة أبطن ، وكان الخامس ذكراً ، وتحريم ركوبها ، أو الحمل عليها ، وتحريم سائر الانتفاع بها ، وسيأتى تفصيل هذا فى أوائل تفسير الجزء السابع .

د — وحملهم على تغيير خِلْقة الله ، كتبرّج النساء ، وخِصاء العبيد ، وتحويل الحجارة إلى أصنام ، والوشم ، ووصل الشعر بغيره للزينة ، وتفليج الأسنان صناعة .

٥ — فمن يتخذ الشيطان وليًّا يطيعه ، ويُؤثر ما يدعو إليه على ما أمر الله به ، فقد خسر خسراناً بيّناً ، لأنه باع أخراه بدنياه ، واستبدل برضا الرحمن ، طاعة الشيطان ، وهذا الشيطان يعد أولياءه بما لا يقدر على إنجازه ، ويمنّيهم الأمانىّ الباطلة ، وما يَعِدهم إلا بإغرائهم بما يضرهم ولا ينفعهم فى

الحال والمآل ، أولئك الذين يتخذون الشيطان ولياً من دون الله ، مصيرهم جهنم ، ولا يستطيعون مهرباً منها ولا مخلصاً ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فسيدخلهم الله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، وعدهم الله بهذا وعداً حقاً ناجزاً لا ريب فيه ، ومن أصدق قولا من المولى جل شأنه ؟

(١٦)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا . وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ؟ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً . وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نقيراً	قدرَ نُقرة النَّواة التي فى طرفها .
أسلمَ وجهه لله	انقاد وأخلص عملَه لله .
محسن	يعبد الله كأنه يراه ، ويفعل الحسنات ، ويترك السيئات .
ملة إبراهيم حنيفاً	دين إبراهيم الموافق للإسلام ، المائل عن سائر الأديان كلها .

الألفاظ	شرحها
خليلا	نجيًّا ، صفيًّا ، خالص المحبة له .
محيطاً	محيطاً علمه بكل شيء .

افتخر المسلمون وأهل الكتاب ، فقالت اليهود للمسلمين : نحن خيرٌ منكم ، نبيّنا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن على دين إبراهيم ، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فنحن أولى بالله منكم ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون : نحن خير منكم ، نبيّنا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة عليه ، ونحن على دين إبراهيم وإسماعيل ، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا ، وقد أمِرْتم أن تتبعونا وتتركوا دينكم ، فنزل قوله تعالى : « ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب . . . » .

مجمل المعنى

١ — ليس الأمر منوطاً بأمانيّكم أيها المسلمون ، ولا بأمانىّ أهل الكتاب ، وإنما هو منوط بالعمل الصالح ، فمن يعمل سوءاً يُجز به ، إما عاجلا فى الدنيا ، وإما آجلا فى الآخرة ، إلا أن يتوب ، وليس له غير الله ولىٌّ يحفظه أو يحامى عنه ، ولا نصير يمنعه من عذاب الله ، أو ينجّيه منه ، وتعدّ الأمراض ومصائب الدنيا وهمومها أسواءً يكفّر الله بها الخطايا ، وإن لم تكن من عمل الإنسان .

٢ — ومن يعمل شيئاً من الأعمال الصالحات ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وهو مؤمن إيماناً صادقاً ، فهؤلاء يدخلون الجنة جزاء عملهم ، ولا ينقصون

شيئاً من ثواب حسناتهم ، مهما كان ضئيلا ، لأن المجازِى هو الله أعدل العادلين .

٣ — ولا أحد أحسن ديناً ممن أخلص عمله لله ، وانقاد وخضع له ، وامتثل أوامره ، واجتنب نواهيه ، وهو محسن فى عقيدته ، يعبُد الله كأنه يراه ، يفعل الحسنات ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويترك السيئات ، واتبع دين إبراهيم الموافق لدين الإسلام ، المائل عن بقية الأديان كلها ، ولقد اصطفى الله إبراهيم ، وخصّه بمنزلة تشبه منزلة الخليل من خليله ،

٤ — ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، كل ما فيهما ومن فيهما ملك وعبيد له ، وكان الله محيطاً علمه وقدرته بجميع مخلوقاته ، يجازِى كل مكلف على حسب عمله .

(١٧)

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ : اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً . وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً . وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يستفتونك فى النساء	يطلبون منك أن تُفتيهم فى أمر النساء .
فى الكتاب	فى القرآن ، فى آيات الميراث .
ما كُتب لهن	ما فُرض لهن من الميراث .
ترغبون أن تنكحوهن	ترغبون أيها الأولياء عن زواجهن لدمامتهن ، أو فى زواجهن لجمالهن
والمستضعفين من الولدان	ويُفتيكم فى الصغار المستضعفين المستحقين للميراث .
وأن تقوموا لليتامى بالقسط	ويأمركم أن تقوموا بالعدل فى الميراث ، والمهر لليتامى .
من بعلها نشوزاً	من زوجها ترفُّعاً عليها ، بترك معاشرتها ، أو تقصيره فى الإنفاق عليها .
أحضرت الأنفس الشح	جُبلت الأنفس على البخل ، فهى تُحضره وتذكره إن طولبت بالمال .
فلا تميلوا كل الميل	لا تميلوا كل الميل إلى من تُحبُّونها ، فيؤدى هذا إلى عدم عدلكم فى إنفاقكم ، وقسمة أوقاتكم .
فتذروها كالمعلَّقة	فتتركوا من لا تميلون إليها ، لا هى ذات زوج ، ولا هى مطلَّقة .
إن تُصلحوا	إن تُصلحوا بالعدل والقسمة بين الزوجات .
إن يتفرقا	إن يتفرق الزوجان بالطلاق

كان العرب فى الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغار ، كما ذكرنا فى الصفحة ٩٨ من تفسير الجزء الرابع ، فلما نزلت آيات الميراث ، شق ذلك على كثير منهم ، وقالوا : أيرث الصغير والمرأة ، وهما لا فضل لهما فيما اقتنينا ؟ هذا إلى أنهما لا يغزوان ولا يغنمان ، وقد ذهب عيينة بن حصن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : بلغنا أنك تعطى الابنة النصف ، والأخت النصف ، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ، ويحوز الغنيمة ، فقال له : بذلك أمرت ، ونزل قوله تعالى : « ويستفتونك فى النساء . . . . » .

مجمل المعنى

١ — يطلب بعض المسلمين منك يا محمد الفتوى فى شأن ميراث النساء ، فقل لهم : إن فتوى الله فيهن ما يتلى عليكم فى كتابه ، مما نزل قبل هذا الاستفتاء ، كما فى آيات الميراث ، ويفتيكم أيضاً فى أحكام معاملة النساء اليتيمات ، اللاتى تحت ولايتكم ، وجرت عادتكم أنكم لا تعطونهن ما فرض لهن من الميراث ، طمعاً فى مالهن ، فإن كن جميلات تزوجتم بهن ، لتتمتعوا بهن وبأموالهن ، وإن كن دميمات لا تتزوجوهن ، ولا تزوجوهن غيركم ، ليبقى مالهن فى أيديكم ، فاحذروا أن تفعلوا ما كنتم تفعلونه زمن الجاهلية ؛ وكذلك يفتيكم فى شأن المستضعفين الصغار ، الذين لا تعطونهم حقهم من الميراث ، فلا تأكلوا أموالهم ، ويفتيكم أن تقوموا بالعدل فى الميراث والمهر لليتامى ، وأن توفوهم حقوقهم كاملة غير منقوصة ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، فيجازكم عليه .

٢ — وكان لابن السائب زوجة عجوز ، له منها أولاد ، فهم بطلاقها لأمر كان فيها ، فقالت له : لا تطلقنى ، ودعنى أقم برعاية أولادى ، واقسم

لى فى كل شهر ما شئت من اللّيالى ، فقال لها : إن كان الأمر كذلك ، فهو أصلح لى ، فنزل قوله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها . . . » ، والمعنى : وإن امرأة توقّعت من زوجها تجافياً عنها ، وترفعاً عن صحبتها ، أو لاحظت عليه تقصيراً فى الإنفاق عليها ، أو آنست منه إعراضاً عن مجالستها ومحادثتها ، فلا حرَج عليهما أن يتراضيا صلحاً ، بأن تتنازل عن بعض المهر ، أو تَهب له شيئاً مما تملكه ، تستميله به ، أو ترضى بترك بعْض لياليها لضرائرها ، رغبة فى استبقاء رابطة الزوجية بينهما ، فإن تراضيا بذلك فحبّاً وكرامة ، وإلا فعلى الزوج أن يوفّيها حقها ، أو يفارقها ، والصُّلح خير من الفُرقة ، ما لم يكن من الفرقة بُد ، والنفس مجبولة على حب ما هو أنفع لها ، تستحضر الشح إذا جاء مقتضى البذل ، تحب الخير لنفسها ، وتحب أن تستأثر به ، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها ، والتقصير فى حقّها ، ولا يكاد الرجل يسمح بأن يستبقيها على النحو الذى يرضيها ، إذا كرهها وأحب غيرها ، فالأولى أن يعالج كل منهما نفسه ، ويخطوَ نحوِ الوفاق حتى يلتقيا ، وإن تُحسنوا أيها الأزواج عِشرة النساء ، وتتقوا الجور عليهن على أية صفة كانت ، وتعملوا على معالجة ما يحدث بينكم وبين زوجاتكم من خلاف ، فإن الله كان بما تعملون من الإحسان ، خبيراً بنيّاتكم وضمائركم .

٣ — ولن تستطيعوا أيها الأزواج أن تُسوُّوا بين الزوجات فى ميولكم الطبيعية ، مهما بذلتم من جهد ، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبّ عائشة رضى الله عنها ، أكثر من حبّه لسائر نسائه ، ولكنه لم يُؤثِرْها فى القسمة بينهن ، وكان يقول : « اللهم هذا قَسمى فيما أملك ، فلا تلُمنى فيما تملك ولا أملك » ، وقصد بما تملك : المحبة وميل القلب ، اللذين لا إرادة له فيهما ، فلا تميلوا أيها الأزواج كل الميل إلى من تحبونها فى

السكنى إليها ، وزيادة النفقة عليها ، فتتركوا غيرها كالمعلّقة ، لا هى ذات زوج ولا مطلّقة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْه مائل » ؛ وإن تُصلحوا بالعدل والقسمة بين الزوجات ، وتتَّقوا الجوْر ، فإن الله غفور لما فى قلوبكم من الميل الذى لا تستطيعون دفعه ، يسعكم فضله ورحمته .

٤ — فإن عزَّ بين الزوجين الوِفاق ، وتحتَّم الفِراق ، فإن الله كفيل أن يُغنى كلاًّ منهما عن الآخر بفضله وقدرته ، بأن يرزق الزوج زوجة غيرها ، ويرزق الزوجة ، زوجاً غيره ، وكان الله واسع الفضل لخلقه ، حكيماً فى تدبيره وصنعه .

(١٨)

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ : أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا . مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ ، وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإياكم	ولقد وَصَّيْناكم .
ويأتِ بآخرين	ويأت بَدَلَكم بقوم آخرين .
قوّامين بالقسط	مواظبين على العدل ، مجتهدين فيه .
شهداء لله	شهداء بالحق لوجه الله .
إن يكن غنيًّا أو فقيراً	إن يكن المشهود له أو عليه غنيًّا أو فقيراً .
فالله أولى بهما	فالله أعلم بمصالحهما .
أن تعدلوا	بأن تميلوا عن الحق وتعدلوا عنه .
وإن تَلْوُوا أو تعرضوا	وإن تحرِّفوا الشهادة أو تعرضوا عن أدائها .

مجمل المعنى

١ — ولله ملك السموات والأرض ، يدبّر أمرهما بمشيئته وقدرته ، ولقد أمر الله اليهود والنصارى ومن قبلهم ، كما أمركم أيها المؤمنون ، بتقوى الله وطاعته ، وحذّر جميع خلقه عصيانه ومخالفة أمره ، وقال لهم جميعاً على لسان رسله : إن تكفروا فإنى غنىٌّ عنكم ، لا يضرّنى كُفر من كَفر ولا معاصيه ، ولا ينفعنى شُكر من شَكر ولا تقواه ، وكان الله ولا يزال مستغنياً عن خلقه ، محموداً فى تدبيره وصنعه ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، يتصرف فى خلقه إيجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وكفى به وكيلا : توكّلَ بشئون خلقه ، وتكفّل بأرزاقهم ، وهو القاهر فوق عباده ،

فإن يشأ يُفْنهم ، ويأت بخلق جديد مكانهم ،وما ذلك عليه بشاقّ ، لأنه عظيم القدرة ، لا يعجزه شيء ، ولا يستعصى عليه أمر .

٢ — من كان يريد بعمله وسعيه ، وكفاحه وجهاده ، فائدة تعود عليه فى الدنيا ، كالمجاهد طلباً للغنيمة ، والمنفعة الدنيوية ، والرجل يسعى إلى الجاه والمال ، يبتغى بهما الشهرة والمظهر ، فإنه يطلب أخسّ مطلب ، وكان الأولى به أن يطلب ما هو أشرف وأكرم ، كمن يجاهد جهاداً خالصاً لله سبحانه وتعالى ، فلا تخطئه الغنيمة فى الدنيا ، وله فى الآخرة ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وكالعالم ينشر علمه حبّاً فى الله ، ورغبة فى نيل ثوابه ، فيسعى إليه الجاه ركضاً ، ويثيبه الله فى الآخرة أحسن الجزاء ، وبذا يحوز السعادة فى الدارَين ، وكان الله سميعاً بصيراً ، يعرف نيّاتِ خلقه وأغراضهم ، وما يجول فى خواطرهم ، فيجازِى كُلاً بما يستحقه .

٣ — يأيها الذين آمنوا كونوا مواظبين على العدل ، مجتهدين فى إقامته ، تؤدون شهادتكم بالحق لوجه الله ، لا لغرض دنيوى ، ولو كانت شهادتُكم على أنفسكم ، أو على أبويكم ، أو على أقربائكم ، فأقِرُّوا بالحقّ ، وأدوا الشهادة على وجهها ، لأن الغرض منها إظهار الحقّ ، سواء أكان هذا الحقّ للشاهد أم عليه ، أم لمن له صلة به ، كأبويه وأقربائه ، أم عليهم ، إن يكن من تشهدون له أو عليه غنيّاً ، أو فقيراً ، فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة ، ولا تجوروا فيها ميلا إلى الغنى ، أو رحمة بالفقير ، فالله أعلم بمصالحهما منكم ، فلو لم تكن الشهادة صلاحاً لهما وللمجتمع الإنسانى ، لما شرعها الله ، واحذروا أن تتبعوا هوى أنفسكم فى شهادتكم ، بأن تعدلوا

عن الحق ، وتميلوا عنه ، محاباة للغنيّ لاستجلاب رضاه ، أو عطفاً على الفقير ليتخلص مما جناه ، وإن تحرّفوا الشهادة ، أو تُعرضوا عن أدائها ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، يعلم انحرافكم عن الحق ، وإعراضكم عن أداء الشهادة ، فيجازيكم على ما اقترفتم .

(١٩)

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ : أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا . الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَاللهُ يَحْكُمُ

بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
والكتاب الذى أنزل من قبل	المراد به جنس الكتاب ، الذى يشمل جميع الكتب التى أنزلت قبل القرآن .
إن الذين آمنوا	إن اليهود الذين آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام .
ثم كفروا	ثم ارتدّوا عن إيمانهم بعبادتهم العجل .
ثم آمنوا	ثم عادوا إلى إيمانهم بعد عودة موسى من مناجاة ربه .
ثم كفروا	ثم كفروا بعيسى عليه الصلاة والسلام .
ثم ازدادوا كفراً	ثم أمعنوا فى الكفر ، بإنكارهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .
بشّر المنافقين	أنذر المنافقين ، واستُعملت بشّر التى تكون للخير ، على سبيل التهكم والاستهزاء .
أيبتغون عندهم العزة	أيتعزّزون بموالاة الكفار ؟
إن العزة لله	إن العزة مختصة بالله ، يمنحها من يشاء من عباده .
آيات الله	آيات القرآن المنزل من عند الله .
فلا تقعدوا معهم	فلا تقعدوا مع الكافرين والمنافقين المستهزئين ،
حتى يخوضوا فى حديث غيره	حتى يدخلوا فى حديث غيره
إنكم إذن مثلهم	إنكم إذا قعدتم معهم ، تكونون مثلهم فى الإثم .

شرحها	الألفاظ
ينتظرون وقوع الكوارث والخطوب بكم .	يتربصون بكم
نصر وظفر وغنائم .	فتح من الله
ألم تكن قلوبُنا معكم ؟	ألم نكن معكم
وإن أصاب الكفار ظفر عليكم .	وإن كان للكافرين نصيب
قال المنافقون للكفار : ألم نبين لكم أنا معكم على ما أنتم عليه ؟	قالوا : ألم نستحوذ عليكم

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، اثبُتوا على الإيمان بالله ورسوله ، وداوموا عليه بقلوبكم ، كما آمنتم بألسنتكم ، وآمنوا بالقرآن الذى أنزلناه على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدِّقوا بالكتب التى أنزلناها قبل القرآن ، كالتوراة والإنجيل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ويوم القيامة ، فقد ضلّ ضلالا بعيداً عن الحق والقصد .

٢ — إن أمر اليهود لعجيب ، فهم لا يثبُتون فى إيمانهم على حال ، آمنوا بموسى ، ولهُ عليهم أعظم منَّة ، لأنه خلَّصهم من ظلم فرعون وقومه ، وعند ما غاب عنهم أربعين ليلة ليستعد لمناجاة ربه ، عبدوا العجل ، ليقلِّدوا المصريين الذين كانوا من أشد الناس كراهية لهم ، فى عبادة العجل أبيس ، فلما عاد موسى إليهم بعد مناجاة ربه ، عادوا إلى الإيمان به ، ثم كفروا بعيسى عليه السلام ، مع أنهم أمِروا فى التوراة أن يؤمنوا به ، ولكن هذه

شنشنتهم ، وهذا دأبهم ، ثم ازدادوا كفراً حين أرسل محمد صلى الله عليه وسلم حسداً له ، مع اعتقادهم بنبوته ، لأن نصوص التوراة تدل عليها ، ولكنهم كانوا يودون أن يكون النبيّ من بنى إسرائيل ، لا من بنى إسماعيل ، فتكرر منهم الإيمان والارتداد ، ثم أصروا على الكفر ، وتمادوا فيه ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يغفر الله لهم ، لاستبعاد أن يتوبوا من الكفر ، ويثبتوا على الإيمان ، ولأنهم أمعنوا فى الضلال ، وعميت بصائرهم عن الحق ، فلا يستحقون أن يرشدهم الله إلى طريق الهدى

٣ — أنذر المنافقين يا محمد أن لهم عذاباً مؤلماً وجيعاً يوم القيامة ، لأن حالهم تشبه حال اليهود الذين سبق الكلام عنهم ، فهم آمنوا ظاهراً ، وكفروا سراً ، مرة بعد أخرى ، ثم ازدادوا إصراراً على النفاق ، وبث الفتنة بين المسلمين ، ولأنهم اتخذوا الكفار من مشركى مكة وغيرهم أنصاراً وأعواناً لهم من دون المؤمنين ، لما يتوهمون فيهم من القوة والمنعة ، فماذا يبتغون من وراء هذا ؟ أيبتغون العزة والغلبة بموالاتهم ؟ إن كان هذا قصدهم ، فقد ضلوا السبيل ، إذ لا يعتز إلا من أعزه الله ، وقد كتب الله العزة فى الدنيا والآخرة لأوليائه ، ولا ينالها غيرهم ، فقال : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ولكن المنافقين طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يفقهون .

٤ — وقد نزل الله عليكم أيها المؤمنون وأنتم بمكة ، أنكم إذا سمعتم آيات القرآن التى أنزلها الله على رسوله ، يكفر بها المشركون ويستهزئون بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يدخلوا فى حديث غيره ، يشير الله تعالى إلى قوله فى سورة الأنعام التى نزلت بمكة : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان ، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » ، إنكم أيها المؤمنون إن قعدتم معهم فى

أثناء ذمّهم دينكم ، واستهزائهم به ، تكونون قد أقررتموهم على ما يتخرّصون به ، لأنكم رضيتم بالقعود معهم ، مع أنكم قادرون على مغادرة مجالسهم ، والإعراض عنهم ، إن الله جامع الكافرين والمنافقين جميعاً فى جهنم يوم القيامة ، كما اجتمعوا على الكفر فى الدنيا ، ويدل هذا على أنه يجب علينا أن ننأى عن مجالس المُلحدين ، والمستهزئين بأحكام الدين .

٥ — هؤلاء المنافقون الذين ينتظرون أن تقع بكم فى الحروب المِحَنُ والخطوب ، إن منحكم الله النصر على أعدائكم ، وحصلتم على الأسلاب والغنائم ، تظاهروا أنهم يمالئونكم ، وقالوا : أسهمونا فيما غنمتم ، وأعطونا نصيبنا مما أصبتم ، فقد كنا بقلوبنا معكم ، أفلا نستحق مشاركتكم فى نعمتكم؟ وإن كان للكافرين نصيب من الظَّفَر بكم — والحرب سجال — تحوّلوا إليهم ، وقالوا لهم : ألم نبين لكم أننا معكم على ما أنتم عليه ؟ ألم نخذّل المؤمنين عنكم ؟ ألم نمنعكم من أن يظفرُوا بكم ، بما أفشيناه من أسرارهم إليكم ؟ فأشركونا فيما أصبتم ، بما لنا من المِنّة عليكم ؛ فالله يحكم بينكم وبينهم يوم القيامة ، بإدخالكم الجنة تجدون فيها النعيم المقيم ، وإدخالهم النار يلقون فيها العذاب الأليم ، ولن يجعل الله لهؤلاء المنافقين على المؤمنين طريقاً يوصلهم إلى غرضهم ، بإفشاء أمورهم ، وإذاعة فضائحهم ، على لسان الوحى .

(٢٠)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ، يُرَاءُونَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ، وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ، فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يخادعون الله	يقدرون فى أنفسهم أنهم يخدعون الله ، والخداع : إظهار الإنسان خلاف ما يخفيه .

الألفاظ	شرحها
وهو خادعهم	والله مجازيهم على خداعهم ، بافتضاح أمرهم فى الدنيا ، وعقابهم فى الآخرة .
ولا يذكرون الله إلا قليلا	ولا يُصَلُّون إلا نادراً .
مذبذبين بين ذلك	مترددين بين الكفر والإيمان .
سلطاناً مبيناً	برهاناً بيّناً .
الدَّرْك الأسفل من النار	أسفل طبقة من النار .
اعتصموا بالله	تمسّكوا بكتاب الله ، وعملوا بما فيه .
ما يفعل الله بعذابكم	أى مصلحة لله فى عذابكم ؟

مجمل المعنى

١ — إن المنافقين يقدّرون فى أنفسهم أنهم يخدعون الله ، بتستُّرهم وراء ستار النفاق والخداع ، وإظهارهم خلاف ما يُبطنون ، والله مجازيهم على خداعهم ، فيفتضحون فى الدنيا بإطلاع الرسول على ما تُكنّه صدورهم ، وإفشاء أسرارهم ، ويعاقبهم فى الآخرة أشد عقاب ، وفى هذا المعنى يقول زهير بن أبى سُلْمى فى معلقته :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

هؤلاء المنافقون ، إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متثاقلين ، كمن يُكرَه على فعل لا رغبة له فيه ، لأنهم لا يعتقدون ثواباً فى فعلها ، ولا عقاباً على تركها ، يظهرون للناس خلاف ما يُضمرون رياء ومكراً ، ولا يُصَلُّون

إلا نادراً ، لأنهم لا يؤدّونها إلا إذا اضطروا إليها ، إذ لا يبْتغون من أدائها إلا أن يراهم المؤمنون ، فيحسبوهم منهم .

٢ — فهم متردّدون بين الكفر والإيمان ، لا هم منسوبون إلى المؤمنين ولا إلى الكفار ، ولكنهم ضالّون مضلون ، ومن قضت مشيئة الله أن يكون ضالاً ، لعدم استعداده للهدى ، فلن تجد له طريقاً إلى الحق والصواب والهداية .

٣ — يأيها المؤمنون الصادقو الإيمان ، احذروا أن تتخذوا الكفّار أصدقاء وأنصاراً وأعواناً لكم من دون المؤمنين ، فإن هذا صنيع المنافقين ، فلا تتشبهوا بهم ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم بموالاتهم حجة على النفاق الذى يجب أن تبرءوا منه ؟ فمن يوال المنافقين يصِرْ شبيهاً بهم ، ويستحقّ ما يستحقه أهل النفاق .

٤ — إن المنافقين يُلْقَوْن فى أسفل طبقات النار ، لأنهم أخبث الكفار ، إذ ضمّوا إلى الكفر الاستهزاء بالإسلام ، وخداع المسلمين ، ولن تجد لهم نصيراً يشفع لهم ، بطلب تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، إلا الذين تابوا عن النفاق ، وأصلحوا ما أفسدوا من أعمالهم ، وأحوالهم ونياتهم ، وتمسكوا بأهداب دين الله ، وأخلصوا لله وحده دينهم ، فلا يُراءون ، ولا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ، فأولئك يُعدّون من المؤمنين ، وسوف يُؤْتِى الله المؤمنين أجرا عظيماً ، فينالون نصيبهم منه .

٥ — إن الله لا يُريد من عباده إلا أن يتشبثوا بالدين الحق ، ويتمسّكوا بأهدابه ، وهو إنما يعذّب الكفار لأنهم عصوا رسله ، واتبعوا أهواءهم ، فليس لله نفع فى أن يعذب عباده إن شكروا نعماءه ، وصدّقوا رسله ، لأنه الغنىّ المتعالى ، فلا يريد منهم رزقاً ، ولا يريد أن يُطْعموه ، كما قال فى سورة الذاريات ، فإذا أزال العبد من نفسه ما يخامر فؤاده من الجحود ،

والإصرار على الكفر ، واستبدل بهما الشكر والإيمان ، ونقّى نفسه من الفساد والطغيان ، وانضوى تحت لواء المؤمنين الصادق الإيمان ، استحق رضا الله وحسن الجزاء ، وكان الله شاكراً لعباده ، بإجزاله لهم الثواب على أعمالهم الصالحة ، عليماً بخلقه ، يعلم المفسد من المصلح .

١٩٥٤/٤٠٥٥

297.207:H23tA:v.1-5:c.1
برانق، محمد احمد
تفسير القرآن الكريم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01009913

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT